تاريخ بلاد الشام

في القرن التاسع عشر

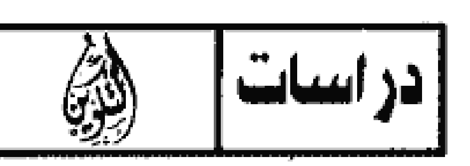
دراسة وتحقيق
الأستاذ الدكتور سهيل زكّار





تاريخ بلاد الشام

في القرن التاسع عشر



تاريخ بلاد الشام

في القرن التاسع عشر

دراسة وتحقيق

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار



للدراسات والترجمة والنشر

دمشق - حلبوني

تلفاكس 2236468 جوال 094330989

ص . ب : 11418

taakwen@yahoo.com

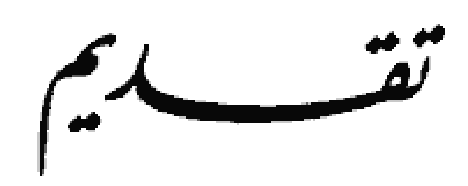
تاريخ بلاد الشام

في القرن التاسع عشر

روايات تاريخية معاصرة لحوادث عام ١٨٦٠م
ومقدماتها في سورية ولبنان

دراسة وتحقيق
الأستاذ الدكتور سهيل زكّار





تقديم

على رأس حقائق الحياة المطلقة يأتي الزمن . فالزمـن حال لـم يتوقف قط وربما لن يتوقف أبداً ؛ وأمام هذا الواقع وحتى يسهل علـى الانسان التعامل مع تيار الدهر الجارف المستمر . قام بتقسيم الزمن إلى ثلاثة أقسام اعتبارية هي : الحاضر . الماضي . والمستقبل . ونجد بين هذه الأقسام الثلاثة المستقبل مجهولاً مهمـا بلغت فراسة البعض ودقـة المخططين وتوقعاتهم ؛ والحاضر في الغالب ثقيل مرهق . يعيشه الانسان دون أن يدري على وجـه اليقين ما يأتي بعده . والحقيقة أنه إذا كان الحاضر مملاً متعبا في كثير مـن الوجوه . فإن المستقبل محاط بهالة من التوجس والترقب الحذر . يتطلع إليه الانسان برجاء وخوف، وأمل وخشية . واجتماع الأمل مع الخوف فيه مواجهة وتناقض وصراع . لذلك هو أدعى لتحمل المسؤولية والتعامل معـه بحذر لا يفوقه حذر .

ويبقى لدينا الماضي . وهو الزمن الذي نظن أنه انقضى . لذلك نقدر أنه يمكن الالتفات إليه . والعودة نحوه للنظر إلى ما وقع فيه من أحداث . نظرة فيها حنين . ولهفة ، وحسرة ؛ وهي نظرة نريدها أن تكون أيضاً فاحصة مقومة .

ومن المؤكد أننا عندما ننظر إلى الماضي وأحداثه . نفعل ذلك لأننا على صلة وثيقة به . ولأننا نتاج من نتاجاته . ونشكل ــ في كثير من الوجوه ــ جانباً أصيلاً من جوانب نجاحاته وانتصاراته أو انتكاساته ، ثم إن الانسان قد يرى في كثير من الأحيان أن ما أمضاه من حياته قد يكون أكبر مما سيعيشه في

المستقبل وعلى هذا الأساس نجد أن الماضي هو حياة الانسان ، وتراثه الذاتي ، وقاعدة حياته التي تساعده على الاستمرار والبقاء ، ولذلك فالانسان يعيش في عقله وأوقات صفوه مع الماضي أكثر من أي شيء آخر .

والنظرة إلى الماضي الذاتي القصير تقود نحو الماضي الأعم والأطول ، صحيح أننا نرى الماضي قد ذهب ، لكن ليس نهائياً في الحقيقة ، ذلك أن الحاضر وثيق الصلة بالماضي ، كما أن التخطيط للمستقبل لا يمكن أن يكون مجدياً إذا لم يستند إلى تجارب الماضي .

والانسان يلتفت نحو الماضي ، لا لحنينه إليه فقط ، ولا لصلته به فحسب ، بل يفعل ذلك لما جبل عليه من حب للاستطلاع ورغبة في اكتشاف المجهول ، والتزود بالثقافة والمعرفة، فمن المعروف أن جميع معارف الانسان هي من نتاج الماضي القريب أو البعيد ، وعليه فالانسان الأكثر ثقافة هو الذي نهل أكثر من نتاج الماضي ، ولا غرابة ، بعد هذا ، إذا قلنا إن كل شيء في حياتنا من ماض حاضر يسير نحو الأمام بإرادة ونواظم وعوامل تم ابرامها وإحكامها فيما سبق بأثر من الماضي القريب أو البعيد وربما السحيق أيضاً ...

ويسترجع الانسان صور أحداث الماضي عن طريق التذكر ، إما من ذاكرته الذاتية المباشرة : أشياء رآها ، أو صنعها ، أو شارك في صنعها ، أو قرأها ، أو سمع عنها مما تذكره الآخرون ، أو أبدعوه فرووا أخباره أو سجلوها أو دونوها.والإنسان ـ علىهذا الكوكب ـ هو المخلوق الوحيد ، الذي يملك المقدرة على ملاحظة الأشياء واستيعابها ، وفهم مضامينها والاستنباط منها ، ويملك ملكة التذكر ، أي لديه الأداة التي تستطيع تسجيل ما حدث أو ما تم تصوره واستنباطه ، مع أداة الذاكرة التي يستطيع بوساطتها استعادة صور أحداث رآها في الماضي ، أو توهمها أو سمع عنها ، أو قرأ

خبرها ، وهو وحده الذي يستطيع تحويل الخيال إلى مـادة مسموعة أو مرئية ملموسة .

ولكن ــ كما هو معروف ــ إن مقدرة التوهم والتخيل التصويري ؛ وملاحظة المشاهدات واستيعاب المرئيات والمرويات والمسموعات إنمـا هي مقدرة تتفاوت بين بني البشر ، وتختلف لدى كل انسان بين حين وآخر ، وذلك حسب الأحوال النفسية والمعطيات الاجتماعية والثقـافية والصحية ، مع مراعاة مسألة الزمان والمكان ، تبعاً للظروف أثناء وقوع الحدث ، وكذا الحال أثناء السماع والقراءة .

يضاف إلى هذا أن قوة الخيال ، ودقة الذاكرة ونقاءها تتفاوت لدى البشر ، ثم إن الذاكرة تتأثر لدى الناس بعدد من العوامل ، ويصيبها الضعف مع مرور الوقت ، والانسان يملك القدرة على تنظيم الذاكرة وتنهيجها ، ولديه أيضاً القدرة على تضليلها ، بل ربما على تزييفها .

وبالنظر إلى هذا كله ، وبالنظر لطاقات الفرد المحدودة فإن عملية تذكر أحداث الماضي تظل ناقصة ولا تغطي سوى بعض الجوانب، وعلى أيةحال فإن أعمال تذكر المشاهدات وروايتها وتدوينها وتنسيقها ودراستها ، ثم الاستفادة منها بما لها وما عليها ، هـو ما اعتـاد الانسان أن يطلق عليهـا اصطلاحاً إسم « التأريخ » .

بدأ البشر بتدوين التاريخ منذ أن وجـد الانسان العاقل على هـذا الكوكب ، أي منذ بضع مئات الآلاف من السنين ، فمنذ ذلك الحين اعتـاد الانسان بعد صنعه للأحداث أن يقوم بتذكرها ، ورواية ذكرياته أو تدوينها ؛ وحيث أن هذا قد سبق تاريخ اختراع الكتابة ، فإن الانسان الأول الذي لم يعرف الكتابة دوّن ذكريات بعض ما حدث معه ، أو شاهده على شكل رسوم

على جدران كهوفه الأولى ، أو قام بروايتها شفوياً ، جيلاً بعد جيل إلى أن جاءت العصور التي اخترع الانسان فيها الكتابة فدونها ، ونجـد في كتب الديانات واللاهوت وما لف لفهما مادة لا بأس بها من هذه الروايات .

وبعد ما اخترع الانسان الكتابة أخذ يدون أخبار الأحداث التي رآها جديرة بالتدوين ، أو وجد فرصة لتدوينها ، وعلى العموم نجد الانسان في جميع أحواله لم يرو خبر إلاّ بعض ما حدث معه ، وجاء هذا البعض أيضاً ناقصاً لا يغطي إلاّ جانباً من أعمال الانسان ، ويترك الجوانب الأكبر ، وقد تكون هي الأعظم ، والأهم .

ولما كان الحاضر مرتبطاً بالماضي متأثراً به عظيم التأثر وأعمقه ، ولما كانت معرفتنا بالماضي وأحداثه مجزوءة مبتورة ، فإن فهمنـا للكثير من أحداث الحاضر وبالتالي المستقبل سيكون مجزوءاً ومبتوراً ، ومع ذلك كثيراً ما يندفع الناس نحو دراسة أحداث الماضي ، أو ما دعوناه باسم « التأريخ » بشوق وحنين ولهفة ، ربما للبحث عن أشياء لم يجدوها ، أو أجوبة لمسائل لم يعثروا على حلّ لها في حاضرهم ، كما أنهم يندفعون لتحكم رغبة اكتشاف المجهول في أنفسهم ، ذلك أن في التاريخ خبر كل شيء يريده الانسان ، ولعظمة هذا الشيء الحاوي لخبر كل شيء ، نرى الناس قد أحاطوا الماضي بهالة خاصة ، وقلة منهم هم الذين يندفعون نحو دراسة الماضي دون تصور سابق له شبه خيالي ، وربما وهمي أو اسطوري أيضاً .

وكمحصلة لما سبق ، وبناء عليه، صار علينا أن نضع في الحسبان دائماً أن أخبار الماضي التي وصلتنا لا تروي إلاّ قسماً صغيراً جداً مما حدث فيه ، وأن هذا القسم قد وصلنا وهو معدّل ، محرّف ، فيه أوهام وأساطير ، وهنا ينبغي التمييز بين التاريخ الصحيـح ، والتاريخ المرغوب المتوهـم ، والاسطورة ،

والتنبه إلى أن الطبيعة البشرية تميل إلى الأخذ بالأسطورة وتصديقها أكثر من تصديق الواقع المؤلم والمرير في غالب الأحيان .

في الماضي جعل من السهل ، أو فرض على الماضين تصديق ورواية أخبار فيها أساطير وأوهام ، ذلك أن طبيعة العصور الماضية ، ودرجة التقدم والثقافة سمحت بذلك ، لأن الأمور الغيبية والايمان بها إلى حد إلغاء العقل والمنطق ، مع تصور الممكن وغير الممكن ، كانت سائدة يدعمها بشكل مستمر، ويثبتها بصورة دائمة تحالف رجال الكهنوت والسلطان .

لكن لما كان العقل والفكر العلمي المنظم هما المسيطرين على العقل البشري في أيامنا هذه ـ لأننا نعيش ظروفاً حضارية متميزة تماماً عما سبقها ـ فقد باتت عمليات دراسة التاريخ في عصرنا هذا تختلف تماماً عما كانت عليه في الماضي ، حتى غدت فناً مستقلاً واختصاصاً قائماً بذاته .

وتطور البحث في التاريخ من عمل يهتم برواية أخبار بعض أحداث الماضي ، إلى علم قائم بذاته ، تربع لأهميته على عرش العلوم الانسانية ، حتى بتنا نرى عدد المقبلين على دراسة التاريخ والمهتمين به ضخماً للغاية ، وغدا هذا العلم مادة رئيسية تدرس في جميع مراحل الدراسة ، كما بات اختصاصاً يحترفه بعض الناس بعد دراسة أكاديمية طويلة ، ونحن نرى اليوم أعداداً ضخمة من الطلاب يتعلمون ممارسة هذا الفن ، وعدد هؤلاء التلاميذ في جامعات بلد ما يفوق عدد جميع من كتب في التاريخ خلال ماضي البلد كله ، ويتعلم الطلاب في المعاهد والجامعات مناهج للبحث العلمي ، ويدربون على طرائق تقودهم نحو الوصول إلى أقرب النقاط من حقيقة ما حدث ، ويزودون بقسط وافر من المعلومات المصنفة بشكل منهجي ومن الأمثلة والشواهد . وأول ما يطلب من الطلاب الحياد ، والتحرر من كل الميول والصور السابقة والرغبات والأوهام ، وحتى يحققوا ذلك ينصحوا بالتفتيش عن أصول الأشياء،

والبحث في جذور العادات والعقائد والأساطير والأفكار الموروثة ، ومن ثم العمل في سبيل التخلص من جميع تأثيراتها المعطلة للبحث العلمي ، والمعوقة للمنهج المنطقي المتحرر .

وعندما ينهي الطالب دراسته الجامعية ، يمنح شهادة تثبت أنه احترف التاريخ واتخذه صنعة له ، ولكن على الرغم من نيله لهذه الشهادة ، فإن ذلك لا يعني أبداً أنه أصبح مؤرخاً أو حتى باحثاً في التاريخ ، بل كل ما في الأمر أن الشهادة تخوله تدريس مادة التاريخ في إحدى المدارس السابقة للمرحلة الجامعية ، وذلك اعتماداً على كتاب مقرر .

إن من المعلوم أن دراسة التاريخ مسألة اعتمدتها جميع الأمم في العصر الحديث ، ورأت في هذه الدراسة الأداة الأهم والأخطر في نجاح الخطط الهادفة لصنع المستقبل ، كما رأت أشياء أخرى ليس هذا المقام مناسباً لتعدادها .

وبعدما ينال طالب التاريخ شهادته الجامعية الأولى قد يتابع دراسته وتحصيله حتى ينال شهادة عليا ، وذلك بعد اعداده لبحث مبتكر في التاريخ ، وهنا نؤكد مرة أخرى أن حمل الشهادة العليا لا يعني أن حاملها أصبح مؤرخاً ، بل إن ذلك يعني البرهنة فقط على المقدرة على إعداد بحث ما في التاريخ تحت إدارة موجّه ، وليس على العلم والاحتراف الكامل المانح لسمعة المؤرخ ، ذلك أن الوصول إلى هذه المرتبة يحتاج إلى جهد كبير متواصل وعبقرية وابداع ونفاذ نادر ، وخيال وتوهم منطقي منظم ، ومعارف عامة، وهذا ما لا يتيسر إلاّ لعدد ضئيل من الناس،ولذلك كان عدد المؤرخين في عصرنا قليلاً للغاية إنما عدد الباحثين كبير ، والأبحاث عديدة ومستمرة .

لقد وجدت في الماضي حركات تدوين لأخبار الأحداث ، وتمت أعمال التدوين في الغالب على أيدي أناس ندعوهم الآن باسم « المصنفين المؤرخين »

ومثل هذا الصنف من الناس ما زال موجوداً ، وأعماله قائمة وتتاجه مستمراً ، لذلك من الملاحظ أن أعمال البحث في التاريخ وتدوين أخبار الماضي في عصرنا هي على العموم مؤلفة من فئتين : منظمة منهجية واعية ، وغير منظمة فيها الكثير من التشويش والفوضى .

وعلى العموم تختلف أعمال التدوين التاريخي الماضية عن حركات عصرنا وأعماله ومناهجه ، فمؤرخ العصور المنصرمة اهتم بالحدث السياسي البحت أولاً وآخراً ، ودوّن تاريخ أعمال الحكام والشخصيات الدينية والسياسية الكبرى ، واهتم بأخبار حياتهم وأهمل سواهم خاصة من الجماهير، والتاريخ الآن بالنسبة لنا هو تاريخ الأمم والشعوب لا تاريخ «الرسل والملوك» وهو حدث اقتصادي ، أو اجتماعي ، أو عقائدي ، أو عسكري ، أو ديني ، يأخذ من حيث النتيجة العامة بعض الصور السياسية . وعلى هذا فإن الحدث السياسي محصلة لأسباب هي في الغالب غير سياسية ، ومن المقرر دائماً أن السبب أهم من المحصلة .

يضاف إلى هذا كله أن « المؤرخ المصنف » الذي عاش في العصور الماضية غالباً ما سجل أحداث التاريخ ودونها على شكل روايات هي أقرب الى المادة الخام ، على الرغم من أنها قد تمثل وجهة نظر معينة ، أو تروي الخبر من زاوية محددة .

ويملك الانسان المعاصر الذي التقت ثقافات أممه ببعضها البعض وتفاعلت ، يملك من الوسائل والامكانات ما يساعده على القيام بتحقيق ما أخفق الأوائل بالوصول إليه ، ويمكنه من تجنب الانحراف ، ويمنعه من الوقوع به ، لكن على الرغم من كل هذا، يبدو أن بعض الانحراف أمر لا مفر منه ، فانساننا الذي يدرس الآن التاريخ مدعياً التحرر من سيطرة العقائد السابقة ، قد يفعل ذلك وهو تحت التأثير المباشر لمذاهب عصرنا ونظرياته وأفكاره

وعقائده ومقاييسه ، ولذلك يرى البعض أن جميع الكتابات التاريخية المعاصرة لا تتحدث عن الماضي ، ولا تصور حقيقة ما وقع فيه ، وإنما تمثل تصوراً هادفاً لمشاكل الحاضر في قشب وصور ماضية ، وإذا صح هذا فهي ليست بتاريخ ، وهذا يقود قبوله إلى الاعتقاد إلى أنه لا يوجد في عصرنا كما لم يوجد في السابق شيء إسمه « تاريخ للماضي » ، ويؤيد هذه الدعوة أن الانسان الباحث أو المصنف إذا ما تحرر من السيطرة المباشرة للعقائد الماضية ، فهو لن يتحرر من تأثيراتها غير المباشرة ، ثم إن قضايا الشعور بالتحرر هي أمور نسبية صعب قياسها والتأكد من فاعليتها . وهنا مهما تكن الأدلة المنطقية لهذه المقولة ، فإن الادعاء بعدم وجود تاريخ للماضي قول فيه تطرف كبير ، ومغالاة شديدة ، والذي يحسن أن يقال هو : إن الأبحاث التاريخية ، خاصة الحديثة منها على اختلاف أنواعها ، تصور فهم كتابها للماضي ، في مرحلة من مراحل حياتهم ، حسب إرادة هادفة ، وتحت وطأة ظروف تلك المرحلة وإرادة ذلك الهدف من جوانب خاصة وعامة ، ومهما كان هذا التصور فإنه قائم على روايات أخبار الماضي ، ومنطلق منها ، وهو ليس ابداعاً من لا شيء ، على أن محصلاته ليست حقائق مجردة ، بل حقائق نسبية ، لأنه ليس في الوجود حقائق مجردة .

إن هذا الفهم والتصور لا يجوز التوصل إليه اعتباطاً بلا قوانين ولا قواعد ، بل ينبغي له مناهج علمية وأدوات منطقية ، وفي أيامنا هذه إذا ما دخل الانسان إلى دار لبيع الكتب يدهش لكثرة الكتب التاريخية المعروضة للبيع ، لكن إذا ما تفحص هذه الكتب يجدها : إما أنها قد وضعت في الماضي وتم الآن تحقيق نصوصها ونشرها ، وإما أنها قد كتبت في العصور الحالية ، ونشرت تحت اشراف مؤلفيها ، ومرة ثانية إذا ما تعمق المرء في فحص مؤلفات العصور الحاضرة وحتى الكتب المحققة يجد أنها قد صنفت [أو حققت] من قبل نوعين من الكتاب : هواة ، ومحترفين ، فنحن إذا ما حصلنا على كتابين

حول موضوع واحد : أحدهما لهاوٍ والآخر لمحترف للتاريخ وقارنا بينهما ، فإننا في الغالب سنجد أن كتاب الهاوي أسلس عبارة ، وأكثر اثارة للعاطفة والغرائز ، ليس فيه ما يتعب ، بل فيه ما يرفه عن النفس ويمتعها ، فهو على هذا فاقد لروح المسؤولية ، معدوم الغاية العلمية ، ونجد في نفس الوقت كتاب المحترف أصعب لغة ، وأجف عبارة ، يعتمد على العقل ، ويلتزم بالمنطق ، وينهج طريق الاقناع ، كلماته موزونة ، كل واحدة أخذت مكانها ولها معناها الهادف المسؤول . هذا وإن عمليات الاقناع أصعب بكثير من عمليات الاثارة ، وأشق من استدرار العواطف ، وقديماً قيل : « حفت النار بالشهوات وقيد الناس إلى الجنة بالسلاسل » .

ونظراً لخطورة التاريخ ومؤثراته اللامحدودة على الشعوب ، باتت عمليات الكتابة التاريخية تستلزم مسؤوليات كبيرة للغاية ، إذا لم تراع بدقة تسبب الكثير من المضار ، وينشأ عنها العديد من المشاكل ، خاصة لدى « الأمم المتخلفة » ذات المواريث التاريخية المديدة والسائدة بينها أنواع متباينة من المذاهب والعقائد والديانات ، ولما كانت كتابات الهواة وأعمالهم تقوم أساساً على الاثارة العاطفية ، وتبتعد عن تصوير الوقائع بشكل منطقي منزه وحيادي دقيق ، فهي بالتالي لا تعرف المسؤولية ، ولا يهتم أصحابها بها ولا يرعونها ، لذلك ينبغي الابتعاد عنها وعدم تشجيعها ، والأخذ فقط بطرائق المحترفين ، وقراءة كتاباتهم .

وهنا يتساءل المرء : كيف يمكن لي أن أكون محترفاً للتاريخ ؟ إن الاجابة على هذا السؤال تحتاج إلى وقت طويل وشروح كثيرة ، وليس هذا بالمستهدف في هذا المقام ، لذلك لعله يكفي أن نعيد إلى الذاكرة ما سبق قوله من أن الانسان يحترف التاريخ حين يتخصص به في دراسته الجامعية ، كما يمكن ذلك أيضاً حينما يتعلم كيف يستخدم المنطق في التفكير والمحاكمة

العقلية ، وعندما يتعلم كيف يراقب أهواء نفسه ، ويكبح ميولها ، ويجبرها على الحياد ، وعندما يكوّن لنفسه قاعدة ثقافية واسعة بها شيء من الشمول لمختلف المعـارف الانسانية العامة مع كمية عظيمـة متنامية من المعلومات التاريخية المتنوعة والمتخصصة ، مع معرفة جيدة بالعديد من مذاهب الفكر والعقائد ومناهج العلماء وطرائقهم في البحث والعمل والتفكير .

يضاف إلى كل هذا : أن أول شيء على الانسان تعلمـه حتى يصبح محترفاً للتاريخ هو أن يعرف مؤمناً أن التاريخ الآن هو علم مثله مثل بقية العلوم له : موضوعه ، وقوانينه ، وغاياته .

وموضوع التاريخ هو : الأحداث التي وقعت في الماضي، وهذه الأحداث متنوعة بتنوع قوى الانسان وغرائزه وشعب حياته ، وهنا ينبغي التنبه إلى أن كل ما صنعه الانسان من صغير أو كبير هو حادث تاريخي وإلى أنـه لا يوجد في التاريخ حوادث نادرة ، لأن كل حوادث الماضي هي من صنع بشر عاديين .....

ودون إطالة الوقوف عند مسألة قوانين البحث التاريخي ، تكفي الاشارة إلى أن بعض أصحاب مذاهب تفسير التاريخ وتعليله يرون أن للتاريخ قوانين ثابتة وقواعد حتمية النتائج مثل بقية العلوم ، لكن هؤلاء وإن اتفقوا على هذه الفكرة ، فقد اختلفوا على تحديد ماهية كـل واحد من القوانين أو القواعد ، واختلافهم هذا ينفي فكرة وجود قوانين ثابتة « للتاريخ » تشابه قوانين العلوم الأخرى . على أن عدم وجود هـذه القوانين الثابتة لا ينفي بتاتاً عن التاريخ صفة العلم ، خصوصاً إذا أدركنا أن عصرنا بات يرفض الآن الاعتراف بوجود أية قوانين غير خاضعة للتغير لأي علم من العلوم ،خصوصاً إذا ما أدركنا أيضاً أن طبيعة مضامين علم التاريخ تختلف عن طبيعة مضامين العلوم الأخرى ، مثل الاختلاف بين الحياة والموت أو بين الجمودوالحركة ؛

فالتاريخ علـم محـوره أعمـال الانسـان ، والانسان هـو كائـن حـي ليس كبقية الكائنات الحية وغير الحية ، ومحال اخضاعه أو اخضاع قواه وتصرفاته وأعماله لقواعد وقوانين ثابتة ، والانسان هـذا المخلوق العجيب الجبار فيه طاقات وقوى غير محدودة ، وغير معروفة بشكل كامل بعد ، وما أظنها ستعرف كلها أو ستحدد أبداً .

هذا وإذا لم يكن للتاريخ قوانين ثابتة وقواعد حتمية النتائج ، فإن له قوانين للبحث ، وقواعد للتعليل والتحليل توصل الى الغاية المنشودة للعلم . ومن جديد لا أرى المقام مناسباً للتوسع في هذا المطلب ، لذلك سأتحول نحو القول بأن من غايات علم التاريخ البحث عن أسباب الأحداث ، وتحليل الوقائع وتركيبها ثم تبيان النتائج المباشرة والبعيدة لكل حادث وفهمها ، وعلينا أن نستدرك هنا أن دراسة التاريخ لم تعد ــ الآن ــ تكتفي بدراسة الأحداث : كيف وقعت مع الأسباب والنتائج ، بل أصبح من غاياتها دراسة النظرة إلى الأحداث والاستفادة منها ، وهو ما يعطي الذريعة ويهب العبرة والدرس .

ونعود الآن ثانيـة إلى التذكير ــ وسط زحام العمل التقني للبحث التاريخي ــ إلى أن علم التاريخ بات بمضامينه أخطر العلوم ، وأعظمها أثراً على الانسان ، لذلك تقبل جماهير القراء في كل بلدان العالم على مطالعة كتب التاريخ ، أكثر من سواها ، ونراها تتحدث عـن التاريخ ووقائعه وأحكامه أكثر من أي شيء آخر ، ونظراً للمكانة التي حظي بها هذا العلم فإن البحث فيه قد قطع أشواطاً بعيدة في تطويره ، وأدى ذلك إلى قيام عدد كبير من المدارس لتعليل أحداثه وتفسيرها ....

ولعل شعوب العالم الثالث هي أكثر شعوب العالم تأثراً بعلم التاريخ ، فهذه الشعوب التي تعمل من أجل الغد الأفضل المتحرر ، وتكافح في سبيل معرفة ذاتهـا وماضيها وامكانياتها وتأكيد تحررها واستقلاليتها ، تجـد في

التاريخ الخاص والعام أجوبة ناضجة لكل احتياجاتها ، والعودة المستمرة للتاريخ تكشف أمام هذه الشعوب آفاقاً خطيرة للغاية وأسراراً مذهلة ، كلها تبرهن على أن التاريخ أخطر سلاح يمكن أن يستخدم من قبل الشعوب لتحرير ذاتها وصنع مستقبلها الموحد المستقل المتحرر ، وفي نفس الوقت من قبل أعدائها لجعلها غير واثقة بقدراتها وامكاناتها ، والتأكيد على أنها بحاجة دائماً إلى رعاية ووصاية عليها من قبل سواها .

ولعل خير ما يوضح هذه المسألة هو استعارة بعض الأمثلة من الكتابات التي قامت حول التاريخ العربي ، نقول أمثلة فقط لأن هذه قضية كبيرة أرجو أن أقف عليها بدراسة خاصة ، فنحن إذا ما تناولنا أية دراسة صنعت خارج الوطن العربي حول التاريخ الاجتماعي والعقائدي والسياسي للأمة العربية، لا نرى في هذه الدراسة إلا الحروب والفتن والصراعات، حتى ليخيل للقارىء أن التناقضات جزء لا يتجزأ من أوضاع العرب الاجتماعية وكذا عدم الاستقرار والتنافر والصراعات الداخلية الدموية ، وطبعاً إن هذا يقود إلى هدف مرسوم لأعداء العرب وهو القول بأن العرب : لم يكونوا قط أمة واحدة بل عدة أمم، ولم يملكوا مجتمعاً واحداً بل مجتمعات متباينة متصارعة ، ولم يملكوا عقيدة واحدة جامعة بل عقائد متنافرة متعادية ذات مشارب مختلفة ، ومحصلة هذا أن العرب لم يتحدوا قط في الماضي ، وبالتالي لا يمكن أن يتحدوا لا في الحاضر ولا في المستقبل ، وهكذا استخدم التاريخ من قبل أعداء الأمة العربية وسيلة مؤثرة وسلاح فتاك لغير صالح الوحدة العربية بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح .

ومثل آخر يوضح بعض الجوانب الأخرى ويمكن أن نراه في الدراسات التي قامت في أوربة الغربية حول تاريخ الحروب الصليبية ، ففي الوقت الذي تحركت فيه أوربة لاستعمار الوطن العربي كتب الغربيون عن تاريخ «الحروب الصليبية » فتحدثوا لشعوبهم وللعالم وحتى للشعب العربي عن وجود مصالح

تاريخية لأوربة في الشرق مع روابط بين شعوب أوربة وشعوب الشرق حتى أن الفرنسيين تحدثوا عن وجود « فرنسبين » فيما وراء البحار في الشرق ، وصدق بعض المشارقة ذلك ، وفي تاريخ لبنان الحديث البرهان الشاهد على صحة هـذا ٠٠٠٠٠

وظل الحال هكذا حتى نهاية الحرب العالمية الثانيـة ، وهنـا راج في أوربة تيار قوي ينادي بالوحدة الأوربية الجماهيرية ، وفتش الأوربيون في كتب التاريخ عن فترة اتحدت فيها أوربة في الماضي بشكل جماهيري فلـم يجدوا غير فترة الحروب الصليبية ، ذلك أن الوحدة في العهد الروماني لم تكن كاملة ، وتمت عن طريق الفتح العسكري وقامت في ظـل حكم امبراطوري ، لامبراطورية حكمت أجزاء كبيرة من آسية وأوربة وأفريقية ٠

ومن جديد بدأ الاهتمام بتاريخ الحروب الصليبية وخرجت توجيهات جديدة للمؤسسات المشرفة على شؤون التربية بأن يتم التخلي تدريجياً عن تدريس تاريخ الصراعات القومية الأوربية [الحروب بين فرنسة وانكلترة ـ الحروب بين فرنسة وألمانية ٠٠٠] في المدارس والمعاهد ، ويستعاض عن ذلك بتدريس تاريخ الحروب الصليبية ٠

هذا من جانب ومن جانب آخر إن دراسـة تاريخ الحروب الصليبية تمكّن من معرفـة أسباب نجاح الغـزاة الفرنجة أولاً واخفاق العرب في التصدي لهم ، ثـم اخفاق الفرنجة في البقاء في الشرق وتمكن العرب مـن اقتلاعهم وتصفيتهم ٠

ونظراً لقيام اسرائيل والاحتلال الصهيوني لفلسطين والتشابه الكبير بين مأساة اليوم والماضي ، ثم لكون الباحثين في غالبية مراكز الاستشراق في العالم من اليهود الصهاينة ، فقد ازداد الاهتمام في أوربة بدراسة تاريخ الحروب الصليبية ، واستفاد أعداء العرب وما زالوا يستفيدون من هذه الدراسة ٠

أما على صعيد الوطن العربي فإن دراسة الحروب الصليبية كانت شبه محظورة في جامعات الوطن العربي ، وما تزال كذلك ، وإن وجدت فالأبحاث المعتمدة تم صنعها في أوربة وتصديرها إلينا ، وحتى الآن لم يكتب العرب عن تاريخ هذه الحروب اعتماداً على المصادر العربية ومن وجهة نظر عربية علمية هادفة .

إن هذا يثير مشكلة التاريخ العربي وكتابته ، وهي قضية بحثتها في عدد من المقالات أسعى الآن لجمعها وإخراجها في كتاب خاص ، لذلك من المهم أن نشير هنا إلى أن التطور الذي ألم بعلم التاريخ لم يكن على صعيد التحليل والتفسير والمعالجة فقط وإنما على صعيد تعدد فروع موضوعات هذا العلم، وتحديد قواعد التخصص به ، وهكذا غدا الباحث في التاريخ في أيامنا يختص بالجوانب الحضارية ، أو الاقتصادية ، أو التشريعية ، أو العقائدية ، أو الحربية أو الاجتماعية ، أو السياسية بشكل عام ، كما ضاق ميدان التخصص من العام إلى الخاص فصار محدوداً في فترة من الفترات أو منطقة من المناطق ، وحين يغرق الباحث نفسه في ميدان تخصصه ، قد يجد نفسه بعد فترة أسير المعرفة الخاصة في عصر وبيئة تشجع على التخصص لكنها تتطلب معارف موسوعية في ذات الوقت .

ففي العقدين الماضيين وقفت جل وقتي على البحث في تاريخ العرب والاسلام في العصور الوسطى ، وكنت أجد نفسي بين فينة وأخرى أكاد لا أعرف الجذور المباشرة لمشاكل حاضرنا ، حاضرنا الذي تفرض مشاكله على كل مواطن الاستغراق بها بشكل من الأشكال ، لهذا شعرت بحاجة ماسة إلى استراحة مؤقتة ، ولو لأسابيع ، أفر بها من الماضي إلى الحاضر ، رغم أن الناس يفعلون العكس فيفرون من الحاضر إلى الماضي .

وهكذا عندما عرض علي أخي الاستاذ عبد الهادي حرصوني نسخة

من « كتاب مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان » للدكتور مخائيل مشاقة ، وأبدى رغبته في إعادة طبع هذا الكتاب أعلنت لـه عن استعدادي النظر في نصه لضبطه ومراجعته والاشراف على طباعته ووضع فهارس علمية له •

إن كتاب الدكتور مشاقة قد طبع للمرة الأولى سنة ١٩٠٨ في القاهرة ، وأشرف على طبعه : ملحم خليل عبدو ، وأندراوس حنا شخاشيري ، وكلاهما لبناني الأصل ، وجاء عملهما في الكتاب ليس على مبدأ التحقيق ، وإنما قاما باعادة صياغة نصه تحت دعوى أن لغته ليست بالمستوى !•••• وحين أعادا صياغته أضافا له مقدمات وزيادات كبيرة ، وعلى هذا فإن أصل مواد كتاب «مشهد العيان» للدكتور ميخائيل مشاقة، لكن اخراجه بشكله الحالي شاركه فيه السيدان عبدو وشخاشيري ، وبذلك فإن كتابنا من تصنيف ثلاثة مصنفين وليس واحد فقط •

ليس بودي الحكم بشكل تفصيلي على عمل السيدين عبدو وشخاشيري، إنما كنت أتمنى لو أنهما حافظا على كتاب الدكتور مشاقة بلغته وتعابيره ، فالفائدة آنذاك منه أعظم وأجل ، ويقينا الكتاب بغنى عن جميع الاضافات والتعديلات التي أدخلاها على نصه ، لكن هـذا ما حدث ، والباحث يتعامل مع ما حدث لا مع ما يتمنى فلا مكان لـ « لو » في التاريخ •

لقد قاما بالترجمة لميخائيل مشاقة وأسرته بشكل مفصل فيه كفاية وغناء، كما قدما للكتاب بمقدمة عن لبنان أرضاً وسكاناً وتاريخاً ، وهذا العمل مع ما جاء في ثنايا الكتاب عبارة عن محاولة لتأكيد وجود كيان مستقل اسمه « لبنان » مع خلفيات وأسس تاريخية ، لكن حرارة « الوطنية » لديهما هذه جاءت «محتويات الكتاب» رداً قاطعاً عليها ، وأنه ليس هناك كيـان مستقل اسمه « لبنان »، فلبنان كان ومايزال قطعة من بلاد الشام، أحداثه جزء من أحداث

هذه البلاد ـ ولننتبه إلى عبارة بلاد وليس بلد ـ كما أن أحداث بلاد الشام جزء من أحداث الوطن العربي ، لأن بلاد الشام كانت وما زالت بمثابة القلب لهذا الوطن .

يؤرخ كتابنا لحوادث وقعت في « لبنان » والشام كجزء من أراضي الامبراطورية العثمانية منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر وحتى ما بعد العقد الأول من النصف الثاني للقرن التالي ـ التاسع عشر ـ وجل حوادث الكتاب ترتبط بالصراعات المحلية داخل لبنان بين رجال الاقطاع ، هذه الصراعات التي صبغت باللون العشائري والطائفي وكانت ذات جذور غير عشائرية وطائفية بحتة ، جاء سرد أخبارها مجالاً رحباً للسيدين عبدو وشخاشيري للتعليق والتفسير ، وأثناء تأدية ذلك حاولا اتخاذ موقف الانصاف والحياد تحت شعار « الوطنية » وضمن إطار العقلانية والتحرر ، لكن يلاحظ أنهما لم يفلحا ، فأي وطنية هذه ......؟ الانتماء الوطني إذا لم يكن للوطن العربي كله هو انتماء إقليمي مرفوض ، يقود الأخذ به نحو بؤر أشد سوءاً وأكثر خطورة ، ولهذا نلاحظ أنهما وهما يعلنان الحرب على الطائفية يفعلان ذلك بروح طائفية مارونية ، وعجباً لهذا فهل يغسل الدنس بالدنس ...؟

لقد وجها اللوم بشكل مستمر للعثمانيين ووضعا المسؤولية على ادارتهم السيئة ، والادارة العثمانية لا شك أنها كانت في بلاد الشام سيئة بشكل عام ، لكن الأسوأ منها النظام الاقطاعي العشائري الذي سيطر على لبنان وما زال يسيطر ، فهذا النظام هو أصل البلاء ، وهو في الماضي كما في الحاضر سبب العديد من الحروب الأهلية والمذابح الدينية البغيضة ، وأدى إلى تدخل القوى الاستعمارية الطامعة في لبنان وبلاد الشام .

ومسألة تدخل القوى الاستعمارية وعلى رأسها كل من فرنسا،وانكلترة وروسية مع البعثات التبشيرية كان له الدور الأساسي في تحويل أشكال

الصراعات خاصة في جبل لبنان ، ففي السابق كانت الصراعات حزبيةاقطاعية بين ما عرف بالقيسية واليمانية ، وكان الانتماء في هذه الصراعات إلى الحزب ورجل الاقطاع وليس إلى العقيدة الدينية ، والمبشرون مع البعثات القنصلية هم الذين جعلوا الصراعات تأخذ الشكل الديني ، فمنذ زمن بعيد وضعت الخطط لتمزيق الشعب العربي في بلاد الشام وغيرها عن طريق النعرات والضغائن الدينية ، وهنا ينبغي ألا يفوتنا في هذا المقام دور الحركة الصهيونية ورجالاتها من اليهود •

وحينما لاحظت أن الكتاب الذي نقدمه قدم الأخبار من زاوية خاصة رؤيتها قد خضعت بشكل مباشر تارة وغير مباشر تارةأخرى للتفسير الطائفي، وألغت الصور الاجتماعية والاقتصادية العامة مع المشاعر القومية ،وتغاضت عن دور القوى الاستعمارية الطامعة ، واعتبرت ذلك شيئاً مسوغاً وله سمات خيرّة ومنافع شاملة رأيت أنه يحسن إلحاق الكتاب بعدد من الملاحق خاصة عن حوادث ١٨٦٠ ، ليحصل القارىء على صورة فيها بعض التوازن •

وعلى هذا الأساس ألحق الكتاب بأربع ملاحق هي عبارة عن منتخبات تاريخية معاصرةاختير الأول منها من كناش ـ مذكرات ـ «محمد أبو السعود الحسيبي » وكان الحسيبي من أعيان دمشق وأشرافها ، يسكن في محلة القنوات ، وحين وقعت مذابح ١٨٦٠ كان شاباً شهد الأحداث وسمع بقية الوقائع ، وقد اعتقل بعد انقضاء الحوادث ومكث في السجن فترة من الزمن، شهد فيها أعمال التنكيل التي حلت بمسلمي دمشق ورجالات المدينة على يد الأتراك إرضاء لفرنسة ، ووسيلة للضغط عليها حتى تسحب قواتها من لبنان بعد اقترافها لمذابح كبيرة •

وبعد ما خرج الحسيبي من دمشق ، عاد إلى المشاركة في نشاطات

دمشق ، وقد انتخب عضواً في المجلس البلدي للمدينة كما ولي نقابة الأشراف فيها ، وقد توفي في دمشق سنة ١٩١٤ م .

كان الحسيبي شبه عامي ، يلم بمبادىء القراءة والكتابة ، لا يعرف من الفصحى إلا القليل ، ومع هذا فقد دون « كناشاً » عن مشاهداته ، قدم فيه مادة وثائقية ، خاصة عن حوادث ١٨٦٠ وما تلاها ، وتوجد نسخة هذا الكناش المخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٤٦٦٨) عام فيها ٦٤ ورقة مسطرة كل منها ١٤/١٩ سم وفيها حوالي ٢٣ سطر ، وقد كتبت المخطوطة بخط نسخي متلاصق الأحرف ، وبلغة عامية صعبة الفهم والقراءة، وقد تم نشر الجزء الأكبر من هذه المخطوطة فيما بين عامي ١٩٦٨ — ١٩٦٩ في مجلة الأبحاث الصادرة عن الجامعة الأمريكية في بيروت في الأعداد : ٢١ — ٢٢ من قبل كمال صليبي ومساعدة عبد الله حبيب .

وقد انتخبت من هذا الكناش ما ارتبط بحوادث ١٨٦٠ ، لكنني اضطررت مسايرة لمنهج الكتاب الذي نقدمه ، وحتى يسهل فهم الرواية إلى تعديل الصياغة ، أو بالحري إلى ترجمة ما كتبه الحسيبي إلى شيء مفهوم مع الاحتفاظ بكلماته حين يمكن الاحتفاظ بها ومراعاة الدقة في المعنى والأمانة المطلقة ، ولهذا سيلاحظ القارىء أن نص الحسيبي ليس الآن بالعربية الفصحى لكنه بعربية مفهومة .

وفي الحقيقة إن هذا هو حال الملحقين الثاني والثالث .

أما الملحق الثاني فقد انتزع من كتاب نشر في بيروت سنة ١٩٥٢ بعنوان : « الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية » وهذا الكتاب كما وصف على غلافه عبارة عن «شهادة درزية صريحة ... تلم بحوادث لبنان وأحواله» أدلى بها حسين أبو شقرا ، الذي ولد في عماطور إحدى المراكز الدرزية في

والملحق الرابع يختلف عن سابقيه مادة ومؤلفاً وهو نص انتزعته من كتاب « الترجمانة الكبرى ـ في أخبار المعمور براً وبحراً » لأبي القاسم الزياني [١١٤٧ ـ ١٢٤٩ هـ / ١٧٣٤ ـ ١٨٣٣ م] الذي سفر أكثر من مرة لبلاده إلى استنابول ، والزياني كان من كبار شخصيات الدولة العلوية في المغرب الأقصى سياسياً وثقافياً ، ولا شك أنه كان مؤرخها الأعظم شأناً وتتاجاً، وقد قصد الزياني ديار الشام بقصد الحج ، فوصف طريقة من استنابول إلى بلاد الشام ، كما وصف كبريات مدن الشام التي مرّ بها ، وقضى حجه ثم سافر إلى مصر ، ومن هناك عاد ثانية إلى الحجاز ، وأثناء تأديته الفريضة مجدداً ، التقى بأحمد باشا الجزار الذي كان أميراً للحج الشامي وكان يسعى لاعلان نفسه « مهدياً » ولا شك أن هـذا يلقي المزيد من الأضواء على شخصية الجزار ، التي احتلت الجزء الأكبر من بدايات الكتاب الذي نعيد نشره •

من خلال حوادث كتابنا هذا وملاحقه نرى كيف أن الصراعات المحلية المستمرة كانت وراء عدم استقرار مفهوم ملكية الأرض والاستقرار الاجتماعي والسياسي في لبنان ، فكم من أسرة للزعامة ابتلعتها الأحداث ، وكم من فئة كانت تسكن هذه القرية أو المنطقة ، أجبرتها الصراعات على الجلاء إلى مكان آخر إن لم يكن قد حل بها الفناء •

إن نص الكتاب بين يدي القارىء منه يستخرج ما يشاء وعلى أساسه يكوّن التصورات والأحكام ، وهذا حق للقارىء لا أريد التدخل فيه ، فأنا أؤمن بطريقة سقراط في التعليم ، أشير إلى مفاتيح الدروب ، وأرشد إلى مواطىء الخطى السليمة الأولى ، وأدع البقية لمن أراد المسير، كل حسب هواه وطاقته •

لبنان ، وجاءت ولادته فيما بين ۱۸۳٥ ـ ١٨٤٠ ، ومنذ مطلع شبابه اتصل بسعيد جنبلاط وعمل لديه ، وقد عينه وكيلاً له على احدى قراه في البقاع ، وقد شارك في حوادث ١٨٦٠ وأصيب فيها ، وبعد انجلاء هذه الحوادث عمل عند ملحم أرسلان إلى أن استدعاه علي جنبلاط فدخل في خدمته وظل كذلك حتى وفاته سنة ۱۹۰۳ .

وروى مشاهداته وسماعاته لصهره يوسف خطار أبو شقرا ، الذي دونها على شكل كتاب . ويوسف خطار أبو شقرا ولد فيما بين ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ ، وتعلم أولاً في قريته ، ثم في مدرسة في بلدة سوق الغرب ، ثم في بيروت ، وقد نال ثقافة جيدة وأتقن الفرنسية والانكليزية وشيء من التركية كما زاول المحاماة ، كما عاش فترة في سورية ، ومارس مهنة الصحافة ، وقد توفي في سنة ١٩٠٤ عن ابن وابنة ، وابنه عارف هو الذي نشر كتاب أبيه .

ووقع اختياري في الملحق الثالث على نص من كتاب نشر في بيروت سنة ١٩٣٦ بعنوان « ثورة وفتنة في لبنان ـ صفحة مجهولة من تاريخ الجبل ، من ١٨٤١ إلى ۱۸۷۳ » وصاحب مواد هذا الكتاب ماروني من كسروان اسمه أنطون ضاهر العقيقي ، عاش مذابح ١٨٦٠ م وشارك في أحداثها وكان له رأيه الخاص في تفسيرها وشرح أسبابها وحتى نطاق رواية أخبارها ، ذلك أن هذا النطاق ضيق يحتل قسماً من جبال لبنان ، لكن وإن روى أحداث القسم الصغير بالتفصيل فإنه سمع بأخبار باقي الحوادث وأتى على ذكرها ، وقد قام بنشر هذا الكتاب يوسف ابراهيم يزبك بشيء كبير من الحماس الوطني ، لا بل تحت ظلال روح ١٩٣٦ المتحررة من الانتداب الفرنسي والمنادية بإلغاء الطائفية وإقامة ما عرف فيما بعد باسم « الصيغة اللبنانية » ، وقد أغنى المحقق الكتاب بحواشيه حتى أنه تدخل في ترتيب مواده وطريقة عرضها .

ولا بد من الإشارة إلــى أن وجود الملاحق جعلت عملنا كتاباً جديداً ، لذلك اقتضى الحال وضع عنوان جديد له ، ووقع اختيار العنوان من صلب مادة الدكتور مشاقة ومواد الملاحق •

إن الأمل كبير في حصول الفائدة من عملنا هــذا ، والله الموفق وهــو جلاّوعلا من وراء القصد ، ولــه الحمد دائماً ، والصلاة والسلام على نبينا وعلى آله وصحبه أجمعين •

سهيل زكار




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مشهد العيان

بحوادث سورية ولبنان



تأليف

الدكتور ميخائيل مشاقة

ملحم خليل عبده   أندراوس حنا شخاشيري


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقدمة لمنشىء الكتاب

لما كانت العادة المتعارفة بين الفئة المنشئة وأصحاب التآليف أن يصدر المؤلف كتابه بكلمة إجمالية كمقدمة ، يظهر فيها الغاية التي من أجلها تحمل عناء الانشاء ، ومشقة التحبير ، ويبين للفئة المطالعة ما يتوخاه بكتابـه من الفائدة لها ، والمنفعة العامة المحضة ، وأن لا مطمح له غير الإفادة ، وخدمة بني نوعه على الإطلاق ، وإظهار الحقيقة بثوبها الناصع التي لا تمسها شائبة ، وإن طال على إبرازها الأمد •

رأينا من الواجب الأدبي ان نراعي العادة في هذا المقام ونحترم جانبها ، وعذرنا في إنزالنا نفسنا منزلة المؤلف هو كتابتنا الكتاب من بدايته إلى نهايته ، لأن عبارة المؤلف غير صحيحة ، وجملة الكتاب غير وافية للنشر ، وقد أضفنا إلى حوادثه فذلكة تاريخ لبنان التي لا شك تلاقي من المطلع عليها من سكان تلك البقعة المحبوبة اشتياقاً وهدى •

وهناك داع آخر ، وهو في اعتقادنا أهم وأجدر،يدعونا إلى ارسال كلمة مقدمة لهذا الكتاب الجليل ، الذي توفقنا به صدفة ، وقادته إلينا التقادير على غير انتظار ، نبسط للقارىء ماهية الكتاب ، ونحفظ لجامع حوادثه الفضل المتقدم ،فالاقرار بالفضل لمستحقيه من أجل غاياتنا ،وتقدير رجاله قدرهم ، فرض مقدس علينا في كـل حين ، وإقرارنا للمؤلف بوضع حوادث الكتاب فقط ، لا يحط من شأنه ، ولا ينقص من فضله ، كما يتضح لكل ذي بصيرة •

أما الغاية التي دعتنا إلى إبراز هذا التأليف ، بعد عثورنا عليه ، ميلنا الفطري إلى خدمة الانسانية ، وبث الحقيقة متى ظهرت لنا ، فضلاً عن وثوقنا ،

بعد مطالعته ان في نشره فائدتين لا يحسن بقاؤهما طي الكتان : الأول صدق حوادثه الهـائلة ، التي يجهلها السواد الأعظم ، والتـي من الواجب إذاعتها ونشرها على رؤوس الأشهاد، لثبوت وقائعها وأعلامها، والفائدة الثانية نكون قد أنفذنا غاية واضع تلك الحوادث ، واعتبرنا جرأته الأدبية التي تشعر بحاجة إلى تلبسها ، والاقتداء بها ، فأظهرنا فضله ، وأحيينا ذكره .

وحسبنا ما تقدم برهاناً على قولنا ، وشاهداً وافياً على تبرئة ساحتنا من تذييل الكتاب باسمنا ، إذ لو كانت عبارة المؤلف صالحة للنشر رأساً ، لاكتفينا من خدمة الحقيقة بنشره له ، ولنا ، ولك ، والهدى من الله ، إنه هو الهادي ، وهو صاحب الحق والانصاف .



تاريخ عائلة مشاقة

وترجمة حياة بعض أصحابها

إذا كان تكريم رجال الفضل واجبا وهم احياء ، فانه مقدس وهم أموات

فالدكتور مخائيل مشاقة صاحب هذه الحوادث وجامعها ، قد صرف أيامه بين قومه كرجل عظيم من رجال هذا العصر دأبه بث الإلفة ، ونشر الإصلاح ، وخدمة الإنسانية .

ولما كان العدد القليل من الجالية السورية ، يعرفون سيرة حياته ، والعدد الأكبر لا خبرة ولا معرفة لهم بها ، اغتنمنا هذه الفرصة لندون في مقدمة الكتاب هذا الفصل ، احتراماً للفقيد الذي عاش عظيماً ، ومات عظيماً ، واجلالاً لمقامه السامي . والذي نورده في هذا الباب هو غاية ما وصلت إليه معرفتنا ، والله وحده صاحب العصمة والحكمة .

كان يوسف بركي يوناني المحتد ، يقطن مدينة كرفو من أعمال جزيرة كرفو بالارخبيل اليوناني ، وكانت كرفو تابعة لجمهورية البندقية ، ولا نعرف عن هذا الرجل غير نزوحه من تلك الجزيرة وحلوله في مدينة طرابلس الشام ، حيث اتخذ التجارة صناعة له في أرض الفيحاء وكانت تجارته محصورة في المشاقة[1]،لذلك لقب بيوسف مشاقة،وهو أول من تلقب بهذا اللقب.وكان يوسف مشاقة المذكور ذا وجاهة ونشاط ، وتجارته كانت تعد عظيمة في ذلك العصر ، وكان يملك سفينة شراعية ينقل عليها صادرات وادي النيل ، وأساكل سوريا على الاجمال ووارداتها ، وكان يفضل الإقامة في مدينة طرابلس لما اختبره بأسفاره المتتابعة .

---

(١) أي التجارة البحرية .

فحلت قدمه في تلك المدينة حوالي أوائل القرن الثامن عشر للميلاد ، وظلت معاملته قائمة مع معامل المراكب في البندقية عاصمة ولاية مسقط رأسه .

وقد علق بفتاة من عائلة القلفاط ، من سكان قرية انفه ، وهي الآن اسكلة انفه ، وتبعد عن طرابلس الشام ساعتين ونصف ركوباً ، وهي قرية ساحلية . فقدم إليها باحدى سفراته ، وقد وقع نظره على نصيبه الأول ، فتزوج الفتاة ورزق منها ولداً دعاه جرجس ، ثم أدركه العجز ، وتوفي وتوفيت عقيلته قبله بمدة قصيرة .

فعزم جرجس مشاقة بعد وفاة والديه على الانتقال من مدينة طرابلس فباع ما خلفه له والده من العقار ، وقام ومعه مال وافر إلى صيدا مركز الولاية ، وتعاطى بها تجارة التبغ ، وكان يورد منه للقطر المصري كميات وافرة ، وبذلك تمكنت صلته بمشايخ آل الصغير ، حكام بلاد بشاره والشقيف والشيعيين ، حيث كان يشتري منهم حاصلات أراضيهم الواسعة من التبغ .

وقد اتخذ له شريكة من عائلة منسى من أنفه مسقط رأس والدته ، بعد أن نزحت إلى صيدا وعولت على البقاء فيها . وكانت هذه العائلة على مذهب الروم الكاثوليك ، فاعتنق جرجس هذا المذهب وأظهر لرجاله بعد مدة ميله الشديد إلى تعظيمه بتبرعاته العديدة . ومن جملة ما وهبه إلى دير الرهبان قبة ومسلات رخام احضرها من أوربا ، وغير ذلك ، فضلاً عن أنه أكمل بناء ذلك الدير على نفقته .

ولم يكتف بما تقدم ، بل أوقف للدير المذكور قرية الوردية بجبل الديمان ، وأربعة بيوت للسكن بمدينة صيدا ، وكانت مساعداته للأعمال الخيرية عموماً ، وللدير خصوصاً ، متتابعة متلاحقة .

وقد نقش على جانب الهيكل اسمه على هذه الصورة « لقد أحب جمال مجدك جرجس مشاقة عبدك » •

فكافأه أولياء الدير بترتيب قداس يتلى عن نفسه يومياً إلى ما شاء الله ، وباحتفال بعيد مار جرجس سنوياً • وكان ذلك سنة ١٧٥٧ • هذه هي العلاقة الأولية المتصلة بين عائلة مشاقة ودير الرهبان الى يومنا هذا •

ثم اضطرته المصلحة أن يقوم من صيدا إلى صور ، فانتقل إليها لتسهيل سبل تجارته مع مشايخ المتاولة القاطنين في جوارها والذين لهم من أغلالها النصيب الوافر مثل : التبغ ، والحبوب ، والأخشاب ، ولم يكن وقتئذٍ في تلك البلدة مسيحياً غير جرجس مشاقة وحاشيته ، وبانتقاله إليها تكاثر عدد النصارى حتى أدت زيادتهم إلى تشييد كنيسة • وكان جرجس المشار إليه هو البادىء بتأسيس جدرانها فبنى الكنيسة على اسم القديس توما الرسول • وبعد أن اتم بناء الكنيسة رأى من الحكمة ان يجعل له مأثرة خارجة عن حدود مذهبه ، واذ لم يكن في صور جامع للمتاولة يؤدون فروضهم الدينية فيه عزم على أن يبني لهذه الفئة جامعاً على نفقته ، لأن اختلاف عقيدة المتاولة الشيعيين لا تجيز لهم أن يؤدوا فروضهم ، في جامع السنيين ، لذلك باشر بناء مسجد للشيعة على نفقته • فدري بعمله والي صيـــدا ، فأرسل واستقدمه ، ولمـا امتثل أمامه سأله الوالي عن عزمـه بشأن بنيان المسجد ، فحقق له الخبر ، فصرفه وأنعم عليه بفرو من جلد النمر ، وطلب منه أن يشركه معه في العمل الخيري ، فأجابه إلى ما يريد ، وسمح له ببناء المأذنة ، وهكذا تمّ بناء المسجد على نفقتـــه •

ثم اعاد بناء بيته في صور ، وبنى بيوتاً ومحلات عديدة في تلك المدينة، وقد توفاه الله في صور وله من الاولاد : ابراهيم وبشارة ، وهذا الأخير هو جدّ عائلة مشاقه القاطنة الآن بالاسكندرية (مصر) ، وهي مؤلفة من : بشاره، والياس ، وأبناء يوسف بن بشاره وأولادهم •

وقد مرَّ بنا أن إبراهيم مشاقة هو جد عائلة مشاقة ، وهو جد مؤلف هذه الحوادث ، كان على جانب عظيم من الذكاء والوجاهة عند أحمد باشا الجزار كما سنذكره في حينه ، فاقطعه بلاد بشاره والشقيف ، فقام بمهمته خير قيام ، وكان عاقلاً وله أعمال مبرورة قد حفظها له التاريخ ، وسوف ترد في الكلام عن الجزار .

إنما قبل وفاته بأيام معدودة ارتاب به الجزار ، فكاد يبطش بشيخوخته، إلاّ أنه قضى نحبه مغموماً على نكبة أصدقائه آل السكروج الذين نكل بهم الجزار وقتلهم ، وخلف من الأولاد بضعة منهم : جرجس مشاقة الثاني ، وهو بكره ، وقد توفي عن اثنين وأربعين عاماً .

وبعد وفاة إبراهيم مشاقة أرسل الجزار فاستحضر ابنه جرجس مشاقة ، ولم يمهله أن يدفن والده ، ولما وصل إلى عكاء أمر بالحجز عليه أياماً ، طلب منه في خلالها مطاليب جمة ومستحيلة ، وما زال الجزار يعاوده الطلب يوماً بعد يوم ، حتى أنفذ ثروته ، ولم يترك له من الأملاك والمتاع شيئاً ، ثم اطلق سراحه .

وجرجس هذا كان ابوه قد زوجه قبل وفاته بفتاة من عائلة عنحوري ، وهي كريمة حنا عنحوري جد حنا عنحوري أحد أعيان تجار دمشق الآن . ثم وشى به بعض النصارى للجزار فعاود الكرة عليه ، فأصبح لا يملك شروى نقير .

وبعد أن أطلق سراحه أشار عليه أحدهم أن يذهب إلى دير الرهبان ، لعل رجاله الأبرار يأخذون بيده ، ويمدونه بشيء من المال ، فعمل بموجب النصيحة ، وسار إلى الدير وبعد أن أطلعهم على حاله ، وكيف قبض الجزار على ما يملكه ، أظهروا له كدرهم ودفعوا له خمسمائة غرش ، فسألهم إذا كان والده قد أبقى له شيئاً عندهم ، فأجابوه بالسلب ، فعاد إلى بيته فترك

لعائلته المال الذي أحضره معه من الدير ، ألا خمسين غرشاً ، ابقاها معه ليستعين بها على المسير إلى وادي النيل ، فقدم مدينة دمياط ، ميناء القطر المصري في ذلك العصر ، ونزل ضيفاً كريماً على أولاد عمه ، شقائق عقيلته ، وهم : ميخائيل وروفائيل وبطرس عنحوري ، من كرام تجار دمياط وعمدها .

ولما قابلهم أوقفهم على حاله مع الجزار ، وطلب منهم المساعدة ، فلم يروا من الحكمة أن يمدوه بمال تظهر جسامته لجواسيس الجزار ، فيلحق به الأذى ثانية ، وهناك الطامة الكبرى . وبناءً على ذلك لم يعضدوا صهرهم، وإنما نقدوه مبلغاً يقوم بأوده ، وأشاروا عليه بالذهاب إلى جبل لبنان . وفي أثناء اقامته في مصر أنفذ إلى عائلته خمسمائة قرش . ولما انقضى فصل الشتاء ، رجع إلى سورية عن طريق بيروت ، وقصد دير القمر ،فأقام فيها،وغير اسمه مخافة أن يدري به الجزار فتسمى جرجوراً فقط،ولم يعلم عائلته بوجوده في دير القمر ، من خوفه الشديد من الجزار ، ومن حظه لم يكن في تلك المحلة من يعرفه غير إبراهيم داود منسى نسيبه ، وجرجس بطرس ، وهذا كان يشتغل بالصياغة ، فعقد جرجس النية على اتقان هذا الفن عن صديقه المار ذكره ، وقد حصل على أربه من ذلك الفن، وبرع فيه ولا يزال بعض مصنوعاته باقية إلى يومنا هذا ، تشهد له بالاتقان وطول الباع .

وفي اثناء مهاجرته من صور كانت عائلته تشتغل بالخبازة ، وتقوم بأودها من تلك المهنة ، وفضلاً عما أصاب هذه العائلة من جور الجزار حتى أدركت الحضيض ، بعد أن كانت ترتع بسعة العيش والرفاه ، حمل عليها الدهر حملة عنيفة فقتل بعض أفرادها بداء الجدري ، منهم : نقولا وقسطنطين ، وذهب هذا الداء ببصر مريم شقيقتهما التي قضت نحبها في دمشق بالوباء سنة ١٨٤٨ .

ولما أثرى رجل هذه العائلة الذي نحن في سياق حياته بعث فاستحضر

عائلته إلى دير القمر سنة ١٧٨٦ ، وفي هذه السنة رزق غلاماً فأصبح أولاده : ابراهيم ، وأندراوس .

أما شقيقه انطون مشاقة فلم يشأ الحضور إلى دير القمر ، والقيام معه فيها ، وفضل الذهاب إلى مصر فشخص إلى دمياط ، ونزل على [محسن من] سكانها الأفاضل فأكرم وفادته وثقفه على نفقته ، وكان يصحبه معه في سفراته إلى أوربا ، غير أن المنية عاجلت هذا المحسن ، فاضطر أنطون أن يترك محله ويشتغل في محل آخر ، وأخيراً دخل في شركة بطرس عنحوري ، وتوفي سنة ١٨٢١ عن ثلاثة وأربعين عاماً ، واخلف ثلاثة أولاد .

ولنعد الآن إلى جرجس ، الذي فرضنا على أنفسنا ترجمة حياته ، فهذا ظل في دير القمر مع عائلته ، واتفق أن الأمير بشيراً الكبير زار عكا ، ومر بصور وافتقد عائلة مشاقة ، وبحث عنها فرأى حاكم المدينة يقطن دورهم ، فقصوا عليه ما أصاب هذه العائلة فأسف لذلك أسفاً شديداً .

وفي حين وصوله إلى دير القمر استحضر جرجس المشار إليه ، وجعله كاتبه الخاص ، وأمر له بكسوة ، وأجزل له العطاء وبقي جرجس مشاقة بخدمة الأمير حتى توفاه الله سنة ١٨٣٢ ، فأقام الامير بمركزه ولده أندراوس فقام بعبء الخدمة بإخلاص ونشاط .

ميخائيل مشاقة :

هو ميخائيل بن جرجس بن ابراهيم بن جرجس بن يوسف مشاقة ، وهو أوسع أفراد مشاقة شهرة ، وأعلاهم منزلة ولد في ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٧٩٩ في قرية رشميا من أعمال جبل لبنان .

ولما بلغ السن الذي يؤهله لتلقي علوم زمانه درس على والده القراءة والكتابة ، وأتقن بعض المهن ، إلا أن نفسه كانت أكبر من أن تقف عندهذا الحد . وقد ظهر فيه ميل فطري إلى درس الفلك والعلوم الطبيعية ، ولم يكن

له في ذلك المكان واسطة تنيله أربه ، ولا كان في تلك المدينة (دير القمر) من يعرف فن الحساب حتى الضرب والقسمة ، وكان ميالاً كما تقدم إلى العلوم العالية ، وكان يسمع أن اليهود يدركون مواقع الكسوف والخسوف وبقية العلوم على أنواعها ، إنما يحفظونه بصدروهم ولا يطلعون عليه أحداً ، فصار يتردد على رجل منهم اشتهر بالعلوم على أمل أن يحصل منه على بغيته ، وقد تأكد خيبة أمانيه بعد اختباره مقدرة الرجل ، والذي وقف عليه منه هو أن اليهود يعرفون هذه المعرفة السطحية عن الكسوف والخسوف من الرزمانة التي تردهم من أوربا ، وفيها مواقع حركات القمر والشمس ، وبعض الفوائد الفلكية ، فأقلع عن زيارة اليهودي ، وعن الافتكار بحصوله على الفوائد الجمة من اليهود .

وحصل له مثل ذلك عندما بعثه والده بمهمة إلى القس كيرللس ، إذ شاهد هذا يطالع كتاباً مخطوطاً ، وفيه أسماء الشمس والقمر متوالية ، فظن أنه حظي بضالته ولما سأل ذلك الراهب عن ماهية الكتاب ، فأجيب أنه كتاب الكيكلس ، تأليف أحد الآباء يستعين به على مواقع الاعياد المارة إلى بضع سنين ، وعن مواقع القمر والشمس ، وغيرذلك من المعارف التي لا تدركها عقول العامة .

أراد هذا الراهب أن يوهم ميخائيل أن منزلته من علم الفلك والفلسفة مثل منزلة أرسطو وسقراط(1) أو نيوتن . غير أن مشاقة تساهل معه حتى حصل على نسخة من الكتاب ، ولما طالعه رأى أن معارفه لم تزل كما هي فرجع وهو في تمنٍّ وتردد .

وفي سنة ١٨١٤ جاء دير القمر خاله بطرس عنحوري ، ومعه كتب خطية ، فطالع منها كتاباً في علم الهيئة والكواكب لديلاند الفرنساوي ، وآخر

---

(1) كذا ، وشهرة أرسطو وسقراط قائمة على الفلسفة فقط .

في تقويم الكواكب له أيضاً ، وآخر في حواشي الارشمندريتي افتيموس غازي لبنيامين فرنكلين الاميركي في علم الطبيعة ، وآخر في العلوم الطبيعية للاستاذ ريفــا البلاتلي ، وآخــر في المآخذ الحديثة في تقــويم الكسوفات لبطرس عنحوري ، وبعد أن طالع [كتب] تلك القوم درس على خاله مبادىء علم الفلك ، حتى تمكن من تعيين خسوف القمر •

وفي سنة ١٨١٧ قدم إلى القطر المصري ، ونزل على أنسبائه [آل] عنحوري ، ودرس عليهم علوماً حديثــة • وفي سنة ١٨١٨ قادته افكاره إلى البحث في العقائد الدينية شأن المتوغل في العلوم الطبيعية ، وجاهر بارتيابه في صحتها ، وكان لا يأنف من الجدل وهو الذي زاده ثباتاً في صحة معتقده ، وعاد من سفرته إلى دير القمر سنة ١٨٢٠ ، وشرع في تجارة الأقمشة الحريرية ، ولكنه لم يزاولها إلاّ مدة قصيرة حيث قام لقيام الأمير بشير الكبير إلى حوران فراراً من مطالب عبد الله باشا والي عكا ، فأقام مشاقة في دمشق متخفياً مدة ، وقد اشيع ان مع اخوته خزينة الجبل التي أودعها معهم أميره •

مرت الأيام ولم يحدث له مكروه" وقد آب مع الأمير إلى دير القمر ، ورجع إلى تجارته التي تحسنت من صلتــه مع مشايخ الدروز ، وخصوصاً الشيخ بشير جنبلاط لما رحل إلى مصر ، وفي عودة الأمير من مصر قربه وعهد إليه جمع الخراج من أهالي لبنان ، ودفع الغرامة إلى عبد الله باشا ، وفي هذه الأثناء حصل سوء تفاهم بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ، كان العامل على اثارته وتعزيزه رؤساء الدين الذين دأبهم إلقاء الفتن والمداخلة بما لا يعنيهم في كل زمان ، وحبذا لو تلتزم هذه الفئــة المباركة نصوص الكتاب المقدس ، وتترك الشؤون المدنية على عاتق أربابهــا ، فتحفظ بذلك مقامها وتجله ، وكان غيظ ميخائيل مشاقة من إلقاء بذور الفتن بين الأمير والشيخ عظيماً ، حتى أنه جاهر بالملامة على الطغمة الاكليريكية في نشوب المخاصمة ،

ولم يرهب لومة لائم ، وقدم في تلك الأثناء إلى دير القمر أحد المبشرين الاميركان ، فصار ميخائيل يتردد عليه أحياناً إلى أن ظهر ارتياحه إلى اعتناق المذهب الانجيلي ، لأن ما ناله من سوء المعاملة من رهبان دير المخلص لقاء تبرعات جده الغزيرة إلى ذلك الدير ، جعله يحنق عليهم ، ويعرض باخلاصهم الذي لا صحة له ولا أساس .

ولما حطت أوزار الفتنة المار ذكرها بين الأمير بشير ، والشيخ جنبلاط ، وجه إليه الأمير وظيفة شبه مدير لحكومة حاصبيا وراشيا ، فأقام بها مع أمراء تلك المقاطعة فوق ما ينتظره منه ، وأحبهُ الأمراء لما أبداهُ من حسن السلوك معهم إلى آخر أيامه ، وفي سنة ١٨٢٨ أصيب بحمى وافدة حملتهُ على العودة إلى دير القمر ، طلباً للابلال والراحة من عناء الأعمال ، وقد خطر بباله أن يدرس فن الطب ، ولم يلبث طويلاً حتى باشر اظهار خاطره إلى حيز العمل ، وبدأ يطالع ويدرس على نفسه لعدم وجود معهد لتدريس الطب بسورية ، ولا ريب أنهُ لاقى صعوبة وعقبات جمة ، وكان يلاصق كل طبيب يقدم إلى تلك الديار ، بايعاز أو مهمة ، لشدة ولوعه بهذا الفن ، فنال بذلك خبرة واسعة يصعب على الطالب القانوني نيلها ، فكان الأهالي يدعونه لتطبيب مرضاهم ، وكانت الثقة به قوية قبل أن يحصل على الشهادة القانونية .

وفي سنة ١٨٣٣ انتقل إلى دمشق ، واتخذ شريكة لحياته ، فأقام بها إلى آخر أيامه . وجاء دمشق بايعاز من الدولة المصرية الدكتور كلوت بك ، ناظراً على المجلس الصحي في دمشق ، فكثرت اجتماعاته به إلى أن أصبح صديقهُ الحميم ، فكان يصطحبه بمهامه الطبية ، وقد أفاده افادات عظيمة ، فأهداهُ كتباً غزيرة الفائدة ، وأدوات للجراحة مستحدثة ، وقبل حصوله على الشهادة ، أقامه شريف باشا رئيساً على أطباء دمشق بمدة استيلاء المصريين على سوريا .

وفي سنة ١٨٤٥ قدم إلى الديار المصرية ، واجتمع بالدكتور كلوت بك صديقه القديم ، الذي ساعده أولاً وآخراً على نيل الشهادة ونالها بعد أن قدم فحصاً للجنة أطباء قدموا من جامعة باريز إلى القطر المصري لتلك الغاية . وقد زار الآثار المصرية ، وشاهد مواقع حربية ستقف على أخبارها في بابها . ودرس علم المنطق ، وكان كثير التمني لكل العلوم ، وكان صديقاً حميماً لبحري بك وشريف باشا وغيرهما من وجهاء القوم .

وبعد عودته من مصر طالع كتب الفلاسفة ، وقرأ نوتر ونيوتن فارتاب بهما ، وقرأ تأليف الاستاذ كيدن الانكليزي فأعجب به ، واتخذه دستوراً لرجوعه إلى احترام الأديان ، وقد ثبت لديه من هذا الكتاب صحة الديانة المسيحية فاعتنق مذهب البروتستنت تاركاً أهله مفضلاً عليهم راحة ضميره . فعل ذلك سنة ١٨٤٨ ، وقد بذل غبطة البطريرك مكسيموس جهده في ارجاعه إلى مذهب أجداده، ولم يفلح فلاقى اضطهاداً عنيفاً من غبطته في وعظاته واجتماعاته ، وكان يكيل له الكيل وأزيد إن شفاهاً أو كتابة إلى أن فصل الموت بينه وبين خصمه ، فارتاح من عنف الاضطهاد إذ ذاك ، ولكنه بقي على جلده ونشاطه في الجدل والمحاورة إلى أن قضي عليه .

وقد عينته حكومة الولايات المتحدة قنصلاً في دمشق ثم استعفى .

وشاهد مذبحة الشام ، وكاد يذهب بتيارها ، وشاهد أكثر حوادث هذا الكتاب ، وعاصر أكثر أبطاله والرجال الذين لهم ذكر بوقائعه ، وكان وجيهاً ومحبوباً لدى الأمير بشير وأمراء حاصبيا وراشيا من آل شهاب ، وصادق نخبة القوم وعرف بينهم بالنزاهة والصدق .



مؤلفاتــه

(١) رسالة الدليل إلى طاعة الانجيل سنة ١٨٤٨ .

(٢) أجوبة الانجيليين ضد أباطيل المقلدين سنة ١٨٥٢ .

(٣) جواب صديق من طائفة الروم في حمص واقناعه سنة ١٨٥٢ .

(٤) كشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب سنة ١٨٦٠ .

(٥) البراهين الانجيلية ضد الاباطيل البابوية رداً على اليسوعيين سنة ١٨٦٣ .

(٦) تبرئة المتهوم من قذف البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٥٤ .

(٧) رد على منشور البابا بيوس التاسع الذي يدعو فيه البروتستانت إلى الاشتراك في المجمع الفاتيكاني وترك الضلال .

(٨) رسالة البرهان على ضعف الانسان رداً على تعاليم الفيلسوف فولتر .

(٩) الرسالة الشهابية في قواعد الحان الموسيقى العربية .

وكل هذه الرسائل طبعت . ومن مؤلفاته التي لم تطبع :

(١) رسالة في ترجمة حياة البطريرك مكسيموس يبين فيها كيف اتصل إلى درجة الحبرية العظمى .

(٢) رسالة رد على ابن الحموية واعتراضاته على مذهب الانجيليين .

(٣) التحفة المشاقية مطول في علم الحساب .

(٤) كتاب المعين على حساب الأيام والأشهر والسنين .

(٥) وهذا الكتاب الذي جمع حوادثه وسماه الجواب على اقتراح الاحباب .

صفاتــه وأخلاقــه

لا حاجة بنا إلى الاسهاب لبيان صفاته وأخلاقه بعد أن أسهبنا بتعــداد أعماله وما جد له من الأفكار والأخطار غير أننا نوجز في تدوين ما يلي :

فكان المغفور له جامع حوادث هــذا التاريخ رجــلاً مقداماً ، متوقد الذهن عالي الهمة ذا عزيمة شماء لا يقعده في سبيل ما يريده مقعد ، ولا يصده في سبيل مبتغاه مانع ، وقد حصل على العلوم بجده واجتهاده كما تقدم ،وكان محباً للرقي كثــير الاعتمــاد على نفسه ذا استقــلال إداري ، وقد زادتــه الاضطهادات التي لاقاهــا من رجال الدين وثوقاً بمقدرته ، وكــان شديد التعصب لدينه قوي الحجة شديد اللهجة إلى ما وراء الاعتدال .

انما كان ضعيف الإنشاء ، ركيك العبارة ، شديد الجنوح إلى اللغــة العامية بكتاباته ، وكان قوي الذاكرة حسن السلوك لين المعاشرة .

اخلف له ثلاثة أولاد وهم : ناصف ، واسكندر ، وسليم . وقــد أنهى كتابه هذا عن حوادث سوريا ولبنان سنة ١٨٧٣ .

الفصل الأول

ملاحظة وتمهيد

لما كان المرحوم الدكتور مشاقة مؤلف حوادث هذا الكتاب ضمنه تاريخ عائلة مشاقة الكريمة من الجد الأول أي من أواخر القرن الثامن عشر إلى سنة ١٨٧٣ ولما كانت حوادث الكتاب تشغل قرناً من بدايتها إلى نهايتها ولم يصدر كتابه بفذلكة تاريخية تربط حوادثه بحوادث الأعصر الغابرة وجدنا أن الحاجة ماسة إلى لمحة عن تاريخ جبل لبنان مع الاسهاب في جغرافية لبنان القديم والحديث ، وفي أصل القبائل والأمم التي توطنته قديماً وحديثاً ، وما طرأ عليها من التغييرات السياسية والاجتماعية ، من أدبية ودينية ومدنية منذ ابتداء التاريخ إلى عصر الجد الأول لعائلة مشاقة فنقول .



★ ★ ★

الفصل الثاني

في مساحة لبنان القديمة

لبنان سلسلتا جبال : الأولى داخلية تدعى لبنان الشرقي،والثانية ساحلية تدعى لبنان الغربي ، وتبتدىء من : حدود آسيا الصغرى وتنتهي بحدود حيفا وجبال اليهودية ، وبينهما التلول والمفاوز الفسيحة التي قيل عنها أنها تدر عسلاً ولبناً[1] .

وأعظم النقط التي جرت فيها حوادث هذا الكتاب هي حاصبيا وراشيا

---

(١) يلاحظ أن كل من المشرفين على اخراج الكتاب كان لهما خلفية ثقافية نابعة من روايات الكتاب المقدس التاريخية ، وهي روايات غير مقبولة علميا أيامنا هذه .

من أعمال الجبل الشرقي ، ودير القمر وزحلة والمختارة وصيدا وصور وعكا من أعمال الجبل الغربي .

ومن أهم القرى الواقعة في الجبل الشرقي حاصبيا وراشيا ، وكانتا مركز حكومة الأمراء الشهابيين .

ومن أهل مدن الجبل الغربي صيدا وعكا وبيروت وصور ودير القمر ، وكانت صيدا مركز الولاية ، وعكا في غنى عن وصفنا فهي أشهر مدينة دارت فيها رحى الحرب وأهرق على اسوارها دمـاء الألوف من البشر ، فالتاريخ وحده كفيل لحفظ ما دار فيهـا من المواقع الهائلة ، فنابليون العظيم بعثته مطامعه الأشعبية لدك حصونها ، ولكنه رجع بالفشل والخيبة .

وبيروت كانت قبل انفصالها عن الجبل وبعده : مدينة تجارية لحسن موقعها الجغرافي ، ودير القمر كانت مركز حكومـة أمراء شهاب وخصوصاً كبيرهم وأعظمهم مقاماً الأمير بشير ، الذي بعد نفيه إلى جزيرة مالطة عرف بالمالطي[1] ، والمدن المتقدم ذكرها هي أهم الأمكنة التي لها علاقة بحوادث تاريخنا ، وفيها جرت معظم وقائعه ، وفيها سيرت الجيوش لاخضاع لبنـان واذلاله ، وفيهـا عقدت المجالس والمؤامرات السياسية علـى سطوة الأمراء ، واضعاف شوكتهم إلى آخر ما هنالك من الأعمال الجائرة والسديدة كما يرد في حينه .



(١) يريد به الامير بشـير الشهابي الثاني الـذي استسلم سنـة ١٨٤٠ للانكليز فخيروه الاقامة في أي مكان يريد غير فرنسة وسورية ، فاختار مالطة حيث أقام فيها أحد عشر شهرا ، ذهب بعدها الى الأستانة حيث ظل حتى سنـة وفاتـه في ١٨٥٠ م .

الفصل الثالث

في سكان لبنان الاولين

يقسم علماء الاجتماع الانساني الانسان إلى أربعة اصناف : القوقاسي ، والمغولي والزنجي ، والأحمر ، ولا يهمنا من هـذه الأصناف غير أولها أي القوقاسي ، لان سكان لبنان منه ٠

ولا مشاحة في أن جبل لبنان وأراضيه الفسيحة وتربته المخصبة كانت آهلة يسكنها الناس قبل زمن التاريخ بقرون متطاولة ٠

والعلماء متفقون على أن جنة عدن التي أوت الانسان الأول موقعها إما في أرض شنعار على حدود الفرات ، وأما في أرمينيا ، وسواء" كانت في هذه أم تلك ، فهي علـى تخوم سوريا ولبنان ، ومن الأدلـة القاطعة على وجود الإنسان في تلك الأمكنة قبل فجر التاريخ قلعة بعلبك ، فإن في شكل بنائها وهندسته ما يدل على قدميتها ، فهي أقدم من اهرام الجيزة بمصر[1] ، ومما تقدم يتضح لك أن أسلافنا كانوا على جانب عظيم من الإدراك في فن البناء والمدافعة،وآثارهم الباقية لهم التي عجزت عن ابادتها السنون،والعناصر تشهد لهم بالمقدرة وتهزأ بالأبنية من نوعها التي أقامها ويقيمها أهل هذا العصر ، ولكن إلى أي عصر بالقدم يمتد تاريخ تمدنهم،لا نستطيع اثباته في هذا المقام٠



---

(١) من الواضح هنا التعصب للبنان ، ولا شك أن هذا التعصب دفـع الى ادعاء ما يفتقر الى الدليل لاثباته ٠

الفصل الرابع

في سكان لبنان بعد الطوفان

لنا في التاريخ هداية ورشاد نقصتها تتميماً للفائدة التي تتوخاها : عرفنا حينما انفجرت أنوار التاريخ على المعمور عموماً ولبنان خصوصاً ، أن جماعة من بني سام بعد خروجهم من الفلك هاجروا إلى سوريا ولبنان ، ثم لحق بهم ولد حام،وكان ذلك قبل الميلاد بقرون عديدة وبعد ذلك بمدة قدمإبراهيم جد اليهود مع أفراد من حاشيته[1] .

فالساميون[2] أقدم من سكن سوريا ولبنان وامتدت تخوم عمرانهم إلى شطوط بحر الروم ، ومن المدن التي شادوها وتوطنوها جبيل وبيروت وعكاء وفي الداخلية مدن وقرى كثيرة العدد اشهرهن دمشق وبعلبك وحلب وحماة .

أما الحاميون لما رأوا ذلك من الساميين اندفعوا بعامل المزاحمة ،فأقبلوا من بابل والعراق ، وابتنوا لهم من المدن صيـدا وصور وطرابلس والبترون واللاذقية وطرسوس وغيرهـا ، ومن المدن في الداخليـة حمص وكركميش وأورشليم وبعض احياء من مدينة بعلبك وحصاصون تامار وسادوم وعمورة .



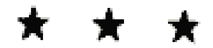
(١) من الثابت علميا أنه لا توجد علاقة عضوية موثقة بين اليهود والنبي ابراهيم عليه السلام ، ذلك أنه من المرجح أنه وجـد في العصر الهكسوسي وأن المدة الزمنية بينه وبين النبي موسى عليه السلام تزيد على ستة قرون ، وعليـه تعرف اليهود عليه عند قدومهم الى أطراف سورية فتبنوه جدا لهم ، ذلك أنهم تخلوا الى حد كبير عن ديانة موسى وعن لغتهم وتبنوا احدى لهجات سوريـة ودياناتهـا .

(٢) الساميون مصطلح حديث لا يملك المرتكزات العلمية .

الفصل الخامس

في أن المزاحمة وان تكن علامة العمران فهي تودي الى الفتنة

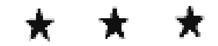
وذلك لما بين بني سام وحام من المزاحمة والمنافسة في العمران التي سببت لكل فئة منهما ميلاً الى استفراغ جهدها وقواها لتحوز على السبق في مزاحمتها ، ومن البديهي أن المزاحمة إذا وقعت بين قوم أو أمّة أدت إلى الاستعمار ، والتطرق إلى المدنية ، وقد تتوغل الأمة المزاحمة في ضروب الابداع والتفنن حتى تبلغ حداً تفرغ به جعبتها ، وتفني أعاظم أموالهم ، وهي تكون مخمرة في سكرة الجد والمزاحمة ، إلى أن يقوم عليها بعض أفرادها ويطالبونها بالحساب عن أعمالها ، ونتيجة ما وصلت إليه فتعلو الضوضاء ويكثر اللغط وتتظاهر الطائفتان بالأسبقية ، وتمتدح أفراد كل أمة أعمال أمتها ، وتتباهي بها على سواها ، وعند المقابلة يتبين الأفضل منها والأنسب يبقى ، ولو كان الانسان مطبوعاً على الإقرار بخطائه وسقطته عن رضى ومحبة ، ويعلن الحق متى رآه وعرف محله سواء كان الحق بجانبه أو بجانب خصمه، لما كانت الحروب التي ذهب ويذهب بها ملايين من النفوس البريئة في الهيئة الحاضرة ، ولا قامت الفتن والمخاصمة بين البشر ، ولكن لسوء حظ العائلة البشرية خلق الانسان مطبوعاً على محبة الذات والانانية يرى الحق بجانب خصمه ويناضل عنه، ذلك أو مثله حدث لبني سام وحام عندما اشتدت مفاعيل المزاحمة بينهما ، وأفضت الحال إلى تخاصم وتنافر وعداء وإهراق دماء الألوف من رجالهما بعد أن كانتا على وفاق ووئام ، فقس على ما تقدم ما تجري عليه في يومنا هذا الدول وأمم الأرض قاطبة ، ترى الاصابة معنا فيما قلناه ، والله الموفق إلى السواء .



الفصل السادس

اذا كان القتال واقعا بين أمة واخرى وهجم عليهما عدو تعاضدتا على التنكيل بـه

والسبب في ذلك ما يكون للامة المتقاتلة من الحنق والحقد في صدرها على خصمها ، وقد أوجدته بهـا محبـة التفرد في السلطـة والسيادة على أقرانها ، ولما كانت هذه الأماني من أوليات أمانيها ، فهي تسترخص كل عزيز لديها في تحقيقها ، ولا تضن في تنفيذ مآربها والبطش في ما يحصل دون بلوغها ما تشتهيه بسفك آخر نفس من حياتها ، ومما لا ريب في حدوثه إذا كانت الحرب واقعة بين أمة وأخرى ، ودهمهما عدو أنهما تتكاتفان على البطش به ، والفتك بعدوه وحاميته ، ذلك ما حدث لبني حام وسام وهما في الحرب سجال إذ دهمهما البابليون والآشوريون في قيادة بطلهما سرجون الأول فانضمتا يداً واحدة على التنكيل بخصمهما ،والدافع لهما على أن ذلك الانضمام ميل غريزي بالانسان وهو حبه إظهار مقدرته ولو سحق بها أنفس بريئة ، وميله إلـى البطش في الحوائل التي تصده عن تنفيذ رغبته في خصمه ، فبنو حام لما رأت العدو مقبلاً نحوها ، حولت سهامها عن بني سام إليه خوفاً من أنها إذا ترددت لحظة عن ذلك تحسبه بنو سام عليها وجلاً وجبانـة ، وهكذا قل عـن بني سام ، ومما حدث لهؤلاء القوم هو من حوادث يومنا وحدث في كل زمان ومكان ، وقد تمكن أهل بابل واشور من اخضاع بني حام وسام قبل الميلاد بقرون وأرغموهما على دفع الجباية والغرامة ، إلى أن تعززت لهمـا القوة ، وتوفرت لديهما النجدة ، فنهضتا نهضة واحدة على طرد أولئك الفاتحين ، وقد تم لهما النصر بعد حروب طال أمدها .



الفصل السابـع

في اجتياح المصريين سوريا ولبنان

وكان ذلك في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد لما زحف المصريون بقيادة تحوتمس وأبلوا بلاءً حسناً ، ووضعوا على سوريا ولبنان الجباية ، ولكن ذلك لم يطل حتى قامت رجال سوريا ولبنان وطردوا المصريين من البلاد، وإذ ذاك كتب المصريون معاهدة هجوم ودفاع مع أمراء سورية ولبنان ، وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد حمل رعمسيس الثاني،بطل مصر المشهور،على سورية ولبنان ، وأخضع الحثيين وأخذ منهم الجزية ، لكنه عجز عن إخضاع أمـراء لبنان خصوصاً شماليه حيث أهدن وبشري ، فوقفتا بوجهه وردتا مطامعه ، وقد كاد يفرغ قواه ، ويفني رجاله من إرسال النجدة وراء النجدة ، وأخيراً ارتضى الفريقان أن يكون له السلطة الاسمية على تلك الربوع فقط .

وما لبث رعمسيس أن آب إلى مصر مدحوراً ، وعلى غير ما كان ينتظر ، ورضي أن يتخذ ملك سورية الحثي صديقاً ، فأبرم معه معاهدة دفاعية ، وبعد زمن ترك الجندية .

وبعد خروج المصريين انقسم السوريون إلى قسمين : قسم استقل بحلب، وكركميش ، وأعالـي سورية يترأسه الحثيون ؛ والقسم الثاني الكنعانيون استقل بلبنان وسواحل سورية البحرية ، وفلسطين ، وبعض بلاد العرب ، ثم انقسم الفينيقيون إلى إمارات صغيرة نازعت بعضها بعضاً وكانت أقواها وأفضلها الباقية .



الفصل الثامن

في اجتياح موسى فلسطين

وبينما كانت القبائل المتقدم ذكرها في مناوشات وخصام ، أقبل علهيا اليهود ويشوع بن نون ، فدوخوا بلاد فلسطين ،وأزاحوا الكنعانيين عن أرض اليهودية .

وقد حدث للكنعانيين ما حدث لبني حام وسام من التعاضد والتكاتف حينما هجم عليهما بنو بابل وآشور ، فقد اجتمعوا تحت راية واحدة ، ونكلوا باليهود وأذلوهم ، ثم غزا سورية الآشوريون وأوجبوا عليها ثمانية أعوام في نهايتها رجعوا عنها بالفشل،وتأصلت الحروب بين اليهود وأهالي لبنان،ومرت الأعوام على مخاصمتهم إلى أن أعاد الآشوريون الكرة عليهم فأخذوهم على غرة ، وبسطت سلطة الآشوريين عليهم ونزعوا استقلالهم .

ومن الأمم التي تداولت الحكم على أهالي سورية بعد الآشوريين البابليون ، فالفرس فاليونان ، فالرومان ، فالعرب المسلمون فالأتراك السلاجقة فالأكراد الأيوبيون ، فالصليبيون فالمماليك الأولون والآخرون فالأتراك الحاليون[1] .



(1) ان القيمة العلمية لهذا العرض التاريخي شبه معدومة ، لكن هذا العرض في حد ذاته يمكننا من تصور السوية العلمية ونوع المعارف عند كبار المثقفين العرب أواخر القرن الماضي .

الفصل التاسع

الاتراك العثمانيين

الأتراك قبيلة طورانية احتلت آسيـة الصغرى وبعض شطوط البحر الأسود وأرمينيـة ، ونزحت إلى تلك الاقطـار من أعالي آسية التركية على حدود الصين في القرون الوسطى هربـاً من وجه جنكيز خان الفاتح التتري المشهور ، وفي احتلالهم آسية الصغرى وبلاداً أخرى تسمت على اسمهم التجأوا إلى السلاجقـة المسلمين ، فحموهم وأقطعوهم أراضي لمواشيهم ، وكـانوا يقتصرون على الماشية من أعمالهم وهم كثيروا الشبه بعرب أيامنا [١] .

وكانوا يعتمدون في حلّ ما يطرأ عليهم من المشاكل على عثمان ، وهو زعيمهم ، بل قائدهم ، في كل أعمالهم وكانت الحروب الصليبية دائرة رحاها في ذلك الوقت ، وكـان آل سلجوق أصحاب السيادة الاسلامية ، فتطوع عثمان المشار إليه مع أولاده وبعض من رجاله في نصرة بعض سلاطين السلاجقة، وأظهر شجاعة وحسن دراية مما استدعى الالتفات إلى مكافأته وتقديره حقه ، فرقي إلى درجة الإمارة وعينوه حاكماً على مقاطعة ، وبعد بضع سنين توفي السلطان السلجوقي الذي لجأوا إليه ،فانتهز هذه الفرصة الأمير عثمان،وجاهر باستقلاله وقد خدمهُ حسن الطالع ، فأسس له ولولده دولة مستقلة لم تزل اعلامها مرفوعة إلى الآن [٢] .



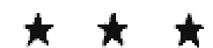
(١) لقد تعرض أكثر من باحث الى مسالة هجرة الشعوب التركية ، وانصح في هذا المقام القارىء الكريم بالعودة الى كتابي «مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية» هذا وواضح أن المراد بعبارة « عرب » هنا البداة من سكان سورية وسواها .

(٢) لتقويم هذه المعلومات وشرحها انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ تأليف : محمد فريد . بيروت ١٩٨١ ـ ص ٦٨ ـ ١٢٠ .

الفصل العاشر

في فتوحات السلطان بايزيد

فالانسان كان ولم يزل لا يحترم حقوق جاره ، وفي امكانه الاستيلاء عليها ، فالسلطان بايزيد لما آنس ضعف المملكة الرومانية الشرقية ، واقترابها إلى الهرم ، جمع شتات رجاله ، ونفخ في صدورهم المجد والحمية فتألبوا ورفعوا الأعلام ، وزحفوا على المملكة الرومانية ، وهم يستطيبون الموت في بناء مجدهم ، الذي كاد يذهب منهم ضحية على مذبح الشقاق والمشاكسة ، فدوّخوا أكثر إيالاتها ، ما عدا عاصمتها القسطنطينية التي كادت تدخل في مطامعهم ، لو لم يعترضهم تيمورلنك التتري المشهور بين قواد العالم إذ ذاك ، ويصدهم عن متابعة فتوحاتهم ، وقد جرت بينهما موقعة عظيمة في أنقرة أسفرت عن وقوع السلطان بايزيد أسيراً بيد تيمورلنك ، فقبض عليه ، وأخضع رجاله ، وبعد ذلك خلا له الجو فاستولى على مملكة الترك ، وتمكن من جمع الجباية من مصر ، وملك الروم ، وأسكره النصر فقاده إلى فتوح الصين ، لكن المنية عاجلته ، وهو في الطريق وتوفي السلطان بايزيد بعد وفاة تيمورلنك بمدة قصيرة (١) .



---

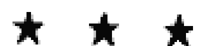
(١) انظر تاريخ الدولة العلية : ١٣٧ ــ ١٤٧ .

Four Studies of The History of Central Asia, by Barthold Leiden, 1962, vol, I, PP 56 - 62

الفصل الحادي عشر

في أن الملك المستبد تموت دولته بموته

كان لتيمورلنك الهيبة والعظمة بين رجاله ، حتى كانت ترتعد فرائصهم عند مواجهته ، فتفرد برأيه ، واستبد بحكمه لما ناله من النصر في فتوحه ، والطاعة العمياء من رجاله ، وكان يأنف من مكالمة أخص رجاله في أهم الشؤون ، وكانت مملكته بما أضاف إليها من الممالك متعلقة به رأساً [1] ، لذلك لما انتشر خبر وفاته بين رجاله وسائر مملكته تقوضت أركان سلطته ، ودكت إلى الحضيض ، لأنه لم يكن بين رجاله رجل به الكفاءة لإدارة شؤون المملكة، فتبعثرت ولعبت بفتوحاته أيدي سبأ ، ولو كان تيمورلنك في حياته قرب إليه رجلاً أو بضعة رجال ، وكان يتظاهر بالاعتماد عليهم في حل المشاكل لحفظ لهم في مماته رهبة في قلوب جنده وساعدهم على إحياء مملكته وتعزيز شوكتها إلى ما شاءت التقادير ، ولما رأت الاتراك وبقية الممالك التي اجتاحها تيمور وملكها ما وقع لجنوده بعد وفاته ، جاهروا باستقلالهم ورفضوا أن يكونوا تحت سلطة التتر ، أما الأتراك العثمانيون فأقاموا عليهم أميراً من سلالة الأمير عثمان، وطابت لهم الفتوحات ومد سلطتهم .



فاجتاحوا القسطنطينية وتملكوا على بقية الدولة الرومانية ، وبعد أن عرفوا بطشهم طلبوا سورية بقيادة السلطان سليم [2] الفاتح فاستولوا عليها ، وعلى مصر وفيها بقية الخلفاء العباسيين ، فبايعوه بالخلافة العربية ، فأصبح أعظم ملوك الاسلام بطشاً وسطوة وأعرقهم نسباً وصلة .

★ ★ ★

---

(١) لدى حصار تيمورلنك لدمشق لقيه ابن خلدون ، وتحدث ابن خلدون عن ذلك في كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » ط . القاهرة ١٩٥١ ص : ٣٦٦ ــ ٣٨٠ . وينصح القارىء بالعودة الى كتاب ابن عربشاه « عجائب المقدور » .

(٢) انظر تاريخ الدولة العلية : ١٤٧ ــ ١٩٧ . الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان ــ ط . القاهرة ١٩٦٢ . مقدمة المحقق د. هانس أرنست مع ثبت مصادر التاريخ العثماني ثم نص الكتاب : ١ ــ ١٩ .

الفصل الثاني عشر

في امراء المماليك البحرية

هؤلاء الأمراء يقال لهم مماليك البحرية ، نسبة إلى بحر النيـل ، لأنهم كانوا يقيمون في جزيرة من جزره جعلوها حصناً لهم ٠

هؤلاء المماليك وضعوا أيديهم على مصر بعد الدولة الكردية الأيوبية ، وكانت السلطة تتداول بينهم لأعظمهم سطوة ، وكانت سورية تابعة لهم ولما أذلهم السلطان سليم ، وأخرج الدولة من أيديهم ، عينهم جواسيس على رجال دولته في مصر وسورية ، فظلوا في خدمته ، ولكن مطامعهم كانت تحدثهم بطرد العثمانيين ، وإرجاع دولتهم الى الوجود ، ولمـا درت الدولة العثمانية بما يضمرونه في صدورهم عليها من الحقد أوعزت لرجالها في قطـع دابرهم وإراحة البلاد من شرهم ، ولم تتمكن من تنفيذ أوامرها إلا سنة ١٨١١ على يد محمد علي باشا ، فقد محا آثارهم بالمكيدة المذكورة [١] ٠

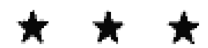
أما قبل ذلك فكانوا يترقبون الفرص لإعادة سيادتهم حتى قام بهم علي بك الكبير ، وادعى قيادتهم وقام بهم بعد أن دربهم على الحرب والكفاح ، وطرد الاتراك من مصر وأمَّ سورية وغيرها من إيالات الدولة العثمانية ، وكان النصر حليفه ، ولما رأت الدولة سطوته وشعرت بانتصاراته العديدة ، أوجست منـه فبعث إليه صهره [٢] ليفتك به غدراً ، فقبل المهمة التي دعتـه إليهـا الدولة ، ومضى قاصداً حماه وبعد أن غدر به وفاز بعمله الشنيع حدثته نفسه أن يتولى قيادة الجيش ، ويحل نفسه محل عمه ٠ لكن الدولة أوفدت جيشاً كبح مطامعه

---

(١) في مذبحة القلعة ، لكن خدمة لمصالحه ومطامحه الخاصة ، وليس تنفيذا لاوامر الدولة العثمانية ٠

(٢) يريد به محمد أبي الذهب ٠

وغل يده ، وبقيت مصر في حوزة المماليك وتحت رعاية الدولة العثمانية إلى سنة ١٧٩٨ ، حيث أقبل إليها نابليون الأول فاتحاً بجنده الفرنساوي ،ثم خرج هذا الجند منها سنة ١٨٠١ ، وعادت إلى كنف الدولة وتولاها محمد علي سنة ١٨٠٥ ، وهو الذي قرض المماليك سنة ١٨١١ كما تقدم .



الفصل الثالث عشر

نوع حكومة سوريا في عصر حوادث هذا التاريخ

ومما يجدر بنا ذكره هو ايداع كتابنا هذا لمحة إجمالية عن نوع حكومة الأتراك بسورية بعصر حوادث هذا الكتاب ، ليحيط القارىء بها علماً ، ويعلم ما كانت حالة الحكومة القانونية والمالية ، وكيف كانت تضبط أمور الدولة بذاك العصر .

ونعتمد هنا على ثقات المؤرخين وخصوصاً تاريخ حسر اللثام عن نكبات الشام [1] فنقول :

ومما لا يختلف فيه اثنان أن العدل أساس الملك بكل العصور الغابرة والتي سوف تأتي . فالدولة التي ساد العدل فوق ربوعها ، وعمت المساواة أفرادها تنمو وترتقي وتتسع أملاكها وتعم سطوتها ، ، ويتوافد القوم لطلب نصرتها ، والاحتماء بظلها من مخالب الاستبداد والجور ، وحسبنا ما رواه التاريخ شاهداً لما قلناه ، وما نراه يجري بالممالك الحية دلالة قاطعة على أن العدل والمساواة أمام القضاء ، ودستور الدولة ، وإعطاء كل ذي حق حقه

(١) مجهول المؤلف طبع في مصر سنة ١٨٩٥ ، فيه مقدمة لا شك أن مقدمة كتابنا هذا اعتمدت عليها ، وقفه صاحبه على مذابح ١٨٦٠ ، جاء مع فهارسه في (٢٨٥ ص) والحق به ملحق في / ٢٤ / ص ، واخبار المذابح احتلت منه من ص ١٤٥ الى نهاية الكتاب .

هي أساس الارتقاء . على هذا الطريق مشت دول التمدن والارتقاء القديم ، وعليها تجري الدول الحية بأيامنا .

وعلى هذا الطريق تمشت الدولة العثمانية بأول أدوارها في عهد السلاطين العظام الفاتحين، الذين وسعوا نطاق المملكة وأجروا العدل والقسط في الرعية، فتهافت للخضوع لهم الرفيع والوضيع، حتى ارتقت دولتهم من مقاطعة صغيرة، إلى مملكة واسعة الأرجاء، ومضى عليها عصر كانت به أعظم دولة بالعالم على الإطلاق .

وكان يستظل عشرات الملايين من البشر بظلها الزاهر ، ومجدها الباهر يتسابقون إلى إحراز حمايتها من كل صقع وناد .

إنما عند وقوع حوادث كتابنا هـذا ، كان العدل والقسط قد تركا ربوعها ، لفسـاد المأمورين ، وجهـالة الشعب الذي بفضـل عسف الحكام وجورهم واصل سيره للوراء ، [فهو] في عصر حوادث هذا الكتاب، لا يختلف عن الشعوب الهمجية بأواسط أفريقية إلاّ ببعض الشؤون الثانوية .

كل ذلك من فساد الحكام وتشويش نظام الدولة ، وخروج مهابتها من صدور أولئك اللئام الذين كانوا يعيثون في الأرض فساداً .

وكان همهم ابتزاز مال الرعيـة ، وتعزيز الهمجية ، ومحـاربة العلم واستئصال شأفته ، حتى كنت لا ترى في سورية واحداً من مائة يحسن مبادىء القراءة ، فما قولك بالعلوم الاخرى .

وكان كل منهم دأبه جمع المـال ، والتنعم بالملذات ، وإتيان المحرمات كيف ما كانت الحال ، لا يقعده عن قصده دين ولا ذمام ، ولا يعتبر نظاماً ، وكثيراً ما كان يجرد سيفه لقتال الدولة ، ويرغمها على الرضا بالسلطة الإسمية فقط ، لقاء مال يدفعه لها .

فكانت الدولة لا يهمها من أمور الرعية شيء شقيت أم سعدت ، إذا كانت تدفع المال المطلوب لها ، فاستبد الحكام ، وعظم شرهم وكبر أمرهم ، وأصبح من المستحيل ردعهم ، فتأصل بهم هذا الخلق ، حتى تخلقوا به ، وبئس المسير والمصير .

* * *

الفصل الرابع عشر
تقسيم الايالات

وكانت البلاد السورية تقسم إلى أربعة أقسام إدارية ، أو أربع إيالات : الأولى إيالة حلب ، والثانية إيالة دمشق ، وهذه كانت تتناول أواسط البلاد مما يلي الشرق ، والثالثة إيالة صيدا أو بيروت ، وكانت تتناول أواسط البلاد مما يلي الغرب ، والرابعة إياله القدس الشريف •

وكان لكل إيالة وال مستقل عن الآخر يصدع بأمر الباب العالي رأساً في أمور إيالته ــ إلاّ أن البلاد ، أو الايالات ، كانت تخضع عسكرياً لسلطة قائد عام يقيم بدمشق الشام ، ويدعى مشير العرضي الهمايوني الخامس ، وكان هذا المشير وظيفته إدارة الشؤون الجندية بسورية كلها، ولم يزل هذا النظام للآن •

وكان رجال الجند بذاك العصر ، إلاّ نفر صغير منهم ، اجانب أخلاطاً من ولايات الدولة بأوربة وبلاد الأتراك بآسية الصغرى ، والعرب بينهم قليلون، لأن النظام لم يكن نافذاً فيهم •

وكان لكل إيالة مجلس شوروي ، مؤلف من بعض : علماء المسلمين ، والوجهاء ، وأهل النفوذ ، والباشا ، يترأسه الوالي ، ومن شأنه النظر في الأمور المالية ، وأحوال الجندية ، وغير ذلك من المهام •

وكان الحكم في الدعاوي الجنائية منوطاً بالقاضي باشي ومركزه في باب السراي الأميرية ، ثم بالتفكجي باشي ، وهؤلاء الجماعة كانوا رؤساء القراقولات في المدن ، وكانوا قوماً أميون لا يعرفون الكوع من البوع ، يحكمون بحسب ما تقودهم إليه أهواؤهم وأفكارهم ، وكمية الرشوة التي يدفعها إليهم المجرمون ، ولم يكن لهم قانون يعرف ، ولا نظام يوصف •

هكذا كانت تضبط الحقوق بذاك العصر إلى الأحكام الحقوقية وما شابهها فالذي يسلم من تداخل الوالي وإرادته يحال للشرعية ــ أما الخصوصيات فكانت تناط بطوائف الأديان تحكم بها كل طائفة حسب تقاليد دينها •

★ ★ ★

الفصل الخامس عشر

في أسباب الثورات والقلاقل

وكانت القلاقل والثورات والاعتداءات متواصلة على التتابع ، ومعظمها يقع على المسيحيين وأهل السكينة من فقراء المسلمين ، وكان أكثرها يقوم به الجند ، وكانت رجال الجندية بالاجمال جماعة غطى الجهل والحمق أبصارهم، وضربت القحة أطنابها فوق رؤوسهم ، وكان الفجور والفسق ديدنهم ، إذ لا رادع يردعهم ، ولا نظام يقيدهم ولا قوة تصدهم ، فتماروا باللؤم والدناءة لدرجة الوحوش الضارية .

وكان الجند يقسم إلى ثلاثة أقسام أولية : منها إثنان وطنيان يلقبان بالوجاقات ، وهما وجاق الانكشارية ، ووجاق القبيقول ، والقسم الثالث مأجور يحضره الولاة كحرس خصوصي لهم ، وكان هذا الوجاق يؤلف من أخلاط الأمم كالمغاربة والتكارتة[1] والترك والدلاة والارناؤوط وغيرهم .

وكانت العداوة متأصلة بين هذه الفرق ، أو الوجاقات ، وقد قامت بسببها حروب كثيرة ، بين هذه الأقسام المتضاغنة هرقت بها دماء غزيرة ، فتسبب من جراء ذلك مخاوف وويلات عديدة وقعت على الشعب ، حيث كان هؤلاء الرعاع ينهبون الدكاكين ، وتقفل الأسواق ، وتوقف حركة الأعمال ويستحيل على أبناء السبيل الخروج من بيوتهم لتحصيل طعامهم .

ومرات عديدة كانت بعض المدن السورية مسرحاً[2] لثوراتهم وتطرفهم، وكثيراً ما أوقدوا النار بأحياء المدن السورية وخصوصاً دمشق وحلب ، ولا ينفض المشكل إلاّ بتداخل الولاة أو بعض الأعيان ، ولا تلبث أن تعود الثورة إلى حالها الأول بعد أيام قليلة وهكذا كانت أحوال الشعب السوري بذاك العصر .

---

(١) كان جل التكارتة افارقة .

(٢) في الاصل : مرسحا وهو تصحيف .

وكان الدافع لذلك عدم مقاصة المجرم ، وقلع جرثومة الفساد ، وإكراه الأوباش على احترام الشريعة ، ولأجل هذه الاضطرابات ومثلها كنت ترى شوارع المدن وحاراتها كثيرة الأبواب العظيمة ، تقفل وقت الثورات وقاية لمن ورائها ٠

وكان أكثر رجال الوجاقات نفوذاً الانكشارية، لكثرتهم وشدتهم، وصداقتهم للوالي ، ويأتي بعدهم القبيقول وغيرهم ، وكان زعماء هذه الفئات يلقبون بالأغوات ، وكانوا يرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون إليها ، حتى كانت القهاوي التي يتردد إليها هؤلاء ينقش فوق بابها اسم الوجاق الذي يتردد إليها ٠

ولم يكن لهم نظام عسكري يرجعون إليه ، وكانت الأحياء المدنية تخضع للآغا الذي يقيم بها ، وهذا يخضع إلى زعيم الوجاق المنتخب من الأغوات ، لشدة بأسه أو لصداقته للوالي أو غيره ٠

وكان الأحداث والنساء لا يتجاسرون على المرور بمجتمعات هؤلاء الجهلة ، خوفاً من الاغتصاب ، وكان ذلك عظيماً على الرعية ، وكان المنتمون إليهم كثيرين لعناية الحماية ، أو للمشاركة بالقبائح وما شابه ٠

وكان ما يصلهم من مال الخزينة لا يكفي نفقاتهم ، لكثرة أتباعهم فاضطروا للعمل ، فكانوا يذهبون للعمل مثل بقية الناس وعليهم السلاح ، ليسهل لهم الانضمام إلى فرقتهم متى دعت الحاجة ٠

أما الخاملون منهم ، وأهل الفسق كانوا يجتمعون في القهوات ، ويعاقرون الخمرة ، ويعتدون على القوم ويصادرون أموالهم ، ويفترسون نساءهم وأولادهم ، وكثيراً ما كانوا يقتلون الناس لغير سبب ، كتجربة سيف أو بندقية بأحد المارة ، ولم يخلو من بعض أهل الشهامة والمروءة ، إنما كانوا يعدون على الأصابع ٠

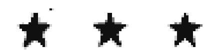
وهذه الأحوال الفوضوية ، جعلت الرعاع تتمادى بالقحة والفجور لدرجة قصوى ، بسبب ضعف الحاكم وقصوره عن ردع القوي عن الضعيف،

وكانت الباعث على إظهار قوة الأفراد ، فكثر بذاك العصر الجبابرة الأشداء من مسلمين ونصارى ، من غير المنتمين لأحد الأحزاب الجندية، والمتكلين على أنفسهم وشدة بأسهم .

وكان القوم يحسبون لهم الحساب ، ويخافون بطشهم ويحترمونهم ، ويدعونهم بالمعتبرين ، وكانت هذه الفئة صاحبة مروءة وشهامة يحكى عنها حكايات عديدة ، تظهر مروءتها للعيان نثبت واحدة منها للقياس ، ونترك الباقي لتصور القارىء .

قيل أن رجلاً من وجهاء المسيحيين مرت زوجتـه بالشارع مقبلة من الحمام ، فنظرها أحد الانكشارية ، فراقت بعينه فتعقبها لبيتها ، وبعد أن علم المكان وسأل عن زوجها ، قيل لهُ إنهُ يعمل بتجارته ، فقصده وقال لهُ : يا فلان استعد لتدبير عشاء ومسكر ، وقل لزوجتك أن تتحضر لأني سوف أضيفكم بعد ساعة .

ففهم الرجل ما يريد هذا الوغد من هتك عرضه ، فكبر عليه الأمر ، وكان له صديق من الجبابرة مسلم ، فقص عليه مصيبته ، فقال لهُ : افعل ما أمرك بهِ ، وسوف أحضر لبيتك وأريحك من شره، فأقبل الانكشاري حسب وعده ، فأكل وشرب الخمر ، وبينما هو يستعد لهتك عرض الرجل ، حيث طلب المرأة لتسقيه الخمر ، ذهب الجبار واحتز رأسهُ ، وعلى هذا المنوال كانت تجري الأحوال .



الفصل السادس عشر

نظر عام في حالة المسيحيين

وكان التعصب الديني بالغاً أشدهُ بشعب ذلك العصر ، حتى تجاوز به القوم حدود الافراط ، وكان المرء منهم يحسب كل رجل غير متدين بدينه جاز لهُ قتله والاعتداء عليه ، لا إثم في ذلك ولا تثريب في ابتزاز ماله وعرضه ، وانتشرت هذه الروح حتى عمت السواد الأكبر من القوم ، وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة، ولكنهم لم يتوافقوا لردع الرعاع ، في زمان عمت فيه الفوضى ، وساد الجهل والهمجية على عيون القوم •

وكان المسيحي عرضة للاهانة والذل حيثما [1] مرّ أو حلّ ، وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة ، حتى ألف الذل كما ألف مذله إذلالهُ ، فكان النصراني حيثما مر ، وتوجه ينعت بالكافر ، ويشتم صليبه ، ويحتقر وتقلب عمامته ، ويصفع ويرفس إلى غير ذلك من الإهانة •

وكان إذا مرّ في حي المسلمين لحقه صبيان الأزقة معيرين قائلين لهُ : « نصراني ، كلب عواني • رقوله بالصرامي •• قالت أمه فينه • ضربة تقلع عينه » وغير ذلك من القبائح •

فكان يتحمل كل هذه الإهانات بصبر ، لا يفوه بكلمة دفاع ، ولا يقدر على غير الاستجارة بتقي مسلم إذا صدفه ، فيحاول هذا إبعاد الصبيان عنه وإلا فلا •

وكان المسلم إذا مر بمسيحي يقول لهُ : « أشمل » ••• يريد بذلك أن يسير عن يساره ، فيفعل صاغراً • وإذا كثر [2] الناس بالطريق بين ذاهب وآيب ، كثر شقاؤهُ ، ولا يعلم كيف يذهب ، فيدعى للطورقة ، فيطورق أي

---

(١) في الاصل : بينما ، وهو تصحيف •

(٢) في الاصل « واذا كثرت » وما اثبتناه هو الاصوب •

يمشي في الطاروق ... ، والطاروق عبارة عن منخفض في وسط الشارع تسير به البهائم ، ينحط عن رصيف المارة قدماً تقريباً ، وعرضه من أربعة إلى ستة أقدام ، تتجمع به الدواب محملة ، وفي فصل الشتاء يجتمع به ماء الشتاء ، وفي الصيف الأقذار ، وكان يصادف هذه التعيس آلاماً مبرحة من الحيوان والانسان على السواء ، هذا الحيوان يدفعه وذاك يزحمه ، والسائق يوخزه ، وغيره يلكمه ؛ وهنا نمسك القلم ونترك للقارىء تصوّر[1] حالةهذا التعيس، وكيف كان يسام العذاب من الحيوان والانسان ويعامل أقبح من الرق .

وكان كثيراً ما يسخره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم ، أو يستعملون إهانته واسطة لإذهاب[2] مللهم وتفريج كربهم ، فيناديه بعضهم : تعال يا معلم، فيذهب إليه فيصفعه ، ويكلفه أن يذهب بحاجته أو يلبسهُ حذاءه أو يشتغل عنه[3] شغلاً ما ــ وإذا كان مازحاً يهمس في أذنــه شتماً أو إهانــة أو يأخذ عمته ويصفعه على أم رأسه ، ويرمي العمة إلى جاره ، وهذا إلى الذي يليه وهلم جرًّا ، ويقول له : إذهب وخذها منه ، فيذهب فيكررون عليه العملية إلى أن يملوا فيتركوه ، وكانت تلك العمامة كبيرة مستحكمة الربط كــي تتغلب على ما تقدم[4] ، وفي ضمنها ورقة الجزية ، لأنه لو سار خطوة بدونهما عرض نفسه لخطر الإهانة ، لأنه قد يفتش كل يوم مراراً وتكراراً ، وويل له إن لم يبرزها عند كل سؤال عنها .

وكان قانون الحكومة إذ ذاك يُكرِه المسيحي أن يحمل على كتفه كيساً يسمونه كيس الحاجة ، وليس له أن يخرج من بيته بدونه ، والمقصود من هذا الكيس أن يضع به من الأغراض وحوائج المسلمين ما يسخره هؤلاء بحمله من : بقول ، وخضار ، وغيرها .

---

(١) في الاصل « تصوير » وما أثبتناه هو الاقوم .
(٢) في الاصل « لازهاب » وهو تصحيف .
(٣) في الاصل « عن » وهو تصحيف صوابه ما أثبتناه او « عنده » .
(٤) في الاصل « تقي » وما أثبتناه هو الاقوم .

واتفق غير مرة أن النصراني كان يقضي يومه مسخراً ببعض الأوقات ، رغماً عن كونه صاحب عائلة تعيش من عمله ، ومضطراً للعمل لتحصيل قوتها ، ومتى قضى يومه مسخراً باتت تلك العائلة بدون قوت ، أو تقتات على صدقات أهل الرحمة ، . وتكرر عليه الإذلال حتى ألفه ، وحسب نفسه خلق ليكون رقاً لقوم ليس بقلوبهم رحمة ولا حنان .

وكانت أموال المسيحيين مطمعاً للحاكم وغيره ، فلا يعدم من انتحال الأعذار لاستنزافها ، فإن لـم تكن بالخراج والجزية فالقروض والمطالبة وما شابهها ، ومن لم يدفع سجنه حتى يدفع أو يقتله ، وكثيراً ما قتل جماعة منهم خنقاً وشنقاً لكونهم لم يدفعوا ما يطلب الحاكم منهم[من]القروض وغيرها ،ولم يكن الحاكم وحده يضغط على النصارى مالياً ، بل هناك كان يؤدي جزية لزعماء الرعاع من المسلمين ، ليتركوا له حياته ثم إلى المتشردين من (الأبضيات) وأهل البأس من الذين متكتب على كيسهم ، هذا فضلاً عن مغـارم الجند وأصنافها العديدة ، وقد لا يمر به اسبوعاً لا يدفع به غرامة ، وكانت الحياة صعبة على من رزىء بحكم الوحوش الضواري ، الذين سولت لهم النفس أنه يجوز لهم تعذيب من كان على غير دينهم .

وكان أكثر التعدي الذي يقع بأهل الذمة من الجند والأوباش ورعاع الإسلام كثيراً ما اضطر بعضهم لاعتناق الاسلام هرباً من الحيف والذل، وفات هؤلاء أن الدين لا يقوم بالاكراه بل يأمر بالحسنى والمعروف لمن لا يتدين به ، وقد كان هناك جماعة من الفقهاء المسلمين لم يرضوا بهذه المعاملة ، لكنهم كانوا القليل من السواد العظيم ، ولذلك لم يجد نهيهم نفعاً ، ولا رد سهام الرعاع عن المسيحيين .

وقد حظروا على النصارى لبس شيء يقترب من الملون ، ولو كان لهم مقدرة مادية على الحصول عليه ، ولا ركوب المطايا إلا بطريركهم فهذا كان يسمح له بالركوب ، وحصل من جراء ذلك أمور تتمزق منها الأكباد ، وتتفطر لها الفؤاد ، كظلم وشتم وهتك أعراض وسلب الروح والمال،ومن غريب عادات ذاك العصر أنهم كانوا يعتبرون إذلال المسيحي تديناً ، ولإثبات ما تقدم نثبت

منشور درويش باشا[1] وهو واحد من مئات تقدموه وعقبوه ، فيعلم القارىء العزيز منزلة أولئك التعساء ، ويقيس عليها حالة غيرهم ممن تقدمهم وعقبهم ، وهذا هو بنصه الحرفي :

« صدر مرسومنا هذا المطاع إلى مشايخ واختيارية أهالي قرية صيدنايا المسلمين ، ليجروا بحسبه ويعتمده ، فالبادي : هو أن النصارى عندكم عمال يقلدوا الإسلام في ملابسهم وعمائمهم ونعالهم ، وتعدوا درجاتهم ، وخالفوا فهذا ضد إرادتنا ولم يعطى[2] به رخصة منا ، فبناءً على ذلك بعثنا لكم مرسومنا هذا أجل أن تحذروهم ، وتنذروهم من عواقب ذلك حالاً ، وتنبهوا عليهم لا يلبسوا إلا ملبوس أزرق وعمامة سوداء ونعال سود ، ولا تدعوهم يقلدوا المسلمين بشيءٍ لا نساءً ولا رجالاً ، وإن بلغنا أن واحد تعدى الحدود المذكورة ، ، فماله لا يغني عنه ، وخطيئته في عنقه ، ونطلع من حقكم وحقه ، فبناءً على ذلك أرسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعه فخر أقرانه جندي باشا أرقداش محمد آغا ، فبوصوله تعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته ، إعلموه واعتمدوه ، والحذر من الخلاف .

في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ هجرية » . الختم

محمد درويش

هكذا كانت حال المسيحيين في عصر حوادث هذا الكتاب ، وأكثرها كانت تقع ، ودامت على هذا المنوال لفتوح ابراهيم باشا سورية ، فرفع عن أعناقهم الاستعباد والاضطهاد[3] .

★ ★ ★

---

(١) كان صدرا أعظما أرسله السلطان محمود الثاني [١٨٠٨ ــ ١٨٣٩] الى الشام ، وكلفه سنة ١٨٢٢ م باعادة سلطة السلطنة العثمانية الى بعض مناطقها . انظر تاريخ حيدر الشهابي ط. بيروت ١٩٥٥ ــ ص:٢٥٩ ــ ٣١٢. هذا وسيمر في كتابنا هذا مواد كثيرة حوله .

(٢) كذا بالاصل .

(٣) مع أننا لا نطلب في الحاضر من الماضي أكثر من الماضي فان ما جاء في هذا الفصل يمثل الاستثناء وليس العام ، وفي مواده تطرف ومغالاة شديدة ، ويدحض ذلك الوثائق وشواهد كثيرة منها ما ساقه المحرران للكتاب مباشرة قبل عرض مواد هذا الفصل ص : ٤٩ ــ ٥٠ .

الفصل السابع عشر

في نسب امراء لبنان ومشايخه

من أعظم أمراء لبنان بعد أمراءِ معن المنقرضين ، أمراءُ شهاب الذين يرجع نسبهم إلى أقدم عصور الاسلام ، ولما قدم العرب لفتح الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد قدم معهم بطن من بني مخزوم الذي يرجع إليه تاريخهم بالشام .

وقد توفي جدهم الأول بحصار دمشق ، وبعد الفتح اقطعهم الخليفة أرضاً واسعة في حوران ، وأقاموا في مدينة شهباء من أعمال جبل الدروز ، ومنها أخذوا لقبهم المتعارف بالشهابيين [1] .

وفي تلك الأعصر امتنعت أمراء لبنان وولاة أموره عن طاعة دولة العرب، فبعث إليه بني مخزوم وغيرهم من بطون القبائل العربية وأمراء معن ليرغموا أمراء لبنان على الطاعة للدولة ، وكانت الدولة ترسل النجدات وتعد صاحب الغلبة بالولاية على لبنان وما يتبعه من الولايات ، وقامت الحروب أعواماً عديدة ولم يكن النصر ليتم لفريق إلا ويعبس له ، إلى أن دالت دولة أمراء المردة وقامت على انقاضها دولة أمراء معن واخلفت هذه أمراء الشهابيين [2] .

أما المشايخ فدرجات متفاوتة فمنهم الحاكم الكبير والصغير ، ولفظة شيخ عربية ، وهي لقب يراد به وصف وجيه القوم أو زعيمهم ، وأحياناً يقصد بها الطاعن بالسن .

وفي الطبقة الأولى بين مشايخ لبنان ممن حكموا في ناحية الجنوب بيت علي الصغير ، فامتدت حكومتهم من جسر القاسمية إلى نهر [3] الليطاني بما

---

(١) انظر اخبار الاعيان في جبل لبنـان ـ تاليف الشيخ طنوس الشدياق ـ ط بيروت ١٩٥٤ : ١/٣٥ ـ ٦٤ .

(٢) الشدياق : ١/٣٣ ـ ٣٤ ، ٢٠١ ـ ٢٠٣ ، ٢٤٤ ـ ٢٦٥ .

(٣) في الاصل « النهر الليطاني » وما أثبتناه أقوم .

يتخلل هذا القسم من القرى ، والمدن ومن بلاد بشاره إلى حدود الكرمل ، ومن الكرمل وناحية صفد مع مدينة عكا ، كانت تحت سلطة مشايخ الزيادنة ، ومن النهر الليطاني من ناحية صيدا ، فاقليم الشومر ، وبلاد الشقيف كانت بيد مشايخ الصعبية الشيعيين أو المتاولة[1] .

ومن خارج صيدا بميل يبتـدى اقليم التفاح وهو آخر حـدود لبنان جنوبيّاً وتحكمه آل شهاب من صيدا لحدود طرابلس شمالاً[2] .



الفصل الثامن عشر

في حكومة لبنان وسوريا الاهلية واستعباد الشعب

فالمشايخ الذين تقدم لنا الكلام عنهـم ، كان يتولى أمرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة بعد أن تعرض عليه الجباية ، وتطلق لهُ التصرف بأحوال الشعب وراحته ، وكانت شريعة شيخنا هذا إرادته .

وكان هذا الزعيم ، أو شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء ، ويطلق عليهم اسم مشايخ تعزيزاً لهم ، وكان يفرض عليهم مالاً محدوداً ، ويعدهم أن لا يتعرض لأعمالهم ، فيمرحون ويطلقون لمطامعهم الأشعبية الأعنة في مص حياة الشعب من عروقه بـلا شفقة ولا حنـان ، وكانوا يستعبدون ويأتون المنكرات في كثير من أعمالهم الجائرة .

وكان الشعب المسكين يؤدي الطـاعة العمياء إلى حكامه ، ويأتمر عفواً بأوامر ولاة أمرهِ ، ولم يكن إدراكه يخوله معرفة أنه ما خلق ليكون عبداً عتيقاً لحاكمه ، وكانت الدولة علة وجود هـذا الاعتساف في أعمال رجالها الأمناء ، حيث كانت تطلق للوالي حقوق التصرف بولايته بعد أن تنال منـه

---

(١) انظر تاريخ حيدر الشهابي : ٨٢ ــ ٨٣ .

(٢) انظر أخبار الاعيان للشدياق : ١/٥ ــ ٣١ .

الرسم المعين ، وكان هذا يولي شيخ المشايخ ، وهـذا يولي مشايخ ومعاونين على سلب مال الرعية بما تتوصل إليه يدهم ويقدرون عليه .

وكان الشعب لا يرد لهم طلباً ، لجهله القانون ، ولذلك كان كفيلاً قوياً لإملاء بطون مشايخه وهو زعيمها ، وهذا مكلف بإشباع بطن الوالي ، ومن الوالي يرسل ما بقي عن تلك النفوس الجائعة والبطون الخاوية إلى الخزينة المتهبة ، ومن سوء طالع الشعب ، لا الخزينة ولا بطون المشايخ والوالي تعرف الامتلاء ، فأتت البلصات متتابعة والنهب قائم على قدم وساق .

فتأمل وما ترجوه من ذلك الشعب الذي طاب له الذل وألف العبودية .



الفصل التاسع عشر

في ان الاستبداد يذهب بالوطنية

كان شيخ القرية ينظر إلى الشعب ، نظر السيد ، ويسلبه راحته فضلاً عن ماله أين شاء ،وكيف شاء ، كما تقدم وكأن الشعب تعود الطاعة وألف الجبانة ، فنام إلى الذل وحسب لشيخه مزية عليه ، ومقدرة له لا مناص ولا مهرب له من جور حاكمه ، فكان كالنعجة تساق إلى الذبح بلا معارضة أو أقل مدافعة عن حياتها ، ومن البديهي من شب على العوائد وألف تلك الأعمال الجائرة ـــ والانسان ابن عوائده ومألوفه ـــ يستطيب الذل والخضوع،وكيف لا يذل وحالته كما عرضناها لك ، كيف يقدر على رد الغزاة وتلك جامعته ، ومع هذا الانحطاط الذي كان فيـه شعب لبنـان ، لو قدر لزعامته الاتفاق والانضمام ربما كان له النهوض ، وحض الشعب على مناصرته في رد الأتراك والأجانب عن وطنهم ، وحفظوا استقلاله ، ولكن أين كان ذلك الشعب ، حتى وولاة أموره لم تكن تعلم من الوطنية غير جمع مال الشعب،وإظهار مقدرتها عليه .

وبعد أن علمت حالة الشعب في عصر حوادث كتابنا صار من السهل علينا إقناعك بصحتها وثبوتها وها نحن شارعون بسردها .



الفصل العشرون

في نشأة وسيرة أحمد باشا الجزار

جل ما نعرف عن نشأة هذا الرجل أنهُ قدم من بشناق إحدى الولايات العثمانية إلى مصر ، وقيل أنه دعي بالجزار بعد أن شاعت أعماله البربرية ، ومما جاء عنه في تاريخ نابليون ، بعـد حصاره عكا ورجوعه عنها بالفشل والخيبة ما نصه : « وكان من قبل الدولة التركية وال على عكا يدعى أحمد باشا الجزار ، سمي بالجزار لظلمه الشنيع ، وذبحه الأبرار ، ذبح النعاج ، ويعنون بلقبه ، جزار الغنم صاحب المقصبة ، لظلمه وكثرة شروره وقساوته ، حتى على عائلته التي ذبحها ذبح النعاج » .

وسواءٌ دعي جزاراً لظلمه وغدره أو كان ذلك لقبه فلا يهمنا اثباته الآن ولنا من أعماله التي نوردها عبرة للبصير[1] .

وكـان أحمد الجزار داهية كبيرة ذا مطامع شعواء ، وشجاعة نـادرة واقدام ، ورجل مثله اتصف بمثل هذه الاخلاق تحتاج إليه الدولـة ، وهي تفتش عن أمثاله لتجعله من أتباعها الأمناء ، فقد بعثت استحضرت اليها المشار إليه ، وحالا أرسلته إلى مصر ليفتك بالأمراء المماليك ويريحها من شرهم ،

---

(١) لئن اتفقت المصادر حول أصل أحمد باشا الجزار ، فقد اختلفت حـول أصل لقبه ، فقد قيل سمي بذلك لقتله في مصر بعض مشايخ العربان ، او لانه عمل جلادا ، ويبدو من نص معاصر للجـزار ورد في الترجمانـة الكبرى للزياني ــ سانشره ملحقا بهذا الكتاب ــ ان الجزار ادعي ــ او اراد ان يدعي ــ انـه مهدي زمانه ، فاذا صح هذا فان لقب جزار مثله مثل سفاح وما شابهه اتخذه رجال ادعوا الهداية ، وتراث الاسلام حافل بالمواد حول شخصية أو شخصيات المهدي المنتظر ، واجمع كتاب في هذا الميدان وابكرها كتاب « الملاحم والفتن » لنعيم بن حماد ــ ت ٢٢٧هـ ، وهو كتاب أملي كبير بنشره هذا العام انشاءالله تعالى ٠ انظر تاريخ حيدر الشهابي : ٢٧ ــ ٤١ ٠ لبنان في التاريخ لفيليب حتي ــ ط ٠ بيروت ١٩٥٩ ٠ ص : ٤٧٩ ــ ٤٨٠ ٠

فقدم الجزار إلى مصر ، ودخل في خدمة فريسته ، ولما توطن البلاد وعرف مالكها ،وكان في ذلك قد قطع الجانب الأعظم من مهمته التي حضر لأجلها حيث توصل بدهائه إلى جلب ثقة أسياده المماليك به ، وإجماع من عرفه منهم على محبته والاعجاب بنشاطه ، وحتى ينفذ مآرب الدولة أولم وليمة على نفقته دعا إليها جماعة من الأمراء المماليك فالذي حضر منهم ، وأجاب دعوته كان ذلك النهار آخر أيامه لأن المذكور صاحب الوليمة أكثر لضيوفه من الخمر ، حتى فقدوا رشدهم ، ثم نهض فذبح الواحد بعد الآخر إلى أن فتك بجميعهم وقد عرف بعد أن أقدم على هذا العمل الابتدائي أنه غير كاف لتحقيق أمانيه في اعادة مصر إلى الدولة ففر إلى سورية من وجه المماليك ، وحول نيته الفاسدة عن المماليك إلى امراء لبنان[1] .

★ ★ ★



الفصل الحادي والعشرون

في وصول احمد الجزار الى دير القمر

وأول مكان حط ترحاله فيه دير القمر مركز الإمارة حيث كان مركزها بها صيفاً وبيروت شتاءً ، وكان أمير لبنان وقتئذ الأمير يوسف الشهابي الذي كانت تمتد سطوته على تخوم لبنان الغربي والشرقي ، وعلى مسافة ميل عن صيدا إلى عكا شمالاً فحمص وأحياناً حلب .

وهذا الأمير كان نفوذه على سورية برمتها ، فضلاً عن شرقي لبنان وغربه ، حيث كان له نسيب حاكماً على لبنان الشرقي وهو مقيد بإرادته .

وكان غرض الجزار التقرب من أمراء لبنان لأغراض أثيمة وهي الغدر بهم وايقاد نار الفتنة بينهم وبين المشايخ .

وكان يتردد على قهوة الميدان بالقرب من مسكن الامير ، ومن دهائه

---

(١) واضح أن ما فعله محمد علي باشا نسب هنا الى الجزار .

ومكره كان يتردد إلى ذلك المكان بأوقات معلومة طمعاً في أن يراه الأمير من إحدى نوافذ القصر ، وكان ظاهره يدل على المسكنة والفقر ، مما جعل الأمير عندما اتفق له ورآه أكثر من مرة أن يبحث عنه ، وقد سأل بعض رجاله ، فقيل له إنه تركي قدم من مصر مطروداً .

وللحال أمر الأمير كاخيته الشيخ غندور الخوري ، أن يحضر الجزار إليه (كاخية لفظة تعبر عن كاتم أسرار الأمير أو نائبه ، والشيخ غندور الخوري هو جد غندور بك القاطن بلدة عندار ، والمدرسة التي أنشأها بطريرك الكاثوليك فيها هي نفس بيت الشيخ غندور) .

ولما مثل الجزار أمام الأمير سأل كاتم سره الشيخ غندور ، أن ينظر في أمره ، ولم يكن من حضرة الشيخ إلا الإعجاب والإطناب به أمام الأمير الذي سمح بإدخاله في بطانته ، وربما كان رأي الشيخ الاستعانة به لدى والي صيدا ، لأن واليها تركي مثله .

والأمراء كانوا يكثرون أعداد حاشيتهم وأتباعهم ، ويرحبون بكل من يعرض لهم نفسه لخدمتهم .

ولم يكد الأمير يلفظ جعل الجزار من أتباعه حتى سر من هذا الفوز ، وبش له ، وقد أمر له الأمير بكسوة وجواد مع بقية ما يلزم الفارس من السلاح ، وعين له مكاناً ليأوي إليه ، وقربه إليه وفي الوقت القصير أصبح الجزار أقرب إلى الأمير من بقية رجاله[1] .



---

(١) لقد سيطر على هذا السرد اختصار مخل،وعليه فان معلومات حيدر الشهابي: ٣٧ ـ ٥٠ ، أغنى وأكثر توازنا .

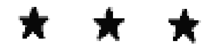
الفصل الثاني والعشرون

في ارتقاء الجزار الى منصب الحاكم

ومن ذلك الحين أخذ الجزار يعد المعدات لاتمام حيلته ، وأول أعماله كانت ترمي إلى تحقيق ثقة الأمير به والإعجاب بأعماله التي تجعل صاحبها أن يكون ذا نشاط وحذق ، وقد تحققت أمانيه حيث أخذ الإعجاب من الأمير به مأخذه ، وقد رقاه إلى رتبة آغا ووجهه حاكماً على بيروت •

فاظهر الجزار حزماً غريبـاً ، وحنكة في منصة الأحكام برز بهـا على معاصريه ، ولم تتمالك الرعية من الاطناب به والثناء عليه ، حتى بلغ إعجابهم به مسامع الأمير ، فزادت ثقته به ، وسر بالصدفة التي قادته إليه ، ولو كان للامير علم الغيب لتخلص من الجزار وأعفى نفسه من شروره وويلاته •

ولما أنس الجزار أن ثقة الأمير به قوية ، عرض عليه ترميم أسوار بيروت، وحسن له السرعة في العمل خوفاً من بطش الدولة به واستيلائها على البلاد ، ولم يعلم الأمير ما يكنه صدر ذلك الجزار من الشرور والمقاصد الفاسدة ، فاستحسن رأيه ووافقه على ترميم أسوار المدينة على نفقة الحكومة ، وفوّض إليه مراقبة العمل ، وفي الحال قام الجزار ونادى بالسخرة ، فاجتمع إليه عدد غفير من الأهالي ، وبدأوا في العمل الذي أوجبه عليهم الجزار حاكم المدينة ، وقد ناظر العمل بنفسه ، وانتهى من ترميم الأسوار في مدة قصيرة ، ولما درى الأمير به أثنى عليه ، وأنعم عليه بالألقاب وكان يخاطبه كأقرب الناس إليـه ، ولم يكن اعجاب الشيخ غندور يقل عـن اعجاب الأمير بأعمال الجزار ، وما أبداه من الصدق والاخلاص (ولو) كلمة تقال مع الأسف ، فلو دريا أن هذا الرجل سوف يجلب على سورية مجازر وكروباً تتفطر لها القلوب دماً لكانا أول من سعى إلى التنكيل به[1] •



(١) تتناقض هذه الرواية مع ما أورده الشهابي في تاريخه : ٤٧ ـ ٥٤ ، ومادة الشهابي أكثر قبولا وتوازنا •

الفصل الثالث والعشرون

في ترقية الجزار الى منصب الولاية وسلخ بيروت عن حكومة الجبل

ومما يجدر بالذكر ان أحمد آغا الجزار بعد أن انجز عمله من تحصين مدينة بيروت ورأى أن الفرصة لوثبته الأخيرة قد حانت عمل على انهاء تعليماته ، ورغائبه الخصوصية إلى الدولة على يد من يثق به ، ولم يكن له غير ناظر قافلة البريد أو سواه ، وفي ذلك الوقت لم يكن بريد الدولة منتظماً كما هو عليه الآن ، فكانت الأخبار تصل الاستانة ببطء عظيم ، وكان رجال الدولة حكام الولايات ومن شاء المخابرة مع رجال الآستانة ينتظرون قدوم قافلة البريد المؤلفة من بضعة أنفار ، وما ينيف عن ثلاثين جواداً لنقل البريد والمبادلة في اثناء الطريق ، وكانت الأهالي مضطرة أن تقدم لرجال البريد من طعام لهم وخيول مع عليقها متى شاءت السؤال عنها كل ذلك لوجه الله ، وقد يموت للرعية من الخيول في هذا الطريق عدد وافر في كل سفرة والمسافة بين صيدا والآستانة ركوباً تستغرق أربعين يوماً ، ورجال البريد كانت تقطعها في أسبوع أو أقل . فتأمل رعاك الله كم كانت الأهالي تتكبد من المشقات والخسائر .

وكان هذا البريد يمر ببيروت أولاً ، وصيدا ثانياً وكان كلما وصل إلى بيروت يظهر الجزار لرئيسه كل حفاوة وإكرام وكان يظهر للأمير أنه يفعل ذلك حباً بمصلحة الجبل التي هي مصلحته .

وفي المرة الأخيرة مرَّ به مع البريد أحد ثقات الدولة مرسلاً من قبلها للمراقبة ، وفحص أعمال رجال الولايات وأمرائها ومشايخها ، وقد أسر إليه الجزار بنصح ووعودات[1] بانجاح مهمته ولا ينقصه لابرازها إلى حيز العمل غير توليه على صيدا وإذ ذاك يسهل عليه الفتك بأمراء ومشايخ البلاد ، ويخضعها للدولة بعد أن يرفع عنها سلطة الأمراء الحالية ، ولما بلغت رسالة الجزار إلى مسامع الدولة على يد ذلك المندوب من قبلها ، أرسلت له فرمان ولاية صيدا .

---

(١) في الاصل : « وقد سر اليه الجزار نضيج معدات مهمته » وهو خطأ لعل صوابه ما أثبتناه .

ولما رقي الجزار إلى رتبة الولاية ، وأصبح والياً على صيدا لقب بالوزارة والبشوية وولاية صيدا تضم نصف سورية تقريباً ، وأصبح سيدهُ الأمير يوسف يصدع بأوامره ، ويرهب بطشه •

وكانت ولاية صيدا توجه حكومة الجبل إلى الأمير الذي تختاره من آل شهاب ، وترى فيه الكفاءة بعد أن تفرض عليه جزية مهراً لاستقلاله الداخلي، وعلى جاري العادة وجه الجزار ولاية لبنان إلى سيده الأمير يوسف، وكان بإمكانه تعيين سواه ، ولكنه راعى في هذه المرة خاطر من كان السبب في إرتقائه ، فأبقاه بوظيفته ِ بعد أن سلخ بيروت عن حكومة لبنان ، وأصبحت تلك المدينة تحت سلطته •

وبعد أن كان والي صيدا ، لا يحكم من الولاية غير صيدا وضواحيها فقط ، وما بقي من البلاد والقرى يحكمها الأمراء والمشايخ ، أصبح والي صيدا على عهد الجزار يحكم بيروت علاوة عن ولايته المحدودة •

فقبل الأمير يوسف الولاية بالرغم عن كدره الشديد من إخراج بيروت عن حكمه ، وبدلاً من أن يقيم الاعتراض على الجزار ويناقشه الحساب ، ويرد له الكيل فيطردهُ عن صيدا ويريح لبنان منه ومن فساده ، أبدى شكره له وامتنانه من بقائه ِ في منصبه •

وأنى له مقاومة الجزار والتغلب عليه ، وأمراء لبنان في ذلك الحين ، لاهون عن العموميات بالخصوصيات •

وسيان عندهم عمرت البلاد أو خربت ، لذلك نلوم الأمير يوسف على تقاعده ، ونعذره في عدم إظهاره مقاومته للجزار ، والسبب الذي يحملنا على ملامته هو ما أظهره من الجبانة في مقاومة خادمه ، وإذا كان عذره عدم الألفة ومعاضدته من الرعية ، فوجوده حاكماً عليها يولد الألفة بين أفرادها والمحبة في نصرته على العدو الممازق ، ونعذره لأن الشعب كان لا يفرق بين من حكمه في الأمس ، ويحكمه في الغد ، لأن الحكام كانوا يضربون على وتيرة واحدة ، وهي إذلال الشعب ، وتجسيم خسارته من يوم إلى آخر •

★ ★ ★

الفصل الرابع والعشرون

في الاستيلاء على عكا وقتل الشيخ ضاهر العمر

وبعد أن تربع الجزار في دست ايالة صيدا شرع في تنفيذ مآربه بأهلها ، وكانت باكورة أعماله قرض سلطة المشايخ الداخلية ، وقد حدثته نفسه بالاستيلاء على عكا ، وقرض سلطة مشايخها آل ضاهر العمر .

وكان صاحب الوجاهة والحكم على عكا له النفوذ عند الدولة لمناعة حصون المدينة ، وما نالته من الشهرة في حروبها القديمة ، وحاكم عكا على الاطلاق وخصوصاً من وقعت على أيامه هذه الحوادث الشيخ ضاهر العمر ، كان له السلطة في عزل والي صيدا ، وتعيين سواه محله متى شاء ، فتنبه له الجزار ، وأخذ يقدح فكرته في إيجاد واسطة يتوصل بها إلى الفتك به والاستيلاء على منصبه .

ولما كان الشيخ ضاهر ذا ثروة طائلة ، كان من السهل على الجزار ان يوقع به ، ويعلق مطامع الدولة في ماله الكثير فتبدده ، وإذا رفض طلبها تبطش به ، ولما حسن لديه هذا الرأي بعث إلى الدولة فأخبرها عن تصرفات الشيخ ، وعظمته الفائقة ، وثروته الفادحة ، وفي الوقت ذاته أخلص له زمرة من الرجال، وأرسلهم إلى عكا ، وسعى لهم لدى الشيخ أن يدخلهم في خدمته ، فأجاب الشيخ طلبه ، غافلاً عن غدر الجزار ، وما خبأت له الاقدار ، فأدخلهم حصن عكا وأوكل بهم معدات الدفاع في وقت النزال .

وما حسبه الجزار حدث تماماً ، فالدولة بعثت عمارة للتطواف ، وزيارة المدن الساحلية ، بقيادة حسن باشا ، وكانت أول مدينة رست العمارة في ميناها عكا ، فعرض حسن باشا للشيخ ضاهر العمر طلب الدولة وقدره نحو ستمائة الف غرش ، فرفض الشيخ الطلب حيث داخله ريب في صدقه ، وكان الشيخ يعتمد على المعلم ابراهيم الصباغ ، فاستحضره وعرض له المعضلة ، فأشار عليه بعدم الدفع ، ولكن بعض مستشاري الشيخ خالفوا رأي المعلم ابراهيم ،

وأوجبوا على الشيخ تقديم الطلب للدولة من الخزينة ، وجمعه من الشعب بعد حين ، فقال المعلم مسكين الشعب يكفيه ما هو عليه من الفقر والمذلة ، ثم قال إن الدولة طلبت الآن هذه القيمة فإذا قدمتها لها زادتك مثلها ، وطمعت بك وتظل تجدد الطلب إلى أن تثق بفراغ يدك ، وعند ذاك ترغمك على ترك منصب الولاية وهناك البلية •

وفضلاً عن ذلك كله أنت تعلم ضعفها وعجزها عن مقاومة عكا ، فالأفضل لك أن ترفض طلبها الجائر ولا تطمعها بمال رعيتك ، وإن تحرشت بك فأسوار عكا تهزأ بمراكبها وقوتها •

فارتأى الشيخ رأي الصباغ،ورفض إجابة الدولة على طلبها،وعدّه جائراً، فعاد حسن باشا إلى عمارته فأنزل جيوشه وشرع يواصل قلعة عكا ناراً حامية ، ونهض الشيخ ليقابل القوة بالقوة ، ويصلي العمارة ناراً من مدافع القلعة المشهورة ، لكنه حظي بالفشل والحقارة من رجاله الذين هم صنيعة الجزار ، وسخروا به ولم يحفلوا بأمره ، بل عطلوا المدافع ، وانضموا إلى عسكر حسن باشا ، ولما نظر الشيخ ما وصل إليه أمره مع رجاله ، وما حل بقاعدة دولته فرّ من عكا نجاة لنفسه ، لكن رجال الأتراك لحقوا به وقتلوه خارج السور ، ودفنوه هناك ، وبموته انتهت دولة المشايخ الزيادنة في عكا ، بعد أن حكموها أعواماً طوالاً ، ولما انتشر مقتل الشيخ في المدينة هان على حسن باشا الدخول إليها بجنوده ، وقد تم له فتح عكا في سنة ١٧٨٠ •

وبعد المعركة قبض حسن باشا على أولاد الشيخ ، وإبراهيم الصباغ ، وقبض أموالهم وأملاكهم وأطلق لرجاله التصرف في نهب المدينة فنهبوها ، وفي عودة حسن باشا إلى الاستانة اصحب أسراه وأموالهم بعد أن تصرف بأملاكهم ، وبلغت ثروة الشيخ ضاهر التي دخلت خزينة السلطنة فقط ثلاثة وثمانين ألف كيس ، فضلاً عن بعض أمتعة ثمينة وكان نصيب أولاد الشيخ السجن ، أما الصباغ فاطلق سراحه بعد أشهر مرت على وصوله ، وقيل في سبب عفو الدولة عنه أنهُ وصف دواء لعقيلة السلطان ، التي كانت مريضة وعجز الأطباء عن معرفة مرضها ، إنما العلاج الذي وصفهُ لها الصباغ كان

العامل الوحيد على إبلالها ، فكان جزاءه إخراجه من السجن ومنحه حريته ، فسعى جهده ليخرج أولاد الشيخ من السجن ، ويرجع بهم إلى عكا فلم يفلح ، وقبل أن ينوي على الرجوع ، دعاه حسن باشا إلى وليمة أعدها على ظهر العمارة ، ولم يبلغ المسكين ظهر السفينة حتى أمر حسن باشا بشنقه ، فذهب الصباغ وذهبت أمواله الوافرة •

ونال الجزار بعد رجوع حسن باشا إلى الاستانة انتقال مركز ولايتـه إليها ، وفي ذلك أضـافها على ما أضافه إلى ولايته قبـلاً بيروت ، فامتدت سطوته وأصبح نفوذه يخترق هضاب سورية ولبنان[1] •



الفصل الخامس والعشرون

في مطامع الجزار

لما تربع الجزار في كرسي عكا ، شرع في ترميم حصونها ، وادخار المؤونة الحربية ، وقد تحدث في انتقاله إلى عكا فانتحل لنفسه عذراً وذلك أنه لمـا كان للشيخ ضـاهر العمر وأولاده أحزاب يخشى من وجودها على الراحـة العمومية ، اقتضت الحاجـة خروجه إليها بنفسه لإخضاع تلك الأحزاب ، ولذلك اضطر إلى نقل مركز الولاية ، ولكن كثيرين كانوا على المعرفة الأكيدة من قصد الجزار من هذا الانتقال ، وكان الجزار يستعد لانشاء دولة مستقلة عن دول الأرض قاطبة ، فرأى في حصون عكا عوناً كبيراً لتتميم مطامعه ، ولذلك كان يكثر عنده من رجال البشناق وطنه الأول ، والأكراد العتاة ، وقرب إليه المشايخ ليعضدوه في إعدد دولته العتيدة ، وكان بين المشايخ أقواهم الشيخ طه الذي اشتهر بظلمه وجوره •

(1) تتعارض هذه الرواية مع ما أورده حيـدر الشهابي في تاريخه : ٦٠ ـ ٧٦ ، ومادة الشهابي أكثر دقة وأقرب الى حقيقة ما حدث •

الفصل السادس والعشرون

في ايقاد الفتنة بين مشايخ صعب وامراء لبنان

وبعد أن تمكن الجزار من عكا ، وأخضع البلاد التي كانت تتولاها مشايخ الزيادنة وصفد ونواحيها ، أضرم الفتنة بين الأمير يوسف الشهابي وبين مشايخ صعب حكام بلاد بشاره والشقيف ، وقصده من ذلك اضعاف الفريقين ليستولي على بلادهما غنيمة باردة ، ويذل أهلها في الحروب الأهلية بدون أن ينفق عليها مالاً ، أو رجالاً ، وكان يخشى اتحادهما عليه إذا تظاهر بعداوة فريق منهما .

فأصبحت الحرب سجالاً بين الفريقين ، وطال أمد اشتعالها ، حتى أسفرت عن انتصار اللبنانيين ، وفشل مشايخ آل صعب وعجزوا عن حفظ استقلالهم .

★ ★ ★

الفصل السابع والعشرون

في خروج الجزار على آل صعب

ولما رأى الجزار فشل آل صعب الشيعيين انتهز الفرصة لإعمال سيفه في رقابهم ، فخرج عليهم بعسكره المؤلف من الأكراد والأتراك ، وأعمل بهم السيف ، واستباح أعراضهم ، ونهب أموالهم بعد قتل عميدهم الشيخ ناصيف الضاهر ، وبدد رجاله وتضعضعت بقية المشايخ ، وفروا من أمامه لا يلوون على شيء ، فكان ذلك يوماً شديد الهول على الشيعيين المتاولة أشياع صهر النبي علي بن ابي طالب إمام المسلمين العظيم ، ولا بدع فهتك حرمة العرض واغتصاب العذارى من شيم اللئام ، وإذا كانوا استحلوا هذه الأعمال الوحشية في أقرب الناس إليهم مذهباً ، فكيف يكون شأنهم مع قوم يختلفون عنهم مذهباً[1] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الامير حيدر الشهابي : ٧٩ ـ ٨٣ .

الفصل الثامن والعشرون

في توجيه ابراهيم مشاقة حاكما على بلاد بشاره والشقيف

ولما وضعت الحرب أوزارها وأصبحت بلاد بشارة والشقيف تابعة لولاية الجزار ، مقيدة بأوامره وإرادته ، استحضر إليه ابراهيم مشاقة جد جامع حوادث كتابنا ، ووكل إليه إدارة الحكم على تلك المقاطعة مع معاون له من المسلمين ، وكان إبراهيم على جانب عظيم من الذكاء ، صاحب ادارة وفضل ، وكان يتعاطى قبلاً تجارة التبغ مع أهل بلاد بشارة ، لذلك رأى الجزار أنه قد اصاب الغرض بتوليه عليها ، لأنه الرجل الذي يريده لعظم ثقته به ، ولما عرف عنه من الشيعيين سكان البلاد .

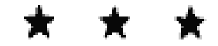
فتوجه مشاقة إلى ولايته وجعل مركزه في قلعة مارون ، وقد أحسن الادارة وعامل الرعية بالقسط والعدل ، ونال ثقة الأهالي فضلاً عن ثقة الجزار ، وظل في منصبه إلى آخر أيام حياته مكرماً ومعزز الخاطر ، ومن أعماله المأثورة أنه كان في أثناء تجوله في ولايته ، يرى بعض العيال من النصارى مهضومة الحقوق ومحرومة من تأدية فروضها الدينية ، فكان يساعدها على نيل حقوقها المدنية والدينية ، وبنى للروم الكاثوليك كنيسة ، وأحضر لها كاهناً .

وهكذا كان شأنه مع بقية الطوائف والمذاهب ، وظلت فئة من المشايخ حاقدة على الجزار ومن لف لفه ، فكانت تعيث في البلاد فساداً ، وتسلب الأمنية بالرغم عما أحرز ابراهيم من الثقة في استقامته وانصافه . وكان الجزار يقتفي آثارهم ، ويفتك بمن لحق به وأدركه حياً منها ، واتفق لابراهيم مشاقة وهو في زيارة الجزار انه شاهد في محل الاعدام خارج سور عكا مشهداً تصطك له الركاب ، رأى ما ينيف على أربعين شخصاً من سكان ولايته مساقين للاعدام قصاصاً لما كانوا يقدمون عليه من سلب الراحة ، وفقد الأمنية كما تقدم ، ولم يكد يبلغ المحلة إلا وشاهد ستة وثلاثين منهم كان قد قضي عليهم،

وأربعة منهم لا يزالون في انتظار فراغ المحل ، وطريقة الاعدام في أيام الجزار متنوعة ، وأغلبها على الخازوق ، فكانوا يجلسون المجرم على الخازوق جلوساً عادياً ، أو يلقونه على بطنه أو جنبه وتدخل حربة الخازوق في جسمه من جانب وتخرج من الجانب الآخر . فتوسط ابراهيم للأربعة لدى رجال التنفيذ ريثما يقابل أميره الجزار بشأنهم ، وقد حصل على وعدهم في أن يؤجلوا تنفيذ الحكم بهم ريثما يعود إليهم إما بالعفو عنهم ، أو في بقاء الحكم على إعدامهم ، ولما كان لابراهيم المنزلة الرفيعة عند الجزار ، وسمعه يخاطبه بشأن المجرمين عفا عنهم وسلمهم إليه ، فوعده ابراهيم بتقديم فدية عنهم ، فضلاً عن تعهده بأن لا يعودوا إلى أعمالهم السابقة .

ولما دري الرجال بالعفو عنهم وبمن كان السبب في بقائهم أحياء بعد أن شارفوا الموت ، تقدموا إلى ابراهيم وقالوا له : نحن الآن طوع بنانك ، فطلب منهم الذهاب إلى بيوتهم ، والإخلاد إلى السكينة والسلام ، فأبوا ان يتركوه وقالو له : لا نفارقك أيام حياتنا ، فقد اشتريت لنا الحياة بنفوذك ومالك ، فأصبحنا عبيداً لك ، ونريد أن نخدمك بأرواحنا لأنها منك ، وقد كنا من المعدمين كرفاقنا الذين ماتوا أشنع الميتات وافتديتنا ، دعنا نقيم على أبوابك إلى ما شاء الله .

فقبل دعوتهم وأرجعهم معه إلى ولايته ، ومأثرة كهذه تشهر فاعلها اين كان ومهما كانت منزلته في قومه ، ولا مشاحة أنها جعلت اسم مشاقة أشهر من نار على علم ، وأجمعت قلوب رعيته على محبته والإفتخار بشهامته ، وكان الأربعة المذكورون أصدق خدمته ، وأكثرهم نشاطاً وأخلصهم على مصالح فـاديهم .



الفصل التاسع والعشرون

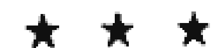
في المؤامرة على قتل ابراهيم مشاقة

ولما كانت المتاولة أهالي بلاد بشارة والشقيف خاضعة للجزار خضوع المغلوب، لبثت تترقب الفرص لإرجاع استقلالها وإعادة الحكم لرجالها ، فتفرد منهم عصابة وقر رأيهم على الغدر بالجزار وقتله وقتل ابراهيم مشاقة ، وطرد جنود الجزار من بلادهم .

وفي ثاني الأيام دخلوا على ابراهيم مشاقة ، وطلبوا مواجهته ، وبينما كان يخاطبهم بلطفه المعهود وثب عليه أحدهم مشهراً بيده خنجراً يريد زرعه في صدره ، ولو لم يرم بنفسه رجل (وهو أحد الأربعة المار ذكرهم) أمام سيده ابراهيم ، ويتلقى بصدره الطعنة لكان قضي على مشاقة كما قضي على الرجل الشهم الذي لفظ روحه بعد دقائق قليلة ، وقبل أن يلفظ تلك النفس الشريفة من صدره قال لسيده ابراهيم : إنني أشكر الصدفة التي ساعدتني على مكافئتك .

وعند ذلك هجمت رجال مشاقة على العصابة ، وبددت قواهم وفتكت ببعضهم ، وكان ابراهيم شجاعاً فأبلى بهم بلاءً حسناً .

وبعد هذه الحادثة بلغ مسامع ابراهيم عن ثقة أن المنهزمين سوف يعيدون عليه الكرة بعدد أوفر ، ولما لم يكن لديه حامية كافية طلب مجانبتهم فجمع حاشيته ، وقام بها إلى عكا حيث قصَّ على الجزار ما حدث له ، وكيف جماعة لا يقل عددها عن الألف لحقت بهم ، ولما لم يظفروا بوطرهم نهبوا ما وجدوه في بيته ، وطلب منه أن يعفيه من الوظيفة .



الفصل الثلاثــون

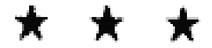
في توجيه ابراهيم مشاقة حاكما على بلاد بشارة والشقيف ثانية

ولم يكن ما سمعه الجزار من ابراهيم مشاقة بالأمر السهل عليه ، فقام وقعد له ، وبالحال أمر بتجهيز عسكر لاخضاع العصابات ، ولم يقبل طلب مشاقةمن حيث إعفاؤه من الوظيفة ، بل طلب منه أن يعود إلى تلك البلاد مع الحملة .

وقامت الجنود ومعها قام ابراهيم مشاقة إلى ولايته ليفتك بالعصابات ، ويرغمهم إلى المسالمة ، وقد التقت الجنود بالعصابات على حدود البلاد الهائجة ودارت رحى الحرب بينهم وبعد قتال شديد انجلت المعركة عن ثلثمائة قتيل من المتاولة وعدد وافر من الأسرى وانهزامهم ، أما الأسرى فسيقوا إلى عكا حيث جرى اعدامهم على الخازوق في حال وصولهم ، وظلت الجنود تطاردهم وتتوغل في النهب والسلب ، إلى أن أخلد المتاولة إلى السكينة ودفع غرامة الحرب .

ثم نشر الجزار أمره بينهم ، وهو أن كل من اشتبه به أو سطا على أبناء السبيل وأخل براحة البلاد وسكانها ، قصاصه الخازوق .

وهذه الثورة كانت الأخيرة ، فأخلدوا للطاعة رغماً عن أنوفهم .



الفصل الحادي والثلاثون

في عزل امير لبنان

وبعد أن أذل الجزار الزيادنة والصعبيين وأمن على نفسه منهم ، عمد إلى الاستيلاء على لبنان والضغط على سكانه :

وكانت باكورة أعماله سلخ بيروت عن حكومة الجبل كما تقدم في حينه ، أمـا الآن فبعث يسأل الأمير يوسف (سيده سابقاً) إجـابته على مطاليب مستحيلة ، وأرفق طلبه عدم قبوله عذراً عن تأخيره ، وما ذلك إلا ليجبروه على

شق عصا الطاعة ليكون له العذر في الهجوم عليه والتنكيل بمن صده .

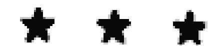
وفضلاً عن جسامة طلبه المالي سأل الأمير أن يرفع يده عن أقاليم الخروب والتفاح وجزين ، وكان من الأمير يوسف أنه أجاب مطالب الجزار وامتثل لأوامره الصارمة ، وكان من الجزار تكرار مطالبه حيناً بعد الآخر ، حتى ابلغ الأمير عجزه عن القيام بها ، واضطره إلى الجلاء عن دير القمر مع حاشيته ، فقام الأمير مع أفراد عائلته وبعض أتباعه من دير القمر ، وتوغل في بعض قرى لبنان الداخلية خوفاً من بطش الجزار ، ولم يتخذ له مركزاً معروفاً فكان ينتقل من دروورت ومجدل معوش إلى عبية وشحلال حتى لا يهتدي على محل إقامته جواسيس الجزار ، وكان الأمير يوسف ظالماً عاتياً فظ الطباع كثير السيئة في أقرب الناس إليه ، وقد حدث له فقتل أخيه الأمير افندي وسمل بصر أخيه السيد أحمد ، والد الأميرين سليمان وفارس المتوفيان بقرية الحدث من عهد قصير ، وفتك بأخواله الأمراء اسماعيل وبشير خوفاً من مزاحمتهما له في السيادة ، وإذا كانت أعماله تركت هذه الآثار في أهله فكم تكن تصرفاته البربرية في أفراد رعيته ؟! ...

وكان الأمير يوسف فتى شجاع وهو نسيبه الأمير بشير الكبير بن الأمير قاسم بن الأمير عمر بن الأمير حيدر الجد الجامع لعائلة الأمراء الشهابيين،وهذا من أمراء حاصبيا ، ابن الأمير موسى الذي حفر اسمه على جسر نهر حاصبيا ، ونسبه يلتقي بنسب الشهابيين في لبنان ، ونسب الأمير سعد الدين أمير حاصبيا الذي قتل في حادثة الستين .

وهذا الأمير تزوج بأرملة الأمير بشير خال الأمير يوسف الذي غدر به الأمير يوسف بعد استحضاره من ولاية حاصبيا ، ففي ذهاب الأمير الفتى إلى تلك الولاية وضبط متروكات خاله رأى أرملة المغدور به ، فأحبها وتزوج بها، وكان لها أولاد من زوجها الأول : الأمير نسيم ، والأميرة خدوج .

والأرملة هي الأميرة شمس المديد ، شقيقة الأمير قعدان قاطن عبية ؛ وكانوا يتزوجون من بعضهم لا العقائد المذهبية ، ولا لحمة القرابة تمنعهم •

وقد ولدت له ثلاثة أولاد الأمراء : أمين ، وخليل ، وقاسم ، ولما كان الأمير بشير الكبير شب في بيت الأمير يوسف نال ثقته ، وأصبح من الذين يعتمد عليهم في كل شؤونه •



الفصل الثاني والثلاثون

في تعيين الامير بشير الكبير حاكما على لبنان ونفي الامير يوسف

وبعد أن فرّ الأمير يوسف برجاله من وجه الجزار كما تقدم ، فاوض الأمير الفتى (الذي عرفنا ثقة الأمير يوسف به من الفصل السابق وكيف كان معروفاً بالأمير بشير الكبير) في الذهاب إلى عكا ومقابلة الجزار ، وكان قصد الأمير يوسف أن يجعل من بشير الكبير حاكماً على الجبل ، حيث يأمن جانبه ويوثق به أكثر من سواه •

فرفض الأمير بشير الذهاب ومقـابلة الجزار في بادىء الأمر ، وقال للأمير يوسف : أخشى من الجزار أن يحملني على قتالك ، ولكن الأمير ألح عليه ، حتى أقنعه بالذهاب ، وتقديم واجب الطاعة للجزار مع الجزية ، بعد أن اشترط عليه إذا جعله الجزار حاكماً على لبنان وأمره بمقاتلته وطرده من البلاد يركن إلى الفرار ، وقد صمم أن يجعل بين رجاله ورجال الأمير يوسف فسحة تمكنه إبلاغه في قدومه إليه ، وتمكن الأمير يوسف من القيام في وجهه ، كل ذلك حتى لا يجعل هذا الأمير الشهم سبيلاً إلى رجال الجزار من الفتك بأهل لبنان فقبل الأمير يوسف هذا الشرط ، وقبل الأمير بشير الكبير إذ ذاك القيام إلى عكا ، فقـام واصطحب معه عدداً من وجوه القوم مثـل : ابراهيم الطرابلسي ، ويوسف عزيز ، وسواهما من البواسل •



الامير بشير الشهابي الكبير

وفي طريقه مرّ بصور ، ونزل ضيفاً كريماً على ابراهيم مشاقة ، الذي أكرم وفادته وأنزله على الرحب والسعة ، ومن ذلك التاريخ أصبح ابراهيم مشاقة من المقربين إلى الأمير بشير ، وفي ثاني الأيام قام الأمير إلى عكا فأرفق ابراهيم مشاقة رجل ثقة مع الأمير ، وحمله توصية إلى الشيخ طه كاتم أسرار الجزار ، ومستشاره وأخرى إلى أولاد السكروج ، أصحاب النفوذ عند الجزار ، وحضهم على مساعدة الأمير ، ولما وصل الأمير إلى عكا ، وقابل الجزار حصل على الإكرام اللائق ، وفي الحال عينه الجزار حاكماً على لبنان وألبسه خلعة الولاية ، بعد أن استوثق منه على العهود النظامية وكان ذلك سنة ١٧٨٥ [١] .

* * *

---

(١) لا تتفق هذه الرواية المختصرة مع التفاصيل التي أوردها الامير حيدر الشهابي في تاريخه : ٧٧ ـ ٩٩ ٠ على أن تولي الامير بشير للحكم تعد نقطة تحول هامة في تاريخ لبنان ٠

الفصل الثالث والثلاثون

في رجوع الامير بشير الى دير القمر وغدر الامير يوسف به

وبعد أن وجه الجزار ولاية لبنان إلى الأمير بشير الكبير ، أمرّه على قيادة الحملة في مقاتلة الأمير يوسف واخراجه من لبنان ، ولما الحملة أعدت استلم الأمير بشير قيادتها ، وعاد بها إلى دير القمر ، وهنا لا بد لنا من إرسال كلمة نذكر بها القارىء أن الأمير يوسف هو الذي احتفل بالجزار ، وأدخله بخدمته ، وولاه على حكومة بيروت ، وخاطبه مخاطبة الصديق ، ووثق به وسعى في ترقيته •

ولما وصل الأمير بشير إلى صور بعث أمامه أعلام تعيينه إلى الجبل ، وأنبأ الأمير يوسف بالحملة التي يقودها للتنكيل به ، وطلب منهُ أن يبر بوعده ويقوم من الجبل ، ولا يفتح سبيلاً لحدوث الفتن وإهراق الدماء ، وأفاده أنهُ مأمور بإخراجه ، وسوف يقوم من صور إلى دير القمر بعد يومين من تاريخ الرسالة •

وفي ثاني الأيام عرّج الأمير فنزل صيدا ، ومنها قام إلى دير القمر ، فلاقاه وفد من أعيان لبنان وهنأوه بعودته ظافراً ، وأخبره بعضهم عن قيام الأمير يوسف عن طريق المتن •

وأخر الأمير وصوله إلى الدير يوماً آخراً ، ليجعل للأمير يوسف فرصة وافية للفرار من وجه جنوده ، وبعد وصوله لمركز الولاية بأيام نهض إلى مطاردة الأمير يوسف الذي ظنهُ أعقل من أن يجعل سبباً لسفك الدماء ، ولم يدر في خلده غير إعتقاده الشريف بقيام الأمير بوعده الحر المستقيم •

أما الأمير يوسف كان يضمر شرّاً ، وينوي فساداً فقد وطد رأيه جماعة التفوا حوله ، وحسنوا لهُ الايقاع بالأمير بشير غدراً ، وتبديد رجاله فوراً ، فكمن مع عصابة لحملة الجزار في مضيق ، وبات يترقب قدوم فريسته إليه

ليقبض عليها ، ويريح البلاد من شرها[١] ، ولم يعلم أنه أضاع الفرصة حين كان له أن يفتك بذلك البشناقي، ويريح نفسه ووطنه منه ، وفضل الشخصيات على العموميات ، وأشغل نفسه عنـه بقتل أخوتـه وأخواله وإذلال أتبـاعه المخلصين ، وأنى له الآن أن يقهر الجزار ، بعد أن امتدت شوكته ، وملك حصن عكا ، وأصبح أمنع من عقاب الجو .

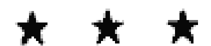
فلو لم يشهر العداوة لمشايخ آل صعب المتاولة ، بل سالمهم ، واتفق معهم وقتئذ على مقاتلة الجزار، وطرده من الوطن ، وإعفاء بنيه من ظلمه ، لو فعل ذلك لكان بالامكان ترجيح نصره ، أما الآن فيعد عمله تحرشاً وطيشاً .

وبينما الأمير بشير مع رجاله يعبرون مضيق كان قد كمن فيه الأمير يوسف ورجاله ، أخذته الحيرة بغتة حيث رأى على حين فجأة الأمير يوسف شاهراً بوجهه الحسام ، ووراءه عصابة ، فتبين له إخلاف الأمير وعده .

وفي الحال أمر رجاله بالهجوم عليهم ، وكان هو أول الهاجمين لأنه اتصف بالشجاعة ، وكان قائداً محنكاً ، وخبيراً بفنون الحرب ، والشاهد أنه في حروبه الكثيرة كان النصر دائماً رائده ، وبعد ساعات قليلة انجلت المعركة عن انهزام الأمير يوسف ، وقتل عدد من رجاله .

وظل الأمير بشير يطارده إلى أن أخرجه من حدود لبنان أو بالأحرى ، ولايته التي أمره الجزار عليها ، وإذ ذاك عاد عنه إلى دير القمر ، وفي حال وصوله أرسل فأخبر الجزار بما جرى مع الأمير يوسف من الوقائع ، وكيف أنه تغلب عليه فيها وأبعده عن حدود لبنان حسب إرادته وتعليماته .

فسرّ الجزار من أخبار الأمير بشير ، وما ناله على يده من المال الكثير الذي أضافه إلى الخزينة [٢] .



---

(١) في الاصل : شرها من ، وهو تقديم وتأخير صوابه ما اثبتناه .

(٢) يحسن مقابلة معلومات نصنا هذا بما اورده الشهابي في تاريخه:٩٨ ـ ١٠٢.

الفصل الرابع والثلاثون

في شنق الامير يوسف وعدد من أتباعه

وبعد خروج الأمير يوسف من حدود لبنان ، ظلت أمانيه تحدثه بالعودة إليه والتمتع بالساطة عليه ، وكان الشيخ غندور مستشاره يحيي مطامعه ، فقال له : إذهب بنا إلى الجزار ، وذكّره بالأيام التي صرفها بخدمتك ، وكيف كنت السبب في ترقيته إلى آخر ما هنالك ، فلا شك أنه يندم على معاملته إياك هذه المعاملة ، ويرجعك إلى مركزك الأول ، فجاء كلام الشيخ مطابقاً لأماني الأمير ، فعمل به فقصد عكا ومعه الشيخ ، وبعض أتباعه ، ولما دخل على واليها هش له الرجل بما عنده من المكر ، واحتفل باستقباله ومن معه ، وعين لهم محلاً فخيماً ، ولكن لم تطل إقامة الأمير والشيخ في ذلك المحل طويلاً ، فأمر الجزار بسجنهما مع المجرمين ، وكبلهما بالقيود والسلاسل القوية ، وكان عمل الجزار مع الأمير محدث نعمته كإقراره بالفضل لصاحب الفضل عليه ، ولكن متى كان مثل هذا شهماً وقادراً حليماً ، وكان مع الأمير إبراهيم غفار ، سجنه الجزار مع جملة أتباع الأمير ، ورفض إطلاق سراحه ما لم يدفع الفدية عن نفسه ، مع أن ولده خليل غفار كان في ذلك الحين مستخدماً عند الجزار في ثكنة الذخائر الحربيـــة [1] .

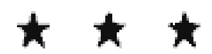
وصدف في تلك الأثناء أن ثار على الجزار أهالي صفد وتوابعها وامتنعوا عليه فخرج إليهم بنفسه وأصلاهم حرباً طاحنة ، وحاصرهم مدة بالقرب من القلعة ، واخيراً لما طال عليه الأمد ولم ينل منها مأرباً ألغم القلعة ، وكان من انفجار اللغم خسارة فادحة عليه وعلى رجاله ولم يلحق بالقلعة ضرراً يذكر ، فظهر على الجزارة الحيرة ، ولو لم تدركه النجدة وراء النجدة لأدركه الفشل ،

---

(١) حدث هذا سنة ١٧٩١ م ، واوضح الشهابي : ١٠٣ ، ان الجزار في البدايـة وافق على اعادة الامير يوسف الى مركزه ، لكن الامير بشير سارع الى عكـا وزاد حجم المدفوعات للجزار ، فرده الى مركزه واودع الامير يوسف السجن .

ولما رجع خليل غفار إلى عكا كتب إلى والده في السجن عن الواقعة ، وبشره بفشل الجزار وقرب انحلال دولته ، وإراحة البلاد من جوره وظلمه .

فتوصل الجزار إلى الرسالة ، وعرف مضمونها فأوجس بالأمير يوسف وأتباعه أن يكون لهم يـد بثورة صفد عليه ، فأمر بشنق الأمير ، والشيخ غندور ، وابراهيم غفار ، وولده خليـل ، وتعلقت للحـال المشنقة ، وسيق ــ المجرمون ، في اعتقاد الجزار ، وهم أبرياءُ ــ من السجن حيث صار تعليقهم فذهبوا ضحية الوهم .



الفصل الخامس والثلاثون

في نكبة موسى رزق

وفي رجوع الجزار عن صفد منتصراً ، وتنكيله بمحدث نعمته طيشاً ، بدأ من ذلك الحين يعاقر الخمر ، كأنه أراد أن يخدر خلايا ذاكرته ، ويتناسى عمله الفظيع أمام الله والهيئة ، وكان ضعيف الاسلام متهماً به ، فسخط عليه المسلمون سراً .

ومن غريب حسناته أنه كان يعامل الرعية على السواء ، وظلمه ينال الكبير والصغير ، بالقسط فكان يسجن علمـاء ومشايخ المسلمين ، وكهنة الذميين ، وعقال الدروز ، وحاخام اليهود ، ولا يفرق عنده اختلاف مذهبهم ، وكان يعذبهم العذابات البربرية ، بلا ذنب ولا جرم ، كأنه يريد التمرين على عوائده الجائرة ، وتشغيل رجال التنفيذ عندما يراهم لا عمل لديهم ، لذلك كان في أغلب الأحيان يخترع من عنده الذنوب ، ويلقيها على من يعثر به أولاً ، وكان يقيم بين الرعية جواسيس يتنسمون له الأخبار ، ولغط القوم عليه ، وكان الجاسوس يأتيه بالأخبار التي يشاءُ ، وإذا عثر على مثري كان له بوجوده بشرى أمام سيده ، وكان الجزار يرسل يستحضر المشبوه بماله ويسأله كمية

وافرة فإذا أبدى مماطلة أو تردد في إجابة الطلب ، كان ذلك من أجل مقاصده ، فيأمر للحال بتعذيبه أو شنقه .

وقد بلغ الجزار خبراً عن موسى رزق أنه وقف على كنز من المال في حقله ، وهو يحرثه ، وأنه مصر على عدم إعلام أحد عن محله ، وقيل له ربما يكون لابراهيم مشاقة شركة معه ويعلم مقر الوديعة فاستحضر الرجل وهو من رعية ابراهيم مشاقة إليه ووعده أن يجزل له العطاء ، وينعم عليه بوظيفة إذا دله على محل المال ، ولما رآه مصراً على الكتمان أمر بتعذيبه فطال عذابه أياماً ، إلى أن دخلت إليه عقيلته بأمر الجزار ربما يخلص لها ويرشدها عن محل الكنز ، وفي الوقت ذاته بعث معها جواسيس يلتقطون كلام الرجل وزوجته ، ومن حسن الطالع عادت الجواسيس وأخبرت الجزار بما سمعته من الرجل يحدث امرأته ، ومن بعض ما نقلوه إليه أن المال وفرته لا توصف ، وأن لا شريك له به ولا أحد يعلم بوجوده لا ابراهيم مشاقة ، ولا أحد من الناس سواه ، وأنه لن يعلم الجزار به ، لأنه يتمكن أن يناطح الدولة وتزداد شروره ويعم فسقه ، ولما سمع الجزار ما قاله موسى رزق لزوجته ، تأكد براءة ابراهيم مشاقة ، وعمل على ايجاد المال فأمر بتعذيبه مع حفظه حياً ، ولكن شفقة رجاله الأكراد أبت أن تخفف من الرحمة في صدرها ، فقضى الرجل وهو بين يدها يتألم من الأوجاع ألواناً بدون أن يهدي على مطمورة الذهب أحداً .

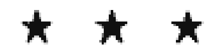


الفصل السادس والثلاثون

في المائتين والثلاثين

ومن أعمال الجزار البالغة حد القساوة والظلم أنه في ذات يوم أمر بتحضير أرباب الحرف والصنائع إليه ، وكان تنفيذ هذا الأمر سهلاً على من تعود الشنق ومشاهدة سفك الدماء ، فحضر إليه التاجر والفاعل والاسكاف والبحار ، وكل صاحب حرفة من المدينة ، وأمر أن يدخلوا عليه فرداً فرداً ، وكان الداخل إليه يكشف عن رأسه ، ويتقدم من الجزار ليتوضح جلياً في تكييف جمجمته ، وكان يطلق سراح البعض ويبقي على البعض الآخر ، وكان عدد الباقين عنده مائتين وثلاثين رجلاً على اختلاف نحلهم وحرفهم ، وعرفنا منهم رفائيل قنواتي ومخايل الباشا .

وفي مؤخر النهار أمر بذبحهم ظهرياً عن شاطيء البحر ، وإبقائهم طعاماً للوحوش إلى ثاني الأيام ، فيدفن فضلات الوحش ، فساقتهم رجاله الزبانية إلى النقطة المعينة ، وبدأت بذبح القطيع دفعة واحدة ، فما هو ذنب القطيع حتى استحق الذبح، أو ما هو جرمه لا أحد يعلم غير الجزار نفسه ، وقد يمكن أنه هو لا يعلم أيضاً ، فتأمل في شهداء الظلم والاستبداد ، وفي حكام تلك الأيام كيف كانت تختلق الأعذار في تجريم الرعية ، ولا تحترم لها وجوداً ولا تريها إنصافاً .



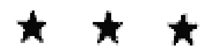
الفصل السابع والثلاثون

في نجاة مخائيل الباشا عن يد مسلم

اتفق أن رجلاً مسلماً من أهل التقوى والشهامة أتى عكا ، لقضاء بعض الحاجات ، ورام الدخول إليها فوجد البوابة مقفلة ، وتخيل أن ينتظر بينما تعود الرجال من المجزرة ، وقد قص عليه خبرها ، وكيف أن الجزار أمر الزبانية بذبح مائتين وثلاثين رجلاً ظلماً ، فتمرمر القروي من صدى الخبر، وظل واقفاً إلى أن رجع الجزارون عن القطيع ، وقد حدثته نفسه أن يمر بمحل المذبحة ، ولما فعل ذلك ، رأى بين المذبوحين رجلاً لم يزل يتحرك ، فاقترب منه وفي نيته إغاثته ، لكن الجريح لما شعر بوطءِ أقدام إليه أخلد إلى السكينة ، فنادى به القروي على ما في صدره من العواطف الأبية : إني نظرتك أيها التعيس تتحرك فأقدمت لإسعافك لوجه الله ، فثق بي ولا تخشني ساعدني على الهداية إليك .

فأجابه المذبوح بصوت متقطع : نعم إني حي ولم أمت بعد .

فترجل القروي عن جواده، وتفحص الجريح فرأى أن جرحه لا ينذر بالخطر، لأن الضربة كانت لحسن حظه خفيفة ، فلم تقطع شرايين الرقبة وأوردتها ، فضمد له الجرح على قدر معرفته ، وأنهضه إلى ظهر جواده ، وسار به إلى بيته وظل يستحضر له الأدوية سراً إلى أن عادت إلى ذلك المذبوح مخايل الباشا حياته واستحوذ على جانب عظيم من العافية، فشكر القروي على معروفه وقام إلى دمشق هرباً من الجزار فودعه القروي وساعده على القيام من مال ومتاع .



الفصل الثامن والثلاثون

في قطرة من بحر فظائع الجزار

ومن أفعال الجزار الذميمة المستقبحة ، وجوره في الرعايا التي أرسلته الدولة للذب عن حياضها ودفع المكروه عن ديارها، وتأمينها على مالها وحياتها من عدو مداهم ، وتشريبها عوائد التمدن التركي ، فبدلاً من ذلك كانت أعماله تناقض النظام ، وتختلف عن نصوصه تمام المخالفة .

ففي سنة ١٧٩٧ م ، توجه أولاد عطية اخوة خليل عطية المهندس المشهور في دير القمر بتجارة إلى وادي النيل ، فأقاموا هناك سنة ، قدم الفرنساويون في نهايتها إلى مصر بقيادة بطلهم العظيم أعظم قواد العالم حنكة وشهرة في الحرب ، وهو نابليون الأول بونابرت الشهير ، وتولوا السيادة على تلك الأقطار ، وطردوا منها الأمراء المماليك فلجأ هؤلاء إلى الدولة التركية التي أشهرت على نابليون الحرب طمعاً في إعادة مصر إلى حظيرتها فحاصرت المواني البحرية المصرية ، وأصبح الداخل لا يقوى على الخروج منها بتلك الظروف ، ومن جملة من وجد في داخلية مصر في أثناء الحصار أخوة عطية المار ذكره ، وكاهن ماروني من عائلة قبالة ، قادم من مدرسة رومية إلى الجبل .

وفي إحدى الطرق سافر الأخوة مع الكاهن وسبعة وثلاثون نفساً من السوريين إلى سورية عن طريق صيدا ، لكن الرياح قذفتهم إلى عكا ، فقبض عليهم الجزار بعد وصولهم ببضع دقائق ، وقيدهم بالقيود الحديدية ، وعاملهم بفظاظته ولؤمه المشهورين ، ولما بلغ الخبر إلى دير القمر ودرى آل عطية بما حدث للاخوة نهض منهم أشجعهم ، وأتى عكا ليقابل أخويه ، وبينما هو يقدم إلى أخوته في السجن بعض الطعام نظره الجزار ، فسأل عنه ولما قيل له أنه أخ لولدي عطية المسجونين أمر بسجنه معهما ، ويقال أنه لما تكاثر عدد المحابيس وضاقت بهم سجون عكا على رحبها ، ولم يعد للسجان قيد لمن يدخل إليه بعدهم ، أمر الجزار أن القطيع الذي قدم من مصر حديثاً ، وبينه أولاد عطية يساق إلى الذبح ، وكان عدد من جاء من مصر أربعين كما تقدم ، وزاد الجزار

على كلامه الأول أنه أمر السجان بعد أن يلقي جثث الأربعين في قاع البحر يأخذ القيود التي كانت مطوقة أرجلهم ، وإذا كان ذلك العدد من القيود لا يكفي ، فليأخذ القطيع الثاني المؤلف من مائة رجل ، ويفتك بهم كالأولين ، ويداوم على ذلك ، حتى يصير لديه عدد كاف من القيود ، فقام السجان وتصرف بمهمته كما شاء ، وكان يخدم السجين القديم إذا إحتاج إلى قيده ليضمه على السجين الجديد .

★ ★ ★

الفصل التاسع والثلاثون

في نكبة السكروجيين

ومن أعمال الجزار ــ وهل لأعماله حد ــ نكبته عائلة السكروج ، صاحبة النفوذ عنده في أول مدة ولايته ، وكان أفرادها مستلمين خزينة الولاية ، وكان ابراهيم مشاقة صديقهم الحميم ، وكأن الجزار شعر بثقلهم لطول مدتهم عنده ، فأحب أن يستبدلهم بسواهم ، فأظهر الريبة بمال الخزينة ، وعين عليهم مالاً تعويضاً ، فدفعوه أقساطاً ، ولما دفعوا آخر قسط جدد الطلب وضرب على ذات الوتر ، وظل يحتلب مالهم حتى استنفذه وأبقاهم صفر اليدين ، ومع أن الجزار علم أن لا مال بقي عندهم عاود الطلب .

فأرسلوا يستشيرون ابراهيم مشاقة ، صديقهم المخلص ، فجاوبهم أن يتعهدوا بالدفع ، ولا يعرضوا أرواحهم إلى التهلكة ، وقال لهم إذا لم يكن لديكم مال فأنا أبذل آخر بارة في سبيل نجاتكم ، ولكن النفس الأبية إذا مسها الضيم ، فضلت الموت على الذل ، وازدادت عتواً وتوغلاً في الإباء .

لذلك رفضوا أن يعملوا بوصية مشاقة ، ورفضوا أن يتعهدوا للجزار بدفع ما هو فوق طاقتهم ، فأمر الجزار في الحال كأنه منتظر هذه الكلمة لذبحهم ، وقطع دابرهم وضبط محلاتهم وأملاكهم ، وأمر بتحضير أوراقهم ، ومن جملة الأوراق التي عثر عليها بين أوراق أولئك التعساء ، رسالة مشاقة لهم فأضمر له السوء[1] .

★ ★ ★

---

(1) انظر تاريخ الامير حيدر الشهابي : ٨٥ ــ ٨٩ .

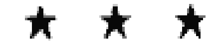
الفصل الاربعـون

في وفاة ابراهيم مشاقة

وكان لانتشار خبر ما حل بآل سكروج وقع عظيم في قلوب معارفهم ، وألم شديد في عواطفهم ، ومن الذين أثرت بهم الحادثة تأثيراً بالغاً إبراهيم مشاقة ، لأنه كان كما مرّ صديقهم الحميم ، فكان أسفه عليهم شديداً ، كره لأجله الحياة ، وعول على الإقالة ، وربما كان اضطرابه لم يبلغ شدته ، لأنه لم يكن له دخل معهم ، فلما علم باطلاع الجزار على رسالته ، تأكد أن دوره أصبح على الأبواب ، ومن كثرة مخاوفه والافتكار بقساوة الجـزار أصابته حمى شديدة ، اعتزل لأجلها مركز أشغاله ، فقدم إلى صور للمعالجة ، وكأن الحمى ودت أن تكون الغالبة والسابقة في قطف زهرة حياته ، فلم يمهله الجزار إلاّ فرصة يسيرة فأقبل رجاله على بيت إبراهيم مشاقة ، ليبلغوه أمر سيده في الحضور إليه ، ولما كانت أنفاس ذلك الرجل الـذي بذل حيـاته في الخدمة الصادقة تودع مقرها وداعاً أبدياً .

ولما عادت الرجال بالخبر إلى الجزار أمرهم بالعودة وإحضار أكبر أنجاله .

فعادوا إلى صور وقبضوا على ولده الأكبر ، وهو جرجس ، وجاؤا به أمام الجزار ، ولدى مقابلته طلب منهُ مبلغاً وافراً ، ولما لم يكن في طاقة جرجس تقديم الطلب أمر بسجنه وتصرف بمتروكات والده من كلي وجزئي ، ولم يترك لولده ما يعول عليه في قوته اليومي ، وعند ذلك عفا عنهُ وأطلق سراحه ، فخرج جرجس مشاقة من السجن بعد أن قص الجزار جناحيه ، وهكذا كانت أعماله وتصرفاته مع من يدري أن لديه مالاً وافراً ، وكانت الضربة على عائلة مشاقة شديدة ، حتى التجأت إلى الاشتغال كعامة الناس ، لتحصيل قوتها ، وسد جوعها وكان سقوطها سنة ١٧٩٠ .



الفصل الحادي والاربعون

في مدير خزينة الجزار الجديد

وبعد أن فتك الجزار بمدير خزينته السكروجي وآله ، وألحق بهم هتك حرمة مشاقة ، وانكار خدماته النبيلة ، شعر بالحاجة إلى رجل يشتغل مكان مديره الأول ، فانتخب لهذا المركز المعلم حاييم فارحي[1] ، وسلمه زمام شؤون الخزينة وكان حاييم ، على جانب عظيم من العلوم التاريخية التلمودية ، وكانت أعماله التي ظهرت في أيام خدمته المركز الذي دعا إليه الجزار شاهداً قوياً على حسن إدارته وسداد رأيه ، ولكنه مع ما كان عليه من النباهة وأصالة الرأي لم يعفه الجزار من ويلاته وشروره ، وكان يسومه العذاب ألواناً ويريه الموت أشكالاً فكان يأمر بسجنه أياماً ، ويرجعه إلى وظيفته بعد سجنه ، وقد شنع سحنته ، فجدع أنفه وقطع أذنه ويقال أنه رأى قذى في عينه مرة فقلعها له ، وكان حاييم أشبه بآلة بيد الجزار بل أطوع من الآلة عنده .

واتفق للجزار أنه تردد في ارسال الجباية إلى الدولة وشرع ينتحل الاعذار لنفسه ، وبعد أن سئمت الدولة من مماطلته بعثت إليه كلامها الآتي :

« أما بعد ولما كنت عاجزاً عن اخضاع لبنان ، وظهر ضعفك إلى هذا الحد ، رأت الدولة أن ترسل وزيراً يخلفك في الولاية على تلك الربوع ، يكون فيه النشاط والقوى الكافية لضم تلك البقاع إلى مملكتها » .

وفي الحال كتب الجزار إلى الدولة بعد أيام قليلة يبلغها إذلاله لأمراء الجبل ، وجعله من إيالاتها .

وبعد بضعة أيام ألحق برسالته المتقدمة هذا البلاغ إلى الدولة « أنه أخضع لبنان وقهر رجاله البالغ عددهم من النصارى مائة وعشرين ألفاً ، ومن

---

(1) ذكر الشهابي في تاريخه : ٨٩ ـ ٩٠ أن الجزار بعد ان قبض « على أولاد السكروج ، تقدم الى الخدامة : المعلم ابراهيم ابو قالوش ، والمعلم يوسف مارون » وبعدهما الياس بن ابراهيم اده ، انما والجزار على هذا اليهودي له اهمية خاصة ، ويربطه البعض بجذور الحركة الصهيونية .

الدروز ستين ألفاً ، ومن الشيعة المتاولة ثلاثين ألفاً ، ومن المسلمين ثلاثين ألفاً ، ولم يطل على جواب الدولة حتى بعثت تطلب منه الجزية عن النصارى . فأشكل عليه الأمر وكان حاييم مسجوناً ، فصدر أمره باطلاقه وإحضاره إليه ، ولما امتثل أمامه طلب الجزار رأيه فقال له حاييم بعد الروية الأفضل أن تدفع جزية النصارى من مالك الخاص هذه السنة ، وفي السنة القادمة تبلغ الدولة أن نصارى الجبل اعتنقوا مذهب الاسلام ، فتسقط عنهم أو بالاحرى يرفع عنك تقديم هذا المال . فاستصوب الجزار رأي حاييم وعمل بموجبه .

* * *

الفصل الثاني والاربعون

في ذهاب الجزار الى مكة

ففي سنة ١٧٩٥ عزم الجزار على الحج ، ليظهر تقواه لمشايخ الاسلام ، ويطلي على الرعية ورعه وإيمانه ، ولم يكن لديه رخصة قانونية للذهاب إلى كعبة الدين الاسلامي ، فالتمس من الدولة أن تخوله الذهاب ، فورد إليه الاذن مع الفرمان في ضم ولاية الشام وأميرية الحج إليه ، ليذهب بالمحفل إلى مكة تقديراً لأعماله وإقراراً بفضله عليها من تدويخ البلاد ، وضمها إلى مملكتها .

وبعد إتمام معدات السفر نهض الجزار بمحفل الحج إلى مكة مخلفاً وراءه قواد جنده ، وأخصهم سليم باشا حرساً على حريمه ، ونائباً عنه في شؤون المدينة ، مسئولاً عن إيجاد الأمن بين الرعية ، فقام سليم باشا ، وهو قائد المماليك بوظيفته ، كما قام سواه حق القيام ، فأكثر من التردد إلى مسكن الجزار ، وسمح لبعض رجاله في مشارفة الحريم ، والمخالطة معهن ، وقد أكثرت الأهالي من الطعن على حريم الجزار مع المماليك واحتقروهن .

ولما عاد الجزار لحظ أموراً غريبة في حريمه ، فسخط عليهن ، وأضمر لهن وللمماليك شراً .

* * *

الفصل الثالث والاربعون

في قتل الجزار حريمه

ظل الجزار بعد رجوعه من مكة أياماً يقدح فكرته في استنباط طريقة للايقاع بحريمه ، والتخلص منهن ولم يكن ما يغل يده عنهن غير خوفه من المماليك وحقد الجند عليه ، فتظاهر لسليم باشا قائد المماليك ، واسماعيل الكردي قائد الجند الكردي بالمودة ، وحسن لهما منازلة أمراء لبنان ، وضمه إلى ولايته ، والجندي الشجاع متى سمع بالحرب ، وقرب نشوبها يتهلل وجهه بعلائم الطرب ،ويعود وهمه الوحيد في دنياه اصلاء وطيسها وخوض عبابها ــ ذلك ما حدث للقائدين عندما طرح عليهما الجزار رأيه في مهاجمة لبنان ، وللحال جهز لهما مؤونة الحرب ، وأمرهما بالقيام فقاما برجالهما ، ووجهة الحملة لبنان .

وكان مع الحملة إبراهيم القالوش من الذميين الكاثوليك ربيب المشايخ الزيادنة ، وكان شجاعاً كريماً . وله نفوذ حسن عند مماليك الجزار ، وكان قائد أربعمائة فارس .

ولما بعدت الحملة عن عكا عوّل الجزار على انجاز وعده في قرض حريمه، فأمر خصيانه أن توقد ناراً كبيرة في صحن الدار ، وتأتيه بحريمه واحدة واحدة ، وذكروا أن الخصي كان يسوق إلى الجزار نسوته أفراداً ، والجزار يقبض عليها من عنقها ويطرحها في النار على وجهها ويدوس على ظهرها ، ويضغط على رأسها حتى يتم شيها ،وتلفظ روحها فيأمر الخصي برفعها ،واحضار سواها ، قالوا : وعلى هذه الصورة الشنيعة أعدم الجزار سبعة وثلاثين امرأة ، ولم تنج واحدة من حريمه غير فتاة في الثامنة من عمرها .

وبعد أن أتم الجزار مهمته في إبعاد المماليك وبقية من ظنه من العصابات، وقرض حريمه ، تظاهر بالعداوة ومجازاة من امتهن حرمته ، فبلغ سليم باشا ،

وهو في صيدا مقاصد الجزار ، وإضمار الشر عليه وعلى من لف لفه ، وكيف أنه أفنى حريمه وشواهن أحياء .

فعظم الأمر على سليم باشا واطلع رجاله على فحوى الخبر ، فقام الجند وقعد ، وجاهر بصوت واحـد بمقاتلة الجزار ، وقطع دابره وإبادة قوتـه ، وللحال أمر سليم باشا بالعودة إلى عكا ، وعادت الحملة عن لبنان لوجود الخلل في رأسها وفي جسمها ، فرامت اصلاح شؤونها قبل أن تباشر معالجة مريض لا تتوجع لمرضه .

ولما وصل سليم باشا برجاله إلى صور وجد أبواب المدينة مقفلة بوجهه فأدرك خطارة موقفه ، وعلم أن الجزار أصبح خصمه .

* * *

الفصل الرابع والاربعون

في فتح صور وارغام اهاليهـا

وكان من حاكم صور أنه بلغه الأمر من الجزار أن يقفل أبواب المدينة بوجه سليم باشا وبقية الحملة ، ويمنع عنهم المدد ، فصدع بموجب الأمر ، ولما رأى بوادر الحملة مقبلة بعث إلى سليم باشا رسولاً وبلغه أوامر الجزار إليه ، وعند ذلك هجم سليم باشا برجاله وفتح المدينة عنوة ، وأرغم حاكمها وأهاليها على امدادهم من عليق ومال وزاد ، واغتصبوا أمتعة ثمينة فرضوا على أصحابهـا مالاً لقاءها ، وقـد لحقت الجنود أمتعـة لعائلـة مشاقـة هي بحد ذاتها تافهة ، لكنها كانت عزيزة على تلك العائلة ، بعد أن أناخ الدهر بكلكله عليها ، وأصبحت بحالة محزنة يرثى لها .

وبعد أن قضت الحملة وطرها من صور تقدمت إلى عكا ، وقلبها يتدفق حقداً على الجزار وهي واثقة بالنصر لها والبطش به .



الفصل الخامس والاربعون

في فشل سليم باشا

ليست هذه المرة الأولى التي رجع عن حصون عكا محاصرها بالفشل والخيبة ، وحفظت لمقامها الهيبة والصولة ، فكانت ولم تزل تسخر بالقوة التي تريد أن تنزع منها تلك السيادة ، وسليم باشا ، وإن كان معظم الجند معه لما حاصرها ، ورام إذلالها وليس في حصون عكا رجال أكفاء ، فإن الجزار تغلب عليه بدهائه ، وشتت رجاله ، ولولا ذلك لتم له النصر ، ونال مبتغاه من مجازاة سيده ، ولكن الجزار لما رأى رجـاله قليلين ، وأغلبهم لا يصلحون للنزال استمال إليه قائد الأكراد اسماعيل الكردي ، ونـال وعده ، ولما دارت رحى الحرب لحظ سليم باشا ، انفصال الأكراد عنـه ،وإعمال سيوفها برجـاله ، فدارت الدائرة عليه ، وعلى عصابة ظلت على عهودها معه ً إلى أن تضعضعت قواه ، وطلب لنفسه مع رجاله النجاة ، ومنهم القالوش الذي أتى إلى الحصن ونزل على أولاد موسى الحنا حكام تلك المقاطعة فأمنوه على حياته ، وأقام بينهم مكرماً ، إلى أن شعر الجزار بوجوده ، فأرسل يستحضره إليه ولما لم يكن له نفوذ ولا سلطة على الحصن تعذر عليه تنفيذ أمره في حكامها ، لأن الدولة لم تعلن رسمياً تعيينه على ولاية الشام بعد .

* * *

الفصل السادس والاربعون

في اعدام ابراهيم القالوش وآلـه

ولما فشل الجزار وعاد أمره مدحوراً بالخيبة بعث إلى الاستانة وفداً في طلب تعيينه رسمياً على إيالة الشام وتوابعها وما ذلك إلا ليرغم حاكم الحصن على تسليمه القالوش ، ويفهمه أن أمره لا يستخف به ، فرجع إليه الوفد مصحوباً بالفرمان القانوني فعزل عنها واليها ، واستحضر من الحصن ابراهيم القالوش،وفي هذه المرة لم يكن بد" من تسليمه ، ولكن رجال الجزار لما وصلوا

بالقالوش إلى حماة أخبروه أن الجزار يعفي عنه إذا اعتنق الاسلام ، وإذا أصر على الرفض أرسلوا رأسه إليه ، فرفض القالوش وآثر موته على دين أجداده مسيحياً من الحياة في الذل ، فقطعوا رأسه وعادوا به إلى الجزار ، أما أولاده ففروا إلى عكار حيث التجأوا إلى بكواتها ، وكان لابراهيم أخ في بلاد صفد أمر الجزار بشنقه إلحاقاً بجريرة أخيه الشهم[1] .

* * *

الفصل السابع والاربعون

في القبض على الامير بشير

وبعد أن فرغ الجزار من ثورة المماليك وجه مطامعه نحو لبنان ، فأرسل إلى الأمير بشير يطلب منه مطالب مستحيلة وجائرة ، ليكره الأمير على العصيان، ويكون له عذر بإرسال حملة عليه ، وكان الأمير يماطله ، وفي ذات يوم مرّ الأمير بساحل بيروت ، ومعه عدد قليل من رجاله ، فوثب عليه رجال الجزار الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة ، وألقوا القبض عليه وأرسلوه مكبلاً إلى عكا ، فأمر الجزار بسجنه مع رجاله ، وعين في محله رجلاً اقتبل أن يدفع مطاليبه الفادحة .

وكان الجزار يفعل ذلك كله ليضطر رجال الجبل على الثورة ، فيجعل له سبيلاً إلى المداخلة في إخمادها ونشر علمه فوق ربوعه كما كان شأنه في ولاية المشايخ الصعبية وغيرهم ،وما كانت غاية الجزار إلاّ حشد الأموال ، لا خلاف عنده بطريقة جمعها قانونية كانت أو ظلماً .

كل ذلك كان يجري على أمراء لبنان والشعب يستجير من تقلب الأحكام

---

(1) يريد بالحصن قلعة الحصن المعروفة في سورية الآن ، وهي قلعة ذات شهرة تاريخية كبيرة لدورها الهام الذي شغلته أيام الحروب الصليبية ، هذا وذكر الشهابي في تاريخه : ١٠١ ، أن القالوش التجا الى آل موسى الحنا ، وأن هؤلاء أطاعوا أوامر الجزار ، فقطعوا رأس القالوش وبعثوا به الى الجزار ، حيث وضعه على رمح وتركه أمام باب عكا ثلاثة أيام .

وتلاعب السياسة ، وهـم لاهون عن الاتحاد بالخصام والشقاق ، مفضلين الشخصيات على العموميات والعداء الأهلي على الاتحاد وطرح نير الذل •

فقبل الأمـير الجديد بمطاليب الجزار المالية، وجمعها لـه من الشعب المسكين ، وأرسلها إلى خزينة عكا غنيمة باردة •

وظل الأمير في سجن عكا عشرين شهراً أفرج في نهايتها عنـه الجزار ، وأعاده إلى وظيفته السابقة بعد أن استوثق منه بالوعود حسب أمياله ، وحتى يجعل الأمير يصدق في وعده أبقى ولده قاسما عنده في عكا ريثما يرسل إليه والده تمام طلبه ، فقبل الأمير بشروط الجزار ، ورضي أن يبقي ولده في عكا ، وقام إلى دير القمر مركزه القديم •

* * *

الفصل الثامن والاربعون

في تعيين الشيخ بشير جنبلاط حاكما على اقاليم الشوف وجزين والخروب والتفاح

وبعد اياب الأمير بشير إلى دير القمر حاكماً على لبنان كما كان سابقاً ـ خرج من سجن عكا الشيخ بشير جنبلاط الدرزي وصار تعيينه حاكماً على أقاليم التفاح والخروب وتوابعهما ، وكان الشيخ جنبلاط فاضلاً ذا وجاهة وثروة طائلة ، ومن أخص أصدقاء الأمير بشير الذين يعتمد عليهم عند الشدة ، وقد ذاق عذاب السجن الجزاري ، كما ذاقه الأمير في الوقت ذاته ، فقام الشيخ بما عهد إليه حق قيام[1] •

وفي هذه الأثناء بعثت الدولة تستحث الجزار على فتح لبنان وضمه الى إيالته ••• ولما لم يكن للجزار سبيل للمداخلة في شؤون لبنان وقتئذ ، ويعلم مناعة لبنان وشجاعة رجاله ، وحصافة أميره لم يشأ التحرش به رأساً إنما أرسل من قبله عصابة لإلقاء بذور الفتن بين مشايخ الدروز وبين الأمير بشير •

* * *

(١) انظر تاريخ الامير حيدر الشهابي : ١١٥ ـ ١٢٢ •

الفصل التاسع والاربعون

في اسقاط مساعي الجزار الفاسدة

وكان غرض الجزار من اشعال نار الفتنة بين الدروز والنصارى واضحاً لا يحتاج إلى تفصيل ، فكان ينتظر وقوع الحرب بينهما ، وعند شبوب الحرب الأهلية يراقب الحزب الأقوى فيسالمه ، والحزب الضعيف فيطمس آثاره .

فانتشرت جواسيسه بين الدروز ، وحسنوا للمشايخ الفتك بالنصارى ، وأغروهم بمواعيد الجزار بالمساعدة سواء" كان بالرجال أو بالمال .

فاجتمع مشايخ الدروز ، وعقدوا جلسة أمضوا صكوكاً على نفوسهم في الاتحاد على التنكيل بالنصارى ، وقد رفض أن يوقع على هذه المعاهدة الهجومية الشيخ نجم العقيلي ، وهو أعقلهم وافطنهم في عاقبة الحرب .

ولم يكتف بعدم توقيعه ، بل أظهر للمشايخ غلطهم وطيشهم ، وسوء مصيرهم ، وادعم أقواله في تبيين مقاصد الجزار الدنيئة ، وما زال يناضلهم حتى أقنعهم بالبرهان ، وأقلع من قلوبهم بذور الشقاق ضد اخوانهم النصارى ، وأسرع إلى الأمير وطلب مقابلته ، وأسر إليه ما وصلت إليه أعمال الجزار في تغرير المشايخ ، وطلب منه أن يتخذ الاستعدادات الكافية لمنع نمو بذور الجزار في قلوب رجاله ، وأجلى له ما وقع للمشايخ ، وكيف تغلب على اقناعهم واخلادهم إلى السكينة ، وسأله أن يعفو عنهم لقاء طاعتهم له ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعفا عن مشايخ الدروز ، وعادت المياه إلى مجاريها ، وكان نائب الأمير الشيخ أبا خطار سلوم الدحداح ، الذي هو جد المطران نعمة الله الدحداح صاحب كرسي دمشق على الموارنة في أيامنا هذه .

* * *

الفصل الخمسون

في وصف اقسام اهالي لبنان

وإن تكن مساعي الجزار في ايغار صدور الدروز على النصارى فسدت ، ولم يقم لها قائمة فأهالي الجبل منقسمة طبيعياً إلى قسمين من مشايخ وأمراء أي : دروز ونصارى ، وتنتمي إلى حزبين سياسيين عظيمين هما حزب جنبلاط، وحزب يزبك ، إلاّ أن الأمير بشير كان ميالاً إلى الحزب الجنبلاطي ، وأفرغ قصارى جهده في التوفيق بين الحزبين فلم يفلح •

وسبب ذلك هو أن آل يزبك لم يكن لديهم ثروة عقارية تقوم بمصروفاتهم وأودهم ، كما كان للجنبلاطيين ، فزاد حنقهم عليهم ، وميل الأمير إلى جنبلاط كان يزيد في حقد يزبك الذي كان من أتباع الأمير يوسف ، ومن هذه الأسباب وعدة غيرها لم يحسن الأمير ظنهُ بهم ، وكان يحترس منهم •

أما مشايخ آل نكد فكانوا يميلون مع من له الأرجحية ، فتارة مع هؤلاء، وتارة مع أولئك ، ولتعاسة الشعب كانت هذه الضغائن باعثة على الشقاء ، وجلبت لأهالي الجبل ويلات الحروب الأهلية على التتابع •

ومداومة المشايخ على إيقاد الفتنة وإشهار القتال وابتزاز أموال الرعية زادت الشعب تباعداً ونفوراً ، وجعلت الاتحاد الوطني ضرباً من المحال ، ومن جراء ذلك سهلت للدولة المداخلة بينهم ، وكان الجزار يضحك منهم ، ويغريهم بعضهم على بعض ، لأن ذلك من مرامي نفسه الشريرة •

* * *

الفصل الحادي والخمسون

في قدوم نابليون الى سورية وفتح غزة ويافا

وبعد أن دوّخ نابليون مصر ، شخص إلى سورية براً فاعترضته قلعة العريش عن المسير برهة ، لكنه واصل سيره بعد أن أضافها إلى انتصاراته ، وعدها من توابع فتوحاته ، وبعد أن فرّق جموع الأتراك عن الحدود السورية أرسل كتاباً للجزار يعلمه بقدومه إليه ، وينصحه في المسالمة ، فلم يتنازل الجزار إلى مجاوبته ، فعاد الرسول بـلا جواب ، فأرسل نابوليون رسولاً ثانياً وأصحبه كتاباً آخر ، فكان نصيب هذا الرسول من الجزار القتـل ، فحنق نابوليون على الجزار وتقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل نحو غزة، وهزم من رجال الجزار أربعة آلاف فارساً ، واستولى على محلات الذخيرة والأدوات الحربية ، وواصل سيره إلى يافا ، وهنا وقفت جنود الجزار أمام الجنود الافرنج بضع ساعات في نهايتها أسفرت الواقعة على ثلاثة آلاف قتيل من الجنود التركية ، ودخلت رجال نابوليون مدينة يافا وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع ، وهذه هي المرة الأولى والأخيرة التي سمح نابوليون لرجاله بالتصرف والتمتع بمال المغلوب وأملاكه .

وقبل أن يترك يافا ويقوم رجاله إلى عكا أمر بقتل الاسرى الذين وقعوا بين يديه ثلاثاً في العريش ، وفي غزة ، وفي يافا ، وكان يطلق سراحهم بعد أن يستوثقهم أن لا يقاتلوه ، ولما أسرهم هذه المرة وعددهم ينيف على ثلاثة آلاف، حنق عليهم وعلم أنهم لا يراعون ذمة ، ولا يحترمون الشرف العسكري ، فأمر جنوده برمايتهم ، ولم يواروهم التراب بل بقيت أجسادهم طعاماً للطيور وظلت رفاتهم مكشوفة فوق الخمسين سنة[1] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رغم تعاطف نصنا هذا مع نابليون فان مذبحة يافـا وما تلاهـا ستبقى نقطة سوداء في تاريخ نابليون وأمته ، تثير ذكرى مذابح الفرنجة التي اقترفوها في القدس وسواها أيام الحروب الصليبية . هذا وذكر الشهابي في تاريخه : ١٣١ « وقد كان ضمن يافا أكثر مـن اثني عشر الف عسكري من الاسلام فما سلم منهم الا القليل ، وقتلـوا النساء والاولاد ، حتى أن الـدم جرى في شوارع يافا كالماء » .

الفصل الثاني والخمسون

في حصار عكا



نابليون بونابرت

كان في مياه عكا مركبان حربيان انكليزيان للمدافعة عن عكا من هجمات بونابرت ، أرسلتهما الدولة البريطانية لما علمت بانتصارات نابوليون المتتابعة في مصر ، وأن في نيته اكتساح سورية ، ونحن لا نتعرض لما حدث بين فرنسا وانكلترا من المزاحمة والمسابقة للمداخلة في الشؤون المصرية والسورية، لأن ذلك دوّن في حينه ، وانتشر للملا بجلاء لا يحتاج من بعده إلى الزيادة .

وكان نابوليون عارفاً بمناعة حصون عكا ، فطلب من مصر مدافع وذخيرة كافية ، ليؤكد نصره ، وتقدم بجنده إلى عكا ، وعند وصوله بلغه أن المراكب

الانكليزية قبضت على المدافع ، وكل ما أرسل إليه من مصر ، فلم يبال بالأمر كثيراً ، فشرع بحصار عكا في الثامن عشر من آذار ١٧٩٩ ، ومما يجدر بالذكر خطابه الذي ألقاه على جنوده حيث وقف وقال مشيراً إلى عكا : « هذه المدينة هي مفتاح الشرق ، فاعلموا حرج مركزكم ، ووطدوا عزائمكم على امتلاكها ، لأن بامتلاكها تسلمون لدولتكم مفتاح الشرق ، فندخل القسطنطينية عاصمة قياصرة الرومان ، ونملك شرقي وشمالي أوربـا ، فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم » .

وبعد أن أتم كلامه الموجـز المملوء حماسة ونشاطاً أمرهـم بالهجوم وتشديد الحصار ، وفي نهاية العشرة الأيام تمكنوا من فتح الخنادق ، واخراب الدور ، وهجموا على حامية السور ، وأعملوا فيها السيف إلى أن أدخلوها داخل الحصن ، واقتفوا آثارها ، وما عتم أن ظهر الجزار بنفسه محرضاً جنوده على الثبات ، وأخذ يفتك بكل مـن يركن إلـى الفرار منهـم بالرصاص ، فعاد إلى الحامية نشاطها ، وعمد الجند الفرنساوي إلى الانسحاب بانتظام ، وهكذا ظلت الحال نحو شهرين ، قاسى بهما الجزار الأهوال ، ومع وفرة عدد جنده على الجنود الافرنسية ، فضلاً عن حصون المدينة كاد يلحق به الفشل ، لو لم ينسحب نابوليون برجاله عن عكا ، ويعود إلى مصر ، وذلك حدث بعد أن واصل عكا هجماته ، وضيق على أهاليها أشد الضيق ، وإذ وردت إليه عن فرنسا أخبار غير مرضية فآثر الأهم على المهم وقفل راجعاً إلى مصر[1] .

* * *

(١) الابحاث حول اخفاق نابليون في فتح عكا أكثر من أن تحصى كلها تجمع على أهمية ذلك وأثره العام على تاريخ المشرق العثماني ، وأثره الخاص على حياة الجزار وحكمه .

الفصل الثالث والخمسون

في اتهام الامير بشير بالخيانة

ولما رفع نابوليون الحصار عن عكا ، صوب الجزار نحو الأمير بشير وأتباعه تهمة الخيانة ، بمساعدة نابوليون وامداده بالمؤونة والذخيرة في أثناء حصاره عكا ، وقد تظاهر بحنقه وكدره الشديدين منه ، وظل يهدده ويتوعده إلى أن اضطره على طلب الإقالة لنفسه ، فترك الأمير دير القمر ، وقدم الحصن تصحبه حاشيته ، وجرجس مشاقة مدير خزينة الجبل واتفق في تلك الأثناء أن بعض المراكب من العمارة الانكليزية كانت سابحة في بحر الروم ، تجاه الحصن ، وكان على ظهر مركب منها الصدر الأعظم ضيا باشا آتياً ليقود الجنود التركية في الحرب الواقعة بين الدولة وفرنسا .

فكتب له الأمير كتاباً أرسله مع قبطان المركب الذي كان عائداً من النزهة إلى مزرعته ، وفحوى كتاب الأمير شكواه من اعتساف الجزار وأظهار عبوديته إلى الدولة ، وكان من ضيا باشا بعد وقوفه على فحوى رسالة الأمير بعث استحضره إليه ، وعند مقابلة الأمير بضيا باشا على ظهر البحر ، رجع موعوداً منه على مساعدته .

وبعد أيام قليلة بلغته أوامر الجزار برجوعه إلى مركزه ، واستلام زمام حكم لبنان ففعل .

* * *

الفصل الرابع والخمسون

ثورة ابناء الامير يوسف بتحريض الجزار

وبعد أن رجع الأمير إلى دير القمر لحظ حركة غير عادية على أولاد الأمير يوسف ومن يميل إلى حزبهم طلائعها عدائية ، وهي أقرب إلى الحرب منها إلى السلام ، وكان يترأس الحزب أولاد الأمير يوسف البطـل المشهور الشيخ جرجي باز ، وكان الأمير يستميل إليه مشايخ جنبلاط ، ولم تمض الأيام عبثاً فدارت الحرب ، واشتد القتال بين الفريقين ،حتىقد ر للأمير في موقعة بالقرب من بيروت أن يطلع على الدافع بأولاد الأمير يوسف على عداوته ، رأى رجال الجزار يمدونهم ويحرضونهم على مداومة القتال فكظم الأمير غيظه ، وللحال بعث برسالة إلى الشيخ باز عرض له بها إيقاف الحرب عند هـذا الحد ، وما وقف عليه من مقاصد الجزار ، وكيف يجب عليهم أن لا يجعلوا للاتراك يداً في سلب راحة الأهالي ، وجلب الفتن وضياع الأمنية في ربوع الجبل ، وطلب من الشيخ أن يتروى ولا يسبب للبـلاد ما لا يحمد عقباه ، ويكون مجلبـة لخرابها ودمارها ، وكان الشيخ لا يقل عن الأمير وطنية وغيرة على مصلحة البلاد ، فقبل اقتراح الأمير إنما طلب منه أن ينصف أولاد عمـه ، ولا يفكر بسواهم ، وقد تنازل له عن حقوقـه كرماً منه بحيث لو اشترط على الأمير مبلغاً طائلاً لكان أهون على الأمير تنفيذه من أن يرى مقاصد الجزار سائرة إلى الامام ناجحة فيهم ، فقبل الأمير بمطالب الشيخ العادلة ، ووعده أن يولي أولاد الأمير يوسف جبيل وتوابعها ، وعين أخاه نائبهم ومستشارهم ، وبذلك قطع الأمير حبائل الجزار الفاسدة ، ورفرف السلام على لبنان مدة[1] .

* * *

---

(١) قدم الامير حيدر الشهابي في تاريخـه معلومات اكثر تفصيلا ودقـة فلتنظر : ١٣٣ ـ ١٦٧ .

الفصل الخامس والخمسون

في وفاة الجزار

إذا أمعنا الفكرة بأعمال الجزار ، ونظرنا إلى نتائجها نظراً عادلاً بما أدته من النفع والضرر للدولة والرعية على السواء ، وجدنا هذا الرجل لم يكن نائباً عن أعمالها كما هو مألوف من حكام ذلك العصر .

فقد كان داهية ذا بأس وحنكة واسعة ، وقد سلمت إليه الدولة إدارة شؤون إيالتها ، وعولت عليه في اخضاع سورية وضمها تحت جناحها على طريقة الغدر والخداع ؛ ودس الفتنة والحروب الأهلية بين أمراء البلاد والمشايخ ، الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والفسق ، ويسومونهم الذل أنواعاً ، والظلم أشكالاً ، ولا يعتبرونهم أرقى من الرقيق ، فكانوا يتصرفون بمالهم وأرواحهم كيف شاءوا ، وكانت شريعة الرجل منهم إرادته السخيفة ، وكان الحاكم يشنق ويقتل ويشوه أخلاق الشعب ، كأنه الحاكم المطلق على قطيع غنم ، ولا فرق عنده لتتميم أوامره الجائرة ، وكأن ظروف الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار ، لينتقم منهم ، ويكيل لهم الكيل كيلين .

وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية ، يكرهون العدل ، ويعشقون الظلم ، لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ، ولم يقم فيهم رجل قادر يلم شعثهم ، ويجمع قواهم المتفرقة تحت لواء الوطنية ليقاتلوا عن الأمة ، ويذبوا عن حقوقها ، ويتركوا الشخصيات جانباً ، ويعملوا للعموميات ويطردوا الأجانب من وطنهم ، ويدافعوا عن استقلاله .

إن معاملة الجزار للأمير يوسف لم تكن أقسى من معاملة الأمير لأخوته وأنسبائه ، وإن ما لحقه من الجزار هو غاية ما كان يستحقه ، وعدالة اليوم تطلب اجراءه ، وقس على الأمير يوسف بقية المشايخ والأمراء ، الذين كانوا يستبيحون مال وعرض الرعية في سبيل مصالحهم الذاتية .

قد خدم الجزار الدولة والشعب وإن ظلماً ، وعادت خدماته على الدولة

بالنفع فأخضع البلاد لشوكتها ، وأصبحت تطيعها وتعمل بأوامرها قانونياً ، بعد أن كانت ثانوياً ، ورد عنها في ثباته أمام نابوليون خطراً كان يهددها ، لو تم النصر للجنود الافرنسية في حصار عكا ، واقاد الرعية أنهُ ازاح عنها ضغط المشايخ والأمراء المستبدين بها ، ولا ذمة ولا حرمة لهم ، فكال لهم الوزنة وتكرم فأضاف على وزنتهم وزنة أخرى ورغماً عما أشاعته الألسنة ، وأن القوم خرجوا من ذل إلى ذل ، فما هو فضل الجزار الذي تطروه لأجله ؟

فيقال في الجواب على ذلك القول : إنه وإن تكن حالة الشعب لم تختلف في أيام الجزار عما كانت عليه سابقاً ، فالجزار أعدها لذلك الاختلاف ، وعلى كل حال فقد كان الجزار أقل جوراً بالنسبة إلى الأمراء والمشايخ قبله ، ولما جاءهم وضع حداً لظلمهم وعسفهم ، وزعزع سلطتهم وأرغم أنوفهم وأطلق الفلاح من عقالهم .

ولا نريد الثناء على أعمال الجزار والاطناب بمآثره الوخيمة ، إنما نحصر قولنا في أن الجزار عمل بما يطابق زمانه ورجال عصره .

وقضى الجزار نحبه في سنة ١٨٠٤[1] عن أربعة وثمانين عاماً ؛ ولما انتشر خبر وفاته تهللت وجوه الشعب وأفرج عن الذين كان غضبه يهددهم وعلى شفا الايقاع بهم ، وبعثت الدولة راغب أفندي ، وحجز على متروكاته من مال وعقار ، وتصرف به بموجب ارادتها .



(١) ذكر الشهابي : ١٦٧ ان الجزار قد توفي في شهر المحرم سنة ٢٩/١٢١٩ نيسان ١٨٠٥ .

الفصل السادس والخمسون

في تعيين سليم باشا واليا على عكا

لا حاجة بنا إلى الإفاضة في كيفية تعيين خلف الجزار ، وكيف أن الدولة اهتدت إلى الرجل المستوفي الشروط ، وأنزلته في الفراغ الذي أحدثه الجزار عند وفاته ، فاشغله وكان لائقاً به ، فسليم باشا قد عرفنا عنه الشيء النذر في الفصول المتقدمة ، فهو من أصل كرجي مسيحي ، خطف من أهله ، وهو حديث السن ، وبيع للمسلمين ، ووصل أخيراً إلى الجزار ، حيث احتفظ به ، وأعلى منزلته لما رأى فيه من النباهة والنشاط .

وقد اشتهرت سجاياه الحميدة بين الجنود ، حتى أجمع على محبته كل من عرفه .

وقد أصابت الدولة في تعيينه والياً خلفاً للجزار لما له في قلوب الشعب من الهيبة والوقار، وكان غيوراً على تأييد الشريعة والعدالة ، صادعاً بأوامر الدولة عاملاً شفوقاً على الرعية معاملاً الجميع على السواء .

وكان متساهلاً يحترم كافة الأديان ، وكان نائبه علي باشا يماثله خلقاً وخُلقاً ، وعين مديراً للخزينة حاييم فارحي بعد أن رفض طلبه خوفاً من أن يحل به ما أصابه من الجزار ، فأصر عليه سليم باشا إلى أن يقبل بالوظيفة ، واطلق يده وعقله في شؤون الولاية .

والعقول الكبيرة إذا أطلقت تأتي بالعجائب ، ولما قبض حاييم على زمام وظيفته ، وأمن على اطلاق أفكاره وتسريحها في فضاء عكا أذهل معاصريه ، ونال ثقة مولاه ، فكان يفتش عن الرجل ذي الاستقامة ويوظفه ، وسعى فجعل لمشايخ آل صعب راتباً للتقاعد ، وتأميناً على أملاكهم وحياتهم ، ثم حمل سليم باشا على رحمة الرعية ، فلم يجمع من الأهالي مالاً جديداً .

ورسم على الواردات الأجنبية رسوماً ، كان منه الدخل الوافي إلى

الخزينة ثم أشار على سليم باشا أن يمنح الألقاب إلى أمراء الجبل في مخاطبته لهم ، وأصبح يستهل كتابه « فخر الأمراء الكرام ولدنا المكرم » الأمير كذا .. فساد الأمان في مدة هذا الجوق النبيل على ولاية صيدا وتوابعهـا وشعرت الأهالي بارتقائها مادياً وأدبياً [1] .

* * *

الفصل السابع والخمسون

في المؤامرة على آل نكد

في هذا الفصل وما يليه شواهد قاطعة على أن وفاة الجزار ورفع يده عن أمراء الجبل ومشايخه وأحزابه ، لم يحدث تغييراً مرضياً في جو لبنان وسياسته ، ومن ألف المشاكسة واعتاد على التلاكم والخصام ، عبثاً يرتجى منه اصـلاح .

ففي هذه الأثناء عقد مشايخ جنبلاط وعماد المؤامرة على تدمير آل نكد حكام مقاطعة دير القمر وتوابعها ، ونسبوا إليهم مواصلة الحروب الأهلية ، وواقع الحال كان آل نكد ينضمون مع الحزب الأقوى ، وينصرون المنتصر ، ولا فرق عندهم غير الفرق الموجود بين قوي وضعيف ، أما بقية الأهالي وأمراء ومشايخ ، فكانوا منقسمين إلى قسمين : قسم مع آل جنبلاط ، وقسم عمادي، فتأصلت العداوة والحروب في قلوب هذين الحزبين القويين ، وطال أمدها ، ولما لم يكن لدى الفريقين أدلة وأسباب واضحة لهذه المشاغب زعموا أن آل

---

(1) سبق أن مر ذكر حاييم وعلاقته بالجزار ، هذا وقد قدم ابراهيم العودة في كتابه تاريخ ولاية سليمان باشا ـ ط . صيدا ١٩٣٦ : ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ٩٠ ـ ٩٨ ، معلومات جيدة عن حاييم ودعاه باسم حاييم الصراف ، وذكر أنه من دمشق أبوه اسمه شحاده فارحي ، تحمل من الجزار كل الشدائد « اذ قطع منخاره وقلع عينه اليسرى » .

نكد علتها وسبب اشتعال جمرتها ، وقــد اتفقا معاً على هــذا الزعم وتآمرا على التنكيل بمن كان تعزى له هذه القلاقل ، وقد أطلعوا الأمير على ما وطدوا عزمهم عليه ، فأظهر لهم الأمير ارتياحه ووعدهم بالمساعدة على خصمهم، وللأمير عذر وهو رغماً عن كون دير القمر مركز حكومة أمراء شهاب ، لم يكن لهم غير السلطة الثانوية فيها ، وكانت السلطة المرهوبة إلى آل نكد حكامها ، وكان إذا ارتكب أحدهم جرماً أمام بيت الأمير ، وتمكن من اجتياز بضع خطوات عنه أصبح حراً من الأمير ، ومقيداً بسلطة آل نكــد ، وكانوا إن شاءوا تسليمه للحكومة كان لهم ذلك ، ولا أحد يعترضهم إن شــاءوا الخلاف ، لأن لهــم مقاطعة ، ولهم حق التصرف فيها بعد تقديم الجباية .

وكان الأمير يتمرمر منهم ويود الحط من نفوذهم ، ولذلك لما علم باتفاق مشايخ جنبلاط وعماد على سحقهم غدراً سُرّ وأظهر ارتياحه .

ولما توفرت معدات المؤامرة لدى أربابها أولموا وليمة دعوا إليها أهل الزعامــة من آل نكد ، وقد وفقوا إلى الفتك ببضعة منهم : الشيخ قاسم ، وأخيه أحمد ، وكلهم ذو شدة وبأس ، وبعد أن قتل لآل نكد زعامتهم فرَّ من بقي منهم لا يلوون على شيء ، وفي ذلك تخلص الأمير من مزاحمة على السلطة في قلب حكومته[1] .

* * *

(1) ذكر الشدياق : ١/١٩٠ ان هذا كان سنة ١٧٩٧ ، وان الوليمة اقيمت في قصر الامير بشير الشهابي وأن القتلى هــم : بشير ، وواكــد ، وسيد أحمد ، وقاسم ، ومراد ، اولاد الامير كليب ، ثم لحق ذلك مطاردة لبقية آل نكد حيث قتل العديد منهم .

الفصل الثامن والخمسون

في المؤامرة على اولاد الامير يوسف

وبعد نكبة آل نكد وإزاحتهم عن دير القمر خلا الجو للأمير بشير . فأراد أن يستقل بحكومته على الجبل فلم يفلح .

والسبب كان نائبه وقتئذ الشيخ جرجس باز ، وكان هذا وصياً على أولاد الأمير يوسف ، وكان له مقام وكلمة نافذة في الشعب كما مر بنا في الفصول المتقدمة .

وظن الأمير أنه عثرته الوحيدة فأضمر له السوء ، ولكنه كان يخشى جانبه ، ويحترم شجاعته ، وقد اشتهر باز بعد جلاء آل نكد عن دير القمر بين الرعية ، وكاد يستأثر بالحكومة وحده ، وذلك مما دعا الأمير على تنفيذ غايته فتآمر مع مشايخ الدروز على الفتك به ، وأرسل رجالاً من قبله ، إلى جبيل لتفتك بأخيه عبد الأحد ، وفي الوقت المعين حضر إليه أولاد زين الدين ؛ وكمنوا في بيته ، ولما حضر الشيخ باز إجابة لدعوى الأمير ، ودخل غرفة الاستقبال وهو أعزل ، فأطبق عليه أولاد زين الدين ، وأماتوه خنقاً .

وكان نصيب أخيه عبد الأحد مثل نصيبه ، غير أن الأمير خاف على رجاله الفشل بمهمتهم ، فقام إلى جبيل ، وهو في الطريق التقى بالرسول قادماً إليه ومعه رسالة تفيده عن قتل عبد الأحد باز ، وإلقاء القبض على أولاد الأمير يوسف ، وقبل أن يترك الأمير عاصمته أرسل فقتل يوسف آغا الترك صديق الشيخ باز خوفاً من سطوته .

واستطرد الأمير مسيره إلى أن وصل جبيل ، وفي حال وصوله أمر بسمل بصر أولاد الأمير يوسف بطريقة نخشى على شعور القاري من ايرادها ،

والرجل الذي قام بهذه المهمة البربرية قاسم بن العرب ، فكان يحمي قضباناً حديدية ، ويوخز بها أعين أولاد الأمير ، وداوم على ذلك ثلاثة أيام ، وهكذا كانت نهاية أولاد باز وأولاد الأمير يوسف وحدوث ما حدث لهم وقع في آب سنة ١٨٠٨[1] .

* * *

الفصل التاسع والخمسون

في جلاء آل عماد عن لبنان

وبعد قتل البازيين ونكد ضعفت شوكة العماديين ، وانحلت عصبتهم وأغلت أيديهم ، وقد أدركوا غلطتهم في رفع يدهم عن الحكومة ، وما دبره لهم الأمير وأتباعه من تخضيد قوتهم ، فعولوا على التعدي وسلب راحة الأهالي ، وقد تكاثرت الشكاية عليهم للأمير ، وكانوا ينوون الايقاع بالشيخ بشير جنبلاط ، ولكنهم لم يفلحوا لأن الأمير كان موكلاً على حراسته عصابة شديدة الحفظ على أوامره ، ولما تفاقم أمرهم جند عليهم الأمير حملة أخرجتهم من لبنان وساقتهم إلى مصر، فارتاحت البلاد من شرهم وعادت إلى السكينة[2].

* * *

(١) انظر الشدياق : ٢/١٢٤ ــ ١٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ١/١٨٠ ــ ١٨٤ .

الفصل الستون

في حملة الوهابيين على الشام

في سنة ١٨١٧ أم الشام جند من الحجاز أرسله محمد بن عبد الوهاب الذي ادعى الخلافة (١) ، وبايعه عدد غفير نصروه على طرد الأتراك من جزيرة العرب ،وبعد أن قطع طريق الحج على الأتراك أرسل رجاله إلى المذبذبين في حوران تبشر برسالته وما يقصده من الفتح ، وامتداد السلطة ، وكتب إلى أهل الشام يدعوهم إلى الاسلام والطاعة ظناً منه أن الأتراك ، ومن ناصرهم من المشركين ، وكان والي دمشق يوسف باشا الكردي ، وكان مشهوراً بالفروسية عينته الدولة خلفاً لعبد الله باشا ، الذي حدث على عهده قطع الوهابيين الطريق على الحجاج .

ولما عينته الدولة حرضته على قتال الوهابيين ، وفتح طريق الحج ، وقد خرج بعسكر على الوهابيين ، ولم ينل منهم مأرباً ، وكان يختلق للدولة الأعذار الفارغة ، ويدعي قلة عدد جنوده ، وطوراً وعورة الطريق اعاقته من اللحاق بهم .

ولما لم يكن له قوة كافية لفتح طريق الحج ، أخذ يشغل الشعب عن الحج بأمور تافهة ، وكانت تصرفاته سافلة تدل على سخف عقله ، ومنها أنه أمر المسلمين بإطلاق لحاهم على السواء ، ومن خالف الأمر جزاؤه الاعدام ، وأمر النصارى أن ترتدي الاسود نساءً ورجالاً على السواء ، واليهود الأحمر نساءً ورجالاً على السواء ، مع أن الاسود كان شعار الدولة العباسية ....



(١) لاحاجة للتعليق على مدى جهل المؤلف بمبادىء وأهداف « الوهابيين » وترديده لما تعارف عليه أعداؤها في ذلك الزمان .

الفصل الحادي والستون

في فرار يوسف باشا الى مصر

ولما سئمت الدولة من مواعيد يوسف باسا في إزالة الوهابيين عن طريق الحج ، وأكدت خموله وعدم صلاحه أرسلت إلى سليم باشا والي صيدا ، وأمرته بمقاتلة الوهابيين ، وعزل يوسف باشا وتعيين من يرى به الكفاءة ، فجمع رجاله وأرسل للأمير بشير أن يوافيه برجاله إلى طبرية •

فجمع الأمير رجالـه وقدم إلى طبرية حيث التقى سليم باشا ، وانضم الجيشان المؤلفان من كافة النحل تحت قيادة الوزير سليم باشا ، وكان عدده وافياً لم يسبق انضمامه تحت قيادة عامل تركي من قبل •

وكانت وجهة هذا العسكر دمشق لنجدة يوسف باشا على الوهابيين ، وعند وصوله إلى القنيطرة التي تبعد عن دمشق ثلاثين ميلاً ، نزل بها للراحه ولما شعر يوسف باشا بقدوم والي عكا لنجدته ، أرسل له رسالة بلغته وهو في ذلك المكان يفيده بها عن عدم حاجته إلى مساعدة على رد الوهابيين ، حيث محمد علي باشا سبقه على ابعادهم عن الشام ، وأجلاهم عن طريق الحج •

ولم يكن سليم باشا ممن يؤخذ بمثل هذه الحبائل ، فظل سائراً بطريقه إلى أن بلغ عطوز[1] •

وهناك خرج إليه يوسف باشا برجالـه ، والتحم القتال بضـع ساعات أسفرت عن فشل يوسف باشا والتجائـه إلى الفرار ، فقصد مصر ودخل في حمى محمد علي باشا •

* * *

---

(1) يصر نصنا على استخدام عبارة « سليم باشا » وهو خطأ صوابه «سليمان باشا» هذا ويبدو أن مكان التصادم كان في منطقة «جديدة عرطوز» وعبارة «عطوز في النص تصحيف ، وكان ذلك سنة ١٨١٠ » م • انظر تاريخ ولاية سليمان باشا : ١٠١ ـ ١٣٢ • تاريخ الامير حيدر الشهابي : ١٨٦ ـ ٢٠٣ • الشدياق ١٢٩/٢ ـ ١٣٢ •

الفصل الثاني والستون

في امراء راشيا الشهابيين

وبعد انهزام يوسف باشا ، وتبديد رجاله دخل سليم باشا إلى دمشق ، وأعلن سلطته عليها ، وكان ذلك داعياً لسرور الأهالي .

ومن حسنات سليم باشا أنهُ ضم اقليم البلان إلى ولاية الشام ، بعد أن كان مستقلاً تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين ، ودعينا عمل الباشا هذا من حسناته لأسباب أولها كون حكام ذلك الاقليم مستبدين ، وكانت الأهالي تقاسي عذاباً وجوراً لا يطاقان ، وكان الامراء يدفعون عنهُ مالاً معلوماً لحفظ استقلالهم بهِ وبراشيا معاً ، وكانت الحكومة مشطورة مع الأهالي إلى شطرين : حزب يناصر الأمير أفندي ، وحزب يناصر الأمير منصوراً .

وأصل العداوة بين الأميرين هي قتل الأمير أفندي شقيقالأمير منصور . فاستفحل الأمر واشتدت المنازعة بينهما ، وكان الواحد منهما يراقب الآخر . ويترصد الفرص ليفتك بهِ ، ومن جراء ذلك بالطبع كان الأمير منهما يحتاج إلى عصابة ومال وحاشية ، ليحفظ مركزه أمام خصمه ، فكانت الأهالي مسؤولة عن لوازم زعيمها ، ومضطرة إلى تضحية حياتها ومالها أمامه على مذبح مطامعه الذاتية ، وحدث لاهالي اقليم البلان أنهم رفعوا شكواهم إلى سليم باشا ، وعرضوا لهُ تصرف الأمراء بهم ، وهي جرأة تعدُ لهم ، ونرغب ان نحفظها تقديراً لحقوقهم ، ونودُ لو نقدم على الاقتداء بهم في أي زمان ومكان ، وكان من سليم باشا أنهُ أنصفهم وأجاب دعوتهم ، وفي الحال رفع سلطة الأمراء عن ذلك الاقليم ، وأعلن ضمهُ إلى ولاية الشام ، ولا مشاحة كان لأهالي البلان فائدة شعروا بها وقدروها حق القدر .



الفصل الثالث والستون

في سعاية الشيخ علي العماد

وبعد أن استتب الأمن في ولاية الشام وتوابعها قدم سليم باشا برجاله إلى مركزه والأمير إلى محل اقامته .

واتفق لأهالي حلب أنهم اضطهدوا دروز تلك البقاع وأرغموهم على النزوح ، فأتوا لبنان ، وقصد وفد منهم دير القمر ، وطلب من الأمير والشيخ بشير جنبلاط قبولهم في جوارهم ، وكان من الأمير والشيخ إبداء كل حفاوة بهم ، ورحبا بنزولهم في بلادهما ، وكثر عددهم وأكثر الشيخ من الاعتناء بهم وبمن دخل بخدمته منهم[1] .

وفي عصارى نهار دخل على الشيخ جنبلاط رجل منهم ورام البطش به ، وكاد يظفر بوطره ، لو لم يعترضه كاهن ماروني اتفق وجوده عند الشيخ في ذلك الحين ، أسقط مسعاه ، ونجا الشيخ من شر الموت غدراً بيده .

وللحال بعد أن ألقي القبض على الدرزي ، صدر أمر الشيخ باعدامه .

ومما هو جدير بالذكر إقبال درزي يدعى سليمان الحكيم ، قدم من الغرب ليفتك بالأمير ، وقد حاول أولاً أن يقضي على الشيخ، ولم يفلح فدخل على الأمير مرتين وعاد بالفشل ، وألقي القبض عليه وأجبره الأمير على الاقرار، وما الذي حمله على عمله ، وكان جوابه كي ينتقم لآل عماد منه ، ومن الشيخ جنبلاط ، وصرح أنه رسول من قبل الشيخ علي العماد الذي فرّ إلى مصر ، والذي دفعه إلى هذه المهمة .

وبعد ذلك رأى الأمير وجوب إعدامه ، فأمر بشنقه .

* * *

---

(١) ذكر الشدياق : ٢/١٣٣ . أن تعدادهم بلغ اربعمائة بيت .

الفصل الرابع والستون

في اعتناق الشيخ بشير جنبلاط الاسلام

ففي سنة ١٨١٨ تظاهر الشيخ بشير جنبلاط بإسلامه ، وتأييداً لاعتناقه مذهب الاسلام بنى جامعاً أمام قصره ، وليس هي المرة الأولى التي كان الدين متاعاً وسلعة ، فكثير قبل الشيخ وبعده ، ولم نزل نرى في أيامنا الحاضرة رجالاً ذوي وجاهة فراراً من طارىء يحول دون مقاصدهم السياسية ، يخلعون دينهم العتيق ، ويلبسون ديناً آخر طمعاً أن ينالوا نعمة من أولي الأمر على ذلك الدين ، والشيخ بشير بتركه دين أجداده ، واعتناقه دين الاسلام لم يكن إلا لغايات فيصدره يريد تنفيذها ، وكانت نفسه تطمح إلى ولاية لبنان .

وفي خلال هذه المدة قام الأمير حسن ابن خال الأمير بشير على والده وعمه وقتلهما ، بدعوى كونهما رفضا أن يكونا على مذهبه الذي اعتنقه حديثاً ، وجارى الشيخ جنبلاط به ، وقد أرسله الأمير مكبلاً إلى عكا ، ومن عكا أرسله سليم باشا إلى الآستانة ، وألقي في سجنها إلى أن أحضره عبد الله باشا منها ، وقتله الأمير أسعد[1] .



* * *

الفصل الخامس والستون

في مؤامرة الشيخ بشير على الامير

وقد بلغ الأمير أن الشيخ جنبلاط يدس عليه الدسائس طمعاً بالإمارة على الجبل مكانه ، ولولا ذلك لم يعتنق دين الاسلام ، ولا تظاهر به ،والوشاية توقع الريب حتى بين أخلص الأصدقاء ، وإن تكن وهماً ، فصدق الأمير ما وقع على سمعه ، وحنق على الشيخ باطناً ، وكان من الشيخ لما درى بحنق الأمير

(١) انظر الشدياق: ١/١٥٧ ـ ١٥٨ ـ حوادث سنة ١٨١٤م و: ٢/١٣٦ ـ ١٤٠ .

عليه ، إنه تظاهر بالاحتراس والتيقظ منـه مما زاد اعتقاد الأمير في صحـة الوشاية ، واجتهد الشيخ أن يزيل شكوك الأمير به ، ولم يفلح ومن الاشاعة أن الشيخ لم يكن يقصد الايقاع بالأمير إنما كان يبغي إبدالـه بأمير أضعف منه ، يتسنى له التفوق عليه ، واظهار مقدرته .

إلا أن ذلك لم تظهر صحته الأيام ، وفي مرافقة الشيخ الأمير عندما غضب عليه عبد الله باشا إلى حوران حجة على فساد الاشاعة[1]

* * *

الفصل السادس والستون

في وفاة سليم باشا وتعيين عبد الله باشا مكانه

وفي سنة ١٨١٩ توفي إلى رحمـة ربه سليم باشا بعـد أن خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاماً بالعدل والأمانة ، وكان الأسف عليه عاماً حتى شعرت بفقده الدولة .

وعينت الدولة خلفاً له عبد الله باشا ، ومنحته لقب الوزارة والبشوية ،

ولـم يحدث في ولايته لأول عهـده تغيير يذكر فأبقى ولاة الأمور في مناصبهم ، إلا أنه كان ضعيف النفس ميالاً إلى معاشرة الفئة المسخطة وكان متعصباً ، فأخلص حاييم فارحي النصيحة ، ونهاه عن أعماله المعيبة بمقامه ، ولم ينجح مع أن حاييم كان العامل الأول لتعيينه خلفاً لسليم باشا .

فحنق عليه عبد الله باشا ، وأمر باعدامه وطرحه في البحر ، وبموت حاييم تلك الموتة الشنيعة بعد أن عرف عنه الامانة والاستقامة ، حدث في الولاية اضطراب ، ورعب في قلوب الرعية ، وباتت أصحاب الوظائف في خوف من العزل والضغط كما حدث لأرباب الرتب على أيام المرحوم مظفر باشا[1] .

* * *

---

(١) انظر الشدياق ١/١٥٨ ـ ١٦٠ ، ٢/١٤٩ ـ ١٥٢ وما سيأتي بعد صفحتين .

الفصل السابع والستون

في اضطهاد الامير بشير

وكان الأمير بشير أشد الناس غماً على حاييم فارحي ؛ لما عرف به من العدالة ، وبعد النظر ، وصدق المودة ، وطيب العنصر ، وكأنه أدرك سلفاً ماذا يكون شأنه مع عبد الله باشا ، وكيف تنقلب دفة سياسته عليه ، وكان ظن الأمير بمحله حيث لم يمض على إعدام حاييم وقت يذكر إلا وشرع عبد الله باشا في
الأمير بمحله حيث لم يمض على إعدام حاييم وقت يذكر إلا وشرع عبدالله باشا في
بأموال خارجة عن المألوف ، وكان الأمير طوراً يرسل طلبه ، وطوراً يعتذر له ، وحيناً يبذل من ماء الوجه ويستعطف خاطره بالتجمل وغير ذلك من طرق المداهنة .

وأخيراً بعث عبد الله باشا في طلب فائق الحد ، وفوق طاقة الأمير ، وفضلاً عن استفحال الطلب عرض له أن يعتنق مذهب الاسلام نجاة له من اضطهاده المتلاحق .

وكان الدافع لعبد الله باشا على مقاومة الأمير ، وشد الخناق عليه ، إلى هذا الحد النميمة والوشاية .

وعندما بلغ الأمير مطاليب الباشا الأخيرة وقع بحيرة شديدة مجنوحها عن العادة المألوفة لغرابتها ، فعقد مجلساً بين رجاله وأقرب الناس إليه ،وأخذوا في المداولة وانتشر في جو لبنان انقلاب عبد الله باشا ومضايقته للأمير،وبلغ أسكلة طرابلس واتصل بحاكمها مصطفى آغا بربر ، ولما كان بربر من خدمة شقيق

---

(١) كان ابراهيم عودة من رجال ادارة سليمان باشا ــ وليس سليم ــ وقد تحدث مليا عن عهده ، ومرضه الاخير ، وقدم المفصل من المواد عن حاييم في ثنايا الكتاب ، انظر ص : ٤٥٨ ــ ٤٦٦ .

الأمير سابقاً أوجب على نفسه أن ينصح الأمير ، ولكن الإشاعة كانت تنسب إليه وأنه هو الذي كان يواصل عبد الله باشا باعلامه عن الأمير ، وهو الـذي حمله على ابدال معاملته السابقة .

ومن الذين أخلصوا للأمير النصيحة بطرس كرامـة ، فأشار عليـه إما بالرحيل عن لبنان ، وإما ان يشهر عداوته للباشا ويكافحه .

فأجابه الأمير أن اشهار السيف بوجه مولاه من الأمور التي يأباها .

ولما اجتمع بالشيخ بشير جنبلاط ، وتفاوض وإياه ملياً في حل المعضلة التي وقع بهـا قرّ رأيهمـا على ترك لبنان والذهاب إلى الشام ريثما يرضى عبد الله باشا عليه .

* * *

الفصل الثامن والستون

في ترك الامير مركزه

وبعد أن استصوب الرأي في ترك دير القمر بأكثر رجاله أرسل الأمير إلى جرجس مشاقة مدير الخزينة أن يعلمـه قيمة ما لديه من المـال ، فورده الجواب أن الخزينة تحتوي على ألف ليرة فقط .

ولما كانت القيمة لا تسد حاجات الأمير العديدة ، ولا تقوم بنفقة قيامه ، أعلم الشيخ بشير جنبلاط ، فمده هذا بكمية وافرة .

وعند ذاك أمر الأمير بالاستعداد لترك دير القمر بعد ثمانية أيام . وفي نهايتها نهض الأمير بحاشيته ورجاله الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف بين فارس وراجل ، وقام برفقته من الشهابيين : الأمير حيدر الأحمد من قرية شملان ، والأمير عباس من مجدل معوش ، وجرجس مشاقة وعائلته قام بمعيته ، ولما وصل الأمير برجاله كفر نبرخ بلغه رسول عبد الله باشا الذي يجدد عليه الطلب

ويلح عليه في إسراع تلبيته ، فجاوبه الأمير باللطف وقال له لو كان بوسعي وبوسع الرعية تقديم مطاليبك منـي لفعلت ذلك حباً وكرامة ، إنمـا عدم مقدرتي وإصرار الوزير على طلبه اضطراني إلى ترك دير القمر والجلاء عن لبنان عل الوزير يعين له مكاني من يكون كفؤاً للقيام بمطاليبـه ، واقراري بالعجز لا يحرمني أن اذكر الوزير في حلي وترحالي بماله عليّ من الفضل وغمرني به من نعمته .

واستطرد الأمير المسير إلى أن بلغ حماتا فنزل فيها ليلة ، ومنها وصل إلى قب الياس التابعة لولاية الشام ، ومنها سمح لجرجس مشاقة أن يبقى مع أولاده في الشام، وارسل إلى عبد الله باشا رسالة أعلمه بها أنه ينوي الشخوص إلى حوران ، وداوم الأمير مسيره إلى أن بلغ جبل الدروز في حوران ، ومن هناك أرسل الأمير رسالة إلى عبد الله باشا أعلمه بها عن وصوله ونزوله في ذلك المكان[1] .

* * *

الفصل التاسع والستون

في خلف الامير

وقد حدث لعبد الله باشا بعد نزوح الأمير عن دير القمر أنه عين مكانه الأمير حسن بن الأمير علي ، والأمير سليمان بن السيد أحمد ، وكلاهما من وجوه آل شهاب، بعد أن سلخ عن الجبل أقاليم الخروبوالتفاح وجزين وجبل الريحان وجبيـل ، فرضي الأميران بقسمتهما ، ولـم يظهرا اعتراضاً وتثبيتاً لرضاهما اعتنقا مذهب الاسلام لينالا نعمة بعين عبد الله باشا ، ورجع آل عماد لما عرفوا أن خصمهم رحل عن دير القمر ، وراقت الأحوال وساد السلام مـدة[2] .

* * *

(1) انظر الشدياق : ٢/١٤٣ ـ ١٤٧ ، وكان ذلك سنة : ١٨٢٠ م .
(2) نفس المصدر : ٢/١٤٦ ـ ١٤٨ .

الفصل السبعون

في تعيين الامير حسن حاكما على الجبل

وكان عبد الله باشا كثير الحركة ، قليل البركة ، فكان دأبه العزل والبدل ، وحشد الأموال من ولاة المراتب ، ولما اتصل به خبر وصول الأمير إلى حوران استحضر من الآستانة الأمير حسناً الذي عرفنا القاري به في غير هذا الباب، وكيف أنه قتل والده وحماه لرفضهما تغيير مذهبهما والاقتداء به ، وكيف أن سليم باشا أمر في سجنه ، وأرسله إلى الآستانة تكفيراً عما جنت يده الأثيمة ، ولكن للناس مشارب وغايات ، تضحي في تنفيذها أقدس الواجبات ، وتحلل المحرمات ولا تبالي ، وفي إحضار عبد الله باشا الأمير حسن وتعيينه حاكماً على الجبل شاهد على قولنا ، وبدلاً من أن يسعى في إعدامه قصاصاً لما اجترمه ، أحضره وعفا عنه وجل قدره ، لماذا ؟ لأنه اعتنق مذهب الاسلام وهو ذو ثروة طائلة[1] .

* * *

الفصل الحادي والسبعون

هدية الامير بشير لدرويش باشا

في المدة التي دخل جرجس مشاقة بأولاده إلى الشام ، كان واليها معزولاً ، وكان الحاكم عليها وكيلاً أقامه درويش باشا يدعى درويش آغا بن جعفر آغا ، ولما بلغه خبر قدوم جرجس مشاقة وأولاده ، وكان يعلم مركز مشاقة عند الأمير ، فظن أنه نال بغيته وملأ جوفه من مال الأمير فصدر أمره بالقبض على أولاد مشاقة أينما وجدوا .

ولما شاع خبر قدوم درويش باشا إلى الشام ليتربع في دست الولاية ، قدم له الأمير هدية خمسة رؤوس من جياد الخيل ، فقبل درويش باشا الهدية،

---

(١) انظر الشدياق : ٢/١٤٦ .

ووعد الأمير بالمساعدة ، وعند ذلك أفرج عن أولاد مشاقة ، وقدم إلى دمشق من رجال الأمير بطرس كرامة ، والشيخ منصور الدحداح ، ويوسف الخوري الشلفون ، وشاهدوا مع جامع حوادث كتابنا المقابلة التي جرت لدرويش باشا في دخوله إلى مدينة الشام .

وكانت العادة التي جرى عليها حكام ذلك العصر عندما يتولى أحدهم منصب الولاية ، أنه أول عمل يأتيه إعدام بضعة من المحابيس ، وتجريم البريء كي يوقع في الشعب رهبتـه ، ويريه قساوته ، وبـدلاً من أن يطلق سراح المسجونين ، ويتظاهر بالدعة والحلم ، كما هي عادة حكام عصرنا يفتش عن المجرم أو المتهم بجرم خفيف ، ويصدر أمره بإعدامه .

ذلك ما كان من باكورة أعمال درويش باشا ، حين وصوله إلى الشام ، وكان حظه أوفر من سواه حيث اتفق له وهو في طريقه إلى مركز الولاية أنه عثر على بضعة أشخاص في حماة وحمص ، فأحضرهم معه وكان يعدم الواحد بعد الآخر كل صباح يوم إرهاباً للرعية .

وكان الشعب ينظر إلى الحاكم نظر العبد إلى سيده ، ولا يتجاسر على رفع نظره إليه ، وكانت الأهالي تحتفل بحاكمها وتتظاهر بعبوديتها لهُ ، وتزيد من الاطناب بهِ قبل أن تعلم عنه شيئاً ، وتحرق لهُ بخوراً وتضيء له الشموع ، وتزين الشوارع كما هي العادة التي لم نزل نحترم نصوصها إلى يومنا هـذا .

ومن جملة أهالي دمشق بطرك الروم ، وبقيـة خدمة الكنائس خرجوا لملاقاة درويش باشا بالمزمار والقيثارة .

وكان يتقدم الباشا مناد للصلاة على النبي وأصحابه ، وقد حيته مدافع القلعـة ، وبنادق الجنود ، وصدف في نهار دخوله كان عيـد الفصح للروم فاغتنموا الفرصة ، وحرقوا من البارود اكراماً للفصح وللباشا معاً ما شاؤوا .

وكانت طريقة الاعدام في الشام خنقاً ، يجبرون اليهود أو من صدف لهم في حينه من النصارى على تنفيذ الحكم بالمجرم .

* * *

الفصل الثاني والسبعون

في استبداد سيروفيم بطريرك الروم

ومن الحوادث التي هي جديرة بالذكر ، أو التي نشأت بسببها فتنة بين بطريرك الروم سيروفيم ، وبين طائفة الروم الكاثوليك ، وأدت إلى اضطهاد هؤلاء .

كان بطريرك الروم على عصر حوادث كتابنا له السلطة على الكنيسة والطائفة الكاثوليكية ، رغماً عن انفصال هذه عن كنيسته ، وكانت الدولة تعضده ، وتطلق إرادته في شؤونها .

وكان لا يسمح لرجال الكنيسة من الطائفة المشار إليها بلبس القلانس السوداء ، ولا تقليد ملبوس كهنة الروم ، وقد أجبرهم على أن لا يختلف لباسهم عن لباس عامة الشعب ، وكان يقيد إرادتهم في الجنائز والعمادات والأكاليل ، فكان اكليروس الروم مضطراً في كل ذلك إلى رخصة منه قبل مباشرة شيء منها ، وكان يقاص من يجترىء على مخالفة القاعدة ، وفي سنة ١٨١٩ حدث خلاف بين كاثوليك حلب ومطران الروم جراسيموس التركمان ، ومع كون رعية المطران في حلب لا تزيد عن خمسين نفساً ، تصدر لإرغام الطائفة الكاثوليك وعددها ألف وخمسمائة نفس على التزام طاعته ، غير أن الكاثوليك رفضوا طاعته وأصروا على مقاومته ، وطال الجدال بينهما ، وأعقبه خصام وقتال أسفر عن قتل أحد عشر نفساً من الكاثوليك ، كان اعدامهم بأمر الحكومة ، واستقالة المطران من وظيفته ، وإرساله إلى صيدا حيث اجتمع بالدكتور ميخائيل مشاقة ، وتأصلت الضغائن بين الطائفتين لا سيما عقب أن فتك أحد الرعاع ببطرك الكاثوليك اغناتيوس .

ومما زاد الطين بلة ، والطنبور نغمة حنق بطريرك الروم على كاهن كاثوليكي ، وبدلاً من أن يعاقبهُ على الشروط الكنائسية ، كما هي العادة ، أرسلهُ إلى السجن وأهانهُ .

فمضى بعض الوجوه من الكاثوليك ، وسعوا بمالهم فأخرجوا الكاهن من السجن ، وكان خروجه نكاية بالبطريرك ، وكان من بعضهم أنه تقدم إلى البطر كخانة ، وبيده عصا قد علق على طرفها حذاء عتيقاً ، وهو ينادي بصوته : إذا كانت هذه راية ساروفيم ، وكانت عصابته تجاوبهُ سود الله وجهه .

فاغتاظ البطريرك من هذه المظاهرة ، وعدها إهانة جسيمة ، وبلغ منه الغيظ حداً أخرجه عن حدود التعقل ، فأمر جميع كهنة الكاثوليك وقسوسها بحلق لحاهم ، واستعمل نفوذه لدى الحكومة ، فساعدتهُ ونفتهم إلى جزيرة أرواد عن طريق طرابلس ، وقد شكى الكاثوليك معاملة سيروفيم إلى عبد الله باشا ، فأمر بإرجاعهم .

ولم يكتف سيروفيم بما تقدم ، بل قدم شكوه إلى الوزير وأعلمه أن جانباً من الرعية تمرد عليه بمساعي الافرنج ، وجنح عن دينه ، وقد كذبته الطائفة الكاثوليكية ، فرجع بالفشل ، وأخيراً اتهمهم بالمؤامرة على قتله ، وفي هذه المرة تمكن من جلدهم أمام الجمهور ، وبعد أن سامهم من العذاب والإهانة ألواناً جبرهم على دفع مال ، وأطلق سراحهم .

وبعد أيام صدر أمر الوزير بتحقير النصارى ، ومنعهم أن يرتدوا ثياباً حمراء ، ولا سيما الحذاء الأحمر ، وفي يوم صدور الأمر كان في بيت مخائيل مشاقة بضعة من عيون لبنان ، أحذيتها من النوع المحظور ، فخافوا أن يخرجوا خارج البيت قبل أن سودوها .

* * *

الفصل الثالث والسبعون

في عودة الامير بشير من حوران

وبعد أن طال على الأمير الأمد في حوران يقاسي شظف العيش في تلك الفيافي القاحلة ، نفد منه المال ، وأصبح بحالة من العسر ، حتى أنهُ اضطر إلى رهن بعض أملاكه ، وسحب عليها لسد عوزه ، وهو في تلك الحال من الضنك والفقر ، ورد عليه أمر درويش باشا بطلب كمية تبلغ نصف مليون •

وعند ذلك أرسل الأمير إلى عبد الله باشا يستعطفه في كبح مطامع درويش باشا عنهُ ، وبسط لهُ ضيق يده والحالة التي وصل إليها •

فرثى عبد الله باشا لحاله وبعث يستحضره إليه ، بعد أن شعر بحاجته إلى أمثاله في تلك الآونة خصوصاً لما بلغهُ عصيان المورة ، وتعدي بحّارة الاروام على السفن القادمة إلى سورية ، وطلب الباشا من الأمير أن يأتي لمقابلته في شفا عمرو[1] للمفاوضة في شؤون هامة •

ولما بلغ الأمير أمر الباشا ، عول على القدوم إليه في ثاني الأيام بالرغم من تحذير الشيخ جنبلاط له من التسرع[2] في الانقياد إلى شفا عمرو[1] وأشار عليه في تظاهره بالدين الاسلامي ، فأمر الأمير على مقابلة[3] عبد الله باشا ، وثبوته على دينه •

وفي ثاني الأيام قصد شفا عمرو[1] المكان الذي عينه له الباشا ، ومعه عشرون فارساً ، ولما علم عبد الله باشا بوصوله بعث إليه يخبره بالمكان الذي

---

(١) في الاصل « شفا عمد » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه ، انظر الشدياق : ١٤٨/٢ ـ ١٥١ •

(٢) في الأصل : « الشرع » وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتنا •

(٣) في الاصل : « فأمر الامير بمقابلة » وهو تصحيف لعل صوابه ما أثبتنا •

يريد أن ينزل به ، فاختار الأمير جزين المسلوخة عن الجبل ، وأرسل يستقدم رجاله إليه ، وبعث فاستحضر جرجس مشاقة وأولاده من الشام، وبقي مخائيل ليتم دروسه فيها .

وعقب وصول الأمير إلى جزين أقبل أهل زعامتها للسلام عليه ، ووعدوه بالطاعة ،ولم يمض على وصوله وقت يذكر ، حتى ورد إليه أمر عبد الله باشا في تعيينه حاكماً على الجبل ، وضم الأقاليم التي كان سلخها عنه إلا" مدينة جبيـــل .

وظل الأمير أيامـاً في جزين يتأهب للرحيل إلى مركزه ، ويعـد الأمور اللازمة لاستلام وظيفته .



* * *

الفصل الرابع والسبعون

في ثورة الشعب ضد الامير

وقبل أن يقوم الأمير من جزين طلب من الأهالي دفع الجزية والخراج كجاري العادة ، لكن بصورة غير صورتها الأولى مما جعل الشعب يستغربها ، وأصر على رفض إجابة طلب الأمير ، وحاول الأمير أن يفهم الشعب أن القيمة هي ذاتها إنما صورة لائحتها تختلف عن الماضية ، ولم ينجح فثار عليه نحو ثلاثة عشر ألف نفس ، ولم يكن مع الأمير فوق الثلثمائة ، ودارت رحى الحرب بينهم ، مع أن الأمير نهاهم وأخلص لهم النصيحة ، ولم ينتهوا فأعمل بهم سيفه ، وأمر رجاله على قلتهم أن يقتدوا به ، وقد انتصر الأمير مع قلة عددهم على ذلك الجمهور ، وذهب من رجاله بضعة ، ومن الأهالي عدد غفير ، وانهزموا وفي مساء ذلك النهار انهى عبد الله باشا إلى الأمير أمر تعيينه على جبيل والجبل ، ورخص له بالإقامة في جبيل •

أما الشيخ بشير جنبلاط فجمع لديه ألفي رجل من الأشداء ، وتوجه بهم قاصداً مركز الأمير الجديد ليساعده على العصاة ، وفي وصوله إلى نهر الكلب التقى بشرذمة من العصاة كامنة له تنوي الفتك به وبمن معه ، وأغلب العصاة من كسروان ، فقاتلهم الشيخ بمن معه من الرجال وشتت شملهم ، وفي طريقه إلى جبيل التقى بالكاهن ندرا ، وهو في العدة الكاملة للنزال يحرض القوم على إعادة الكرة والمواظبة على القتال ، إلى أن يتم لهم النصر ، فقبض عليه الشيخ وقدمه ذبيحة للنار تكفيراً عن ذنوبه ، وداوم مسيره إلى جبيل •

وبعد أن هدأت الأحوال ولاذت الأهالي إلى السكينة والطاعة ، ورد إلى الأمير رسالة من عبد الله باشا مفادها أن يقدم إليه جدعون الباحوط ليفاوضه بشؤون هامة ، ويعيده إليه بها ليقصها على مسامع الأمير ، فصدع الأمير بمفاد الرسالة ، وطلب إلى جدعون ، الذي كان الأمير يعتمد عليه في حل المعضلات ، أن يذهب إلى عبد الله باشا •

* * *

الفصل الخامس والسبعون

في قدوم الامير الى بيت الدين

ورأى الأمير من الأبقى لحفظ نظام الجبل أن يقوم إلى مركز الولاية ، فقام إلى بيت الدين ، وقبض على أزمة الأحكام بيده الحديدية ، وصدف في تلك الأثناء أن درويش باشا شخص إلى مكة بمحفل الحج ، وأقام مكانه فيضي باشا ، وعين فيضي باشا حسن آغا العبد نائباً له على البقاع ، ولم تستقر لحسن آغا الولاية حتى بدأت تعدياته ، وكثر تشكي الأهالي منه للأمير ، وكانت تعدياته متلاحقة وأكثرها بين صيدا ولبنان ، حتى لم يعد للأمير بد" من جدع أنف المعتدي ، فطلب من فيضي باشا أن يكف حسن آغا عن تعديه ، ويأمره بارجاع ما سلبه من أهالي ولايته ، ولما لم يرد له جواباً جند له فرقة وأمرها أن تلحق بحسن آغا العبد ، وتلقي القبض عليه وتسترجع ما سلبه من الرعية ، فقامت الفرقة ولم تبلغ البقاع حتى فر من وجهها حسن آغا إلى الشام.

فرجعت ومعها تعويضات عما ألحقه الآغا بها من النهب والتعدي .

وعين فيضي باشا أمين بك مكان حسن آغا العبد ، ولما درى الأمير بقدومه أرسل اليه الشيخ جنبلاط بشرذمة من الجند أحضروه مكتوفاً إلى الأمير ، ولو لم يشفع به مخايل مشاقة لقضي عليه في سجن الأمير .



الفصل السادس والسبعون

في المؤامرة على عزل عبد الله باشا

اتفق لجدعون عائق صده عن الشخوص إلى مواجهة عبد الله باشا ، وعند زواله صدع بأمر الأمير وذهب لمقابلة الباشا في مركز ولايته ، ولما قابله عرض له الباشا أن جواسيسه في الآستانة أفادته مؤخراً أن اليهود حانقة عليه لفتكه بحاييم فارحي ، وأنها بذلت مالاً لا يحصى عدده وأقنعت الدولة بتعيين درويش باشا مكانه ، ولو لم يكن درويش باشا في طريقه إلى مكة لأعلن أوامر الدولة وقدم إليه برجاله ، وموعد ذلك عودته من الحج ؛ ولذلك يرغب أن يقف على رأي الأمير ويستكشف منه ما يرتأيه فإذا كان يعده بمقاتلة درويش باشا ، فلا يبالي إذ ذاك أن يرفض طلب الدولة عزله وتعيين درويش مكانه ، ومتى تحصل على وعد الأمير الشفاهي يتأهب للمدافعة عن حقوقه ، ويجعل السيف صاحب الإنصاف ، فعاد جدعون إلى الأمير وأنهى إليه بكلام عبد الله باشا المتقدم ، وزاد عليه أن عبد الله باشا يريد الوقوف على حقيقة أفكارك فإذا كنت تقف بجانبه وتثبت معه إلى النهاية يقدر على أرغام درويش باشا بالقوة ، وإذا لم يأخذ منك وعداً فلا يرى لنفسه نجاحاً بإشهار عصيانه على الدولة ، ولما حصل الأمير على تعليمات مولاه ، ووقف على ما يقصده منه ، وطد النفس إلى الثبات بجانبه وهم أن يقصد عكا لمقابلته ، غير أن ما حدث ونقصه عليك في الفصل الآتي أوقفه عن الشخوص واتمام قصده .

* * *

الفصل السابع والسبعون

في واقعة راشيا

ولما رجع الأمير والشيخ بشير جنبلاط إلى الجبل ، نزح آل عماد عنه ، والتجأوا إلى درويش باشا ، وتوسطوا أمامه في توجيه ولاية راشية إلى الأمير منصور الشهابي لأنه كان ميالاً لهم وعزل الأمير افندي المتشيع للأمير بشير .

وكان من درويش باشا إجابة ملتمسهم ، فعين الأمير منصوراً حاكماً على ولاية راشيا ، ووجه معه حملة مؤلفة من آل عماد ليخرجوا الأمير افندي من المركز رغماً عنه ، ولما درى بهم الأمير أفندي بعث فأعلم الأمير بشيراً بقدوم الحملة إليه ، وقص عليه العامل على إيجاد هذه الحركة .

ولما كان الأمر جللاً نهض الأمير بنفسه في قيادة جنوده الأقوياء ، وأخذ معه فرقة من جنود عبد الله باشا ، ووجهته راشيا ، فوصلها قبل الأمير منصور بأيام .

وعند وصوله في قيادة الحملة هجم بها على راشيا ، وصده الأمير برجاله ، واستعرت الحرب بينهم أياماً ، فانجلت عن انهزام الأمير منصور ، ومن لف لفه ، وظل الأمير ورجاله يضربون قفاها إلى أن أدخلوها دمشق الشام مركز خروجها ، فعاد الأمير برجاله منتصراً محفوفاً بالتجلة والاكرام .

* * *

الفصل الثامن والسبعون

في مقابلة الامير عبد الله باشا

وفي غضون سنة ١٨٣٠ ، أو بعد حادثة راشيا بقليل ورد للأمير رسالة من عبد الله باشا يحثه بها على مقابلته ، والشخوص إليه بالأقرب العاجل ، ولما لم يكن لديه مانع يمنعه عن إخلاء مركزه ، قصد عكا إجابة لطلب عبد الله باشا لثاني مرة .

وعند وصوله لم يشأ عبد الله باشا أن يستقبله في قاعة الاستقبال ، كما يستقبل بقية زائريه ، فرغب في أن يميزه ويظهر ثقته به ، فأدخله دار الحريم مع مافي ذلك من خوارق العادة المتعارفة بين المسلمين والنصارى ، ولما دخل الأمير عليه استقبله الباشا ، وأظهر له الحفاوة والإكرام وتقدمت إليه والدة الوزير وقبضت بيدها على حزامه واقعة عليه في مساعدة ولدها ، وقالت له : إن ولدي ، إن يكن مولاك من حيث وظيفته ، فهو ولدك لسنه ، وقد سبق لجهله وحداثته فأساء لك المعاملة في الماضي ، والآن يريد منك أن تغفر له تصرفاته السابقة وتعضده على خصمه ، فاليهود أجمعوا على الانتقام منه ، وحملوا الدولة وأغروها بالمال على الحط من قدره وعزله من وظيفته على يد درويش باشا ، ولا غرابة إن ظفرت به ان تعمل على إعدامه تشفياً لليهود أخذاً بثأر رجلهم حاييم الذي ذهب ضحية الطياشية والجهل ، أما الآن وقد سبق السيف العزل ، أرجو منك كامرأة ووالدة مولاك أن تثبت بجانبنا وتعزز مقاماً لنا على وشك الزوال •

ولم يسع الأمير في ذلك الموقف إلا إجابة طلبها ، وقال إني أعترفت سابقاًواعترف الآن بعبوديتي الصادقة لمولاي وها أنا مستعد لتضحية النفس والنفيس في سبيل مرضاته ، ولا أضن بآخر قطرة من دمي إن كان في اهراقها فائدة له ، فليأمرني بما يريد فيجدني ثابتاً على قولي محققاً أمانيه بي •

فقال له عبد الله باشا : الذي أريده منك وأبغيه أن تقوم برجالك ورجالي الأشداء ، وتوقع بدرويش باشا قبل أن تصله النجدات التي أرسلتها له الدولة بقيادة والي حلب ، وأظنه متى فتكنا به ، وبسطنا يدنا على ولاية الشام ، يهون علينا إرضاء الدولة بالمال وفضلاً عن أنها ترى بطشنا وشدة بأسنا فترهب جانبنا ، لا سيما ولي في الآستانة أخلص الأصدقاء يساعدوننا على نيل بغيتنا ، فأريد منك أن تجمع رجالك وتأتي بهم إلى جسر بنات يعقوب ، حيث تلتقي بالجنود التي أرسلها إلى هناك ، وتضم الجيشين تحت قيادتك ،

وتقدم بالمقدمة إلى الشام ، وتضايق على درويش باشا فيها إلى أن تظفر به فترسله إلي مكبلاً بالقيود[1] ، ولم يظهر الأمير تردداً في إجابة الباشا على كلامه ، وما فاه به كان برهاناً على تثبيت وعده ، ومحققاً أماني الوزير به ، وهبَّ من ساعته يقرن قوله بالعمل ، ورجع إلى مركزه وبدأ يجمع رجاله ، وحثهم على القتال ، أما عبد الله باشا فكان منهُ بعد مبارحة الأمير أنه حشد الجند وعدّ معداته ، وسيره إلى جسر بنات يعقوب .

* * *

الفصل التاسع والسبعون

في حصار دمشق الشام

ولما اجتمع حول الأمير رجاله ، ومشايخ الجبل، ورجالهم، ركب في مقدمة القوم الذين بلغ عددهم إثنى عشر ألفاً بين راجل وفارس ، إلى النقطة المعينة ، حيث ضم إلى عساكره الفرقة التي أرسلها عبد الله باشا ، وكانت بانتظاره ، ومن هناك استأنف الأمير مسيره في مقدمة ستة عشر ألف مقاتل .

أما درويش باشا ، عندما بلغه أمر حملة عبد الله باشا بقيادة الأمير بشير أوجس خيفة من عددها وشدة بأس رجال لبنان ، فجمع إليه رجاله وكل من قدر على حمله على الحرب والنزال مع آل عماد النازحين عن لبنان ، وبعض أمراءِ شهاب من أعداء الأمير ومن انتمى لهم من الرجال ، ورتب معسكره خارج المدينة على بعد ثلاثة أميال في قرية المزة .

وأعدَّ المدافع وجعلها في المقدمة ، ووراء المدافع الفرسان ، وأبقى بقية

---

(1) نشر محققا تاريخ الامير حيدر الشهابي جملة من الملاحق به ، منها صورة رسالة أو تقرير بعث به عبد الله باشا والي عكا الى محمد علي باشا في مصر ، عرض فيه وجهة نظر من النزاع مع درويش باشا ، فلينظر ص : ٢٩٩ـ٣١٦ . هذا وتعتبر مواد نصنا عن دور اليهود في العاصمة العثمانية على درجة كبيرة من الخطورة .

الجند وراء جدران المحلة ، وعند وصول الأمير وأشراف رجاله طليعة فرسان درويش باشا ، دوهمت برشاش من قنابل ورصاص ، واشتبك القتــال مع الفرسان أصحاب الرماح ، واشتد سعير الحرب ، وتقدم الأمير بنخبة من رجاله المشاة إلى الأمام فاخترق فرسان درويش ، ولم يبال بالرصاص الهاطل عليه، وظل ينخي رجاله ويدفعهم إلى التقدم ، وهو أمامهم كالطود إلى أن اقترب من جدران القرية ، وهناك لاقى ممانعة عنيفة لكنه تغلب عليها ، وتسلق مع رجاله الجدار ، ودخل القرية وأعمل برجال درويش السيف ، وأصلاهم ناراً حامية حتى أرغمهم على الانسحاب منها ، وبعد إنهزام خصمه من أمامه أمر رجاله بحرق القرية ، وظل يطارد درويش باشا ورجاله إلى أن أدخلهم مدينة الشام ، وكثير منهم رموا بأنفسهم في المستنقعات التي خارج المدينة فماتوا غرقــاً .

وعند ذلك رفع الأمير السيف عنهم ، ولم يسمح لرجاله بدخول المدينة خوفاً من نهبها ، فعاد عنها إلى قرية المزة ، وبلغ عدد قتلاه أربعين ، وقتلى درويش باشا ألف ومائتين فضلا عن الأسرى ، ومنهم الشيخ حسين تلحوق .

أما درويش باشا فأركن إلى القلعة ، وتحصن بها ينتظر قدوم النجــدة القادمة إليه بقيادة مصطفى باشا والي حلب .

* * *

الفصل الثمانون

في وصول طلائع مصطفى باشا

ولما كان الباعث بنا إلى إنشاء ونشر هــذا الكتاب تقدير رجال الفضل قدرهم ، وبث الحقيقة ، ونشر لوائها على مرتفع الفضيلة ، وقد راعتنا شجاعة الأمير ، وهزت بنا معاقل تصوراتنا إلى وضع كلمة في هذا الصدد فنقول :

إن شجاعة الأمير ورجاله البواسل ، وحذقه بالقيادة ، وصدق خدمته حتى للأجانب نظير عبد الله باشا التركي ، ولا مصلحة له وطنية يرمي إليها

سوى تثبيته على منصة الإمارة في لبنان وطنه وإن نصرته هذه ، فضلاً عن انتصاراته العديدة ، لا تقل أهمية عن نصرة أعاظم قواد الحرب الذين حفظ لهم التاريخ وقائعهم ، وأشهر براعتهم ، وهي شقيقة لنصرة نابليون الأول في أبي قير بمصر .

إن هذه القوة اللبنانية والشجاعة النادرة، كانت مصروفة في غير ما خلقت له ، وما ذلك إلا لجهل زعمائها وتفضيلهم الفتن الأهلية والشخصيات على العموميات ، وموت روح الوطنية من صدورهم ، فلو صرفوا قواهم لحفظ استقلالهم ، والذود عن وطنهم واستبدلوا المشاكسة بالمحبة والوئام ، وخدموا وطنهم ، وطرحوا عنهم سلطة الأجانب ، وعززوا جانبهم ، لو كانوا فعلوا ذلك ، لو قدر لذلك الشعب الملآن قوى ونشاطاً رجالٌ نزهاء يفضلون الصالح العام على المصالح الذاتية ، لكنا نظرنا على منصة حكومة لبنان خصوصاً وسورية عموماً ، حاكماً وطنياً من سلالة أولئك الذين دوخوا العالم ببضعة عشر عاماً ، وكنا تخلصنا من جور الأتراك وظلمهم وخمولهم وتعصبهم ، وكانت سورية الآن في مصاف الأمم الحية والدول الراقية .

يا ليتهم عقلوا واخلفوا لنا وريثاً لحكومة وطنهم الذي نرثيـه الآن ، ونبكيه بالدموع إنما شاء ربـك أن لا يعقلوا ، وبعد أن دونا العاطفة التي لا ريب من وجود مثلها في صدر كل لبناني ، فيه شرف المبدأ ، نرجع إلى صدد كتابنـا :

بعـد أن مضى على حصار الشام وقت قصير وردت الأخبار بوصول مصطفى باشا ، ومعه عدد غفير لنجدة درويش، فتهللت وجوه وعبست وجوه .

* * *

الفصل الحادي والثمانون

في رفع الحصار عن الشام

وكان من الأمير لما علم بقدوم طلائع مصطفى باشا ، أنه أرسل معتمداً من قبله الشيخ عز الدين ، وهو من عقال الدروز إلى مصطفى باشا ، وأنهى إليه هذ االكلام : إن درويش باشا محصور ، وإن الأمير منع رجاله من دخول المدينة احترازاً من حدوث أمر لا يرغب فيه ، ولولا ذلك لكان دخل المدينة وقبض على درويش باشا ، وساقه إلى عكا لا سيما وقد سبق أنه أساء معاملة الأمير يوم نزل في جواره ، وعوضاً عن إجارة الملهوف ومساعدته طلب منه تقديم مال طائل لقاء مرعى ماشيته وخيوله، ولما كان عالماً بقدومك إلى مساعدته رأى أن يقيم على حصاره إلى أن تحل ركابك أرض الشام ، ويصل إليه أمرك فيقوم مدحوراً من أمامك ليزيد نفوذك عند الدولة ، ويخفض من نفوذ درويش باشا فتعزله الدولة وتعينك مكانه .

وقد سر مصطفى باشا مما سمعه ، لأنه كان خائفاً من الأمير خوفاً شديداً ، ولما وصل إلى ضواحي الشام أرسل إلى الأمير يعلمه رسمياً بوصوله من قبل الدولة ، ليعضد درويش باشا ، وأمره برفع الحصار حسب وعده ، فصدع الأمير بأمره ، ورفع الحصار عن دمشق ، وصرف رجاله عنه ورجع إلى مركزه ، وفي نيته أمور تقتضي الروية ، وبعد النظر وبعد المداولة مع الشيخ بشير جنبلاط في شؤونها ، قر رأيه على الذهاب إلى مصر لمقابلة محمد علي باشا ، وقد أخبر عبد الله باشا بذلك فوافقه على الذهاب .

* * *

الفصل الثاني والثمانون

في قيام الامير الى مصر

وكان الأمير سبق فكتب إلى حنا البحري يطلب منه المساعدة على إيجاد صلة بينه وبين محمد علي باشا ، وكذا سبق من عبد الله باشا رسالة إلى المشار إليه بها يسأله استعمال نفوذه لدى الدولة لتعفو عنه وتبقيه في مركزه .

وفي نهاية معدات السفر أظهر للشيخ جنبلاط رغبته في تقديم الأمير عباس ابن شقيقه ، لأنه خاف من درويش أن يوجه حكومة الجبل ـ إذا فشل مسعاه في مصر ـ إلى أمير معاد له .

والأمير عباس هو ابن الأمير أسعد بن يوسف بن الأمير حيدر ، الجد الأول لآل شهاب بلبنان الغربي .

ومن ثم قام الأمير بشير إلى مصر ، ولما دخل على محمد علي باشا نال الحفاوة والإكرام منـه ، وأنزله محمد علي بالصعيد في قريـة بني سويف احتراماً للدولة ، وفي بضعة أيام أرسل محمد علي رسولاً من قبله إلى الآستانة يلتمس العفو عن عبد الله باشا والأمير معاً[1] .

* * *

(1) انظر الشدياق : ٢/١٧٥ ـ ١٨٠ .

الفصل الثالث والثمانون

في تعيين الأمير عباس خلفاً للأمير بشير

أما درويش باشا بعد أن رفع الأمير الحصار عنه ، ووصول النجدة له تمتع بالسلطة التي كاد ينزعها الأمير منه . وعبأ جنوده وتقدم إلى البقاع فقدم إلى مقابلة الأمير عباس بعصابة من وجوه قومه ، وأظهر له عبوديته ، وصدق خدمته ، فوجه درويش باشا إذ ذاك حكومة الجبل إليه وأقامه مكان الأمير بعد أن أخذ ميثاق الشيخ جنبلاط على تقديم مطاليب الجبل من جباية ورسوم إليه ، وكان في قرية قب الياس قلعة قديمة متهدمة ، فأمر بهدم الباقي منها ، وأقام عليها وكيلاً لينجز هدمها ، ثم كتب إلى الدولة عن انتصاره على الأمير بشير ، وهدم قلاع لبنان وادخاله في دائرة حكمها .

وعين الأمير منصوراً حاكماً على راشيا ، وطرد الأمير أفندي منها ففر بحاشيته ونزل بها على الأمير عباس الذي أكرم وفادتهم .

ثم وجه درويش باشا حكومة مرج عيون إلى الشيخ علي العماد .

وظل في تبديل وتعيين إلى أن أكمل رغبته في الجبل ، وأمن عليه من العصاة ، وما بقي أمامه إلا عبد الله باشا ، فقصد عكا ورام أن يطلق آخر سهم في جعبته على سورها المنيع[1] .

* * *

(1) من المفيد معارضة معلومات نصنا هذا بما عند الشدياق : ٢/١٧٠ـ ١٨٢ .

الفصل الرابع والثمانون

في حصار عكا ثانية

ولما علم عبد الله باشا بقدوم درويش إلى حصاره ، جمع رجاله من عرب وأكراد ، فبلغ عددهم ألفي رجل، فوضع ثقته بهم على الدفاع عن سور المدينة، وعبأ من المؤونة والذخيرة كل ما بلغت إليه يده .

أما درويش باشا ، فنزل بمعسكره في أبي عتبة ، على بعد ثلاثة أميال من عكا ، واشترك معه في الحصار مصطفى باشا والي حلب ، وبرهام باشا والي أطنة ، ومن اجتمع معهم من الرجال والفرسان .

وكان المحاصرون في ذلك العصر لا يهجمون على المدينة ، ويقاتلون حاميتها ، بل كانوا ينتظرون أخذها بدون عناء ولا مشقة ، فكانوا يلبثون على حصارها إلى أن يفرغ زاد الحامية ، وتركن إلى الفرار أو التسليم .

ولم يكن درويش باشا ليحترم هذه العادة المألوفة ، لو أكد لنفسه الغلبة ، ولكن الذي دعاه إلى ذلك الاحترام مناعة عكا وقصر باعه عن إلحاق الضرر بأسوارها المشهورة .

ولذلك ثبت مع مناصريه على حصار المدينة خمسة أشهر ، وهو لائذ إلى السكينة ينتظر أن يفتح له باب المدينة ليدخل به ، ويتنعم بالسيادة عليها ، وكان جل ما يأتي به اطلاق ثلاثة مدافع يومياً ويجاوبه بمثلها عبد الله باشا ، ولولا اعتقاده الديني لما تكلف إلى طلق واحد ، فكان يطلق المدافع عند الغروب ، كما هي العادة الجارية عند حكام المسلمين إلى يومنا الحاضر .

وقد ملت الدولة ، فضلاً عن رجاله ، من تقاعده وعجزه ، الذي كان يظهر فيه يوماً عن يوم .

* * *

الفصل الخامس والثمانون

في عزل درويش باشا

وبعد أن مضى على حصار عكا خمسة أشهر كما قدمنا ، ملت الدولة وسئمت من درويش باشا ومماطلته ، وربما كان الباعث على اظهار مللها منه ، نفوذ محمد علي باشا ورجال عبد الله باشا المخلصين له ، فأرسلت وعزلت درويش باشا ، وعينت مكانه والياً على الشام مصطفى باشا الذي جاء لمساعدته، وكان معه من المحاصرين لعكا ، ولما ورد الأمر كان وقعه كالصاعقة على درويش باشا ورجاله ، وخصوصاً زعيم اليهود سلمون فارحي ، الذي هبطت مساعيه في الانتقام من عبد الله باشا ، ومات غماً على الأثر ٠

ولما انتشر خبر تعيين مصطفى باشا والياً على عكا ، نزل إليه الأمير عباس وهنأه بالولاية ، وفي الوقت ذاته التمس منه اصلاح الخلل الذي أحدثه درويش باشا من تجزئة الجبل ، فوعده مصطفى باشا بإرجاع حكومة الجبل إلى ما كانت عليه قبلاً ، ولما كان مصطفى باشا يعلم أن الأمير عباساً ليس كفوءاً لضم شعث حكومة الجبل ، وليس عريقاً بالأمارة أخبره أنه أرسل يستحضر الأمير بشيراً من مصر ليوليه حكومة الجبل ، كما كان عليها حاكماً قبل قيامه ظاناً أن الخبر يسره ، فكظم عباس غيظه وتظاهر بالسرور ٠

واجتهد في اصلاح ذات البين بين أمراء وادي التيم ، وقسم البلاد بينهم ، وعين النصف منها للأمير منصور ، والنصف الثاني عين حاكماً عليه الأمير أفندي ، وحظر على الأمير أفندي السكنى في عين عطا ، وسمح له أخيراً أن يسكن في بكفيا ، وأمر الأمير منصوراً بالإقامة في راشيا ، ورتب للأمراء الباقين معاشات على حسب رتبهم ومقدرتهم ، وكل ذلك على نفقة الشعب المسكين ٠

أما الشيخ علي العماد الذي توجهت إليه حكومة مرج عيون ، فكان

سيء التصرف ضعيف الإرادة ، حتى أرغم مصطفى باشا على الحقد منه ، ومن تصرفه الفاسد ، وأخيراً لما رآه على ازدياد في تعجرفه واستبداده وتصلفه أمر بقتله ، وقيل إن السبب في قتله هو عسره المالي ، وامساك يده عن رشوة الباشا كبقية الموظفين والله أعلم .

* * *

الفصل السادس والثمانون

في رفع الحصار عن عكا

وظل مصطفى باشا محاصراً لعكا بالعساكر إلى أن مرّ عليه أربعة أشهر علاوة عن المدة التي صرفها درويش باشا ، ولكن مرور هذه المدة على مصطفى باشا بدون جدوى ، لم تغضب عليه الدولة كما غضبت على درويش باشا ، بل كانت واثقة به ، وفي نهاية الأربعة الشهور ورد من الدولة فرمان بالعفو عن عبد الله باشا وتجديد مدته والياً على صيدا ، وأمر لمصطفى أن يرفع الحصار عنه ويرجع إلى ولاية حلب .

وكان رسول الدولة بالفرمان والأمر رسول محمد علي باشا الذي أرسله إلى الآستانة ، فحضر به الأمير إلى عكا حيث ناول الأمر إلى مصطفى باشا ورسول محمد علي نقل الفرمان إلى عبد الله باشا .

ولم يظهر من مصطفى باشا أقل ممانعة لدى ابلاغه أمر الدولة في رفع الحصار عن عكا ، ورجوعه إلى ولايته ، غير أنه لم يكن لديه مال ليدفع رواتب الجنود ، فعرض للأمير حاجته إلى المال ، وكان من الأمير أنه بلغ عبد الله باشا ذلك وقدم له كمية وافرة سدد بها عازته ، وعند ذلك تأهب مصطفى باشا للعودة إلى مركزه ، وبرح عكا في آخر اسبوع من الصيام الفصحي[1] .

* * *

(١) انظر الشدياق : ٢/١٨٢ ـ ١٨٣ .

الفصل السابع والثمانون

في رجوع الأمير إلى مركزه

وبعد قيام مصطفى باشا بأيام معدودة ، أمر عبد الله باشا الأمير أن يرجع إلى مركزه الأول ويقبض على أزمة حكومة الجبل .

ولما كانت الدولة فرضت على عبد الله باشا غرامة الحرب وأكلافها نصف مليون ليرة ، وقد سلخت عن ولايته أثناء الحصار طرابلس وغزة ويافا ، بعثت تطلب منه المال ووعدته في إعادة المدن إلى ولايته إذا لم يطل عليه الوقت في تسديد طلبها .

ولما كان الجبل خمس ولاية صيدا ، فرض عليه خمس الغرامة ، ولم يمهل الأمير أياماً لوصوله حتى بعث يأمره بجمع المال ، وتوريده إليه وبين له رغبته في جمع القسط من الشيخ بشير جنبلاط إذا أمكن،وسبب ذلك أن الباشا لحظ على الشيخ المشار إليه ميله في أثناء الحصار إلى درويش باشا .

فجاوبه الأمير باللطف ، وقال يكفي الشيخ جنبلاط دفع الثلث من الذي فرضته على الجبل ، وأتعهد بتقديم الثلثين عندما يتسنى لي جمعهما من الأهالي .

تأمل كيف يدفع الشعب المسكين نفقات الحروب ، حتى بين الأتراك أنفسهم وما نفع الشعب من تنصيب هذا الوالي وعزل ذاك من الأتراك .

فالشعب لم يشترك بالثورة على الدولة ، بل ظل يدفع الجزية والفيء ، ألا يكفيه ذلك ، حتى يغرم بدفع غرامة الحرب التي لا يد له فيها ولا منزع ، كل ذلك كان يجري بفضل زعمائه الذين خيم الجهل على بصرهم ، وآثروا الضلالة على الهدى ، ودوس وطنيتهم على أعناق ذواتهم ، ولو فضلوا الصالح العمومي على الخصوصي لأراحوا ذلك الشعب من أكلاف طائلة ، وكفلوا له استقلاله عن حكومة الأتراك .

وعلى هذا النحو أرسل الأمير إلى الشيخ جنبلاط يطلب ألف وخمسمائة

كيس وأسرَّ إليه أوامر عبد الله باشا ، وكيف أنه أغفل أتعابه ومشقة سفره إلى مصر لأجله ، وأعلمه بما هـو مطلوب منـه ، فقبل الشيخ وتظاهر بدفع القسط ، وشرع يورد منه إلى الأمير أقساطاً متتابعة .

وكذلك الأمير فكان عندما يتوفر لديه قسط يرسله إلى عبد الله باشا مع ميخائيل مشاقة .

وكان عبد الله باشا يسأل ميخائيل مشاقة أن يفرز مال الشيخ جنبلاط عن بقية المال ، ويعلمه به ، فكان كل مرة يقدم الأمير إليه قسطاً يسأل أولاً عن القسط المدفوع من الشيخ ويرسله إلى دار الحريم ، ويجعله من مصروفه الخاص ، وقد صرح لميخائيل مشاقة مرة أنه حلل لنفسه صرف المال الوارد من الشيخ جنبلاط ، وحرم بقية الأموال لأنها من ذميين مقبوضة منهم بوجه غير شرعي ، لا يجوز له التصرف بها ، واعترضه مدير خزينته الشيخ عباس ، ولكن عبد الله باشا دحض حجته ، وأغلق عليه المسالك حيث قال له: هل يجب على الذمي شرعاً أن يدفع لنا غير مال الجزية ، فما بالنا نكلفه أشياء كثيرة سواها لا ناقة له بها ولا جمل ، ألم يكن بالامس يقاتل معنا درويش باشا مجاناً ، ألم يضح نفسه بخدمتنا ولأجل سعادتنا ، ألم يؤثر مصلحتنا على مصلحته ، وكان ساعدنا الأقوى في طرد الوهابيين من سورية ، ويوسف باشا من دمشق بمدة ولاية عمنا ، ألم يهلك منه عدد غفير في الحروب التي دارت رحاها لأجلنا ، وكل ذلك بدون أن يكون له دفع ضر ،أو جر مغنم ، بيد أن الفرد منا لا يخدمنا بإخلاص وصدق ، مالم يكن له منفعة شخصية ، وأنت أيها الشيخ منهم أتريد أن تعاملهم بالقسط ، وعلى شريعة المشترع ، فتعود علينا الخسارة ، وعليهم النفع كما يتضح لذي بصيرة .

وكان حصار عكا الأخير أثر بأخلاق عبد الله باشا ، لأن ما شاهده من رجال الجبل من الخدمة ، وصدق المودة ، بعثاه على التساهل ودماثة الطباع ، وحبذا لو علم رجال لبنان حقوقهم التي صرح بها الوزير أمام واحد منهم ، وهو ميخائيل مشاقة ، وهبوا من رقادهم وعززوها يداً واحدة .

* * *

الفصل الثامن والثمانون

في ثورة الشيخ بشير جنبلاط

وبعد أن دفع الشيخ بشير آخر قسط من مال الضريبة التي وضعها عليه عبد الله باشا ، ارتحل إلى راشيا والتجأ إلى والي الشام ، لأنه شعر بمقاصد عبد الله باشا ، وقد سأل والي دمشق أن يتوسط له ،ففعل وأرسل له عبد الله باشا ميثاق الأمان والصفح عنه ، وأمره أن يرجع إلى مركزه فرجع الشيخ إلى محل إقامته يصحبه معتمد من قبل والي الشام عبد الله أفندي ، وكان على جانب من الفصاحة ، وفي وصوله قدم الشيخ للسلام على الأمير ، وكان من عادته أن يصحب معه في مثل هذه الظروف عدداً قليلاً من حاشيته ، أما في هذه المرة فاصطحب معه ما ينيف عن ألف رجل ، كأنه أصبح في ريب من الأمير ، ولما رأى الأمير هذا الاخلاف ، حنق عليه ، وعد ذلك إهانة لمنزلته وحطة في صدق مودته ، ولما تظاهر الأمير بما دعته إليه ظروف الحال ، تداخلت رجال الأديان بين الفريقين ، وكان شأنها أن توسع الخرق ، كما يقع في كل معضلة .

وعقب ذلك أرسل الأمير يطلب من الشيخ مبلغاً جسيماً من المال ، علاوة عن الذي دفعه ، فدفع الشيخ قسماً من هذا المبلغ ، وتوسط له ميخائيل مشاقة في دفع الباقي أقساطاً ، وكانت الغاية التي رمى إليها الشيخ أن يجعل له فسحة يقوم بها من لبنان ، وهكذا كان لانه رحل في تلك الليلة عن دياره ، ولم يعلم به الأمير إلا في صباح الغد .

ولم يكد الشيخ يتوارى عن لبنـان ، حتى تتظاهر أخصامه بدعاويها العديدة ، واندفع للمدافعة عن حقوقه المحامي ابراهيم مشاقة ، وكان يدفع أكلاف الدعاوي من جيبه فضلاً عن أتعابه ، والوقت الذي تستغرقه .

وتظاهر في هذه الأثناء الأمير عباس بميله إلى مناصرة الشيخ جنبلاط ، ولما دري به الأمير أرسل ميخائيل مشاقة يستطلع صحة الخبر ،فأكد له الأمير عباس كذب الإشاعة ، ولكن الأمير أصر على اعتقاده بصحتها ، وأمره بجمع رجاله

لمقاتلة الشيخ إن شاء إعادة ثقة الأمير به ، فتردد الأمير عباس ، وكان عذره عجزه عن الشيخ جنبلاط ورجاله العديدين ، ولكن الأمير لم ينثن عن عزمه فأرسل فرقة من رجالة لمقاتلة الشيخ ، ففر هذا من أمامها ولم يشاء مقاتلتها إلى عكار ، ونزل في هذه الأثناء على الأمير مستجيراً مصطفى آغا بربر من الدولة لأنها طلبت اعدامه ، وإرسال رأسه لها .

وفي أوائل سنة ١٨٢٦ وردت على الأمير الأخبار عن اجتماع الأمراء : عباس ، وفارس ، وسلمان ، وحسن ، من آل شهاب مع مشايخ الدروز آل عماد وجنبلاط ، ينوون اشهار الحرب ، وكان اجتماع عقدهم في المختارة مركز الشيخ رئيس العصابة ، واجتمع لديهم من الرجال إثنا عشر ألف مقاتل .

فأرسل الأمير وأعلم عبد الله باشا صديقه الحميم ، فأمر للحال في إعداد فرقة تبقى تحت إشارة الأمير يقدمها له بقيادة ولده أمين .

أما عبد الله باشا فأعد فرقة وأرسلها إلى جسر الأولي ، تأتمر بأمر الأمير ، ولم يسرع الشيخ بشير من عكار إلى العصاة حذراً من آل عماد أن تغدر به ، ولكن الأمير أرسل ينهى العصاة عن الثورة ، ويحرضهم على العدول عنها إلى السلام والألفة ، فلم يفلح ، غير أن بضعة من مشايخ الدروز مثل حموده وناصيف أبي نكد ، ومشايخ آل تلحوق انتبهوا له وحضروا إلى بيت الدين ، وانضموا مع رجاله ، وانضم مصطفى آغا بربر مع رجاله وعددهم أربعون مقاتل ، وآل حمادي من الدروز ورجالهم .

ولكن العصاة ظلت تتكاثر من يوم إلى يوم آخر ، وانتقلوا من المختارة إلى قرية السمقانية على بعد ميل واحد عن مركز الأمير .

ولما علم الأمير بإصرارهم على الثورة ، أرسل بشير القاسم وأحضر جنود عبد الله باشا ، وكتب الشيخ ناصيف يستحضر خمسمائة مقاتل من دير القمر ، وأن يبقى بقية الجنود على حذر من ناحية الغرب من رجال موسى أرسلان جد الأمير مصطفى أرسلان قائمقام الشوف الآن .

ولم تنتظر العصاة وصول الشيخ جنبلاط زعيمها ، فشرعت بالعداء ، وكانت الفاتحة سوء النزال ، فردهم الأمير خليل بقيادة شرذمة قليلة من رجال الأمير ، ثم تقهقر إلى الوراء لما تكاثر عليه العدد ، وعند ذلك أمر الأمير الشيخ ناصيف بالهجوم ، وهجم بقيادة الفرقة المؤلفة من رجال دير القمر ، واشتد القتال ، فتراجعت العصاة عن القرية إلى الخلوة تصوين ، وتحصنوا بجدرانها ، ثم وصلت نجدة للأمير من عبد الله باشا فدفعهـا إلى ساحـة القتال ، فأبلت بلاء حسناً ، وأخيراً أزاحوا العصاة إلى المختارة بعد أن خلفوا قتلاهم وراءهم .

واتفق وصول الشيخ جنبلاط إلى المختارة ، واجتمع بهم وأخذ يعد معدات الدفاع ، وفي ثاني الأيام حضر إلى الأمير بضعة من مشايخ الدروز ، ورجالهم والتمسوا لأنفسهم العفو ، فعفى عنهم ، وكان له بهم قـوة عظيمة حتى انضم ، إليه من آل عماد وحدهم ما يربو على عشرة آلاف مقاتل .

وانضم إليه امير حيدر برجاله ، وقد تعين هذا فيما بعد قائمقاماً على نصارى لبنان . وجاء بضعة آلاف من المتن والشوف والعرقوب ، والأمير محمد الشهابي من قبل أخيه الأمير سعد الدين حاكم حاصبيا ، وكانت غلاقة ما أنضم إليه فرقة أرسلها عبد الله باشا مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل .

* * *

الفصل التاسع والثمانون

في استفحال الأمر

مضت أيام لم يحدث بخلالها تعدٍ أو نزال ، كان العصاة كانت تجمع شتاتها وتعد معداتها لوقعة رامت أن تجعلها الفاصلة ، ولما تيسر لها من العَدد والعُدد ما ظنته وافياً لقهر الأمير ، أرسلت فرقة بألف مقاتل إلى قرية بعقلين ليداهموا بيت حمادي ، وقد سطوا على القرية تحت جنح الظلام والناس نيام ، وأوقعوا بالأهالي على حين فجأة فعلا الصياح ، وتراكض أهل دير القمر لنجدة بعقلين بقيادة الأمير خليل وكان العصاة قـد علقوا النـار ببعض البيوت ، وجدّوا في أعمال قساوتهم بالأهالي ما استطاعوا لذلك سبيلاً ، ولكن لما وصل أهالي دير القمر البواسل ، وانضموا إلى رجال الحماية والمدافعة ، تغلبوا على طرد العصاة ودحرهم .

وفي صباح الغد خرجت رجال الدروز من المختارة بقيادة المشايخ إلى سهل بقعاتا ، وظهر السمقانية ، فملأوا تلك البقاع على كثرة عددهم ، وشغلوا من الأرض خمسة أميال لضم جوانبهم ، ولم يكن الأمير من الذين يرهبون القتال ، أو يبالون بكثرة العدد ، فقابلهم برجاله ، ولم يشأ أن يعاملهم بالقوة التي بيده حيث أشاروا عليه باستعمال المدافع تأكيداً لنصره على خصمه ، فأبى وصرح ان في ذلك يذهب بأنفس عديدة سوف يحاسب عليها أمام الله وضميره، ودارت رحى الحرب واشتد سعيرها من الفجر إلى الغروب بدون أن يكلل النصر فريقاً على الآخر ، وفي ثاني الأيام صمم الأمير على تبديد العصاة ، وتفريق قواهم ولو كلفه الأمر إهراق دماء بضع مئات من رجالهم ، وأصلاهم ناراً حامية لا تقل عن قنابل المدافع فعلاً وتأثيراً ، وما زال يناضلهم ويحمل عليهم حملاته ، ورجاله تفتك بهم فتكاً ذريعاً إلى أواخر النهار ، حيث هزمهم شر هزيمة ، وفرق جموعهم ، واستولى على قرية الجديدة ، وعبر نهر الباروك.

* * *

الفصل التسعون

في تفصيل الواقعة ونتيجتها

في أوائل الواقعة أرسل الأمير جنود عبد الله باشا على طريق الكحلونية إلى الجديدة ، وتقدم جنود الجبل إلى سهل بقعاتا على ظهر الجديدة ، أما الشيخ بشير جنبلاط رئيس العصاة فكان معسكراً بالقرب من المختارة تجاه الجديدة في منخفض ، وبينه وبين الأميرفاصل نهر الباروك .

وفي ذلك النهار خرجت رجال دير القمر بأجمعها حتى الحدث منها لم يقبل على نفسه الانزواء في الخدور عن القتال ، وكان شأنهم مع العصاة رشقهم بالمقاليع ، ورميهم بالحجارة ، وكان يدربهم خليل عطية المهندس ، حتى أن اليهود شاركوا القوم وقاسموهم النصر .

ومن هؤلاء الشجعان موسى شعبان وأخوه أبو حسن ، وشمويل باروخ ، وهذا كان قائداً على مائتي مقاتل ، ومن الذين أبلوا في العصاة بلاءً عجيباً مصطفى آغا بربر ورجاله ، فنالوا شكر الأمير لهم ، والثناء على بسالتهم، والشيخ بشير أرسل فرقة من رجاله لمقابلة الحملة التي أرسلها الأمير على طريق الكحلونية ، واشتبك بينهما القتال والمناضلة .

وأمر المشاة من رجاله أن تقابل مشاة الأمير ، ولما كانت العصاة في منخفض ، أمرهم الشيخ أن يتسلقوا الروابي حيث يلتقوا برجال الأمير ، وما شرعوا بالصعود حتى أمطرتهم حدثان دير القمر بالحجارة من المقاليع ، أو تدحرجاً ، وكان ذلك النهار يوماً شديداً على العصاة كما تقدم ، وانهزموا من أمام الأمير ورجاله ، ولما شاهد الأمير وهو يطاردهم النسوة الدروز لاحقة برجالها ، وهن بحالة محزنة تؤثر في الجوامد ، وعلم بأخلاق جنود عبد الله باشا خشي عليهن منهم ، ولم يكن خوفه من رجال الجبل ، لأنه اختبرهم وعرف شهامتهم ، حتى في أعراض أعدائهم ، فقد كانت لديهم ثمينة وعزيزة ،

فأمر الجنود بالكف عن اللحاق بالمنهزمين وهكذا حفظ حرمة العرض ، وحفظ له الأثر الحميد .

وكان الأمير يرسل إلى عبد الله باشا رؤوس القتلى ، وهي عادة تقشعر منها الأبدان ، لذلك لا نتوغل في تفصيلها ، على أننا نقول أن عدد القتلى بلغ المائة أو ما يزيد عنها ، ولله أحصى لما في القلوب ، وهو أعلم .

وفي ليلة الواقعة بعد انهزام العصاة قدم جماعة منهم إلى الأمير ، والتمسوا عفوه عنهم ، وكان الأمير حليماً فعفا عنهم ، وأمنهم على حياتهم .

أما الشيخ بشير ، وباقي المشايخ والأمراء ، فرحلوا عن لبنان في ذلك المساء ، وتفرقوا أيدي سبأ .

وبعد ذلك صرف الأمير رجاله ، وأرجع الجنود إلى عكا ، وأرسل فحجز على أملاك آل جنبلاط ، واستغل حاصلاتها لأن عبد الله باشا فرض عليها ثلثمائة وخمسين ألف غرش كل سنة غرامة لبضع سنين ، وخمسين ألف غرش سنوياً تقدم إلى والدته وحرمه ، ثم أمر الوزير بهدم جامع المختارة الذي بناه الشيخ من جيبه ، لأنه كان يرتاب بإسلامه ، ويعده مذبذباً زنديقاً لا دين له .

وهدم قصره الذي أنفق عليه أكثر من مليوني ريال عمودي .

وهكذا أضعف اللبنانيون بعضهم بعضاً ، وضحوا بمالهم وأرواحهم على مذابح الأنانية ، ومهدوا للأجانب استعبادهم وإذلالهم ، بينما اليونان بالمورة وجوارها تقاتل الدولة على حفظ وطنيتها واستقلالها عنها ، وما منع اللبناني عن الاقتداء بها غير جهله ، وتعصب زعامته ، وحبذا الافادة من تكرار كلمة لو ، والتمني ، والتحسر ، ولو أفادت لكررناها مراراً وأبدينا عبارات التودد والتمني في أكثر مواقع كتابنا ، واستسمحنا القاريء في احتمالها ، وربما كان أشد غيرة منا فأضاف إلى ما أوردناه .

* * *

الفصل الحادي والتسعون

في مجازاة زعمـاء العصاة

وكان من العصاة انهم اختاروا الشام ملجأ لهم ، فنزلوا في جوارها ، وكان واليها مصطفى باشا يراقب حوادثهم ويترصد زعيمهم ، ولما بلغه حلولهم ضمن حكومته أرسل فألقى القبض عليهم ، وأحضروا إلى مركز ولايته بعد أن تردد الشيخ بشير في التسليم ، ولكن الشيخ علي العماد أقنعه بالانقياد لأمر مصطفى باشا ، وكان من جمـلة من ألقي عليهم القبض أولاد الشيخ بشير قاسم ، وحليم ، ومن آل عماد : الشيخ علي ، وأمين وسواهم ، وبمقدمتهم الشيخ بشير ، ولما مثلوا أمام مصطفى باشا أمر في حال وقوع نظره على الشيخ علي العماد باعدامه لحزازات بصدره قديمة ، فقطعته رجاله إرباً إرباً ، وأودع الباقين السجن مثقلين بالقيود إلى أن علم بهم عبد الله باشا ، فاستحضرهم إليه وأمر بسجنهم ، وبعد أن مضى عليهم أشهر يقاسون مرارة السجن أمر بشنق الشيخ بشـير جنبلاط ، والشيخ أمـين العماد ، وبعـد أن شنقوهما طرحوهما أمام باب عكا عبرة وعظة .

وأولاد الشيخ : قاسم ، وسليم بقيا مسجونين إلى أن وفد الطاعون إلى المدينة ، فماتا مطعونين .

وعلم الأمير بمقر الأمراء : سليمان ، وفارس ، وعباس ، وحسن ، فقبض عليهم ، ووكل بعذابهم راهباً مارونياً ، فقطع ألسنتهم أولاً ، وسمل بصرهم ثانياً ، إنما الشيخ علي العماد فرَّ من سجن الأمير ، ولكنه قضي عليه من أثر جراحه البالغة التي أحدثها به رجال الأمير ، وخصوصاً حضرة الراهب صاحب التقوى ، ولم ينج من زعماء الثورة غير الأمير عباس ـ تلك كانت عاقبة من تمرد على مولاه جوراً ، والله صاحب القسط وله الحكم .

وظل الأمير يعدم كل من وقع بيده ، وكان له أصبع في الثورة ، فأعدم

الأمراء : حسن وحسين بديعة ؛ واضطهد مشايخ آل شمس ، وآل قيس ، فتكبد أولئك عناء المدافعة عن براءتهم ، وهؤلاء لاذوا بالفرار لثبوت الجرم عليهم[1] .

* * *

الفصل الثاني والتسعون

في ثورة نابلوس

وفي أواسط سنة ١٨٢٩ أعلنت الثورة في نابلوس ، التابعة لولاية الشام ، وعجز واليها عن اخضاع الثوار ، فرجع عنهم مخذولاً .

ولما علمت الدولة بعجز والي الشام عن إطفاء جمرة الثوار في ولايته ، عهد إلى عبد الله باشا بخضد شوكتهم ، فوجه عبد الله باشا فرقة من جنوده ، ومعها المدافع والمعدات الحربية المرهفة لمقاتلة الثائرين ، وعندما التقت الجنود المنظمة بهم ، دارت رحى الحرب ، واشتد القتال بضع ساعات كان النصر فيها للجنود ، فأرغموا العصاة على تحصين القلعة فانسحبوا من ساحة الوغى ، وتحصنوا في قلعة صفد المشهورة ، التي كاد الجزار يعجز عن امتلاكها .

وطال الحصار بدون جدوى ، حتى أظهر العصاة قوة وممانعة فائقتين ، وقتلوا من الجند عدداً كبيراً ، وتمكنوا من الاستيلاء على أعظم الذخائر ، وفتكوا بخفرائها ، مما استدعى انتباه عبد الله باشا إلى التحذر ، وبدأ يفكر في أن العصاة ليسوا ممن يستخف بهم .

فأرسل إلى الأمير بشير يستنجده على كبح شكيمة الثوار ، فقام الأمير بألف وخمسمائة مقاتل ، وقام معه الشيخ ناصيف أبو نكد بألف ، واجتمع من الأمراء والمشايخ لمعاضدة الأمير ما ينيف على خمسة آلاف مقاتل بين فارس

---

(١) انظر الشدياق : ٢/١٨٥ ـ ١٩٩ ، على أن معلومات نصنا اشبه بالمعلومات الوثائقية . ولا بأس من مراجعة كتاب تاريخ حوادث الشام المنسوب لميخائيل الدمشقي ـ ط دمشق ١٩٨١ . ص : ١٤٢ ـ ١٤٦ .

وراجل ، ولما وصل الأمير إلى قلعة صفد انضم إلى عسكر عبد الله باشا ، وعهد إليه بقيادة الجيش •

فكتب الأمير إلى رؤساء العصاة ، ونهاهم عن مداومة الكفاح، وحذرهم وخامة العاقبة ، وضرب لهم موعداً للتسليم •

وكان سبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والي الشام، وأمر بجمع مبلغها الفادح من الثائرين ، ولما عجز عن جمعها أحيلت إلى عبد الله باشا ، فتمهد للدولة بدفع ألف كيس ،وأمر بجمعها من أهل نابلوس،ولما بلغتهم أوامر عبد الله باشا في توريد المال ، أجمعوا على الرفض ، وشقوا عصا الطاعة ، ولبث الأمير ينتظر جواب رسالته إلى أن فات وقت المجاوبة ، غير أن عدداً قليلاً منهم سلموا إلى الأمير ، ونالوا العفو ، أما جمهور الثوار فظلوا على عزمهم ، وتالب منهم عدد كبير حول معسكر الأمير بضواحي قرية عجة ، ولم يشأ الأمير قتالهم ظناً منه أنهم ينتصحون بنصيحته ، ويعودون إلى المسالمة •

وحدث أن بضعة من رجال الأمير قصدوا الاستقاء ، فخرج إليهم عصاة عجة ، وفتكوا بهم ، وكان من جملة هؤلاء التعساء أربعة من دير القمر ، من رجال الشيخ نكد ، ولما علم الشيخ بما حدث لرجاله استشاط غيظاً ، وأمر بقية رجاله بالهجوم على العصاة ، وسحقهم ولم يقو على اتباع أوامر الأمير ، وأخذهم بالتي هي أحسن ، فتقدم برجاله وصاح بهم دونكم وأهل عجة الذين استخفوا بحرمتكم وبطشوا بإخوانكم على غفلة ، وتمكن الشيخ من الدخول برجاله إلى عجة ، وتفريق جموع العصاة ، غير أن العصاة كانوا أضعاف رجال الشيخ ، فتكاثروا ولموا شعثهم ، واستأنفوا القتال ، وكادوا ينتصرون ويخرجون رجال الشيخ من القرية لو لم يقبل الأمير برجاله ، ويعزز جانب الشيخ ويدحر العصاة إلى الوراء • وعند وصول الأمير حمل برجاله والفرقة التي أرسلها عبد الله باشا على العصاة ، وبددهم فولوا الأدبار مخلفين عدداً كبيراً من قتلاهم ، واستباح عسكر الوزير النهب والسلب ، ولما علم الأمير بذلك نهاهم عنه ، وكان من قتلى الأمير ابن حمادي ، فأرسل لوالده التعزية ورقاه إلى المشيخة ، وبعد رجوع الأمير عن عجة أمر بضرب قلعة صفد

بالمدافع والقنابل حتى استولى عليها ، وعفا عمن وجده حياً من العصاة ، وجمع الفيء منهم ، وأرسله إلى عبد الله مع أعلام انتصاره . ثم عاد إلى مركزه ، وصرف رجاله الأمناء بعد أن أثنى عليهم ثناء جميلاً .

* * *

الفصل الثالث والتسعون

في ثورة الدمشقيين

في أوائل سنة ١٨٣١ وضع سليم باشا (خليفة مصطفى باشا) ضريبة جديدة على أهالي دمشق المسلمين ، وكان مبلغها جسيماً نحو ألفي كيس عن العقار ، فرفضوا طلب الوزير ، وشهروا عصيانهم عليه ، وإذا كانت الضريبة عمومية وقر الرأي العام على شدة وطأتها ، ولزوم إزالتها تعسر على الحاكم إرغام الشعب على قبولها ، فثار الدمشقيون على الوزير ، لمّا شعروا بألم الضريبة على السواء ، وأرغموه على الالتجاء إلى القلعة ، وقطعوا عنه الزاد أياماً ، سلم نفسه في أواخرها إليهم فسجنوه بغرفة ، وأقاموا عليه الخفر ، وبعد أيام أوجسوا فيه ريبة ، لئلا يتآمر على زعمائهم سراً ، فهجموا عليه يريدون إعدامه ، فدافع الوزير عن نفسه ، ولكن ماذا تفيده المدافعة وهو أعزل وحيد لا نصير له ولا حامية ، فأضرموا النار بجوانب الغرفة ، وقد فضلوا قتله حرقاً وظلوا يراقبون النار تأكل فريستها إلى النهاية .

ولبثوا بعد ذلك ينتظرون انتقام الدولة منهم لعلمهم بعملهم الفظيع .

علم الدمشقيون أن عملهم جائر وفظيع ، قبل أن يقدموا عليه ، وبعد أن فرغوا منه ، ولكنهم آثروا قتل الجور والاستبداد على الذل والسكينة ، ولم يرهبوا قوة الحاكم تجاه قوتهم ، والانسان العاقل عالي الهمة متى أدرك قوته وأحس بأثقال الضغط والذل ، نهض بكليته للتخلص من حبائلها ، فلا القيود تمنعه عن ابراز حقوقه ، ولا السلاسل تقدر على تقييده والضغط على أفكاره[1] .

* * *

---

(١) قدم صاحب كتاب مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سورية ــ ط . دمشق ١٩٨١ ، ص : ٢٢ ــ ٤٠ ، تفاصيل كبيرة وهامة من ثورة دمشق . انظر أيضاً الشدياق : ٢/٢٠٥ .

الفصل الرابع والتسعون

في تصلف عبد الله باشا

وفي أواخر سنة ١٨٣١ قدم جمهور كبير من فلاحي مصر إلى سورية هرباً من التجنيد والخدمة العسكرية ، وأقاموا في غزة وضواحيها التابعة لولاية صيدا ، فأكرم عبد الله باشا وفادتهم وسهل لهم المعيشة ، فكتب إليه محمد علي باشا ، وطلب منه أن يرغم المهاجرين على العودة إلى مصر •

فلم يحفل عبد الله باشا بطلبه وجاوبه مستخفاً به ، فغضب محمد علي ، وكتب إليه رسالة يهدده إذا لم يجب طلبه ، وبالوقت ذاته بعث للأمير وأعلمه بقحة عبد الله باشا ، وكيف أنه أنكر فضله عليه •

فبعث الأمير رسالة إلى عبد الله باشا يرشده بها إلى ملاطفة محمد علي ، وأكد له سطوته وقوته •

ولم يكن من عبد الله باشا إلا الاستخفاف والمظاهرة بمناعة عكا ، وكيف أنها ردت قواد العالم خائبة ، واستشهد بأسماء الذين حاصروها ، ورجعوا عنها بالفشل والخيبة فذكر : درويش باشا ، ومصطفى ، وبرهام ، واستطرد وقال : إذا كان نابليون الأول أعظم قواد العالم عجز عن امتلاكها ، فهل يقدر محمد علي باشا عليها ؟ هل هو أقوى من نابليون ، وغفل عبد الله باشا أن نابليون ما رجع عن عكا بالفشل ، إنما دعته أسباب إلى تركها فضلاً عن أن قوة الانكليز البحرية كانت العاملة على صد هجماته ، وحجزت عنه المدافع وجانباً عظيماً من الذخيرة •

ولما وصل جواب عبد الله باشا إلى محمد علي باشا ازداد غضبه ، وأمر بالتأهب وإعداد الجنود لمحاربة عبد الله باشا وإخضاع ولايته ، خصوصاً ، وسورية عموماً ، وكان محمد علي ينوي اكتساح الدولة التركية ، وانشاء دولة عربية ،فجاءت معاملة عبد الله باشا له معجلة لتحقيق غرضه •

* * *

الفصل الخامس والتسعون

في قيام ابراهيم باشا

وبعد أيام قلائل خرجت الجنود المصرية من مصر بقيادة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حتى وصلت غزة ، وظلت سائرة كأن لم يحدث لها معترض ، فاستولت عليها واستطردت السير ، ولما علمت الدولة بقدوم الجنود المصرية إلى سورية طيرت أوامرها إلى مأموريها وأمرتهم بالتعاضد على طرد العدو من بلادهم ، وأشهرت الحرب على محمد علي في سورية .

وهبَّ عبد الله باشا يعدُّ معدات الدفاع ، ويحث رجاله على الثبات والمدافعة عن شرفهم ، أما الأمير فأظهر ميله إلى ابراهيم باشا ، ونصح للشيخ حسين الهادي حاكم نابلوس ، أن يرحب بابراهيم باشا ويظهر لـه الإكرام ، وبعث الأمير سعد الدين رسالة إلى الأمير سأله رأيه فأشار عليه بالبقاء موالياً لوالي الشام إلى أن ينفذ الأمر بعكا .

وقـد انتشر خبـر وصول الأسطول المصري ، وقدوم ابراهيم باشا بعساكره إلى عكا بوقت واحد .

* * *

الفصل السادس والتسعون

في ضرب عـكا بحـراً

وعندما وصل ابراهيم باشا لصحراء عكا، بعث إلى الأمير بشير فاستقدمه إليه مع رجاله ومن ناصره ، وتداول معه في كيفية الحصار .

ولما وصل الأسطول المصري المؤلف من اثنين وعشرين سفينة حربية ، انقسم إلى ثلاثة أقسام ، وشرع يهطل على القلعة قنابله .

وكانت القلعة تقذف عليه ناراً آكلة ، ودامت الحال سحابة ذلك النهار ، وعند الغروب أقلع الاسطول من مياه عكا ، ولم يترك له أثراً في قلعة المدينة ، غير أن قنابل القلعة أحدثت به تعطيلا عظيماً ، لذلك كفَّ عن الحرب ورجع إلى حيفا مخذولاً .

الفصل السابع والتسعون

في حصار ابراهيم باشا عكا

ولم يكن انسحاب الاسطول من مياه عكا ليضعف همة المصريين ، أو يزعزع اعتقادهم في الغلبة على أسوار عكا المنيعة ، ففي ثاني الأيام بـدأوا بحفر الخنادق ، وأقاموا المتاريس نصبوا عليها المدافع وبطارية الحصار لقذف القنابل الحامية ، وأكملوا معداتهم كلها تحت جنح الظلام وقاية لأنفسهم من نيران المدينة ، وعند الصباح أصلوا القلعة ناراً آكلة ، ولم تكن نار الحامية بأقل وطأة ، وواصلوا القتال ليلاً ونهاراً ، وكانت النجدات تصل إلى ابراهيم باشا من مصر بالتتابع •

وكان مع ابراهيم باشا قواد من أهل الدراية والخبرة ، وبينهم مهرة بالفنون الحربية الحديثة ، فضلاً عن المهندسين الذين يعلمون كيف تؤكل الكتف •

وكانت حامية المدينة ثلاثة آلاف مقاتل ، قد حنكتهم الأيام ، ودربتهم على الشجاعة والثبات •

وكانوا يخرجون إلى خارج السور ليحملوا الجنود المصرية على الهجوم عليهم والاقتراب من المدافع ، فلم يفلحوا لأن قواد الجند المصري أدركوا هذه الألعوبـة •

وكان عدد الجيش المحاصر ثمانية عشر ألف مقاتل ، وأربعة آلاف فارس معهم أربعون مدفعاً ، وعدة بطاريات •

وحدثت في أحد الامساء صيحة في الجيش المصري ، سببها ثمانية رجال من أهل نابلوس اخترقوا صفوفه ، وقد اشهروا سيوفهم على الخفراء ومن اعترضهم ولم يشأ أحـد من الجند أن يرميهم خوفاً من أن يوقـع العطب بسواهم ، لذلك تمكنوا من الدخول إلى المدينة وعلا صراخهم •

* * *

الفصل الثامن والتسعون

في قيام ابراهيم باشا إلى طرابلس

ولما نزل الأمير عكا وانضم إلى إبراهيم باشا برجاله على حصارها ، لم ير إبراهيم باشا من الحكمة اخلاء مكانه بدون حامية تعززه مدة غياب الأمير عنه ، فأرسل يعقوب بك بفرقة من الجند إلى دير القمر ، وأمر بالمحافظة على الأمن ، وراحة الأهالي .

ورأت الدولة بعد حصار عكا بمدة قليلة ، أن ترسل والياً على طرابلس ، فأرسلت عثمان باشا اللبيب حاكماً على تلك المقاطعة .

ولما علم ابراهيم باشا بقدومه ، قصده وطرده من المدينة ، وعين مكانه حاكماً من قبله ، يصدع بأمره ، ومن طرابلس قام إلى حمص ، ومن حمص إلى معلقة زحلة ، ومنها رجع منتصراً إلى عكا واجتمع بمعسكره .

ولما استقر بالدولة المصرية المقام في سورية ، ونشرت أعلامها على ربوعها ارتحل مشايخ نكد عن لبنان ، وانضموا إلى الدولة .

ولم يمض على حصار عكا زمان حتى أرسل محمد علي تفويضاً إلى حنا البحري ، في سن النظامات لحكومة سورية على النمط الحديث ، وكان حنا البحري على جانب عظيم من أصالة الرأي ، وله القدح المعلى في السياسة المدنيـة .

فرتب مجالس الملكية والمدنية والعسكرية ، وأقام لها مجلس شورى ، وغيرها من النظامات الحديثة ، ثم رتب المالية ، ووضع نظاماً لجباية الخراج ، ومعاملة الرعية أمام القانون على السواء ، وكان يعامل الرفيع والوضيع معاملة لا تفاوت فيها ، ويعطي لكل ذي حق حقه .

وكان العدل والانصاف شأنه ، والنزاهة زمامه لا فرق عنده بين القوي المثري والضعيف الفقير ، أو المسلم والذمي ، وكان يعاملهم بالقسط والعدل

حسب وصية محمد علي باشا ، الذي كان عارفاً أن لا قيام للدولة إلاّ بالعدل والانصاف •

وهذا النظام وإن يكن عادلاً وشريفاً ، فقد كان باعثاً قوياً على كره الأمراء والمشايخ للمصريين ، حيث كف يدهم ، وأوقف مطامعهم عند حد لا يمكنهم اجتيازه ، وأمات استبدادهم بالشعب ، وجعلهم أمام الشريعة سواءً لا امتياز ولا فرق بينهم وبين أفراد الرعية ، فحنقوا على الدولة المصرية، وودوا إزالتها وإرجاع الحكومة التركية •

والانسان ابن مألوفه إذا ألف عادة قبيحة كانت أو حسنة ، وأرغم على تركها كدره ذلك ، ولو كان فيه فائدة له محسوسة ، قابل نظام هذه الحكومة بالنظام الذي كان دستوراً للعمل قبل فتوحها المذكور بأول هذا الكتاب ، تعلم لماذا كان الحنق على المصريين شديداً •

* * *

الفصل التاسع والتسعون

في انتصار ابراهيم باشا على عكا

ولما علمت الدولة بما أحدثه ابراهيم باشا في طرابلس من التبديل ، أرسلت فرقة كبيرة إلى والي حلب انجه بيرقدار باشا ، وأمرته أن يتقدم بها إلى انقاذ عكا من الحصار ، فقام برجاله إلى انقاذ عكا من الحصار ، فقام برجاله إلى حمص ومنها إلى تل بني مندو تحت قرية القصير بالقرب من حمص على شاطىء العاصي ، ولبث هناك ينتظر وصول الفرقة من الآستانة •

ولما علم به ابراهيم باشا أرسل فرقة كاملة كمنت له في معلقة زحلة ، ولكن بيرقدار باشا رغب البقاء في مكانه ، ولم يخط خطوة إلى الامام ، كأنه كان ينتظر قدوم مدينة عكا إليه ، ليدافع عنها •

وفي أول جمادى الثانية ردم ابراهيم باشا خندق المدينة ، وهجم بجنده على أسوارها ، ولاقتــه الحامية وصدته في بادىء الأمـر ، وكرر هجماته ، وحرض رجاله ، وفي العشرين من ذلك لشهر خطب فيهم خطباً حماسية ذكرهم بفتوحاتهم وانتصاراتهم العـديدة ومقامهم بين جنود العـالم . واستخف بخصمهم الحاضر ، وقال لهم : « ان رجوعكم عن حامية عكا الضعيفة يجلب عليكم العار ، ويحط باسمكم الرفيع إلى الحضيض ، وحاشى للجند المصري أن يوصم بهذه الوصمة ، بعد أن رافقه النصر في كل حروبه وأثبت للعالم أنه من أشجع الجنود ، وأقدرهم على الثبات في ساحة النزال ، فكيف يرجع عن عكا مخذولاً ويرضى بالإهانة والذل ، فهـو لا يرضى ولن يرضى إن شاء الله ، ... دونكم أيها البواسل هـذا السور المتداعي » ، وأمرهم بالهجوم واحتدم القتال وفتحت جهنم أبوابها ، وكان أول من تسلق السور على ظهر جواده سليم بك أو نزبير أميرالاي الطوبجية ، ولحقه ابراهيم آغا الرشماني من دير القمر مدرب فرسان لبنان ، ولكنه أصيب برصاصة جندلته ، وكان ثالثهم ابراهيم باشا ، وعند ذلك تكاثرت الجنود على السور الأول الخارجي ، لاقته الحامية على السور الداخلي ، واشتبك القتال ساعات أسفرت في زوالها عن نصر ابراهيم باشا ، فدخل عكا ولم يبق من الحامية غير ثلاثمائة وخمسين مدافعاً ، وقبض على عبد الله باشا وأرسله إلى مصر ، وكان عدد القتلى يفوق الحصر ، وزادت الوفيات بين الجنود بسببها[1] .

ولما وصل عبد الله باشا إلى مصر أكرمه محمد علي ، وأحسن وفادته ، وسعى في أن يقضي بقية أيامه في الحجاز ، فذهب إليها ومات هناك .

* * *

---

(١) سقطت عكا يوم ٢١ أيار ١٨٣٢ . انظر مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا : ٤٦ ـ ٤٨ . الشدياق : ٢/٢٠٦ ـ ٢١٢ .

الفصل المائة

في قيام ابراهيم باشا إلى الشام

تم لابراهيم باشا الاستيلاء على عكا وقد حفظ له التاريخ ذكراً لا يزول على توالي الأيام ، وبعد أن راقت له الأحوال أمر بترميم ما تهدم من القلعة ، وإصلاح ما أحدثه الحصار على المدينة من التخريب ، وأعاد إليها كل ما تقصها من المدافع، وأقام لها البواسل المشهود لهم بالقوة والشجاعة، ولما تم اصلاحاته جمع رجاله ، وقام بهم إلى دمشق ، ولم يترك الأمير بشيراً وراءه ، فطلب منه أن يقوم معه فاستحضر الأمير عدداً من رجاله ، وأعلم أمراء حاصبيا وراشيا الشهابيين بشخوصه مع ابراهيم باشا إلى الشام ، وطلب منهم أن يرافقوه إليهـا •

وكانت الدولة عينت علو باشا والياً على الشام خلفاً لواليها الأول ، الذي ذهب ضحية الجهل والقساوة ، فلما بلغه قدوم ابراهيم باشا إليه ، جمع عشرة آلاف مقاتل ، وخرج بمقدمتهم إلى خارج المدينة ، ولبث ينتظر وصول ابراهيم باشا وعسكره •

ولما أشرف عليهم ابراهيم باشا ، استكشف عددهم وقوتهم بالنظارة التي كان يستعين بها في مثل تلك الظروف ، فاطلع على مركز الأكراد منهم ، ومركز رجال دمشق ، وأمر فرسان العرب الهناديين بمقاتلة الأكراد ، وبقية الجنـد حوله لمقاتلة رجال الشام ، وأوصاه أن لايصيبهم بل يستعمل الطلق للارهاب ، وعند اقتراب الجيشين دارت رحى الحرب ، وقد استغرب الدمشقيون سرعة الطلق ، وكان جديداً على سمعهم فوقع بقلوبهم الخوف وولوا الادبار •

أما الأكراد فقاتلوا قتال الشجعان ، ولكنهم لـم يقدروا على الثبات طويلاً حتى انهزموا ، واقتفى أثرهم الفرسان ، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، ولما رأى علو باشا ما حل بعسكره ، طلب النجاة لنفسه ، فالتجأ إلى الفرار ، ودخل ابراهيم باشا المدينة ، ولم يسمح لعسكره بنهبها والتعدي على راحة أهاليها •

وقبض على أزمة الأحكام مدة ، حتى راقت الأحوال ، وصفت الأكدار ، وعين والياً عليها أحمد بك ربيب كورد يوسف باشا المتقدم ذكره في حينه ، وسأل المعلم بطرس كرامة [1] أن يؤلف مجلس شورى ، واصلاح ما يجده مخلاً في النظام القديم .

ونهض بعد ذلك في شهر صفر إلى القطيفة ، وأرسل الأمير ومعه الأمراء إلى قرية عزار ، ومنها إلى قرية الدرعطية ، وانتقل ابراهيم باشا للنبك ، وهنا توسط الأمير بالعفو عن أعيان دمشق الهاربين في أبان المعركة ، وبعدها عفا ابراهيم باشا عنهم ، وعادوا إلى مساكنهم — ومن هناك قام إلى حسية، فطريق القصير ، فتل" بني مندو ، ولم يقابل عسكر الدولة فيها لأنه رجع إلى حمص عندما بلغه فتح عكا ، وكان العسكر المصري مؤلفاً من المشاة أحد عشر ألفاً ، ومن الفرسان ألفين ، ومن الفرسان الهنادي ثلاثة آلاف ، وثلاثة وأربعين مدفعاً وبطارية ، وكان معه عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ، وابن أخت محمد علي أحمد باشا ، فضلاً عن الأمير بشير ورجاله الأشداء[2].



* * *

(1) كان أصله من حمص ، ووصفه ميخائيل الدمشقي : ١٤٦ ، بانه كان « شاعرا لبيباً فمن مدة سنين حضر لدير القمر يتردد على الأمير ، فانحظ منه ، واستقام عنده يتبلى به فقط ، وحينما توجه لمصر أخذه معه ، وكان يساعده بالتدبير » .

(2) انظر مذكرات تاريخية : ٤٨ .

الفصل الحادي والمائة

في شخوص إبراهيم باشا إلى حمص

في وصول إبراهيم باشا ونزوله تجاه بني مندو وصلت إليه نجدة عن طريق معلقة زحلة وطرابلس الشام ، ونجدة من الجند المصري مؤلفة من ستة آلاف مقاتل ، وأصبح عسكره يناهز العشرين ألفاً ، والمتعارف أن جند الاتراك بحمص لا يزيد على سبعين ألف مقاتل ، فاجتمع ابراهيم باشا بقواده ، وتداول معهم في كيفية الهجوم .

فأرسل فرقة من الفرسان الهنادي في منتصف الليل ، لتتقدم الجيش ، وتستطلع مواقع العدو وقوته ما أمكنها لذلك سبيلاً .

وقسم المشاة إلى ثلاثة أقسام ، جعل المسافة بين القسم والقسم ميلين ، وفي مقدمة القسم قائده تتقدمه ثلاثة صفوف من رجاله .

وجعل الأمير بشيراً ورجاله بالقلب ، والخفر على الذخيرة في مؤخرة الجيش ، وأقام على الميمنة عباس باشا ، وعلى الميسرة أحمد باشا .

وعلى هذا الترتيب زحفت الرجال على ألحان الموسيقى ، وكان المنظر جميلاً شائقاً في تلك السهول الفسيحة ، وعند منتصف النهار وصل الجيش إلى قرية قطينة ، التي تبعد عن حمص ثلاثة أميال ، وبسط الجند جناحه لجهة نهر العاصي الشمالي الغربي ، وصعد ابراهيم باشا إلى تل قطينة .

وأمر الأمير أن يقوم برجاله إلى الميرة ، فاحتل المكان ، ونزل بـه مع رجاله للراحة في ذلك النهار .

ورجعت الفرسان التي تقدمت الجيش ، ومعها الأسرى ورؤوس القتلى ، وبلغ ابراهيم باشا أن العدو معسكر بالقرب من تل بابا عمر ، ومعه مدافع عديدة أقامها على قمة التل ، ولما علم ابراهيم باشا على الوجه الأقرب قوة خصمه ومركزه أعد للنزال مهماته .

* * *

الفصل الثاني والمائة

دخول ابراهيم باشا مدينة حمص

اصطف الجيش المصري صفاً واحداً ، وعلى طرفيه الفرسان والمدافع ، وعلى ألحان الموسيقى هجم على عسكر الأتراك المنظم الذي قيل أنه مؤلف من سبعين ألفاً ، وحمي سعير الحرب ، وأبلت فرسان الهنادي بلاءً حسناً ، فكانت تصول وتجول يمنة ويسرة ، وتجندل وتفتك بالأتراك فتكاً ذريعاً ، والجند المصري لا تفتر له همة عن التقدم ، وإرغام العدو على التقهقر ، وكلما تراجع عن مركزه تقدمت الفرسان وبقيـة الجند ، وتتبعته وأعملت بقفاه ، وهجم الأتراك على ميمنة الجيش المصري فصدّه عباس باشا بالقنابل ، فأصلاهم ناراً حامية واضطرهم إلى الرجوع والانسحاب ، وظلت الحرب قائمة على أشدها والجند المصري يطارد العسكر التركي إلى أن دحره ، وفرق قوته ، فولى الأدبار وخلف وراءه قتلاه الكثيرين وأسرى لا يقلون عن القتلى عدداً .

مع أن الاتراك أظهروا العجائب في ثباتهم ، وشدة هجماتهم ، ولكن النصر إذا قدر لفريق ناله ولو بعد حين .



ولما تقرر النصر لإبراهيم باشا ، تقدم إلى مدينة حمص ، وقبض على أزمة حكومتها وأمن أهاليها .

* * *

الفصل الثالث والمائة

في تعيين الأمير بشير حاكماً على حمص

في صباح الأحد دخل ابراهيم باشا حمص ، وتولى حكومتها ، ولـم يمكث فيها غير ذلك النهار ، لأنه لم يقبض بعد على بيرقدار باشا ، وعزم على مطاردته واللحاق بمن كان معه من الوزراء ، وتمكنوا من الفرار قبل أن تصل يده إليهم ، وعين الأمير بشيراً والياً على حمص ، وفوض إليه الحكومة ، وسأله الانصاف بأعماله ، ومضى مجدّاً وراء ضالته .

ولما تربع الأمير في كرسي الولاية تفحص الأسرى ، فوجد بينهم ثمانمائة أرمني ، فأطلق سراحهم ، وأرسلهم إلى مطران الروم ، وبقية الأسرى من العسكر التركي أرسلهم إلى عكا بعهدة الشيخ حسن تلحوق •

أما مجاريح الجيش فعهد بهم إلى عناية الأطباء •

وأمر مدعي العموم أن يواري القتلى التراب بالأقرب الممكن، لأن الهواء الأصفر الذي كان ضارباً أطنابه في تلك البلدة زادت وفياته كثيراً •

وعهد لمخائيل مشاقة ضبط متروكات الوزراء ، وكانوا قد هجروا خيامهم بفرشها وأثاثها ، حتى أن كاتب الأسرار ترك دواته وأدوات الكتابة والورق مبعثرة على الأرض ، مما يدل على أنهم غادروها على غرة ، ووجد كثيراً من الثياب الثمينة ، وأقمشة فاخرة ، وأغرب ما عثر عليه كميـــة كبيرة من البن الحجازي ، تكفي مدينة غاصة بالسكان أشهراً •

ولا مشاحة أن مدينة حمص ، جيدة التربة ، متسعة الأراضي ، معتدلة الهواء ، تكتنفها قرى كثيرة ، لكن إهمال أهاليها ، وعدم اكتراث حكامها ، جعلها متداعية إلى الخراب ، ويد الاصلاح قلما تزورها ، حيث كانت عرب البادية تتردد عليها ، وتسلب ما يقع بأيديها •

ويبلغ عدد سكان مدينـــة حمص عشرين ألف نفس ، ربعهم نصارى أكثرهم روم أرثوذكس ، وقليل منهم كاثوليك ، والبقية إسلام ، ويغلب عليهم السذاجة ، وقصر نظرهم في غور الأمور، ومما يدعم قولنا ما نقصه عليك بما يلي :

دخل بعضهم على الأمير ، وسأله أن ينظر في حالة بضعة أشخاص لم يزالوا بين كراديس القتلى ، فذهب مخائيل مشاقة إليهم مع أحد المأمورين إلى محلة بالقرب من تل بابا عمر ، فوجد ثمانية رجال أربعة منهم جثث هامدة ، والأربعة الباقون مثخنون بالجراح ، فقصوا عليه سبب جراحهم ، وموت رفاقهم ، وأنهم نظروا إلى قنبـــلة وقعت بالقرب منهم ، فتقدموا إليها فرأوا فتيلتها لم تزل عالقة، وكان منهم أن لمسوها بيدهم، وصاروا يقلبونها من جانب إلى آخر حتى دنا وقت انفجارها ، فانفجرت وجندلت أقربهم إليها وعطبت أبعدهم عنها ، وجرحته جروحاً بالغة تنذر بالخطر

الفصل الرابع والمائة

في وصول إبراهيم باشا إلى حلب

استطرد ابراهيم باشا سيره ، وظل يتنسم أخبار المنهزمين ، ويطاردهم من مكان إلى آخر ، وقبل أن يشرف على حلب ، التقى بحسن باشا في طريقه إليه ، ومعه جيش عظيم مؤلف من أربعين ألف مقاتل ، ولكنه لم يقف عثرة كبيرة أمامه ، لأنه بعد معركة هائلة انهزم من وجه ابراهيم باشا ، فواصل ابراهيم مسيره حتى دخل مدينة حلب بدون معارض ، وبعد أن رتب أحكامها وعين حاكماً عليها ، وأقام والياً على ايالة أورفة ، تقدم إلى الأمام فاستولى على أطنة بدون محاربة ، كأن انتصاراته المتلاحقة أوقعت الرعب في قلوب الأتراك، وقام من أطنة ألى قونية ، ففر واليها من وجهه ، فدخلها وبسط حكمه على ربوعها ، ولما كثرت فتوحاته قلت رجاله ، لأنه كان يخلف منهم عدداً في كل ولاية دخلها ، فضلاً عن أن الهواء الأصفر والحروب فتكت بقسم منهم ، وفي أواخر سنة ١٨٣٢ بقي معه من الجند اثنا عشر ألف ، ومع ذلك ظلت نفسه تحدثه بالتوغل إلى الأمام ، ومطامعه تحسن له الاستيلاء على القسطنطينية ، كأن الانسان متى خدمه الزمان وذلل له الصعاب ، يتوسع بمطاليبه ، ولم يعد يهتدي إلى السكينة ، ولا يطيب له البقاء على ما حصل عليه من المجد والأبهة ، فيطلب الزيادة ويجدد طلبه كلما بلغ وطره ، وذلك طبع خلق فيه ، ويموت عليه ، والله الهادي .

* * *

الفصل الخامس والمائة

في استيلاء ابراهيم باشا على كوتهيا

لا نسترسل في تفصيل ما حدث لابراهيم باشا في طريقه إلى كوتهيا من المشاق ، بل نأتي بالالماع الموجز لما اعترضه من العوائق ، وكيف ذلل القوات

المضادة له قام من قونية بعسكره ، واستطرد في المسير إلى كوتهيا ، ولم يبعد عن قونية مسافة بعيدة حتى التقى بالصدر الأعظم وعساكره الجرارة ، وقيل إن عساكره مائة وخمسون ألف محارب ، فاشتبك القتال بين الجيشين على ما بينهما من التفاوت بالكثرة ، وحمي وطيس الحرب سحابة ذلك النهار بدون أن ينتصر فريق على الآخر ، وفي ثاني الأيام عادت الفرسان إلى الكفاح واستبسلت رجال ابراهيم باشا أي استبسال ، حتى تغلبت بعددها القليل على عساكر الأتراك وأرغمتها على الانسحاب من ساحة الحرب ، فانهزم معظم الجيش ، ووقع الصدر الأعظم أسيراً بيد ابراهيم باشا ، وتفرقت بقية رجاله ، وكان الصدر الأعظم شجاعاً محنكاً ، ولم تجده شجاعته نفعاً ، ولا ردت عنه مقدوراً أمام أعظم قائد في الناشئة الاسلامية بعد خالد بن الوليد ، وكان مع الصدر الأعظم فون ملتك القائد الشهير ، فولى الأدبار مع المنهزمين ، وأيقن أن في الشرق رجالاً مثل نابليون الأول ، وأعظم،وابراهيم باشا نابليون العرب الأول في القرن التاسع عشر .

ويقال ان ابراهيم باشا دخله الريب في قوته القليلة ، عندما استطلع القوة التي تعضد الصدر الأعظم ، وأكد لأول مرة في حياته فشله ، ولما لحظ ارتباكه سليمان باشا الفرنساوي ، الذي شاهد حروباً كثيرة ، ورافق نابليون بأكثر فتوحاته ، تقدم منه ونزع من قلبه الخوف الذي كاد يستحوذ عليه ، وأكد له الانتصار ، وذلك ما تم له .

وعاد ابراهيم باشا إلى كوتهيا بعد أن أرسل أسيره الصدر الأعظم إلى مصر ، وفي وصوله إلى كوتهيا دخلها بدون معارضة ، لأن خبر انتصاره بجيشه القليل على الصدر الأعظم أوقع في قلوب سكان المدينة وما يجاورها من المدن والقرى رعباً عظيماً ، فمكث ابراهيم باشا في كوتهيا أياماً معدودة للراحة له ولرجاله ، وقام عنها بعد أن خلف فيها حاكماً ، ويمم إلى الآستانة .

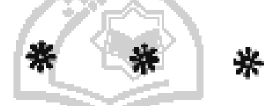
* * *

الفصل السادس والمائة

في رجوع إبراهيم باشا إلى سورية

وبلغ ابراهيم باشا ، وهو على مقربة من دار الخلافة الاسلامية نداء الدول الأوربية ، وخصوصاً فرنسا وانكلترا يشرن عليه بالوقوف ، وعدم التقدم إلى الامام ، ريثما يصله أمر والده من مصر ، وأوقفته على المخابرة الجارية بين والده والدولة العثمانية ، على تسوية الخلاف الحاصل بينهما •

فلبث ابراهيم باشا مكانه ينتظر ورود الأخبار ، فلما وردت إليه أشاع وقوع الصلح ، وحدوث الاتفاق بين الدولتين ، وأبقت الدولة بيده فتوحاته في بلاد الأتراك وسورية ، وولاية أطنه ، فعاد ابراهيم باشا عن الآستانة إلى سورية رافلاً بحلل النصر ، وساد السلام على ربوع البلاد •



الفصل السابع والمائة

في تعيين شريف باشا حاكما على سورية

انتخبت الدولة المصرية لمنصة الأحكام في سورية شريف باشا ، وهو نسيب محمد علي باشا ، وقد اتصف بالاستقامة ، وحب الفضيلة ، فقدم إلى دمشق ، وقبض على أزمة الأحكام ، وشرع في إدارتها بالعدل والانصاف ، وإنشاء دواوين ومجالس اقتداء بالدول الأوربية ، وجرى على منوالها في كل أيام حكومته •

وكان عادلاً مع صرامة وشدة ، حتى أنه كان يعاقب المذنب بأكثر ما يستحقه ، وكثيرون ماتوا تحت الضرب المبرح •

وكانت أعمال المجالس وتقارير أصحاب الدعاوي ، تدون بكل دقة وضبط ، ليس كما هو جار في سورية الآن ، ولم يكن شريف باشا مطلق

التصرف بالحكومة أو مميزاً عن أعضاء مجلسه ، بل كان كواحد منهم ، وعين يوحنا بك البحري[1] رئيساً ورقيباً أول لأعمال المجلس ، وكان الذي يوافق عليه البحري يعمل به ، والذي يعترض عليه، يرجعه إلى المجلس ينظر فيه ثانية.

وحكومة مثل هذه ، فيها خدمة أمناء منزهون ، أظهرت العدالة ، وأعطت مال قيصر لقيصر ، وعرفنا حنا البحري من الفصول المتقدمة ، وثقة عزيز مصر به ، وكيف أنه أطلق له حرية القول والتحوير في بنود الحكومة .

وقضت الدولة المصرية مدة لإدخال الإصلاح الذي رسمته أمامها إلى سورية ، للتفاوت الكائن بين ما تريد إحداثه ، وما كانت عليه البلاد سابقاً ، ولا يخفى أن الدولة الفاتحة تعاني صعوبات جمة ببسط أعلامها ، وإدخال عاداتها إلى بلاد غريبة عنها ، ولا اعتراض على ذلك .

وقد اضطرت الدولة المصرية أن تحدث ضرائب جديدة ، متباينة بتباين قوى الأفراد المالية ، وجعلت أقلها خمسة عشر غرشاً ، وأعظمها خمسمائة غرش على الفرد من الرعية ، وكان الريال العمود ، يساوي خمسة عشر غرشاً ، وأحدثت هذه الضريبة الفردية تشويشاً ، وقلقلة في جو سورية وفضاءها الواسع ، كما ترى في الفصل الآتي .



(1) كان البحري مثله مثل بطرس كرامة من رجالات الأمير بشير . انظر تاريخ ميخائيل الدمشقي : ١٤٦ .

الفصل الثامن والمائة

في ثورة الأهالي على أثر الضريبة

ابتسم وجه الضعيف للدولة المصرية ، لأنه شعر برفع حمل ثقيل كان يئن أنيناً محزناً تحته ، ولا مجير له منه ، وأصبح صوت المستغيث المتقطع يبلغ آذان الحاكم ، ولو على مراحل عديدة ، وكل من لحقه من حيف أو ضغط يجاب عليه ، ويعمل به ، وكان قبلاً منبوذاً محتقراً .

وأصبح القوي الذي جمع قواه بتفريق قوى الفقير مذلولاً ومجرداً من قوته ، والمستبد أرغم على التنازل عن عرشه ، وتساوت منزلته بمنزلة من كان يعتبره أحط منه ، كل ذلك تغلبت الدولة المصرية على نشره وتأييده ، مع ما فيه من المشاق والمتاعب ، وقد قاومت العناصر المضادة أشد المقاومة، وأعطت لكل فرد ما يستحقه،ومع ذلك فلما وضعت الضريبة الفردية قام الشعب عليها وقعد.

ولا ريب أن الطلب كان صعباً جداً على المسلمين والنصارى على السواء ، خصوصاً ، سكان القرى الفقراء الذين يؤدون للدولة الجزية عن اعناقهم ، والخراج والفيء عن عقاراتهم وأملاكهم ، فتذمر المسلمون وحسبوا الدولة المصرية تكلفهم دفع الجزية كالذميين ، ولم يفقهوا أن الدولة المصرية دولة فاتحة ، خارجة من حرب شهرتها عليهـا الدولة العثمانية ، وكلفتهـا أموالاً طائلة ، فأصبحت باحتياج كلي إلى المال ، ورد ما فقد منها ، وأبوا أن يدفعوا ثمن العدالة والحرية والتمدن ، التي أخذت الدولة المصرية في إدخاله ، ونشر أعلامه بينهم قيمة زهيدة لا تفوق طاقة الفرد منهم ، وقد فضلوا الرجوع للهمجية والذل لرؤساؤهم والاستعباد لهم ، على بذل دريهمات لاستقلالهم والتخلص من مضطهديهم ، وآثروا قرض الدولة العربية التي هب محمد علي باشا لانشائها ، واحياء تمدن العرب القديم وإعادة الدولة والخلافة إلى آل قريش ، عن مساعدتها وشد أزرها ، وهم أولى بعضدها ، فعمدوا للمؤامرة ، وخلع الطاعة ، والثورة عليها ، ورد سلطة الأتراك عليهم .

ومن الذين لا طاقة لهم بدفع الفردية من الذميين سكان حاصبيا ، لأنهم

كانوا في فقر مدقع ، ولما ورد أمر شريف باشا للأمير سعد الدين أمير حاصبيا بجمع الفردية من رعيته ، وقع في حيرة وتردد في كيفية المجاوبة عليه ، كان يعلم أن طاعة أولياء الأمور فرض مقدس ،وأقدس منه احترام صالح رعيته ، فأمر ميخائيل مشاقة بالذهاب إلى الشام وإطلاع شريف باشا على حالة الشعب المالية ، وكيف أنه يخشى إذا أجبرهم على دفع الفردية أن ينزعوا إلى شق عصا الطاعة عليه ، بالرغم عن ولائهم وتفانيهم في خدمته .

ولما حصل لميخائيل مشاقة مقابلة شريف باشا برسالة الأمير ، تنازل عن طلبه الأول إلى معدل ينوب الفرد ثلاثون غرشاً .

ومثل ذلك كان للمعلم بطرس كرامة ، معتمد الأمير بشير ، فتمكن لدى مقابلته شريف باشا من اسقاط الطلب عن ولاية الأمير إلى أربعة آلاف كيس ، واستثني من رجال لبنان خدمة الدين على اختلاف النحل ، ثم الأمراء والمشايخ ، وجعل عدد الأفراد أربعين ألفاً فقط .

أما الدمشقيون ، فلم يحسنوا الدفاع أمام شريف باشا ، فوقع عليهم من الضريبة أعظمها ، حتى بلغ معدل الفردية مائة غرش ، وترتب عليهم غرامة سنوية قدرها أربعة آلاف كيس .

وكان أكثرهم من العمال الفقراء ، لا يستطيعون دفع مثل هذه الرسوم الفاحشة ، فوقعوا في ضنك شديد ، وعمدوا إلى المهاجرة فراراً من أثقال الديون على أعناقهم ، وفرض عليهم شريف باشا دفع جانب من نفقات الحرب، كما كانوا يدفعون نفقات جنود الاتراك أيام عبد الله باشا ، ودرويش باشا ، ومصطفى باشا ، وغيرهم ممن تقدمهم من أهل المطامع .

ولو عقلوا واتحدوا عندما سنحت لهم الفرص لتحرير وطنهم ، كما فعل أهل مصر والمورة ، لكانوا تخلصوا من كل هذه الضرائب التي وقعت عليهم ، الواحدة بعد الأخرى في مدة قرن كامل ، ولكن إذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون ، وعلى المتبصر الروية وإعمال الفكرة .

* * *

الفصل التاسع والمائة
في ثورة نابلوس

قدم ابراهيم باشا بنفسه إلى اخضاع ثوار نابلوس ، وقد علم بشدة بأسهم وقوتهم ، وكان حسابه بمحله حيث لاقى منهم الأهوال ، واختبرهم بمواقع القتال ، ورأى فيهم أشد رجال سورية عزماً واقداماً فقاتلوه وضايقوه ، ولما علم محمد علي باشا بما حل بولده ، نهض لنجدته ، ولكنه لم يبلغ ساحة القتال ، لأنه تغلب عليهم بالخداع ، وأرغمهم على الاخلاد والسكينة ، وقد أسر زعماءهم ، وفي رجوعه أمر بإعدامهم جزاءاً لما كانوا عليه من الخبث والدهاء .

* * *

الفصل العاشر والمائة
في نزع سلطة الامراء والمشايخ

في طلائع سنة ١٨٣٤ بدأ شريف باشا يتفحص بنفسه مقدرة أمراء ومشايخ الجبل وسورية . وسلوكهم في وظائفهم ، فشرع بتنسيق حكومة الأقاليم ، وتحرير الشعب من سلطة الاستبداد ، وتعويده الخضوع للدولة رأساً ، وتدريبه في الاعتماد على نفسه والمطالبة بحقوقه أمام الشريعة والعدالة.

ولما شاهد الفساد ضارباً أطنابه في أنحاء البلاد ، رأى من الحكمة ، وسداد الرأي ، ضبط أموال الخراج والفيء ، ورفع يد مأموريها من مشايخ وأمراء عن مداومة هذه الوظيفة ، فمنع هذه الفئة المستبدة من معاطاة وظيفتها ، وقيد أفرادها بالشريعة الحقة ، فأخرج من يدهم سلطتهم الاستبدادية القديمة ، التي كانوا يتمتعون بها في عصر الخمول والانحطاط والاسترقاق ، ثم جعل لهم راتباً محدوداً من قبل الدولة يتقاضونه رأساً ، ورفع يدهم عن مدها إلى أموال الشعب .

وقد عزل بعضهم لسوء تصرفهم ولجهلهم الأمور المدنية الحديثة ، وعين خلفاً لهم ممن توفرت فيهم الشروط اللائقة لاشغال مركز بالحكومة ، ولا فرق عنده بين الرعية .

ولما كان الراتب الذي عينه للمشايخ والأمراء المعزولين لا يوازي عشر ما كانوا ينالونه من الفلاح المسكين ، اضطروا أن يقتصروا على المعيشة البسيطة ، بعد أن كانوا يسرفون ، ويتظاهرون بالأبهة والعظمة .

وكان عمل شريف باشا هذا مع كل رؤساء العشائر في سورية ، إلاّ الأمير بشيراً ، فإنه لم يقو على التحرش به ، لأن الأمير استحصل على استقلاله في حكومته ، من عزيز مصر وظل يتصرف بلبنان كما كان قبلاً .

على أن هذا الامتياز الذي تفرد به الأمير ، كان مجلباً لحنق شريف باشا عليه ، فبات شريف يترقب الفرص ليزيله عنه ، وكانت باكورة أعماله نحو هذا المقصد في أمراء الحرفوش ، حيث ثـلّ سلطتهم ، وقرض دولتهم من بلاد بعلبك ، وأقام مكانهم حاكماً من أهل الدربة ، وعين لهم راتباً يتقاضونه من الدولة ، ثم عزل أمراء شهاب عن حكومة حاصبيا وراشيا ، وعين لهم معاشاً فازداد غيظ الأمير منه .

وحدث لأمراء الحرفوش حكام بعلبك أنهم ثاروا على شريف باشا ، لما لحقهم من الإهانة بواسطته ، وأحدثوا قلاقل في البلاد ، وكان زعيمهم الأمير جواد ،ولم يكن شريف باشا بالمتغفل ، فبث الأرصاد وأرسل الجنود في إثره ، ولكن جواداً جعل دأبه التنقل من مكان إلى آخـر ، ولم تظفر به الجنود ، وأخيراً نزل على الأمير بشير ومعه بضعة رجال من رجاله ، وسأله ان يتوسط له لدى شريف باشا بالعفو عنه .

ولما علم شريف باشا بوجوده عند الأمير بشير ، أرسل يطلبه ، ومما زاد الطين بلة أن الأمير سلم من التجأ به ، إلى رجال شريف بعد أن سأله العفو عنهم ، وكان من شريف باشا احتقار سؤال الأمير ، فقتل الأمير جواداً ورجاله حال وصولهم إليه .

فعظم الأمر بعين الأمير ، واعتبر ذلك اهانة عظيمة له ، وبعد أن نفذ شريف باشا حكمه في الأمير جواد وأتباعه ، أرسل إلى الأمير بشير يعلمه أن لا شفيع عنده أمام مصالح الدولة ، والشريعة تقضي على كل من يعبث بها بعقاب صارم ، وليس أمام الشريعة أمير ولا صعلوك ، فهي تعامل الجميع بالسواء ، لا سيما وأن معه تفويضاً من ابراهيم باشا في إجراء العدالة بلا محاباة وإبراهيم باشا نفسه عاقب زعماء ثورة نابلس بالقتل ، بعد أن تشفعت بهم إليه ، فلا أري لك سبيلاً للملامة على منفذ الشريعة ، فكظم الأمير غيظه ، ولم يحر جـواباً .

* * *

الفصل الحادي عشر والمائة

في ثـورة النصيرية

ما فتئت الدولة المصرية تحدث في سورية تغييراً ، وتعمل على طرح عادات العشائر القديمة ، وتزيد الضرائب على الشعب شأن كل دولة في طور نشوءها ، حتى نفرّت القلوب وودّ معظم الشعب لجهله إعادة الدولة التركية مكانها ، فانتشرت هذه الروح ، وبلغ طنينها مسامع الدولة العثمانية فسرها كثيراً ، ورأت أن تغتنم الفرصة ، وكان أعظم الشعب نفوراً النصيرية ، وكان الباعث على تقوية هذه الروح في صدورهم ما يضربه عليهم المشايخ في كل مجتمع وناد ، ويكفي للشعب المسكين الذي اعتاد الطاعة لزعمائه سبباً لإيغار صدره على الدولة المصرية ، التي كانت باذلة جهدها في ترقيته وتعزيز مقامه ، مع تضعيف سلطة المشايخ عليه ، ولو استعملت في سياستها المداهنة ، وأبقت المشايخ ، وكل زعيم في مركزه إلى أن امتلكت قلوب الشعب ، وأمنت جانبه ونالت ثقته كما تجري عليه سياسة انكلترا وكل أمة مرتقية ، فلما تستوثق من الشعب وتتأكد حبه لها تقلب ظهر المجن على الزعيم المستبد ، وتنبذه ، فلو

اتخذت هذه السياسة لكانت العاقبة أسلم ، ولكنها طالما استولت على البلاد أخذت بقطع الرأس ، وأبقت الجسد تحت المعالجة ، وبما أن الشعب فطر على الطاعة العمياء لزعيمه ،فكان من أصعب الأمور عليه أن يستقل بنفسه .

وكانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس إلى المشايخ ، وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ، وكان هؤلاء يحضون الشعب على شق عصا الطاعة طمعاً بإرجاع نفوذهم .

وأول من شهر عصيانه وامتنع عن دفع الرسوم إلى الحكومة : النصيرية، فاضطرت الهيئة الحاكمة إلى الاكثار من الجند في البلاد ، وخضد شوكة العصاة ، وأرسل شريف باشا عصابة من لبنان لإخضاع الثائرين الذين اعتصموا بجبال اللاذقية ، وفازوا بالغلبة على رجال الحكومة .

ولما علم شريف باشا بما حل برجاله ، جمع فرقة كاملة من الجيش المنظم وأرسلها إلى الثوار ، وأكرههم على الطاعة والسكينة .



الفصل الثاني عشر والمائة

في إرغام الأهالي على الخدمة العسكرية

شعرت الدولة الحاكمة بحرج مركزها ، وأكدت أن دولة بني عثمان لم تزل تطمع بالاستيلاء على سورية ، فضلاً عن إثارة الشعب عليها ، فرأت نفوذها إنما تحفظه القدرة المدافعة ، فسنت نظاماً على الأهالي في الخدمة العسكرية ، ولم تحدد مدة الخدمة ، وبدأت تجند من الشعب من تجده صالحاً للجندية ، ولم ترع حرمة الكبير ولا الصغير ، فساقت المثري قبل الفقير ، ورفضت أن تأخذ بدلاً عن الخدمة ، فأزداد حنق الأهالي عليها ، لأنهم ظنوا الخدمة تدوم ما داموا أحياء ، فهاجروا التماساً للتخلص من هذا العبء

الثقيل ، إلاّ أهل لبنان لاستقلال أميرهم بحكومته ، ولم يكن يجبرهم على التجنيد ، بل كان التجنيد عندهم اختيارياً لمن يشاء ، فكان عدد من تجند منهم قليلاً بالنسبة إلى سكان المدن ، كالشام وسواها ، إذ كانت الحكومة تدهمهم على حين غرة ، وتسوقهم إلى الخدمة ، ولعمر الحق كيف كانت تنتظر تلك الحكومة أن تلاقي من الشعب المضطر إلى خدمتها ، والمرغوم على طاعتها الاستبسال في تقوية مصالحها ، وتعزيز جانبها ؟ لا نعلم .

* * *

الفصل الثالث عشر والمائة

في ثورة الدروز الكبرى

في سنة ١٨٣٦ انتشرت روح الثورة في جهات حوران ، وأول من شق عصا الطاعة فيها الطائفة الدرزية ، وكانوا على جانب عظيم من القوة والبأس ، فاجتمع على توحيد كلمتهم كل درزي علم بثورتهم ، والأسباب التي دعتهم إلى ذلك لم تكن تختلف عن الأسباب التي ذكرناها لسواهم من سكان البلاد ، فاستخف شريف باشا بهم لقلة عددهم المتراوح بين ألف وخمسمائة إلى الألفين ، وكان ابراهيم باشا متغيباً في شمال سورية ، يراقب حركات الأتراك ، فأرسل لقتالهم فرقة مؤلفة من أربعمائة وخمسين محارباً من فرسان الهوارة وعند وصولهم إلى محلة الدروز ، لبثوا ينتظرون مباشرة الثوار لقتالهم ، ولكن الدروز ظلوا في الكمين إلى أن أسدل الظلام جناحه ، وقد نام الفرسان ، فخرجوا إليهم وباغتوهم ، وأعملوا بهم السيف ، فقتلوهم عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلاّ القليل ، واستولوا على خيولهم ومعداتهم ، وعند وصول الخبر لشريف باشا جند لقتالهم فرقة ثانية من الجند المنظم عددها ستة آلاف مقاتل ، وأرسل معها المدافع ، وبقية معدات الحرب .

وكان الدروز بعد أن فتكوا بفرسان الهوارة قد لجأوا إلى عرب السلط ، وفي وصول الحملة ، وبعد قتال عنيف تغلبوا عليها ، وفرقوا شملها ، فاستولى

الرعب على العسكر المصري ، وأحجم عن مقاتلتهم ، ولا سيما في اللجا ، لأنها عسرة المسالك واسعة الأنحاء ، طولها عشرون ميلاً ، وعرضها خمسة عشر ميلاً ،كثيرة الصخور محتبكة المنافذ ، يصعب على الغريب التوغل فيها ٠

ولما انتشر انتصارهم على الحملة الثانية تقاطر إلى الأخذ بيدهم إلى النهاية بقية الدروز المنتشرة في أقطار البلاد ، ثم استأنف شريف باشا محاربتهم وإرسال الجند إلى إخضاعهم ، مرات عديدة ، وكانوا في كل مرة ينتصرون على الجيش ، ويبددون جمعه ، وأكثر الجنـد كان يفر مرعوباً منهم لسوء تصرف قواده ، وعسارة مواقع القتال ٠

فهب دروز حاصبيا وراشيا ولبنان لشد أزر إخوانهم باللجا ، ومنهم الشيخ شبلي العريان ، الذي دخل في خدمة الدولة ونال لقب باشا ، وقبل مسير العريان لنجدة دروز حوران، هجم الشيخ شبلي برجاله على حاكم راشيا المصري وقتله ، ثم تقدم إلى حاصبيا ومعه أولاد الأمير بديعة ليأخذ بثـار والدهم الأمير سعد الدين الشهابي، وكان عند الأمير سعد الدين الأمير محمود حفيد الأمير بشير ، ومعه بعض أتباعه ، ولما بلغ الأمير سعد قدوم الشيخ شبلي ليأخذ بثأر الأمير بديعة لأولاده ، جمع إليه الأمراء ، وكل من عهد به الثقة وتقدم بهم ومعه أخوه الأمير محمد إلى مركز الحكومة ، وأرسل إلى الأمير بشير يعلمه الخبر ٠

ولما وفد العريان اشتبك القتال ، وحاول دخول السراي ، وكان الأمير معززاً برجاله ، فصدهم عنها ، وأرغمهم على الرجوع بعد أن قتل منهم عدداً كبيراً ، ولم يقتل من رجال الأمير غير أخيه محمد قاتل الأمير حسين بديعة ٠

وفي ثاني الأيام بلغ العريان قدوم الأمير خليل لنجدة ولده الأمير محمود، فاركنوا إلى الفرار واعتصموا باللجا ، ولما وصل الأمير خليل إلى حاصبيا وجد أنه وصل متأخراً فعاد بولده إلى لبنان ٠

* * *

الفصل الرابع عشر والمائة

في قيام شريف باشا ونجدة ابراهيم باشا له

ظل شريف باشا يجند لمحاربة الدروز الجنود ، ويرسلها وترجع إليه بالفشل والخيبة ، حتى عظم الأمر لديه ، وبلغ فوق ما كان يتصوره ، ولما رأى أن الثوار على تضاعف قوتهم وازدياد عددهم ، وأن تعدياتهم امتدت وكثرت في البلاد ، عزم أن يقوم بنفسه إلى خضد شوكتهم ، فجرد عليهم عسكراً كبيراً وتقدمه إلى اللجا .

وكان من الدروز أنهم أظهروا الانسحاب من ساحة القتال ، وتقهقروا إلى الوراء من أمام عسكر شريف باشا ، حتى إذا فازوا بحيلتهم عليه ، وقادوه إلى المكان الذي عينوه ، أطبقوا عليه وبطشوا به ، وذبحوا منه رجالاً ذبح النعاج ، فتجدد الرعب في قلوب الجنود من بطش الدروز ، وتراجعوا عن قتالهم ، وكانت نجاة شريف باشا من أيديهم أعجوبة من العجائب الروحانية .

وقد بلغ خبر فشل شريف باشا مسامع ابراهيم باشا ، فقدم إلى الشام ، ومنها قام بعسكره إلى اللجا ، فضربهم من جهة معسكر شريف باشا ، فلم ينل منهم مأرباً لأن الرعب استحوذ على قلوب الجيش ، فعمد على ضربهم من جهة سرخد بفرسان الأكراد ، ودارت رحى الحرب بينهم ، وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله إلى أن قادوهم إلى سهل رامة ، وهناك رجعوا عليهم ، وعملوا السيف بهم ، وفتكوا بمعظمهم ، وذهب تحريض ابراهيم باشا رجاله هباء منثوراً لأنه كان ينادي ، ولا من مجيب ، ولما أدرك حالة رجاله ، وعلم أنهم باتوا يخافون سطوة الدروز ، عمد إلى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه ، فأرسل إلى الدكتور كلوت بك ،يستحضر منه محلولاً قاتلاً ، وكان هذا ناظر الصحة في سورية فرفض إجابة طلب ابراهيم باشا ، وحاول أن يمنعه من استعمال تلك الواسطة ، لما فيها من القساوة التي تشمل الحريم والأطفال معاً .

أما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة أولاً ، و الرعية ثانياً ، ولما عجز عن اخضاع العصاة ألزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني ، ألقاه بالمياه وأعلم الدروز بذلك .

ولما لم يكن للدروز ماء يستقون منه غير المستنقعات التي حوالي اللجا ، أكرهوا على ترك المكان بعد أن مات منهم عدد كبير عطشاً ، وأتوا إلى جبال حاصبيا واقليم راشيا ، وحاصروا حاكمها الأمير أفندي ، واضطروا للتسليم والرجوع إلى دمشق ، وبعد خروجه برجاله من راشيا ، لحقهم بعضهم في الطريق على مقربة من قرية ظهر الأحمر ، وفتكوا بهم بدون معارضة تذكر ، لأن الأمير ورجاله كانوا بدون سلاح .

ولما علم ابراهيم باشا بما حل بالأمير أفندي ، أرسل يستقدم الأمير بشيراً إلى ملاقاته برجاله إلى حاصبيا ، وللحال جهز الأمير فرقة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة ولده الأمير خليل ، وقامت إلى المحل المضروب تنتظر وصول الوزير .

وجعل ابراهيم باشا طريقه على الديماس ، حيث التقى بالشيخ ناصر الدين بيكة ، ومعه عصابة ألف محارب لنجدة الثوار ، فأمر ابراهيم باشا رجاله بمقاتلة عصابة الشيخ وسحق جموعهم ، فدارت الحرب مدة قتل في خلالها الشيخ وعدد عظيم من رجاله ، والتجأ بعضهم إلى تلة محاطة بالصخور العالية والاشجار الباسقة ، ولكن رجال ابراهيم اقتفت آثارهم وحصرتهم ضمن نقطة صغيرة ، وظلت تضايقهم وتفني من عددهم أزواجاً وأفراداً حتى فتكت بهم جميعاً ، ولم ينج منهم غير رجل على رواية ابراهيم ، وأربعين على رواية الدكتور مشاقة .

ولما بلغ الدروز قدوم ابراهيم باشا ، وما حل بالشيخ ناصر ، قاموا من راشيا إلى جنعم في حاصبيا بالقرب من قرية شعبة التي لا يسكنها غير اسلام ونصارى ، وأرض جنعم محاطة بجبل الشيخ شرقاً ، وجبل الوسطاني غرباً ، وهذا الجبل عسر الصعود ، وهو يفصل حاصبيا وبعض قراياها عن أرض جنعم .

* * *

الفصل الخامس عشر والمائة

في اخضـاع الـدروز

وبعد أن أضاف ابراهيم باشا انتصاراً على انتصاراته العديدة ، تقدم برجاله إلى راشيا ، فوجد العصاة رحلوا عنها إلى أرض جنعم حيث تكاثر عددهم ، والتف حولهم دروز سورية والجبل ، فضلاً عن شبلي العريان ورجاله، وأولاد الأمراء بديعة الشهابي، فأرسل إبراهيم باشا أعلم الأمير خليلاً بقدومه ، وأمره بملاقاته إلى جنعم ، وكان من الأمير خليل لدى وصول الأمر إليه أنه قام برجاله إلى المحل الذي عينه له ابراهيم باشا ، وصعد برجاله جبلاً على لحفه قريـة شويا حيث الدروز مجتمعون ، ومن كـون الطريق كثيرة النتوآت ضيقة الجوانب ، اقتضى لرجاله العبور فيها إلى القرية افراداً لا أزواجاً ، فساعد ذلك الدروز على الفتك بهم ، وشاء الأمير بعمله هذا أن يظهر مأثرة له ولرجاله أمام ابراهيم باشا ، فأمر بالصعود ، وسحق جماهير الدروز قبل وصول الوزير ، ولكن الدروز لم يساعدوه على تحقيق أمانيه ، فردوا رجاله ، وصدوهم عن الحاق الضرر بهم ، فرجع بالفشل إلى حاصبيا ، وبات ينتظر وصول ابراهيم باشا ، ولم يمض الوقت الطويل ، حتى أقبل الباشا برجاله إلى جنعم ، فعاد الأمير برجاله إلى ملاقاته ليساعده على اخضاع الثوار ، ولكن قبل وصوله كان تم لابراهيم باشا النصر ، وتبديد جماهير الدروز الكثيفة .

فأرسل الدروز الشيخ حسيناً البيطار من قبلهم ، ليطلب لهم الأمان ، والعفو من ابراهيم باشا ، وكان ابراهيم حليماً فوعده بالعفو إذا قدموا له سلاحهم ، ورجع الشيخ ومعه فرمان العفو والتأمين على حياتهم ، ورجع معه من رجال الوزير بعض المأمورين لجمع السلاح .

وخلف ابراهيم باشا الأمير خليلاً في مركزه لجمع السلاح ، وتوريده إلى الشام ، وقام برجاله إلى تلك المدينة ورجعت عساكر الجبل وأمراؤها إلى مراكزها[1] .

* * *

الفصل السادس عشر والمائة

رجوع إبراهيم باشا إلى الشام

رجع ابراهيم باشا إلى الشام بعد أن أخضع لسلطته العصاة ، وأجبرهم على احترام نظام الحكومة ، وتفرقت بقية الرجال ، ورجع الأمير والشيخ إلى مركزهما ، وفي رجوع أمراء شهاب إلى مراكزهم سولت لهم أنفسهم أن يفتكوا بأولاد الأمير حسين بديعة ، فاقتفوا خطواتهم وأوقعوا بهم ، ولما انتشر خبر قتلهم ، وبلغ مسامع ابراهيم باشا ، حنق على مقترف ذلك الجرم ، وهو أخوة الأمير سعد الدين ، وعلى أثر ذلك صدر أمره في توقيف الأمير سعد الدين ، والقاء القبض على أخوته ، ثم تقدم بنفسه بفرقة إلى اقليم البلان ليلقي القبض على شبلي العريان الذي حنث بوعده ، ولم يرع حرمة القسم ، ولما اقترب من المكان ، فرّ العريان من امامه إلى جدر بعلبك ، فتتبعه ابراهيم باشا برجاله إلى هناك ، وعندما شعر العريان أن لا مناص له ولا مهرب سلم نفسه إليه ، وطلب العفو عما صدر منه من الاساءة ، فقبل ابراهيم باشا عـذره ، وأرجعه معه إلى الشام حيث أقامه قائداً على فرقة من الفرسان[2] .

ثم أرسـل ابراهيم باشا آغا سويدان حاكماً على حاصبيا ، وهو من

---

(1) لا باس بمعارضة معلومات نصنا هذا بما جاء عند صاحب « مذكرات تاريخية عن إبراهيم باشا » ص : ٧١ـ١٠٠ . انظر أيضا الشدياق : ٢/٢١٩ـ٢٢٤ .

(2) انظر المزيد من التفاصيل لدى صاحب « مذكرات تاريخية : ١٠٠ ـ ١٠٣ » .

أصحاب العقول الراجحة والآراء السديدة ، وعلى جانب عظيم من العلم والتهذيب .

أما الأميران : خليل وبشير أخوا الأمير سعد الدين ، فقد فرا من وجه الحكومة لأنهما وقعا تحت جرم القتل ، وصارا يتنقلان من مكان إلى آخر ، وفي ذلك الوقت كانت الحكومة باثة الأرصاد على حسين الطرابلسي ، من متاولة بلاد بشارة ، لما ذاع عنه من البطش ، وعدم الاكتراث بأوامر الحكومة ، فصدف أنه التقى بالأمير خليل ، وهو خارج من الحولة بعد أن ارتكب بها جرماً هائلاً ، ولما أدرك أن الأمير خليل يريد القبض عليه ، أطلق عليه بضع طلقات فأخطأه ، وعند ذاك أطبق الأمير عليه ، وبمساعدة خادمه تغلب عليه ، ونزع سلاحه ، وأوثقه كتافاً ، وأرسله مع خادمه إلى ابراهيم آغا سويدان ، وعند وصوله إلى حاصبيا استطرد سويدان آغا مسيره إلى الشام فسر ابراهيم باشا من وقوعه بالأسر ، وأثنى على الأمير خليل الذي وهو تحت مراقبة الحكومة أتى عملاً مجيداً ، وأبدى خدمة ثمينة للحكومة ، وعلى أثر ذلك صدر أمره بالعفو عن الأمير سعد الدين وأخوته ، وارجاع ما كان لهم من الحقوق المرعية ، ثم أمر بشنق حسين الطرابلسي في حاصبيا على يد أمراء شهاب حكامها القدماء .



الفصل السابع عشر والمائة
في الراهب الكبوشي

إن العداوة متأصلة منذ القدم بين الفئة اليهودية ، والفئة الكبوشية وينسبون أسبابها إلى مراجع جمة ، لا محل إلى تعدادها في هذا المقام ، وفي أوائل سنة ١٨٣٨ كان الراهب الكبوشي الطلياني الأصل متجولاً في شوارع المدينة يمرض مريض الجسم والنفس ، وفي وصوله إلى حارة اليهود . كان ذلك النهار هو آخر نهار من حياته ، ومما تأكد للحكومة بعد عناء البحث والتفتيش أن اليهود فتكوا به وبخادمه ، فقبضت على عدد كبير منهم وألقت عليهم عذاباً مبرحاً ليطلعوها على المجرم، فتقاصه والبريء فتطلق سراحه ، ولم تنجح لأن اليهود مشهورون بالكتمان والمحالفة .

واجتهد القنصل الفرنساوي في البحث عن الجاني ، والبس القضية حلة دينية ، ولم يكن من اليهود غير الافراط بالدفاع عن المتهمين ، ولما زادت الشبهة عليهم اشتد كدر الأهالي منهم ، وبدأوا يضطهدونهم اضطهاداً جارحاً ، وعادة اليهود مشهورة في تفانيهم على مساعدة المذنب منهم وتبرئة ساحته ، وبعد العذاب الصارم أقر أحـد المتهمين بالجريمة ، بعـد أن اعتنق مذهب الاسلام ، احترازاً من ثورة اليهود عليه ، وصرح للحكومة كيف قتلوا الراهب وأخذوا دمه ، فطلب شريف باشا تحضير الدم ، فأنكروا وجوده معهم ، انما قالوا بوجوده عند موسى الحلاق ، وهذا أصر على النكران إلى أن وصل إلى الشام أحد يهود الانكليز ، واشترى حرية المتهمين من محمد علي باشا بستين ألف كيس .

وشريف باشا لم يكتف بقرار المجرمين ، بل سار إلى المكان وتكشف الصدق فيه عندما شاهد آثار الراهب ، وذلك بعد اعتراف الحلاق بحدوث

الجرم في بيت داود الهواري ، وكيف خادمه أرسل وراءه ليساعده على اخفاء الجثة ، وعهد بالدكتور ميخائيل مشاقة فحص الرفات ، وتحقيقها إذا كانت تطابق على الأصل[1] .

* * *

الفصل الثامن عشر والمائة

في فصل حلب عن الشام

في أواخر سنة ١٨٣٨ أرسلت الدولة المصرية اسماعيل بك حاكماً على حلب مستقلاً عن حكومة الشام، وبذلك تصريح كاف بفصل حلب وما جاورها عن ولاية الشام ، والأسباب التي نرجحها في إحداث هذا الانفصال ، هي قريبة لذهن القارىء أكثر مما نظن ، نعني الثورات التي حدثت في البلاد ، والقلاقل التي ذهبت براحة الأهالي والتعدي والحروب التي أفنت معظم الرجال ، كانت كلها محصورة بإدارة واحدة ، وهي الشام ، لذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ أوامره على جوانب البلاد ، وبالرغم عن الأبعاد الواقعة بينه وبين أطراف الأقاليم وحلب على كونها بعيدة عن الشام وسكانها مع سكان القرى المجاورة لها كثيرو العدد يحتاجون إلى حكومة تدير شؤونهم ، وتوفر لهم أسباب الراحة والأمن ارتأت الحكومة الرئيسية أن تفصلها عن ولاية الشام لتوفير السلام في قضائها[2] .

---

(١) كان اسم الراهب « توما » وتم قتله بغية أخذ دمه لممارسة طقوس دينية خاصة أخذ بها اليهود المتطرفون ، ولفهم هذا ولمزيد من التفاصيل ، انظر طقوس القتل عند اليهود ـ مترجم عن الروسية ـ ط٠ دمشق ١٩٨٠ · الكنز المرصود في قواعد التلمود ـ ط٠ دمشق ١٩٧٩ : ٩٥ ـ ١٣٥ · مذكرات تاريخية : ١١٣ ـ ١٢١ ·

(٢) انظر «مذكرات تاريخية» : ١١١ـ١١٢ ، وعارض روايته برواية نصنا هذا ·

الفصل التاسع عشر والمائة

في قدوم الجنود التركية الى سوريا

وفي ذات السنة أرسل السلطان محمود فرقة متوفرة العَدد والعُدد لمحاربة الحكومة المصرية في سورية وإخراج البلاد من سلطتها ، وكأنه أدرك عجزه عن اخراج المصريين منها بطريقة أخرى ، وإذ رأى أن إبراهيم باشا دوخ البلاد ، وأطفأ الثورلت التي أضرمها في صدور الاهالي ، وأخضع الثوار وأرغمهم على طاعة الحكومة ، وأنه كل يوم يزداد قوة وحكومته ثبوتاً وتقدماً واعتباراً ، حتى أصبحت الدولة المصرية بالمركز الأول بين دول الأمم المرتقية •

وخشي على دولته من مخالبها ، فرام التخلص منها واضعاف سلطتها ، لذلك أرسل فرقة عظيمة الشأن لتقضي على دولة محمد علي باشا في سورية ، وليكن حال الأهالي بعد ذلك شر الحالات •

وعندما بلغ إبراهيم باشا قدوم الحملة إلى سورية ، جمع رجاله وأمر الأمير بشيراً أن يرسل فرقة صغيرة من رجاله إلى الشام ، لتحافظ على الأمن في أثناء غيابه عنها ، ولم يتهامل الأمير في إجابة الطلب ، كما هو شأنه دائماً مع ابراهيم باشا ، فأرسل ألف وخمسمائة محافظ بقيادة ولده الأمير خليل الذي نزل بالمرج خارجاً عن دمشق •

أما إبراهيم باشا فنهض بجنوده إلى حلب ، فإلى حدود سورية وعسكر برجاله على حدود بلاد الأتراك ، وعزم أن يفاجيء الحملة التي كانت قادمة إليه قبل أن تدخل بلاده ، وكان ملتقى الجيشين في أرض نزب من أعمال آسية الصغرى ، ودارت رحى الحرب واشتد القتال وكاد النصر يخفق فوق الجنود التركية ، إلاّ أن شجاعة ابراهيم باشا وحذقه في الفنون الحربية ، ومقدرته على القيادة وتعوده خوض معامع الحرب أعواماً طوالاً أبت الظروف إلاّ أن تساعده ، وتكفل له النصر على خصمه المضاعف العدد ، لذلك أسفرت الواقعة عن فشل الجنود التركية وتفريقها أيدي سبــأ ، وغنم ابراهيم باشا الذخيرة

ومعدات حربية لا سبيل لإحصائها ، وقبض على أوراق من جملتها فرمان من الدولة التركية إلى علي آغا تعينه فيه حاكماً على الشام .

ولما اطلع ابراهيم باشا عليه ظن سوءاً في علي آغا ، وافتكر أنه يتآمر على حكومته فأرسل إلى إسماعيل بك والي حلب أن يقوم إلى الشام ، ويبلغ شريف باشا أن يلقي القبض على علي آغا المشار إليه تحت تهمة المؤامرة ، وفي حال وصول اسماعيل بك وابلاغه شريف باشا أوامر ابراهيم باشا ، قبض على المتهم علي آغا ، وكان شريف باشا يحسد علي آغا على وجاهته ، ومقامه الرفيع عند ابراهيم باشا ، لذلك أمر بمحاكمته بالمجلس العالي ليتمكن من اجراء غاياته ، فعقد بضع جلسات ألقى بها شريف باشا التهم المختلقة ، وعلي آغا يبرر ساحته ويدفع سهام الباشا عن آذيته ، والذي ساعد علي آغا في تبرير ساحته سمعته ونزاهته المشهورتان عند الخاص والعام .

ولكن إذا كان الحاكم مدفوعا إلى تنفيذ غاية يظن وراءها منفعة لحكومته أنفذها ، ولو كان في تنفيذها تذنيب البريء ، وكان شريف باشا فضلاً عن حبه في تنفيذ غاية ابراهيم باشا بالمتهم ، حاقداً عليه ، كما ألمعنا لذلك ، فأراد أن يعجل في محاكمة علي آغا ، ويسد الطرقات عليه ما أمكنه القانون ، وفي ثاني الأيام لم يفسح المجلس لعلي آغا مجالاً للدفاع عن نفسه ، بل حكم عليه بالاعدام وأعدموه قبل أن يسمع مدافعته ، فقطعوا رأسه وتركوا جثته مطروحة على الطريق كل ذلك النهار ، وكان الأسف عليه كثيراً لدى عموم سكان المدينة على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، لما كان له من المنزلة لنزاهته وشدة اخلاصه وصداقته للمصريين ، وخصوصاً ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا ، ولم تكن الأهالي تقدر له هذه الآخرة ، وهذا الموت على يد قوم اشتهرت صداقته لهم ، وعمت أطراف البلاد ، ولكن قل إن هكذا صاحب السلطة ، متى شعر بنمو أحد المقربين يعمل على قتله ، ولو كان أعز الناس عنده ، خوفاً منه على السلطة التي بيده ، وهذه الخلة موجودة بكل عقل بشري ، فالسلطان يبذل جهده ليحصر نفوذ وزيره ، ضمن دائرة صغيرة ، وكذلك

الوزير يعامل من كان تحته منزلة وأقرب منه مطعنا ، وعلى هذا النحو يستبد القوي بالضعيف إلى أن ينفرط عقد العصبية بينهم ، وتضعف حماة الدولة لما ينمو فيها من الشقاق والضغائن ، وتقبل إلى الهرم تدريجاً ، ومحبـة الذات سليقة بالانسان والحيوان على السواء .

وفي هـذه الاثناء بعد رجوع ابراهيم باشا من محـاربة الأتراك توفي السلطان محمود ، وخلفه ولده عبدالمجيد على عرش الخلافة ، ومن أعماله الأولية شأن كل حاكم جديد أنه جاهر بمعاملة الكبير والصغير الغني والفقير بالسوية ، وتعزيز جانب الحق ، وزهق الباطل إلى آخر ما هنالك من المواعيد المطلوبة من كل حاكم ينتصب جديداً ، وكأن السلطان عبد المجيد ما غفل عن أن يعد في مداومة الخطة التي سار عليها والده ، وتركها له ليداوم سيره فيها إلى أن يتم له الظفر ويعيد سلطته على سورية كما كانت سابقاً ، ولذلك كنت ترى في رجوع إبراهيم باشا إلى الشام أن الدولة التركية ما فتئت تثير عليه الخواطر ، فلا يخمد ثورة حتى تقوم أخرى ، وهكذا قضى المصريون معظم أيام دولتهم في سورية بالحروب والقلاقل .

* * *

الفصل العشرون والمائة

في مآثر الحكومة المصريـة

إن مآثر الدولة المصرية العربية كثيرة في سورية نأتي على ذكر بعضها : منها الاصلاح التي أدخلته في المستنقعات التي كانت مجمع الأقذار ، وباعثاً قوياً على تفشي الأمراض الوبائية في دمشق ، وكانت الأقذار تتراكم في خندق وراء السور على جهة الباب الشرقي ، وتفوح منها رائحة قتالة تحدث أضراراً بسكان تلك الناحية عظيمة ، ولدى الفحص والتدقيق أصدرت الحكومة أمراً بفتح خليج تصرف به الأقذار على نفقتها ، ولم تقبل مساعدة الأهالي لهـا لاعتقادها ، وهو الأكيد ، أن الحكومة مطالبة بخدمة الشعب ومراعاة راحته ،

والشعب مطالب بانصافها ، وهكذا تمت العمل ، وأراحت الأهالي من تنسم الروائح الكريهة ، وخفت بذلك ذرائع الأمراض •

ومن مآثرها أنها وضعت حـداً لأسعار اللحوم ، فحطت من استبداد أصحاب المجزرة ، ثم عينت لجنة من قبلها ، وشرعت بذبح الأغنام وبيع لحمها بأسعار متهاودة ، فأرغمت بائعي اللحوم على الاقتداء بها ، ومن خالف القانون كانت تغرمه جزءاً لاختراقه حرمة النظام •

ومن مآثرها العدل والقسط بالرعية والمساواة بين طبقات القوم ، الرفيع والوضيع على اختلاف العقيدة ، كانت تعاملهم أمام العدالة على السواء ، وكانت لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، ولا كانت الذنوب تباع وتشرى ، ولا كان هناك مجلس بلدية تصرف حاصلاته على خصوصيات خدام الحكومة، مثل شراء مفروشات لسكنى الوالي ، ومجالس الدعاوي والادارة ، وبقية الدوائر البالغة خمسين محلاً ، وثمن الزيوت لإنارة محلاتها ، ولا أكلاف وليمة يولمها الوالي أو الحاكم لزائر عظيم الشأن ، كما كانت تفعل على أيام دولة بني عثمان ، كل ذلك وأكثر منه ، على مثاله أحدثت دولة محمد علي باشا في البلاد ، ومع كل ذلك ظل الشعب يسومها العداوة ، ويناقشها الحساب لأنه اعتاد أن يكون محكوماً لا حاكم نفسه ، عبداً • لا حراً •••

* * *

الفصل الحادي والعشرون والمائة

في مراجع الدولة الانكليزيـة

دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور في سورية على ما رويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال ، شاء ربك تغييراً في البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ،

ونحن في مركز لا يخول لنا تكذيب الخبر أو تصديقه فنرويه ، كما جاءنا ، وعلى القاري أن يحكم لنفسه •

دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً ، واسمه الحقيقي وود ، كان ترجماناً لقنصل دولته بالآستانة ، وأصبح قنصلاً في تونس بعدئذ •

وأظهر في باديء الأمر ميلاً غريباً إلى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على أمياله لدرس أحوال البلاد ، ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقادة وشاحاً أعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ، ولا مشاحة أن دولة الانكليز أكثر الدول استعماراً وكأنها أوجست خيفة من الدولة المصرية ، التي مع حداثة نشأتها أصبحت في مصاف الدول المرتقية ، وكأنها لحظت أن محمد علي باشا يطمع بضم البلاد إلى مبايعته بالخلافة ، وإحياء الدولة العربية القديمة ، وإن ارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظيم أحوال الرعية ، قامت على أساس العدل ، وجارت به الدول المتمدنة ، ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا نابليون مصر ، بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها في الاستعمار ، وتقف بوجهها حاجزاً منيعاً لاضعاف الشرق الأدنى ، فرامت مقاومتها قبل أن يقسو ضلعها ، وأدركت عجز الدولة التركية عن إيقاف نموها وارتقائها ، فزادت ميلاً إلى المداخلة ، ولذلك أرسلت رجلها الذي ذكرناه ، والذي أخذ لـه استاذاً لتعليم اللغـة العربية الخوري ارسانيوس الفاخوري ، فكان يدرس عليه ، ويلقي بذور الشقاق في قلوب الأهالي ، ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية بوقت واحد ، وجعل مركزه جبل كسروان ، ولم يمض الوقت على وصوله إلاّ انتشر خبر اتفاق الدولة الانكليزية والنمساوية والتركية ، على الدولة المصرية وطردها من سورية قبل أن تتأصل فروعها وينمو ضلعها ، ويرغموها على قبول مصر بلاداً لحكومتها ، وقررت إرسال أسطول كبير إلى مياه بيروت وابراز اتحادها إلى العمل •

* * *

الفصل الثاني والعشرون والمائة
في وصول الاسطول الى مياه بيروت

أما الدولة المصرية ، فلم تكن غافلة عن هذه الحركة العدائية بل كانت متربصة تراقبها ، بعين ساهرة ، وقد خدعتها فرنسا لأنهـا وعدتها بالمساعدة الدفاعية ، وأخلفت وعدها عندما سألتها الابرار به ، ولو كانت البلاد بأهلها على الوئام والسكينة ربما برزت بجحافلها وصدت الدول عن تنفيذ مأربهن ، ولذلك عندما وصل الاسطول العثماني إلى مياه بيروت ، وصلت معه أساطيل الدول المتحدة، وعرضن عليها شروطاً عقيمة، تأنت في الجواب عليها، والشروط التي اقترحتها الدول هي بقاء مصر لمحمد علي باشا وذريته ، وأن يجعل له أسطولاً محدود القوة ، وجنداً محصور العدد لا يقبل الزيادة ، وأن يدفع للدولة لقاء استقلاله بمصر ستين ألف كيس سنوياً ، ويرجع لها شبه جزيرة العرب وغيرها من فتوحاته ، وأن يبقى في سورية مدة حياته فقط ، وكلها تشف عن إشهار الحرب أكثر من إلقاء الشروط ، وخصوصاً الدفع عن ثمن استقلال مصر الذي يرجع استقلاله إلى أكثر من ربع قرن ، وأرفقن هذه الشروط بموعد للمجاوبة عشرة أيام ، وإن مضت المدة ، ولم يحر جواباً تؤخذ منه حتى مصر .

فرفض محمد علي باشا مطالب الدول ، لاعتماده على دولة فرنسة ، وما درى مكيدة الانكليز ، أما إبراهيم باشا فعندما تحقق ما دبره عليه جواسيس الانكليز ، خصوصاً المستر وود ، وأن أهل كسروان على وشك اشهار عصيانهم علم أن الأمر جلل ، ووراء الأكمة ما وراءها ، فترك شريف بدمشق ، وأمره أن يقبض على قناصل الدول الموجودين في المدينة إذا حدثت الحرب ، وقدم إلى لبنان ، ثم وجه يوحنا بك البحري إلى الأمير بشير يقيم عنده عيناً عليه ، وطلب من الأمير أن يرسل له حفيده الأمير مجيداً الباسل ليذهب معه لضرب عصاة كسروان ، وتقدم بطليعة اثنى عشر ألف مقاتل إلى محل العصاة ، ودام

القتال أياماً ولم يحصل على نتيجة مرضية ، بل تغلب العصاة على جنده مراراً وهي المرة الأولى التي ذاق بها إبراهيم باشا طعم الانكسار[1] .

وكان من قنصل الانكليز الدمشقي أنـه أرسل روفائيل مشاقة سراً للأمير بشير يخبره بما قررت الدول عليه من إجبار المصريين على الجلاء عن سورية عاجلاً أو آجلاً ، وينصح له أن يسلم أو يلوذ لجانب الدولة التركية ، وكأنه يريد أن يفهم الأمير وجوب سحب قوته من قلب الحكومة المصرية ، ولا مراء إن الانكليز أقوى الشعوب دهاء وأكثرهم حيلة .

وقدم وفداً إلى الأمير من قبل قائـد العمارة الانكليزية ، يطلب منـه المواجهة ، فأرسل اليه ابراهيم مشاقة سراً عن بحري بك .

وعندما قابله أرجعه إلى الأمير ومعه هذه الرسالة .. « اعلم يا أمير لبنان أن سورية كلها أصبحت تحت إرادتي ، والمصريون لا بد من اخراجهم منها ، ولو كلفونا أموالاً ورجـالاً تفوق الحصر ، فاخلص لك النصح أن تقف بجانبنا » .

ولما كان الأمير على جانب عظيم من الرزانة والتأني ، لم يحر جواباً ، وظل يظهر ولاءً لمحمد علي باشا محافظاً على مقامه عنده .

* * *

(١) حدث هذا سنة ١٨٤٠ ـ انظر « مذكرات تاريخية » : ١٢٣ ـ ١٢٧ .

الفصل الثالث والعشرون

في لغط القوم عن الحرب

لا مشاحة أن وجود الأسطول الحربي في مياه بيروت أحدث زعزعة عمومية في البلاد ، واضطراباً في الشعب ، وأرجف البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكثرت الاجتماعات وعقد المجالس في المدن والقرى، وأصبح الشعب ينام ويقوم ولا هم له غير المباحثة في الحرب ، وتخمين نتيجتها ، ومع أن شريف باشا انتبه لقلقلة الشعب ، فحظر عليه التكلم وهدد بالقتل كل من تحدث بالحرب ، وكان الشعب يزداد اشتياقاً إلى المفاوضة ومبادلة الآراء بصددها ، وأعدم شريف باشا غير واحد اشتبه بخرقه النظام .

وحدث أن قنصل دولة النمسا مرلاتو ، زار الدكتور مخائيل مشاقة في بيته ، ودار بينهما الحديث الآتي نرويه عن مشاقة :

مشاقة ــ من الناس من يفضل أكل رأس السمكة قبل ذنبها ، ومنهم من يشرع في ذنبها حتى إذا وصل رأسها سهل عليه فحصه ، وتطيب بأكله ، والذي أراه من الدول الراسية أساطيلها في مياه بيروت أنهن يقصدن أخذ سورية من الدولة المصرية ، من أضعف جانب فيها ، حتى إذا أجهزن عليه تحولن إلى المكان الأقوى ، وبيروت لا تحسب مدينة دفاعية بالنسبة إلى عكا ، فإذا امتلكتها أولاً ، وعكا ثانياً ربما كان ذلك افضل لهن وأبقى .

القنصل ــ وهل تفضل هذه الطريقة ؟

مشاقة ــ وكثير من القوم يفضلون تفضيلي .

القنصل ــ وماذا تظن تحتمل عكا نار الانكليز الآكلة ؟

مشاقة ــ ان ابراهيم باشا حاصرها سبعة أشهر قبل أن تمكن من الدخول إليها ، ولم تكن حاميتها وحصونها كما هما عليه الآن .

القنصل ــ مسكينة هي الدولة التي تعادي الدولة الانكليزية •

مشاقة ــ ولكن عكا أصبحت معروفة بمناعتها عند سائر الأمم ، وكم رجع عنها بالفشل من القواد المشهورين ، وزد على ذلك فابراهيم باشا ضاعف قوة حاميتها ، ومناعة أسوارها •

القنصل ــ وهل تظن الدول غافلة عن ذلك ، أو أحد منها يجهله ، ومع معرفتنا بما أضيف إليها أرجح لها الثبوت أمامنا بضع ساعات •

وعند ذلك لحظ مشاقة وجود نسيب البحري بك ، قدم من لبنان إلى الشام حديثاً ، فأمسك عن الخوض مع القنصل ، فأرسله إلى يوحنا البحري بما وقع له من الحديث مع القنصل ، وفي ثاني الأيام عاد الرسول إليه يطلب حضوره ، وعندما قابله قص مشاقة عليه حديث القنصل ، فسأله بحري أن يستكشف منه عزم الدول ، وهل يحاربن مع الأتراك ضد الحكومة المصرية •

وفي ذلك المساء حضر القنصل إلى بيت مشاقة كعادته ، ولم يمهله مشاقة طويلاً حتى كاشفه الحديث قائلاً : لم أزل افكر في قولك عن ثبوت عكا بضع ساعات بالأكثر أمام مدافع الدول وأخصهن الانكليز ، فهل أنت واثق أن الدول جاءت للدفاع عن مصالح قومها القائم بيننا ، أم لتساعد دولة بني عثمان على محمد علي باشا ؟

القنصل : إن دولة الانكليز ، ودولة النمسا دولتان محاربتان مع الدولة التركية ، انما فرنسا تلزم الحياد كأنها قدمت لتشاهد فشل حليفتها وانكسارها •

ولما أنهى ميخائيل مشاقة إلى البحري كلام القنصل المتقدم ، ظهر عليه الكدر ، وقال ساخطاً على دولة فرنسة لالتزامها الحياد ، ولولاها لما كان محمد علي باشا رفض مطاليب الدول ، واستطرد حديثه عن الحرب وما تجلبه من الويلات على البلاد ، وكان مشاقة قد أنس ارتياحه إلى المحادثة فقال : إن بونابرت الذي فتح العالم وأزعج ملوكه عجز عن عكا ، مع أنها كانت بسور

واحد وداخلها الجزار ، الذي بالكاد تضاهي قوته قوة فرقة من الجيش المصري المعتاد على الحروب الهائلة ، وكيف الآن وقد أصبحت يحوطها سوران ، وداخلها جند ابراهيم باشا الباسل وليس جند الجزار الخامل .

فأجابه بحري بك : إن الذي أعجز نابليون عن فتح عكا ليس مناعة سورها ، ولا بسالة حاميتها ، بل قوة الانكليز التي صدته عن إرسال سهمه ذي الحد المرهف إلى قلب حاميتها ، ثم انقلاب الجمهورية الافرنسية عليه ، وقطعها عنه المدد والنجدات ، وتعمدها إهلاكه في هذه البلاد ، ولذلك اضطر للانسحاب عن سور عكا ، والرجوع إلى بلاده قبل أن ينال أربه ، وإلا فما هي عكا ومناعة سورها أمام قوات الدول الحية .. ولو كانت الدولة التركية خصمنا لما اكترث لها أفندينا ، وقد سمعته مراراً يقول : إن نساء المورة تفوق الجنود التركية بسالة وإقداماً ، والأنكى المهم أنه يلزمنا قتال عدونا الداخلي قبل الخارجي ، وها إن موارنة شمال لبنان ثاروا علينا ، وجحدوا النعمة التي متعهم بها أفندينا ، وأنكروا على حكومتنا أتعابها عليهم ، وكيف أنها ساوتهم بالمسلمين ، الذين كانوا يضطهدونهم ويسومونهم أنواع الذل والخسف والعبودية ويستحلون المحرمات ، فقاموا علينا يريدون قتالنا ، وارجاع عبودية الأتراك على أعناقهم لتعود عليهم سلطة مشايخهم المستبدين وأمرائهم الناقمين ، فيعملون على ذلهم وإثارة الفتنة بينهم ، وترجع حالتهم إلى شر مما كانت عليه من الضغط ، والحق يقال إن رجعت الدولة التركية إلى سورية ، سوف تزيد معاملتهم صرامة ، ويحل بهم الندم ، ولات ساعة مندم . فقال له مشاقة : أتسمح لي أن أبدي رأيي ، واصرح بأفكاري في هذا الصدد ؟ .

فقال له بحري : قل ما يجول بخاطرك بكل حرية واخلاص ، وخصوصاً عن أحوال لبنان لأنه حصننا المنيع ، وله عندنا أهمية تفوق عكا وحراجة مركزها .

فقال مشاقة : من المعقول والمنقول عن السلف أن الدولة الفاتحة إذا لم تحسن سياستها في البلاد ، وتحافظ على عادات أهلها ، وتراعي نظامها ، ولا

تحدث بها تغييراً فجأة ، لا بد أن تلاقي مقاومة عنيفة تضعف قوتها ، وتزيل سلطتها ، إن لبنان الذي كان يدفع للدولة ألفين وثلثمائة كيس ثمن استقلاله ، أصبح هو يدفع لحكومة مصر ستة آلاف وثلثمائة ، ولم تكتف الدولة المصرية بهذه المضاعفة ، بل شرعت بتجنيد عساكرها من رجاله الذين أفنتهم الحروب ، حتى كادت تخلي بيوته من السكان ، فترملت معظم نسائه وتيتم جل أطفاله ، وعلاوة على ذلك ، كانوا يعتاضون عن هذه الضحايا الثمينة فقراً وجوعاً ، وعيالهم بكاءً ونوحاً مدة غياب رجالها ، وكما لا يخفى ان اهالي الجبل أفقر سكان سورية قاطبة وليس لهم من موارد الرزق سوى ما ينتظرونه من موسم الحرير لسد رمقهم ، نعم إن موسم الحرير يبلغ ألف وخمسمائة قنطار ، ولكن تسعين بالمائة منـه يذهب إلى الأمراء وإلى المشايخ والرهبان وبعض سكان المدن الكبيرة مثل بيروت وخلافها ، بينما عدد الشعب ينيف على ثلثمائة ألف لا يبقى له من الموسم الذي هو مورده الوحيد غير عشره فتأمل ، وزد على ذلك إن أرض لبنان لا تصلح للحراثة ، كأرض الشام وحمص وحماة ، لذلك ترى عدداً كبيراً منهم يعولون على خدمة الأمراء والأديرة لتحصيل معاشهم الضروري ، ثم أي صاحب عشيرة أبقته الحكومة المصرية في منصبه حاكماً مستقلاً كما كان عليه قبل احتلالها ، ولم تهن شرفه أو تنزع منه ولايته التي كان يحسبها ملكاً شرعياً ، نعم إن الأمير بشيراً بقي في مركزه مستقلاً في حكومته قبل الاحتلال وبعده ، ولكن الزيادة التي ألقتها عليه كانت تزيد عن ثمن هذا الاستقلال، ومع ذلك فإنها أهانته واسقطت من حرمته عند كافة سكان البلاد في قتلها من استجار به ، وأهالي سورية ولبنان خصوصاً يقومون على طاعة رؤسائهم ، إنما يختلفون عن أهالي مصر ، إنهم لا يخضعون إلا لأمرائهم ومشايخهم ، ورجال الدين ، ولا يعرفون الطاعة للحكومة رأساً ، وقد أسرعت الحكومة في استعبادهم وتجنيد أفرادهم في خدمتها ، والأنكى من ذلك أنها لم تحدد لهـذه الخدمة وقتاً معلوماً ، كـل هذه الأمور وأمثالها أوجبت بغض الاهالي للحكومة الحاضرة، مع أن المتبصر يرى العدل بزغ نوره في جو سورية

منذ انتشر العلم المصري فوق ربوعها ، ولكن إذا كان الشعب قاصراً عن إدراك الحقيقة ، فمن الأفضل اصلاحه ، وتعويده على قبول الاصلاح تدريجاً .

وسكان شمال لبنان كانوا يميلون إلى مقاومة الأمير بشير قبل الاحتلال ، وفي سنة ١٨٢١ أثاروا عليه فتنة كبيرة ، وكان رجال الدين سبب حدوثها ، وهي تعزى إلى غبطة البطريرك لأنه كان حانقاً عليه كما يقال .

أما جنوب لبنان إذا لم يتدارك أمره فسوف يقتدي بالشمال ، ويأخذ العدوى منه ، وسكانه يقدرون بنصف الأهالي وهم على جانب عظيم من القوة وشدة البأس ، يكفيه قوة ما تسعى وراءه المشايخ من ايجاد صلة ودادية بينه وبين الدروز آل جنبلاط وعماد ونكد المنفيين بمصر ، فإذا عاد هؤلاء واستمالتهم إليها ، كان لها في الجنوب قوة تضاهي قوة الشمال والله أعلم ، ولم يحر بحري بك جواباً لأنه أدرك الصواب في كلام مشاقة هذا[1] .

* * *

الفصل الرابع والعشرون والمائة

في ضرب مدينة بيروت

ولما مرَّ الوقت المعين ولم يجاوب محمد علي باشا الدول المنتظرة قبول اقتراحها عليه إلاَّ بالرفض ، أشهرت عليه الحرب ، وبدأت بضرب مدينة بيروت ، ولم تكن المدينة دفاعية فاستولت عليها بوقت قصير ، وعندما انتشر خبر ضرب مدينة بيروت أرسل ابراهيم باشا يأمر شريف باشا أن يمنع قناصل دولتي الانكليز والنمسا من المداخلة والمخالطة ، ويقيم عليهما الرقباء ، ولكن هذا الأمر على ما فيه من المضايقة لم يأت بالفائدة المطلوبة ، لأن المخابرة كانت متواصلة مع دروز حوران والدول بواسطة ترجمان القنصل الذي وقف

---

(١) هذه شهادة وثائقية لا تبين مدى ادراك أصحاب أصول مواد كتابنا هذا ، فحسب بل توضح قصور سياسة ادارة محمد علي باشا في بلاد الشام وسبب اخفاقها .

ميخائيل مشاقة على أعماله ولم يشهره، وكان لخبر اشهار الحرب على الحكومة المصرية وقع حسن فيقلوب عصاة كسروان ، فتجددت قوتهم وتضاعفت عزيمتهم على مقاتلة ابراهيم باشا ، وتفريق عساكره ، وقد أرسلت لهم الدولة التركية سلاحاً ومدتهم بفرقة من جنودها عن مدينة جونية ، وعند مضاعفة عددهم وعددهم دحروا الجند المصري ، وأرغموه على الانسحاب ، ولم يفت إبراهيم باشا أنه أصبح يقاتل الدول فضلاً عن العصاة ، لأنه شاهد الجند المنظم ، واستطلع سلاحه ، فرأى الانسحاب أولى ، والذي غره بذلك ظنه أن العصاة يلحقون به إلى غربي البقاع حيث نزل بعسكره ، ولكن العصاة لم يبرحوا مكانهم(١) .

* * *

الفصل الخامس والعشرون والمائة

في نفي الامير بشير

وبعد أن استولت الدولة التركية على بيروت ، تقدمت إلى صيدا واستولت عليها ، ومن هناك أرسلت في طلب الأمير بشير لتجدد له أيامه على حكومة الجبل ، ولما وصل الأمر لحاكم لبنان افتكر أن يستحضر الأمير مجيداً من عسكر ابراهيم باشا ، فأرسل إليه علماً وبات ينتظر وصوله ليقدم وإياه إلى صيدا ، ثم أمر أندراوس مشاقة مدير الخزينة بإعداد ما توفر لديه من المال ، فوجد في الخزينة أربعة وستين ألف ليرة ، فأخذ الأمير منها بعضها ، وأبقى البعض الآخر ليرسله إلى البطريرك ، كأنه علم بما سيصيبه ، فرغب في أن يستميل عضداً كبيراً .

أما الأمير مجيد فلم يتمكن من الحضور حالاً ، فاضطر الأمير بشير أن يؤجل ميعاد قيامه إلى صيدا لليوم التالي ، وعندما حضر قام بحاشيته لمقابلة

---

(١) انظر مذكرات تاريخية : ١٢٦ ـ ١٢٨

والي صيدا حسب إشارته ، فاحتفل خالد باشا بقدوم الأمير ورحب به عند أول وصوله ، ولكنه انقلب فجأة من الترحيب إلى المعاتبة ، وجعل له عذراً في تأجيل وصوله إلى صيدا ، كما وعد أولاً فأبدى الأمير عذره الواضح ، وأدعمه حجة دامغة ولم يفلح ، وأخيراً عرض له خالد باشا أن يختار مكاناً ليس تحت سلطة حكومة مصر ليرسله إليه فيقضي بقية أيامه فيه ، فاختار الأمير مالطة التابعة لدولة الانكليز ، وطلب مهلة لإعداد شؤون رحلتـه ، فأمهله وأرسل له البطريرك كاهناً لخدمته ، الخوري نقولا مراد ، أو بالأحرى جاسوساً لأعماله في منفاه ، وبعد أيام قام الأمير بحاشيته إلى مالطة[1] .

وجدير بنا أن نبسط للقارىء أعمال رجل لبنان العظيم في مدة حكمه ، إن الواقف على تاريخ لبنان لا بد أن يوقفه التمييز بين هذا وذاك ، لما يلاحظه على أعمالهم المختلفة ، والأمير بشير الذي تولى حكومة الجبل من ١٧٨٥ إلى ١٨٤٠ ، لا بد أن يعتري الباحث في أعماله العجب ، لأنه كان يظهر القوة من حيث لا يحتاجها ، ويظهر الضعف في مواقع تلزمه القوة ، قد كان للأمير أحوال سهلت له أن ينشىء دولة مستقلة لو تروى ، إذ توفرت له القوة والوجاهة ، وأجمعت القلوب على إهابته والاستبسال في مصالحه ، وكانت ولاة الأمور تعتمد عليه في حل المعضلات ، أهالي سورية عموماً ، والجبل خصوصاً تفتخر به وتتباهى ببسالته وكرم أصله .

وكان شجاعاً مقداماً ، وقائداً محنكاً ، وسياسياً داهية ، خـدم الجزار بكل أمانـة ونشاط ، وخدم خلفه وحفيده مثـله ، وخدم الدولة التركية ، والدولة المصرية ، وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها ، وكان صادقاً إذا وعـد ، أميناً على واجبـه فعل كل ذلك ، ولكنه لم يخدم وطنـه خدمة تذكر ولو صرف قواه في منفعة وطنه وتعزيز مقامه لحفظ له الاستقلال ، وتغلب بما فيه من القوة الفطرية على اخصامه ، لو صرف أيامه وعزيمته وكرس حياته

---

(١) انظر مذكرات تاريخية : ١٢٨ • الشدياق : ٢/٢٢٥ ـ ٢٤٦ .

للدفاع عنه ، وعن استقلاله من عبث الأجانب به ، لما قام للجزار ، قائمة ولا لعبد الله باشا أو سواه شكيمة ، لو فعل كل ذلك لكنا شاهدنا له من سلالته حاكماً على ربوع سورية ولبنان ، كما نرى أحفاد محمد علي باشا يتمتعون بالسلطة على وادي النيل ، إذ كانت له ذات الفرصة التي كانت لمحمد علي باشا لإشهار استقلال سورية ومحاربة الأتراك ، وردهم عنهم ، كما ردهم محمد علي عن مصر ، ولكنه لم يقدم على مثل ذلك ، وأطلق قواه في ديجور الخلافات الأهلية وقبل أن يكون مستقلاً بحكومة لبنان ضمناً ، وفضل الاستعباد لعدو وطنه ، لينتقم من أخيه بالوطنية ، ومزاحمه على الأمارة ، وإشهارنا عليه الملامة لا تبعدنا عن الإقرار بفضله وعلو همته ، فهو يستحق فوق ذلك ، وربما كان له عذر نجهله ، ومهما يكن من أمره فنعيب عليه استعباده لعدو وطنه .

* * *

الفصل السادس والعشرون والمائة

في تعيين الأمير بشير القاسم حاكما على الجبل

لم يمض على وصول الأمير بشير إلى صيدا أكثر من بضعة أيام ، حتى عين خالد باشا الأمير بشير القاسم حاكماً مكانه على الجبل ، وكان الأمير قاسم ضعيف العزيمة سيء الإدارة جاهلاً لا يفقه مطاليب مركزه ، كأنه جاء ليظهر مقدار الفرق بينه وبين الأمير بشير سلفه ، ولكنه على ما فيه من الخبالة وفساد الرأي ، نال رضى أصحاب المطامع من شيخ وكاهن وذي زعامة ، حيث أطلق لهم التصرف بحقوق الشعب وابتزاز ماله ، ولما كانوا مغلولي الأيدي على عهد الأمير بشير ، بدأوا يمدحون الأمير قاسماً ، ويثنون عليه ، ويمرحون ويأتون العجائب وشوهد عياناً ما وصلت إليه حالة لبنان على عهد الأمير بشير قاسم ، ومع ترجيح الأمير بشير عليه كان ولاة الأمور تنعته بالقاتل لكل سلطة عاصرته ، وكانت إما مزاحمة له وإما تريد الاستقلال بمصالح الشعب ، وأكثرت

من تلقيبه فقالت إنه سفاك ، لا رحمة عنده ، ولا حنان في قلبه ، ولكنهم لم يبرهنوا ذلك ، ولا قاسوا معاملة الأفراد ، بل كانت دعوتهم من وجه اجمالي ، ولا توغلوا في البحث والاستقصاء في حالة لبنان عموماً ، وهل هي الآن أفضل منها في عصره ، وهل الذين قتلهم ، وكان الحكم فيها عدلاً أقل من الذين ذهبوا ضحية الجهل والاستبداد في سنة واحدة بعده ، فالمتبصر عديم الغرض لا يرى في ادعاء هؤلاء حقيقة .

* * *

الفصل السابع والعشرون والمائة

في رجوع ابراهيم باشا الى الشام

بقي ابراهيم باشا مقيماً برجاله في البقاع بزحلة ، إلى أن قصد مقابلة بحري بك ، وكأن الذي قصه عليه البحري عجل قيامه من تلك النواحي إلى مركز حكومته ، لجمع شعثها وضبط شؤونها ، ومن جملة ما وقف عليه وحدث في غيابه قدوم فردوس بك إلى الشام ومقابلته بشريف باشا ليلاً ، وفردوس بك هو ابن علي آغا مملوك ناصيف باشا العظم ، الذي كان مع الصدر الأعظم بالحملة التركية التي قدمت لاخراج فرنسة من مصر سنة ١٨٠١ ، فتزوج علي آغا ابنته ، واقترن شريف باشا بابنة علي آغا من زوجته المشار إليها ، وكيفية إتصال بحري بك بحدوث هذه المقابلة ، أنه بث الأرصاد لفردوس بك على إذاعة خبر قدومه ، وسأل أولاً ميخائيل مشاقة أن يذهب إلى بيت أخيه عاكف بك ، ويستطلع منه حقيقة الخبر لأنه طبيب ، وقد تعود أن يزور عاكف وأخوته ، والحقيقة أن فردوس بك دخل الشام عن طريق حاصبيا ، بعد أن نزل على الأمير سعد الدين ، فألبسه ثياباً عادية ، وأصحب معه الأمير خليلاً إلى أن أوصله إلى أبواب المدينة ، ولما لم ير بحري بك ميلاً من الدكتور مشاقة في تلبية طلبه ، اهتدى منه على طبيب البكوات ،

وهو روفان صيدع ، فظن أنه نال أربه ، وأخيراً علم أن فردوس بك نزل على حافظ بك بن عبد الله باشا ، ولما كان يعلم صدق حافظ بك لابراهيم باشا ، تقدم منه وسأله عن فردوس بك ، فقال له حافظ أحضر الليلة وادخل بجانب القاعة في بيتي ، تقف على الذي تطلبه ، فذهب بحري بك إلى بيت حافظ ، ودخل الغرفة التي أعدها له صاحب البيت وعند دخوله ، وجد غلاماً فسأله عن فردوس بك ، فأجابه الغلام : كان فردوس عندنا في هذا الاسبوع،وبرحنا في هذا الصباح ، فقال له بحري بك إذن لم يقابل شريف باشا ، فأجابه الغلام نعم قابله وصرف وقتاً طويلاً ، ولم يخف البحري عن شريف باشا ما تأكده من خيانته ، فقابله وأطلعه على كل الذي اختبره بنفسه من مقابلته بفردوس بك ، ولما تحقق شريف افتضاح أمره سأل البحري أن يكتم الخبر عن ابراهيم باشا أو يسأله العفو عنه ، فوعده أنه يسعى بنيل العفو ، ومضى لساعته إلى إبراهيم باشا ، وقص عليه الذي تقدم ، ولما سمع ابراهيم باشا عن شريف باشا ذلك الخبر حنق عليه ، وتوعده ولكن بحري بك سأله التروي والعفو عن سقطته . وقام ابراهيم باشا في ثاني الأيـام إلى الشام ، وترك ساحل البحر ، فاستولت عليه الدولة غنيمة باردة، وعند وصوله لدمشق عقد مجلساً عسكرياً، وحاكم شريف باشا ، فحكم المجلس عليه بالخيانة ، فقبض عليه وأبقى تنفيذ الحكم فيه ليقوم إلى مصر[1] .

* * *

(١) لمزيد من التفاصيل انظر « مذكرات تاريخية » : ١٢٩ ـ ١٣٦ .

الفصل الثامن والعشرون والمائة
في ضرب عكا

أقلعت السفن الحربية من مياه بيروت ، ورست في مياه عكا ، وصوبت عليها مدافعها وأمطرتها ناراً متواصلة ، ولم يمض عليها ثلاث ساعات حتى رأت حاميتها اخلت المدينة وفرت تطلب النجاة ، والسبب الذي عجل أمر فتحها وإخلاء حاميتها هو انفجار البارود الذي وصل حديثاً ، وترك خارجاً ، فوقعت عليه قنبلة أحدثت انفجاره ، وكانت نتيجته وخيمة فهـدم جانب عظيم من السور ، وفتك بعدد كبير من الحامية ، ومن سـلم من الانفجار طلب لنفسه الفرار من نار الاسطول ، فاستولت عليها الدولة ، وتفاءلت خيراً ، وبعد أيام وجه خالد باشا حكومة حاصبيا على الأمير سعد الدين ، وأرسل إليه سلاحاً وأعد فرقة بقيادة أحمد آغا اليوسف ليطرد ابراهيم باشا من دمشق .



الفصل التاسع والعشرون والمائة
في قيام ابراهيم باشا عن سورية

تقدم أحمد آغا اليوسف الجنود التي اعدها له خالد باشا لطرد ابراهيم باشا، ولما اقترب من قرية سبع على مسافة عشرين ميلاً من دمشق ، خرج إليه إبراهيم باشا بجنـد قليل ، وهزمه شر هزيمة فرجـع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة ، أما أحمد آغا فنزل بعسكره بعيداً عن الشام ، وأقام ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، لأن محمد علي باشا والده أرسل إليه وأعلمه عن قبوله ترك سورية واستقلال مصر ، فجمع ابراهيم باشا شتات عسكره من كل حدب ، وتعدادهم سبعون ألف رجل ، فقام بهم على الشام إلى مصر في سنة ١٨٠٤ ، وخرجت أهالي البلد لوداعه ، فخطب فيهم ، وحرضهم على الاخلاد إلى الطاعة والسكينة ، وعند نصف النهار أقبل أحمد آغا برجاله ، وقبض

على أزمة الاحكام ، وقبل وصوله قتل فتى نصراني من يد مسلم لأن المدينة باتت بدون حاكم[1] .

ومن أوائل أعماله أنه اعدم اثنين من الأكراد ، وكان يطوف في شوارع المدينة ليلاً يتنسم أخبارها بنفسه ، ولحظ أن النصارى عادوا إلى العمائم السود بعد أن كانوا يتعممون بالعمائم البيضاء ، خوفاً من تحرش المسلمين بهم ، فأعلن أن كل مسلم ، وأي كان يبدو منه تعد على المتعمم العمامة البيضاء من الطائفة المسيحية ينال قصاصاً صارماً ، وتقدم إلى السلام عليه الدكتور مشاقة ، وأخبره بوجود جرمانوس البحري في بيته ، ولم يقم مع أخيه يوحنا لعجزه ، وسأل له الأمان فصدر أمره بالعفو عنه وعن ولده .

وبعد أيام أرسلت الدولة علو باشا الذي فرَّ من وجه المصريين والياً على الشام ، فأقام بها أياماً ، ثم أرسل إلى الحجاز ، ثم عينت نجيب باشا والياً على الشام ، وكان أشد الأتراك تعصباً .

وكان المستر وود الانكليزي مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة أعمال مأموريها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا ، فتعزله ، وتعيين ذاك فتعينه ، وكان كلامه مسموعاً لدى الدولة إلى هذا الحد .

وأجمع السوريون على محبته على اختلاف نزعاتهم ونحلهم ، وعين من قبل دولته قنصلاً في دمشق ، وجعل الدكتور مشاقة ترجماناً له ، ثم حضر خليل باشا صهر السلطان إلى بيروت ، لتنظيم أحوال لبنان ، ولم يفلح فرجع عنها بالخيبة ، والسبب ليس قصوراً منه أو تصلف الجبليين ، بل وجود الأمير بشير بعيداً عنهم في مالطة ، ولا ذنب له فدبر على تقديم العرضحالات طعناً على آل شهاب .

* * *

(١) اسمه خليل الصيدناوي . انظر « مذكرات تاريخية » : ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) انظر « مذكرات تاريخية » : ١٣٧ ـ ١٤١ .

الفصل الثلاثون والمائة

في وفاة الامير بشير في منفاه

في رجوع خليل باشا إلى الاستانة سعى فاستقدم الأمير بشيراً ، وحاشيته إليها ، وكان قد لحق الأمير الشيخ حمد ابي نكد ، وقبل أن يبرح زعفران بول توفي الأمير قاسم أكبر أنجاله ، ولما وصل إلى الآستانة قدم إليها المعلم بطرس كرامة، وسعى عند رجال الدولة بارجاع الأمير أو أحد أنجاله إلى حكومة لبنان وكاد يفلح بسعيه ، وإرسال الأمير أمين حاكماً على الجبل وبقاء والده في الآستانة ، بينما تستطلع الدولة تصرفاته بالحكومة ، فإن ظهر منه ما تريد تسمح للامير بالعودة إلى وطنه ، وقيل إن الخوري نقولا أعلم سيده البطريرك بما ينوي الأمير على إتيانه ، فأرسل غبطته للدولة رسالة ملأها قدحاً بالأمير أمين ، وأكد لها أن الجبل يصبح ملعباً للشقاق والفساد في دولته ، لأنه أظلم من والده ، وكثرت العرضحالات تترى على الدولة من المشايخ والأمراء ورجال الدين ، يسترحمونها بعدم إرسال الأمير أمين حاكماً عليهم ، وكانت الدولة سبق لها وعينت الأمير أميناً ، وذهب لوزير الصدارة رشيد باشا يستلم الأمر الأخير قبل مبارحته الآستانة ، وبدلاً من أن يناوله الباشا الأمر في تعيينه ، دفع له عرضحالاً من البطريرك الماروني وبقية رؤساء العشائر ، وقال له : نحن قبلنا بك حاكماً على لبنان ، ولكن رجال دينك رفضوك ، فخرج من عنده قانطاً .

ثم بعد مدة قليلة اعتنق الاسلام ، وقال : إنه من الغلط التدين بمذهب هذا حال رؤسائه ، ثم اقتدى به الأمير مجيد ، والأمير مسعود أولاد أخيه الأمير قاسم ، والأمير خليل ، ولكنه توفي على الأثر كئيباً ، وبعد أربعة أشهر توفي الأمير أمين مسلماً ، وهكذا والده لشده أسفه على ولده وضيق ذات يده توفي فجأة عن أربعة وثمانين عاماً[1] ، وقد احتفلت الدولة بمأتمه ودفنته

(1) توفي عام ١٨٥٠ م ، وفي سنة ١٩٤٧ نقلت الحكومة اللبنانية رفاته الى قصر بيت الدين . انظر لبنان في التاريخ : ٥١٦ .

بكنيسة الأرمن الكاثوليك ، وهكذا على هذه الصورة كانت نهاية حياة بطل لبنان ، وبعد مدة رجعت عائلته إلى سورية ، وتوفي الأمير مجيد مارونياً ، والأمير مسعود مسلماً ، وباعت أرملة الأمير الكبير سراي بيت الدين إلى الحكومة اللبنانية ، وأصبحت مركزاً للمتصرفية ، وبذلك انتهت دولة الشهابيين في لبنان بعد أن حكمت أعواماً .

* * *

الفصل الحادي و الثلاثون و المائة

في اكاذيب عمال الاتراك بسورية

قلنا في الفصل السابق أن العرائض كانت تتوارد إلى الآستانة طعناً على آل شهاب ، وكان يقال أن الباعث على كثرة تلك العرضحالات كره رجال الدين المسيحي بسورية لهم ، وخصوصاً المسيحيون ورجال الدين منهم مع المشايخ والأعيان .

وتحرير الخبر ليس كما كانت الدولة تشيعه ، من أن اللبنانيين حانقون على أمرائهم آل شهاب ، بل كانت الدولة تخدع اللبنانيين تارة وتمتلقهم أخرى ، وآونة تهددهم ليكتبوا لها العرضحالات طعناً على آل شهاب ، لتظهر للدول الأوروبية أن شعب لبنان المسيحي غير راضٍ عن تصرف أمرائه آل شهاب ، ولذلك فهو يطلب من المراحم التركية إرسال والٍ تركي من طرف الدولة عليه بدلاً من آل شهاب .

وكان الأتراك يحرضون المشايخ الغاضبين على آل شهاب ، وخصوصاً الدروز الذين ضايقهم الأمير بشير الكبير وأرغمهم على احترام القانون ، وكانوا يثيرون عليهم كل ذي ضغينة على آل شهاب استعداداً لضم لبنان إلى مملكتهم ونزع استقلاله الأهلي .

ولم يكتف عامل الأتراك إذ ذاك مصطفى باشا بتفريق العرضحالات على النصارى والدروز بالجبل ، وأمرهم بختمها بل فرق منها عدداً على مشايخ الاسلام بسورية كلها ، وأرسل منها جانباً إلى المتاولة ، وأمرهم بختمها ، وكلها طعن على أمراء شهاب ، وثناء على عدل الدولة الشهيرة ، الذي علمت حالته بأول الكتاب ، وكيف كان أمره قبل استيلاء الدولة المصرية على سورية مما سردناه بحينه .

وقد كتب لشعب تلك الأيام بالجهل والغباوة اللذين أوصلاه إلى أحط منزلة من الرق ، حتى كان ألعوبة بيد عمال الأتراك ، بفضل رجال زعامته الذين أثبتوا عـدم أهليتهم لاشغال مراكزهم ، ممـا كان يحملهم على ختمـه من العرضحالات رجال الدولة وأخصهم مصطفى باشا .

وهاك صورة كتاب أرسله هذا الرجل إلى زعيم من مشايخ المتاولة ، وضمنه عرضحالاً يطلب به ليس أن يختمه فقط ، بل أن يسعى بختمه من كل شيخ وعامي يقدر على التزين له ليحفر ختمه ويضعه به طعناً على آل شهاب ، ليبرهنوا للدول الأوربيـة أن الشعب غير راض عن آل شهاب ، ليس ضمن الجبل بل بسورية كلها :

« جناب افتخار الأماجد الكرام أخينا المكرم حمد البيك، حفظه الله تعالى.

« غب ابلاغ التحيـة والسؤال عن خاطركم بكل خـير وعافية المبدي لخوتكم أنـه بحسب الاعتماد على صداقتكم واستقامتكم الأكيدة ، والآن توجـه إليكم من عربي كاتبي الخواجـا جبرائيل العورة ، فبوصوله ليدكم تعتمدوا مآلـه ، وتظهروا همتكم المعهودة بإتمام العمـل طبق تعريفه لكم ، وتهتموا بنجازه وإرساله إلينا مع الجواب لطرفنا بالجبل ، بحيث مرسالكم يلحقنا أينما كنا ، إن كان في المتن ، أو في زحلة ، أو في بلاد جبيل ، وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم ، أقرب وقت تتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم ».

الختم	كاتم الاسرار
مصطفى	علي بك
باشا	حديثة

وهـذه صورة تحرير مرفوع من جبرائيل العورة إلى الزعيم المذكور حمد البيك .

« سني الهمم سلطانم »

« غب تقديم الدعا بدوام بقاكم نعرفكم الآن واصل طيه فرخين ورق كبير على بياض ، وصورة عرض محضر ، إلى حد الورق البياض فيه الكتابة، وعلامة محلات الأسماء والاختام ، فالقصد بذلك أن بحال وصوله ، تحرروا العرض محضر ، وتنهضوا الغيرة التامة بتختيمه من مشايخ المتاولة جميعهم ، ومن مشايخ القرايا الاسـلام والنصارى في مقاطعـة تبنين وساحل معركة وهونين ، وساحل قانا ، ومرج عيون والشقيف وجباع ، غير أن لا تدعوا أحد من مشايخ العشاير وشيوخ القرايا إسلام ونصارى إلاّ وتختموه منـه ، وبالخصوص تجتهدوا على تكثير أسماء النصارى ، والذي ليس له ختم تدعوه بالحال على عمل ختم ، وتختموه منه .

« واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولتكه (السياسة)، والتنازل لكاين من كان بحيث لا تخلوا أحد من وضع اسمه وختمه ، وهذه تعد لجنابكم عنـد دولتهما (مصطفى باشا وعلي بك) من أعظم الخدمات المقبولة ، وتحوزوا الرضى الوافر ، فوق ما تؤملونه ، وهذا وقت اكتساب الفرصـة » .　　　　(محل الختم)

وهذه صورة العرض حال الذي كان الأتراك يرغبون من القوم ختمه على الصورة الموضحة في ما تقدم :

« انه كما مشهور ، وصار مشاهد بالعيان ، ومحقق من وجـود إدارة الدولة العلية في حكومة لبنان ، قد حصلت أهالي الجبل المذكور عموماً على غاية الأمنية والراحـة والرفاهية والعدل والانصاف ، بنوع أنهم من حينما تخلصوا من ادارة الأمير بشير الشهابي وأولاده وأقاربـه خصوصاً : الأمير بشير القاسم ، وأبناء عمهم وأنسابهم ، وأعوانهم وأتباعهم ، الذين أملوا الجبل شروراً وجواراته نظير بلادنا ، وغيرنا من البلاد المجاورة لهم من التعديات

والمظالم المتنوعة ، فقد خرجت الأهالي والسكان بوجود إدارة الدولة العلية من العتم إلى النور ، ومن دهليز الظلم والجور إلى ساحة العدل والأمان ؛ فنظراً إلى عدالة الدولة العلية وانصافها الذي عم العالم بأسره ، فبمقتضي عدالتها وإنصافها المرحمة بحق عبيدها ورعاياها بدوامهم في إدارة أحكامها ، وعدم إعادة أحكام الشهابيون بوجه الاطلاق ..... بل ولا واحد من أهالي الجبل لا إسلام ولا عيسويون عملاً بمرضاة الباري تعالى جل جلاله لرحمة عبيدها ، ودوام استخلاصهم ، لعتقهم من أحكام الشهابيين ومظالمهم المتنوعة ، واتباعاً للحديث الشريف : كلهم راعي ومسئول عن رعيته[1] .

« وحيث انوجدنا نحن المجاورون للجبل ، ولنا الاطلاع التام على أحواله ، وأخذنا وعطانا مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير ، فإن ذات إدارة أحكام الدولة العلية في جبل لبنان يعمنا جميعاً من الأمان والراحة ، وأن لا سمح الله تعالى تغير ذلك بضده فنحصل على الاتعاب والمشقات ، لأجل ذلك بسطنا الآن عرض عبوديتنا هذه ، ونسترحم بها من الاحسان الملوكانية والمراحم الشاهانية ، النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية ، بعين المراحم الاشفاق ، وإبقاء أحكام الدولة العلية في جبل لبنان ، وعدم النظر والالتفات إلى الحركات من المفسدين الذين يسعون بسلب الراحة ، وأمنية عموم الأهالي والفقراء ، ويدبرون عرضحالات التزوير بالتماس إرجاع أحكام الشهابيون ، لأن ذلك موافق غاياتهم الرديئة ، ومغاير إنصاف عدالة الدولة العلية ، وحشاها أن تهمل دوام راحة رعاياها وعبيدها ، وتنظر لتزوير ونفاق هؤلاء ... والأمر لمن له الأمر أفندم » .

« انتهى بحرفه عن كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام »[2] .

هذه هي العرضحالات التي كانت تتوارد على مراكز الخلافة طعناً بالأمراء الشهابيين ، وبعضها أراه الصدر الأعظم إلى الأمير أمين الذي قدم إليه ليستلم

---

(1) كـذا .
(2) حسر اللثام : ١٠٣ ـ ١٠٤

مأموريته ، وأودى به إلى الموت كئيباً ، واعتناق الاسلام ، وليس تهمات الدولة من أن رجال الدين كانوا يسعوا بآل شهاب •

وهذه نقطة من بحر مما كان الأتراك يغرون القوم ، ويهددونهم على كتبه وختمه لهم دون أن يعلموا مغزاه ويعقلوا مؤداه ، وهنا نمسك القلم وتترك للقارىء أن يتصور حالة ذلك الشعب التعيس الذي ابتلاه ربه بحكم الأوغاد ، أهل الخداع والمكر والدهاء والغدر ، وهكذا تعمل دولة الأتراك دائماً بسياسة الغدر هذه ، وقس على ما مرّ بك ما أوقعته وتوقعه على رعاياها من يوم إلى يوم ، تلك الدولة المنعوتة بالعادلة بتلك العرضحالات عفواً •

ومما أشكل علينا به ورود أسماء الشعب مقسوماً إلى قسمين : عبيد ورعايا ، وظن أن القارىء أدرك مثلنا ما يريدون بالعبيد ، وما يعنون بالرعايا ، ونحن نظن[1] أن العبيد هم أولئك الذين كانت تلزمهم الدولة بحمل كيس الحاجة ، وتجعل ذلك عليهم قانوناً للعمل وتكدهم على التسخير للمسلمين ••• والرعايا يراد بهم عامة الإسلام لأنهم على دين الدولة التركية ، وهكذا كانت تعتبر المسيحي عبداً ، وليس حراً ، وكانت تحث الرعايا على معاملته كذلك رغماً عن كونه كان صاحب البلاد ، وحراً في بدء الاسلام إن أعملنا الفكرة قليلاً هان علينا تصديق ما سنورده من فظائع هذه الدولة ، مع أولئك العبيد الذين جاء اسمهم مراراً وتكراراً منعوتين بالعبيد ، الذين يعرفون بالأرقاء أو الرقيق •

وكانت حالة أولئك العبيد أحط حتى من الرق ، ولا تفرق عن حالته إلا أن الأخير يباع ويشرى ، ويلتزم مولاه بتقديم حاجيات الحياة ، ورعاية الجانب لأنه متاعاً له ، ينظر إليه كمالٍ ينفعه في دنياه •

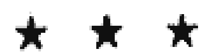
أما الأولون (العبيد) أو نصارى لبنان خصوصاً وسورية عموماً ، فكانوا أرقاء لعامة الرعايا (المسلمين) ، وعليهم شرعاً الاسترقاق لهم بكل ما يطلب هؤلاء منهم بكل ما بكلمة الاسترقاق من المعنى ، وعليهم أن يقوموا

---

(١) ان بعض الظن اثم •

بقود أنفسهم وعيالهم معا من شغل أيديهم ، وهكذا كانت حياتهم المرة بظل ظليل أسيادهم الأتراك الأحرار ، وزعم الأغبياء الذين خيم الجهل والتعصب فوق عيونهم ، والمنازعات الشخصية على عقولهم ، ففضلوا الشخصيات على العموميات توصلاً لمآربهم الدنيئـــة ، بدلاً من هز الحسام لقوم ظلموهم وأذلوهم وأذاقوهم العذاب ألواناً .

وكانت هذه العرضحالات تكتب وتختم في أوائل سنة ١٨٤٢ ، عقب حوادث السنة التي قبلها ، حيث كانت الدولة ترغب في تعيين وال تركي على لبنان كما فعلت ، وعينت عمر باشا كما سيجيء[1] .



الفصل الثاني والثلاثون والمائة

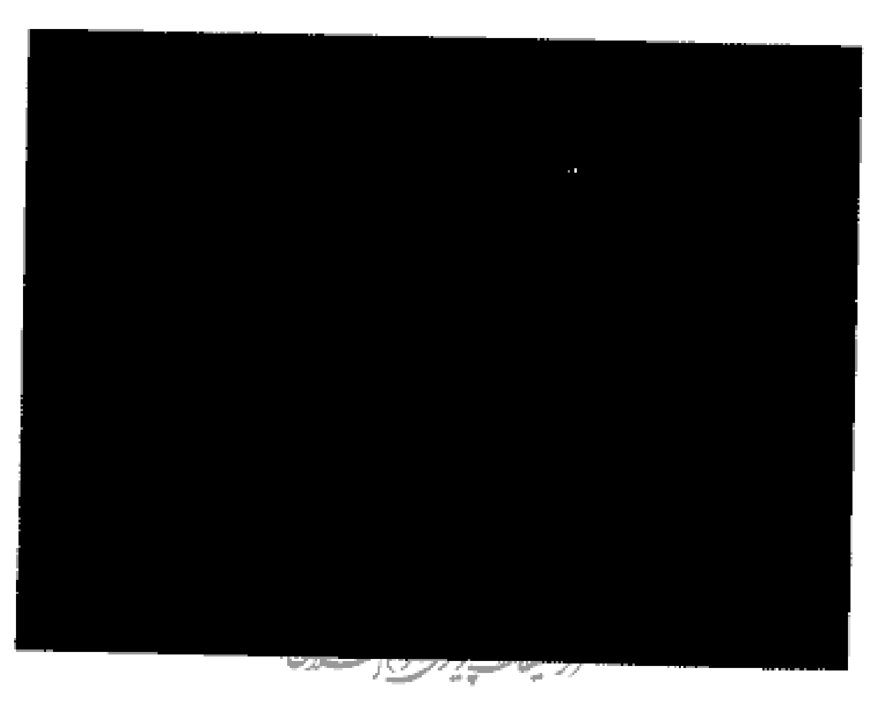
في مآثر الدولة المصرية بسورية

إن أعمال الدولة المصرية في سورية ومآثرها التي تذكر ، فتشكر عليها ، كثيرة منها : العدل والمساواة ، ورفع ظلم المشايخ عن الشعب ، وإعطاء كل ذي حق حقه على أحدث طريقة جارية عليها الدول المتمدنة ، ورغماً عن إحداثهم على الرعية ضرائب عديدة واثارة هؤلاء عليهم ، فهم قد نفعوا السوريين نفعاً عظيماً ، وأشهر هذا النفع رفع يد الأمراء والمشايخ عن استرقاق الأهالي ، والتمتع بمالهم ومتاعهم واستباحة عرضهم إلى آخر ما هنالك من المحرمات والمنكرات ، ولا يعاب عليها إلا أمر واحد ، وهو عظيم ، وكان داعياً إلى سقوطها في سورية وإضعاف قوتها بمصر ، وذلك عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية ، وإرغامها على الاعتراف به ، مع أنه كان لها من أسهل الأمور ، بعد أن اكتسحت البلاد واستولت على أكثر إيالاتها ، وعدم تسميتها عزيز مصر وزيراً عاملاً بأمر السلطان ، لأنه كان يعترف له بالسلطة المعنوية فقط

---

(١) انظر الشدياق : ٢/٢٥٠ ـ ٢٧٧ .

تلك السلطة سهلت للدولة التركية استجارتها بالدول كما تقدم ، فلو أشهر محمد علي باشا نفسه ملكاً مستقلاً ، وأرسل من قبله السفراء لعواصم الدول الأجنبية ، وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك بالرغم عن مقاومة دولة بني عثمان له ، أو لو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن



جنـد محمد علي

الدولة التركية عقب حادثة قونيـة لأجبرتها على الاعتراف بسيادته ، لأنـه استحال عليها اخراج جنوده من سورية ، أو صد هجمات ابراهيم باشا ، وتقدمه إلى قلب عاصمتها .

إنما تهاونه قادها إلى عدّ دولته فرعاً منها ، والحق يخول لهاقطع ذلك الفرع إذا اعتراه فساد باعتقادها ، وعلى هذا المبدأ تغلبت على استمالة الدول إلى جانبها ، وأجلت دولة مصر عن سورية ، ووضعت حداً لنموها وأجبرتها على الاعتراف أنها فرع منها ، وهذه السقطة وحدها كانت الباعث لسقوطها في سورية ومصر معاً ، إذ أصبحت فرعاً من دولة الأتراك ، مقيدة بإدارتها تدفع

لها مالاً معلوماً ثمن استقلالها الداخلي ، ولا علاقة لها بالدول الأجنبية إلا بواسطتها ، وهذا ما جعل الدول الأوربية تنظر اليها بعين الاستخفاف ، لا تعتبرها كدولة مستقلة ، ولهن الحق بذلك لأنها لا تعلم عن استقلالها شيئاً .

فلو تلافى محمد علي باشا هذا النقص ، لما كان من المستحيل أن نرى دولة عربية تجاري الدول المتمدنة نمواً وارتقاءً ، وكنا رأينا على أريكة الخلافة العربية رجلاً من سلالته ، فليعتبر القوم ، ويتعظ الخلف ، من أغلاط السلف ، ويعقلوا ويعلموا أن تحاسد الدول وحده وإن يكن بحد ذاته عظيماً، إنما لم يكن وحده كافياً لسقوط الدولة المصرية ، بل الباعث الوحيد عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية كما تقدم وبسطناه آنفاً ، ولا نعلم كيف تهيب محمد علي وتقاعد عن اشهار استقلال دولته ، وارغام الأتراك على الاعتراف بها ، بيد أنه لم يتهيب من تدويخ البلاد ، وخضد شوكة السلطنة التركية عن يد ولده ، الذي كاد يستولي على أكثر ولاياتها .

ويا ليته انتبه إلى ضرورة الأمر، وسعى وراءه ، ويا ليته عمل ذلك وأراح بلاده وخلفاءه من مداخلة الأتراك بشؤون دولته ، وقد قدر الله له رجلاً شجاعاً ، وقائداً حاذقاً يضاهي أعظم قواد العالم شهرة وخبرة بفنون الحرب ، وذلك الرجل هو ابراهيم باشا الباسل ، صاحب الاقدام والهمة العالية ، يذلل له الصعاب ويحقق له أمانيه .

* * *

الفصل الثالث والثلاثون والمائة

في رجوع المشايخ المنفيين

كان من محمد علي بعد انسحاب سلطته عن سورية أنه سمح للمشايخ : جنبلاط ، وعماد ، ونكد ، الذين حكم عليهم بسكنى مصر ، بالرجوع إلى وطنهم بعد أن أنعم على بعضهم بالألقاب السامية ، وفي وصولهم حصل لهم ملقى زاهر ، ونزل أحدهم ناصيف الذي تلقب بالبيك في بيت مشاقة ، لأن داره اندثرت آثارها بأمر الحكومة ، أما الشيخ سعيد جنبلاط الذي كان موظفاً بالجندية المصرية ، تمكن من المجيء ، ووضع يده على أملاك آل جنبلاط قبل مبارحة ابراهيم باشا البلاد ، وصار يدفع عنها الخراج إلى الدولة كجاري العادة ، وشرعت الدولة بتحصيل الخراج من الأهالي كما كانوا يدفعون إلى الأمير بشير ، فالدروز لم يعترضوا على مطاليبها ، إنما النصارى اعترضوا وأدغموا اعتراضهم بالبراهين المعقولة ، وأخذوا يعقدون الجلسات خصوصا أهالي كسروان ومن جاورهم أكثروا من الشكوى ، وادعوا الفقر والعوز وقحل الأرض ، واستشهدوا بفقراء لبنان المنتشرين بمدن سورية وقراياها . وأن ثلاثة أرباع الأراضي بملك المشايخ والأمراء والأديرة ، وتسعون بالمائة من هذه الأملاك معفية من الخراج ، وبلغت القحة والجهالة منهم إلى تهديد الدولة بالعصيان ، ومن قولهم الذي رفعوه إلى خالد باشا ليقدمه إلى الآستانة، أن الجزية تؤخذ من القوم الذين يكلفون الدولة حمايتهم ، وليس من الذين يقدرون على حماية أنفسهم ، إلى غير ذلك من قوارص الكلام ، وقد نصح لهم خالد باشا بعدم تقديم شكواهم على هذا الأسلوب الخشن ، ولم ينتصحوا .

وامتناع اللبنانيين عن دفع الجزية سوف يجلب عليهم نكبات كثيرة ، واغترارهم بمقدرتهم في مقاومة الدولة تدل على قصر باعهم في سبر غور الأمور ، وأصبحت الدولة بعد مجاهرتهم علناً بعزمهم على شق عصا الطاعة

عليها ، لا تأمن جانبهم ، خصوصاً تصريحهم أنهم ينتمون إلى دولة أجنبية ، إذا لم تأخذ بيدهم على رفع الجزية عنهم التي عدوها ظلماً ، ومما جعل لهذه الحركة وقعاً سيئاً سوء تدبير الأمير قاسم ، وعدم أهليته للمركز الذي يشغله ، وكان كثير الهزل سفيه الكلام مع مشايخ الدروز ، الذين تأبى طباعهم وآدابهم السفاهة ، لا سيما وقد اعتادوا الرزانة وحرمة الجانب من الأمير بشير ، فباتوا ينظرون إليهم شزراً ، وسرهم انقلاب الدولة عليهم ، وقائل يقول إن الدولة أوغرت صدورهم على النصارى ، واتخذتهم آلة لتنفيذ سهمها في من خرقوا حرمتها ، وأظهروا مقدرتهم عليها ، وهم غافلون عما تدبره لهم من الاحن والكروب والمذابح الأهلية . والله أعلم بما تكنه الصدور .



* * *

الفصل الرابع والثلاثون والمائة

في ايقاد نار الفتنة بين الدروز والنصارى

أقبلت سنة ١٨٤١ على أهالي الجبل ، والناس في قلقلة وثور ، ورائد الطرف يحكم لنفسه أن حركة القوم غير عادية ، وإذا توغـل في الاستقصاء يتجلى له استفحال الأمـر ، وجسامة الخطب ، ويشاهد فريقـاً على تأهب واستعداد كأنه مدفوع إلى الكفاح ، وفريقاً لاهياً ، كأنه أمن حوادث الزمان وكروب الأيام ، وكانت الدولة قد نضجت مساعيها ، ونفخت في صدور الدروز روحهـا السامة ، فملأتها ، وما عـاد ينقصها عن الانفجار إلاّ سبب طفيف يساعدها على ذلك ، ومن الصدف أن رجلاً ديرانياً من النصارى ذهب يوماً لصيد الطير إلى ناحية بعقلين المأهولة بالدروز ، فتصدى له درزي دفعه عن غرضه فاعترض عليه واشتد الجدال بينهما وأدى إلى خصام عنيف ، وأخيرا الجأهما الخصام إلى السلاح وكان ذلك في ١٤ ايلول سنة ١٨٤١ ، عقب خروج المصريين بقليل ، فتراكضت أهالي بعقلين للدفاع عن ابن بلدتهم ، ودير القمر عن ابن مذهبهم ، ودار القتال بين الفريقين فقتل من أهالي دير القمر ثلاثة رجال ذلك ، مما دعا إلى توسيع الخرق ، فركبت مشايخ آل نكد ، وقصدت محل الحادثة لتفصل بين المتقاتلين ، ولكن لدى وصولهم رأوا غير ما كانوا يظنونه ، شاهدوا عدداً كبيراً من قرية بعقلين تقاتل بضعة من رجالهم ، وقد أثخنوهم بالجراح ، وفتكوا ببعضهم ، عند ذلك هجموا عليهم وفرقوهم ، وأرجعوهم إلى داخل القرية ، وشددوا الحصار عليهم ، وأسفرت هذه الحادثة عن اثنين وثلاثين قتيلاً من الدروز ، وأربعة من النصارى ، وبعد أن كانت أهالي بعقلين أصدقاء لسكان دير القمر أصبحت من ألد أعدائهم ، وتحرك الدروز للفتك بهم ، وحرضهم على ذلك مشايخهم آل جنبلاط وعماد ، وباتوا يتأهبون لأخذ الثأر ورفع العار عنهم •

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس والثلاثون والمائة

في ارسال الدولة سلاحا الى الدروز

انتشر الخبر عن حادثة بعقلين ، وبلـغ الشام ، وكان الدكتور مشاقة يتردد على سليمان أفندي أمين وكالة الحج ، بأشغال تتعلق بأمراء آل شهاب ، فسأله سليمان عن الحادثة ، فأخبره مشاقة بما حدث بايجاز ، وقد خفي عليه أن والي الشام ، وولاة الأمور مطلعون على حذافيرها ، وهم ساعون لتنفيذ غاية الدولة بالنصارى عن [طريق] الدروز .

وبعد أيام تكاثر عدد الدروز في الشام ، واستمر وفودهم إليها من أطراف لبنان ، وصدف للدكتور مشاقة أنه سمع سليمان أفندي يكلم وجيهاً درزياً في شؤون هامة ، وشاهد الشيخ قاسم القاضي قادماً من دير القمر ، فأقام بالشام أياماً ، وقفل راجعاً إلى حيث أتى ، وقد أصحبه نجيب باشا والي الشام ، بكمية كبيرة من الرصاص والبارود ، ليوزعها على رجاله الدروز ؛ وكان مشاقة نظره مع بعض من حضر من الدروز في بيت سليمان المار ذكره ، ومن هذه القرائن أدلة قاطعة على دسيسة الدولة ، وقيام رجالها في تتميمها ، وقـد تأكد أن مشايخ آل نكـد لا يسحون لأخوانهم الدروز أن يفتكوا بنصارى الدير ، لأنهم منتمون لهم ، وهم قوتهم وسبب بقاء وجاهتهم ، وان الشيخ قاسم القاضي نسيب للمشايخ ، وبالطبع يحافظ جهده على كرامتهم وتعزيز قوتهم .

وكان بدمشق عدد كبير من مهاجري دير القمر ، يشتغلون فيها ، فجمعهم الدكتور مشاقة ، وقص عليهم ما وقف عليه بطريق الصدفة ، وتداول وإياهم في الشؤون الحاضرة ، وفض عقدهم على إعلان نصارى دير القمر ، وتحذيرهم من الدروز ، واقترح عليهم أن يتلافوا الأمر بالتي هي أحسن ، ولكن إذا كتب لقوم الشقاء ، ومنوا بحاكم جاهل ، عبثاً تحاول الأفراد منه رد مكروه واطفاء ثورة ، وخصوصاً إذا كان هو الرافع والمتحد ضدها ، كما كان عمال الدولة بذاك العصر .

* * *

الفصل السادس والثلاثون والمائة

في حادثة دير القمر الثانية

مرت الأيام على حادثــة بعقلين ، والدروز في خلالها في حركة وذهاب وإياب ، وعقد مجتمعات وتأهب بخلاف نصارى دير القمر ، الذين ناموا إلى معاقل آل نكد ، وظنوا أنفسهم في مأمن منيع من طوارق الحدثان ، وكانوا يذهبون من مكان إلى آخر بدون تحذر ، ويشاهدون قدوم الدروز ، وتكاثر عددهم من يوم إلى آخر ، ولم يفطنوا إلى مغبة غفلتهم ، وأقبل دروز اقليم المناصف إلى الدير ليلاً ، وباتوا عند اخوانهم بدون أن يشعر بقدومهم أحد من النصارى ، أو شعروا ولم يكترثوا بهم ، لأنهم كانوا على ثقة وهمية في اخلاص جيرانهم ومشايخ آل نكد لهم ، وبينما هم على ذلك وأكثرهم متغيب عن البلدة في مدن سورية ونواحيها غير عالمين بما تولده الليالي ، إذ هجم عليهم دروز المناصف فأفاقوا من رقادهم على صوت البارود وقرقعة السلاح .

وعند ذاك تراكضوا إلى سلاحهم ، والتحم القتال ودافعوا دفاع الأبطال عن منزلتهم وشرف بسالتهم ، ولكن عددهم كان قليلاً بالنسبة إلى عــدد الدروز الذين ظهروا عليهم فجأة ، وأحاطوا بالمدينة بأقل من وقت يذكر ، فاشتــد عليهم القتال ، وحصرهم الدروز في بيوتهم ، ولكنهم قاتلوا قتــال الأشداء ، وردوا عنهم غارات الدروز المتواصلة .

والتجأ بعض سكان حارة الدروز ، إلى مشايخ آل نكد ، وطلبوا منهم الحماية ومراعاة حقوق الجار ، فلم ينالوا جواباً غير لقــاء حتفهم من أيدي الذين كانوا يحاربون عنهم ، غير أن الشيخ حموداً تقدم إلى ابراهيم مشاقة ، وقال له : كن على ثقة لا يقترب أحد إلى بيتك ، ولا يمسك ضرر من رجالنا .

ولما علمت نساء الحي بتأمين بيت مشاقة أقبلن إليه مستغيثات ، وحدث أن ابراهيم مشاقة تفقد ولده فلم يجده في البيت ، فخرج يفتش عنه ، وبعد

خروجه بمدة قصيرة ، هجم على البيت سبعون من الدروز ، يتقدمهم أحـد أتباع الشيخ حمود ، وكان في البيت اندراوس مشاقة ، ورجل آخر فدافعا عن الحريم جهدهما إلى أن صرعا ، وعند ذلك لما لم يعد من يدافع عن الدخول إلى البيت دخلوه ، واغتصبوا باب غرفة الحريم بخلاف عادتهم وغرضهم ليس الفحشاء ، بل النهب ، وعلت الضوضاء ، وملأ صراخ النساء الفضاء ، وكادوا يظفرون بأربهم لانهم قتلوا خادم الغرفة ، وهو وراء الباب لو لم يقبل ابراهيم ومعه أربعة بواسل ، ويهزمهم بعد عراك طال مدة وقتل فيه واحد من الأربعة، وبعد ذلك نقل النساء إلى سراي الأمير ، حيث كانت الرجال تدافع عنهم بكثرة وبسالة ، ودامت الحرب قائمة سحابة ذلك النهار ، ونصارى الدير يزدادون نشاطاً على الفتك بالدروز ، وقـد أبلوا بهم بـلاءً حسناً وردوا كيدهم في نحرهم ، .. مضى ذلك النهار ولم يقدر الدروز على امتلاك البلدة ، ولا اخراج أهلها منها إلا أنهم استولوا على قسم من الجانب القريب من مساكنهم ، بيوته متفرقة وأغلب رجاله غائبون .

وهجم الشيخ عباس بن ناصيف بك أبي نكد على محلة الكنائس ، لعلمه أن العادة في حدوث الفتنة أن يتراكض الأهالي بأموالهم إلى الكنائس ، ورام مع رجاله أن يغتصب بابها ، ولكن النصارى اصلوه ناراً حامية ، وأصابوا منه مقتلاً ، فوقع عن جواده قتيلاً ، وفرّ رجاله من أمام النصارى ، الذين ظلوا يعملون بهم إلى أن أرجعوهم إلى مراكزهم .

وفي ثاني الأيـام هجم ثلثمائة درزي علـى كنيسة مار الياس للـروم الكاثوليك ، وتصدى لردهم عنها ثمانيـة ، وأفلحوا ومن هؤلاء : رفائيـل مشاقة ، ونقولا جبور صوصة ، الذي قيل أنه القاتل للشيخ في حادثة الأمس ، وسواهم من أهل المحلة ، فتقدم الثمانية بقلب واحد وأصلوا الفرقة الهاجمة ناراً آكلة حتى أرغموهم على التقهقر ، وخرجوا في اثرهم إلى الجبانة ، وهناك أصيب نقولا جبـور بطلق من الوراء ، ومثـله أصيب روفائيل مشاقة ، وبعد وصول جبور إلى بيته قضى نحبه ، والطالق عليهم كان في بيت بالقرب

من الجبانة من دروز بعقلين ، عندما شاهد انهزام فرقة كبيرة العدد من وجه بضعة من رجال ، هزته الحمية فرمى نقولا جبور وأصاب منه مقتلا ، ولحق بروفائيل مشاقة العطب ، ولكنه شفي من جراحه .

وهجم الشيخ قاسم القاضي برجاله على إحدى الكنائس ، ولقي نحبه وذهب عدد كبير من رجاله طعاماً لنار حماتها البواسل .

وكان شأن الدروز عندما ينتهبون بيتاً ويستولون على موجوداته ، أنهم يلقون به النار ، فأحرقوا بيوتاً عديدة، وكان أكثر النصارى نكبة بيت مشاقة ، لما اشتهر عنه أنه فيه مالاً طائلاً ، وموجودات ثمينة ، فتردد إليه الدروز ، وسلبوا ما وصلت إليه أيديهم ، ولما ايقنوا بخلوه من المتاع أحرقوه .

وكان من قواد الدروز أنهم قبل الهجوم أوقفوا رجالاً على الطرقات ، ليقطعوا المواصلة بين أهالي الدير وبين من تدفعه الحمية إلى نجدتهم ، وقد أفلحوا بذلك لأن نصارى الباروك أقبلوا إلى نجدة اخوانهم ، وعندما وصلوا إلى بيت الدين وشاهدوا حامية الدروز محيطة بالمدينة رجعوا على أعقابهم ، بالرغم عن تحريض قائدهم الشجاع ابراهيم صقر لهم ، وحثهم على الهجوم ، ولما لم ير منهم اقداماً تركهم وشأنهم ، وتقدم إلى الأمام ومعه أولاد عمه فاخترق صفوف الرجال ، وكانت الدروز تطلق عليه النار من الخارج وأهالي الدير من الداخل ظناً منهم أنه خصمهم ، وظل هاجماً واحدث ضجة عظيمة ، ولم يثنه عن التقدم مالاقاه من العقبات ، ولما اقترب من الديرانيين رفع لهم علامة عرفوه منها ، فحولوا رصاصهم عنه وصوبوه على خصمهم ، وتم له ودخل المدينة مع أولاد عمه وكلهم سالمون .

وقبل وصوله كان الشيخ حمود قد استولى على حارة الصيادنة ، وتركها ملعباً للنار ، وتقدم منها إلى بيت بطرس الجاويش ، وكان داخل البيت ثمانية عشر مقاتلاً ، فأقام حصاره ، وتكاثر الدروز حوالي البيت ، وبلغ عددهم خمسمائة محارب ، وشددوا عليه الحصار ، فدفعهم الجاويش برجاله ، وبينما هو في أشد الضيق يلاقي هجمات الدروز ببسالة غريبة ، وصل إليه ابراهيم

صقر وأولاد عمه لنجدته ، ودخلوا عليه من الباب الخلفي وبرزوا مع المدافعين، استأنفوا القتال ، وأخيراً امتشق سيفه ، وخرج إليهم وتبعه أولاد عمـه ، واقتدى به بقية الرجال ، وأعملوا سيوفهم برقاب الدروز حتى أبعدوهم عن الحـارة .

وأقبل ثالث الأيام ، والحرب سجالاً ، أما حارة الخندق شرقي البلدة فلم يتمكن الدروز من الوصول إليها لتلاصق بيوتها وبعدها عن حارة الدروز .

وفي اليوم الرابـع من الحادثة وصـل إلى الدير السيد عبـد الفتاح الاسكندري من قبل والي صيدا ، ففض جماهير الدروز وعاد يصحبه الأمير وكثير من رجاله من نصارى الدير .

وانجلت الحادثة عن مائة وتسعة قتلى من النصارى ، وعدد كبير من الدروز بالرغم من تكتمهم ، وثلاثة عشر من المشايخ وما دفن النصارى قتيلاً منهم إلا ولقوا بالجبانة عدداً جديداً من الدروز ، ولا عجب من كثرة قتلى الدروز لأنهم كانوا مهاجمين ، والنصارى مدافعين ، والتعرض الذي يلاقيه المهاجم غير ما يلاقيه المدافع ، وبلغ عدد قتلى الدروز ما ينيف عن خمس مائة رجـل .

ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة ، نفروا منهم نفوراً تاماً ، وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم من قبله ، ورفع سلطة المشايخ عنهم، فأجابهم إلى ذلك لأن هذا ما كان يرغب فيه ، ولولاه لما كان الأتراك يختمون العرضحالات طعناً على أمراء الجبل ، ويحضون على الفتن .



الفصل السابع والثلاثون والمائة

في حادثة زحلة

وبعد مضي شهر كامل على حادثة دير القمر ، اجتمع الدروز ثانية ، وتأهبوا للاجهاز على نصارى زحلة ، فانضم إليهم شبلي آغا العريان بفرسانه الذين تحت قيادته للمحافظة على أرواح وأموال الرعية ، وتقدموا بعد أن اكتملت معداتهم إلى مدينة زحلة ، وأشهروا قتالاً شديداً ، ولكن أهالي زحلة كانوا على استعداد مثلهم ، فردوهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وأصيب شبلي آغا برمية كادت تذهب بروحه ، فرجعت الدروز عن زحلة بالفشل ، وبعد الحادثة شرعت أهالي المدينة في اقامة المتاريس والحصون ، وإعداد معدات الدفاع ، ولكن الدولة أمرت بهدم ما بنوه مدعية أن ذلك حطة في شأنها ، وكان عدد الهاجمين على زحلة من الأتراك خمس مائة رجل نجدة للدولة فتأمل.



* * *

الفصل الثامن والثلاثون والمائة

في حادثة جزين

رأت الدولة أيد الله شوكتها بعد الحوادث المار ذكرها ، أن تزيد عنايتها في السهر على راحة الأهالي ، فأرسلت مصطفى بك بفرقة كبيرة من جنودها المنظمة يجعل في البلاد الراحة ، ويلقي بين الأهالي سلاماً ، وفي وصوله ظهر ميله إلى تحقيق أماني الدولة فيه ، فصار يأمر وينهي ، ويعدم من النصارى كل من عرف له مكانة ، وكأن الدروز طمعوا برضى الدولة منهم ، فأشهر جماعة منهم من سكان الشوف الحيطي العداء على نصارى اقليم جزين ، وهجموا عليهم ، وقد أحسن النصارى الدفاع عن كرامتهم ، وتغلبوا على خصمهم بقيادة بطلهم الشجاع أبي سمرا غانم من بكاسين ، وردوهم على أعقابهم ، وألحقوا بهم رصاصهم حتى أدخلوهم بيوتهم في عماطور ، وكان أبو سمرا ينوي اللحاق بهم إلى النهاية ، ولكن حلّ عزمه وصول فرقة من الجند المنظم ، الذي كان مقيماً بالمختارة ، فرجع برجاله ولم يشأ مقاومة الجند ، إنما قائد الفرقة ألقى القبض على أربعين رجلاً من أهالي جزين ، وأرسلهم إلى بيروت عند الوزير لتجري محاكمتهم ، وبعد مدة من وصولهم أطلق سراحهم لأنهم لم يثوروا إلاّ بأمر الدولة وتحريض عمالها بسورية : والي صيدا ، ووالي الشام ، بأمر من صهر السلطان ، الذي قدم من الآستانة بهذه المهمة لذبح العبيد المارقين بزعمه كما مر بك .

* * *

الفصل التاسع والثلاثون والمائة

في تعيين عمر باشا حكمداراً على لبنان



عمر باشا

أرسلت الدولة إلى لبنان عمر باشا ، وهو نمساوي الأصل اعتنق الاسلام، وتقلب بوظائف الدولة ، وكان نزيهاً شجاعاً ، وعقب وصوله إلى الجبل سكنت الأحوال، وراقت سماء لبنان بالرغم عن الأعاصير والزوابع التي كانت تتهدده، وألقى القبض على أهالي الزعامة من الدروز ، وأرسلهم بالقيود إلى الوالي ليوهم الناس أن الدولة بريئة من الحوادث لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ولكن يدحض هذا الزعم عدم صدور حكمها على واحد من المذنبين ، وعلى إثر ارسال أهل العصابة من الدروز إلى بيروت اجتمع اتباعهم ، وهجموا على عمر باشا ، وهو في سراي بيت الدين ، وقطعوا الماء عنه فخرج إليهم وتهددهم بالعقاب الصارم، فرجعوا عنه إلى الشوف الحيطي ، وحضر إليهم شبلي العريان بجنده المنظم ، وتقدموا إلى السمسقانية ، وهم في الطريق التقوا بفرقة من عسكر الأرناؤوط قادمة إلى عمر باشا ، ليرسلها إلى تأديبهم ، ولما أدركوا

غرض قدوم هؤلاء إلى بيت الدين ، أصلوهم ناراً . فارتدت عليهم العساكر بالقرب من ضفة نهر الحمام ، وهزمتهم وظلت متقدمة إلى أن وصلت إلى عمر باشا الذي قام لساعته ولحق بهم وهم نازلون في السمسقانية ، وهناك اشتبك القتال بينهم . وكان مع الدروز شبلي العريان ، وبأقل من ساعة هزمهم عمر باشا وولوا الأدبار .

وكان نزاهة عمر وعدالته لم تطابق مآرب الدولة ، فعزلتـه عن لبنان وقسمت الجبل إلى قسمين شمالاً وجنوباً ، والحد الفاصل بينهما طريق الشام ، وعينت على القسم الشمالي المأهول بألف درزي فقط حاكماً مسيحياً ، وعلى القسم الجنوبي الذي خمسة وسبعون بالماية من سكانه نصارى والباقي دروز حاكماً درزياً ، وبقت مدينة دير القمر مستثناة حسب طلب أهاليها فظل حاكمها يأتمر بأمر والي الولاية .

* * *

الفصل الأربعون والمائة

في حادثة حاصبيا

في سنة ١٨٤٥ أرسل والي الشام محمد باشا قبرصلي إعلاماً إلى دروز حاصبيا ، وحضهم على قتال النصارى ومدهم بالسلاح والذخيرة ، وأوعز إلى دروز حوران أن يقدموا على مساعدتهم ، ومثل ذلك سأل مسلمي البقاع أن يعضدوهم على نصارى حاصبيا ، وفي أوائل الحركة ، وقبل نضوجها قر رأي النصارى في تلك المدينة على تركها ، والقدوم إلى زحلة هرباً من القتال وحباً بالسلام ، فقاموا عنها مثقلين بالاحمال ، وقام معهم الأمير بشير شقيق الأمير سعد الدين ، وفي وصولهم إلى راشيا ، خرج عليهم الدروز وباشروهم القتال . وكان قتال المسيحيين دفاعاً ، لأن عيالهم وأولادهم وموجوداتهم من الأمتعة

أرغمتهم على اتخاذ جانب الدفاع ، فدافعوا طاقتهم والأمير أجهد نفسه بالدفاع ولم يفلحوا ، وانقضّ عليهم الدروز انقضاض الباشق على طير صغير ، أو الأسد على فريسته ، وسلبوهم وفتكوا بمعظمهم ، ومنهم من ولّى الأدبار والتجأ بمسلمي البقاع، فكان نصيبهم نصيب من تركوهم وراءهم القتل والعذاب المؤلم ، ومنهم من فضل الرجوع إلى حاصبيا فاستقبلهم الدروز فيها وألحقوهم بقتلاهم ، وفريق ظل مع الأمير وجدوا المسير إلى زحلة فوصلوها سالمين •

وبعد أيام أرسلت حكومة الشام تطلب الأمير بشيراً ، فقدم اليها وعينته حاكماً على حاصبيا ، لكنها لم تسمح له بمعاقبة المعتدين وزعماء الفتنة ، وهذه المعاملة بعدم معاقبة المذنبين من دروز لبنان ، برهنت على أن للدولة يداً في هذه الحوادث[1] •

* * *

الفصل الحادي والاربعون والمائة

في ثورة دروز حوران

في سنة ١٨٥١ امتنعت دروز حوران عن دفع الخراج ، لوالي الشام كالعادة ، فقام محمد باشا بفرقة من الجنود لإخضاعهم وإجبارهم على تقديم المفروض عليهم ، ولكنه رجع بالفشل والخيبة بعد معركة طالت بضع ساعات ، ولولا القليل كانوا فتكوا به ،واستولى الدروز على الذخيرة والمدافع ، ورجع الباشا إلى الشام وجنوده أفراداً أو أزواجاً ، وبعد مدة توسط المستر وود ، فأرجعوا إلى الحكومة مسلوبات عساكرها •

* * *

(١) انظر الشدياق : ٢/٢٦٩ ـ ٢٧٧ •

الفصل الثاني والاربعون والمائة
في مقاصد الدولة والدول

لما كان غرضنا بيان أصل جرثومة المذابح ، وما فعلته الدولة من ايقاد نيران الفتن، وايغار صدور رعاياها من دروز ومسلمين على النصارى المستظلين بظلها ، اضطررنا أن نرجع بالقارىء إلى المعاهدة المتفق عليها بين الدولة التركية، والدولة الافرنسية ، لما لها من العلاقة المهمة في موضوعنا الآن .

بعد أن تبوأ نابليون الثالث عرش فرنسا بحث في المعاهدات الدولية القديمة ، فوجد المعاهدة التي تخول لدولة فرنسا الحق بحماية مسيحيي الشرق التابعين لكنيسة رومية ومصادق عليها من سلاطين الأتراك القدماء ، فطلب من الدولة التركية تجديدها مع تجديد حماية موارنة لبنان ، واعترفت له الدولة بذلك الحق اعترافاً مبهماً ، وجددت له المعاهدة والحماية ، وفي سنة ١٨٥٤ علم بهذه المعاهدة قيصر الروس بولس الثاني ، فرام الغاءها لأنه كان يريد الحط من منزلة نابليون الثالث ، لأسباب لا نسترسل بذكرها وأخذ يسعى لدى الدولة بإلغاء تلك المعاهدة ولم يفلح .

ولما لم ينجح في إسقاط حقوق فرنسة في الشرق عموماً وسورية خصوصاً ، طلب منها أن تخوله حق حماية نصارى الشرق من الروم الأرثوذكس ، فلم تجبه على طلبه مع أن قيصر الروس ، كان على جانب عظيم من الأبهة وعلو الشأن ، وكان يرى تضعضع الدولة التركية وضعفها ، وقرب زوالها ، ورأى أن دول أوربة مشتغلة عنه بنفسها ، ورأى ما كان عليه من قوة الجيش ، واشتغال الدول بمهام شؤونها وضعف دولة بني عثمان ، أن الوقت لاكتساحها قد آن ، وميعاد ضمها إلى مملكته ، وتنفيذ وصية بطرس الكبير سلفه اقترب .

وحتى يجعل له سبيلاً لمقاتلتها أخذ يكرر طلبه منها ، حقوق حماية روم الشرق اقتداء بدولة فرنسا ، ومن طبع الدولة التركية المماطلة ، فأخذت تماطله وهو يتأهب ، ويعيد طلبه حتى اكتملت معدات الحرب من تأهيب الجند ، وتحضير السفن الحربية ، وكانت دولة الانكليز وفرنسة تفضلان

الأتراك على الروس ، وتعدان الدولة التركية بمساعدتها لأنهما انتبهتا إلى الخطر المحدق بدول أوربة إذا استولت دولة الروس على الآستانة ، لذلك صممتا على قتال روسية ، لا دفاعاً عن الأتراك بل حفظاً لأوربة من خطر روسية عليها .

وفيما كان قيصر الروس يطالب بحقوقه في حماية بني مذهبه في الشرق ، والدولة تماطله على جاري العادة هجم الاسطول الروسي في بحر الأسود على الأسطول التركي وحطمه ، وكان ذلك كافياً لاشهار الحرب بين الدولتين . وعند ذلك زحفت الجيوش الروسية وتقدمت إلى الآستانة ، وكان لها من النصر ما ذكره التاريخ ، ولا حاجة إلى إعادته ، إنما نذكر أن الدول أدركت دنو الخطر ، لأنها أيقنت أن روسية الظافرة ، فاشتركت كلها على مقاتلتها ، وطالت تلك الحرب ثلاث سنوات ، كان النصر فيها حليف الروس من البداية إلى النهاية، غير أن مداخلة الدول اضطرت روسية إلى ارجاع ما امتلكته ، وأعادت دولة بني عثمان إلى الوجود بعد أن كاد يقضى عليها ، ودفعت دولة الانكليز أكلاف الحرب ، وحصلت الدولة الروسية على مطاليبها وامتيازات فوقها ، مثل إجبارها الدولة التركية على مساواة حقوق النصارى بالمسلمين ، بعد أن كانت الدولة التركية تدعوهم عبيداً ، فقبلت هذه الشروط ، ولكنها لم تبرزها إلى الوجود بل كانت تؤجل العمل بهـا ، والدول تلح عليها في إنجازها ، وكثرت تشكيات قناصلها من سوء تصرف الأتراك مع النصارى خصوصاً بسورية .

وعند ذلك رأت الدولة الأفضل لها أن تقرض هذه الفئة من رعاياها ، وتريح نفسها من مضايقة الدول لها لأجلهم ، وعلى هذا الرأي انتدبت من رجالها الصادقين صادق افندي ، وأرسلته إلى سورية لزرع جراثيم الفتنة ، وإثارة الدروز والإسلام على النصارى وقرضهم ، ولم تتجاسر على اظهار غايتها أو العمل بها رأساً ، خوفاً من قيام الدول عليها ، بل عملت عمل بيلاطس النبطي حيث غسل يديه من دم المسيح ، بعد أن أمر بقتله .



الفصل الثالث والاربعون والمائة

في وصول صادق افندي الى لبنان

قدم صادق افندي إلى الشام في أواخر سنة ١٨٥٩ ، مرسلاً من قبل الدولة لزرع بذور الشقاق بين الأهالي ، وكان مشهوراً في عالم السياسة ، وله فيها القدح المعلى ، فمر ببيروت ، ثم حضر إلى الشام وعين أحمد باشا المشير الشاهاني والياً على ولاية الشام ، وشرع في انجاز مهمته ، وكان كثير الاجتماع بمشايخ الدروز والمسلمين المتعصبين ، وكانت المشايخ تحصل على وعود باهظة أهمها انهم لا يقاصون على فتكهم بالنصارى ، وإن اتموا ما عهد إليهم من التنكيل ، وقرض الكفرة ، ينالون المراتب العالية ، وغير ذلك من المواعيد .

ولم تنطل هذه الحركة على العاقل المتبصر ، فبات من لحظ هذه الشرارة يترقب تأثيرها بقلب واجف ، وقد تبين أن جل مهمته محصورة في هذه الفئة التي تزوره ، ويكثر من الاجتماع بها دون سواها من بقية الأهالي ، وحيث قام عن سورية في قضائها ، وقبل أن يعود إلى الآستانة ، وردت إليه تعليمات من الدولة تشير عليه أن يوصي الوالي بحفظ المبادىء التي زرعها ، ومساعدة البذور على النمو ، وبعد تركه الشام انقلبت سياسة الوالي مع النصارى بطناً لظهر ، وذلك مما يؤكد أنه تلقى أوامر جديدة من صادق أفندي ، لم يكن يعلم بها من قبل ، ولا خطر له العمل بموجبها قط .

وبعد قيام صادق أفندي من سورية حدث في جوها بروق ورعود ، أكد ظهورها أنها طلائع حرب هائلة ، ومجازر ليس بعدها مجازر ، وبدأت غيوم العــداء تتجمع في لبنان الشرقي ، وتمتد منــه إلى الغربي حتى خيمت فوق حاصبيا ، ومقاطعة وادي التيم ، وامتدت منها للبنان الغربي ، حتى عمت مقاطعة المتن الغربية من بيروت ، وخيمت فوق قرية بيت مري وغيرها .

فقام الدروز بتحريض الدولة على يد صادق أفندي ، واستعدوا للحرب ، وأكثروا من التعدي على أمراء شهاب حكام راشيا وحاصبيا منذ القديم ، وقتلوا عدداً من أتباعهم ، ونهبوا أملاكهم ، وغير ذلك من التحرش ، ولا نعيد

التنبيه لمخيلة القارىء أن الدولة دفعت الدروز لذلك ، وكان تعديهم هـذا افتتاحاً للفتنة ليحملوا المسيحيين على دفعهم، وردّ القوة بالقوة ، لأن الحكومة لم تكن تنصفهم ، ولا تقتص لهم من مضطهديهم .

فقتل رعاع الدروز بضعة عشر رجلاً في أقل من شهرين ، فأكثر المسيحيون التشكي للحكومة ، ولا حياة لمن تنادي ، وكان خورشيد باشا والي إيالة صيدا يدفع الدروز بأمر الدولة ، ويحثهم على الفتك بالنصارى ، ويمدهم بمعدات الحرب من ثكنات الجند .

وبينما الأمور على ذلك والناس واجسة خائفة ، هجمت شراذم الدروز على قرية بيت مري في ٣٠ آب سنة ١٨٥٩ ، وأشهروا على أهلها الحرب ، وبيت مري قرية بالقرب من بيروت ، تبعد عنها مسافة ستة أميال فقط ، ولو صاح الرجل منها لخورشيد باشا الوالي لسمعه ، ومع ذلك لم يسمع حتى فرقعة البنادق ، وصليل السيوف ، وكان جمهور من الدروز يسكن بيت مري مع اهلها النصارى .

فاتحد الدروز مع أبناء دينهم المهاجمين على جيرانهم المسيحيين ، واشتد سعيرالحرب فدفعهم النصارى ، وأحسنوا الدفاع ، وبعد ساعات قليلة أجلوا الدروز عن القرية ، وهزموهم شر هزيمة فولى الدروز منهزمين بعد أن تركوا في ساحة الحرب عدداً كبيراً من القتلى ، رغماً عن كثرة عددهم ، وقلة عدد مدافعيهم ، واتسع الخرق ، وتقدم يوسف عبد الملك أحد مشايخ الدروز برجاله ، فسلب وأحرق ثلاث قرى مسيحية ، وقتل بعض رجالها .

ولما وصل الأمر لهذا الحد ، نهض خورشيد باشا من بيروت بفرقة من الجند ، وكانت معدات المذبحة لم تتم بعد ، فغمز الدروز للسكينة ، ريثما تتم المعدات ويأتي لنصرتهم أخوانهم من حوران ووادي التيم ، وغيرهما من الأصقاع الآهلة بالدروز ، فأخلد الدروز للسكينة وموعدهم فصل الربيع المقبل من سنة الأهوال .

* * *

الفصل الرابع والاربعون والمائة

في سنة الاهوال والاستعداد

وبعد حادثة بيت مري الأولى ، تحرك المسلمون في مدن وقرى سورية يريدون الفتك بالنصارى على جاري عادتهم ، لأنه كان يعز عليهم أن يروا قوماً كانوا بالأمس يدعونهم عبيداً ، ويسترقونهم ، واليوم أصبحوا أحراراً نظيرهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، بفضل حرب القرم واكراه الروس الأتراك على اعتاق النصراني ، واعتباره حراً كالمسلم أمام الشريعة ، وكان ذلك يأباه المسلمون ويترقبون فرصة ليوقعوا بهم ، لأنه عز عليهم أن يروا العبد حراً .

فتقاطر أشياخ الدروز إلى بيروت ، وقضوا فصل الشتاء بها ضيوفاً على خورشيد باشا ، وهو يملي عليهم كيفية قضاء المهمة ، وذبح القطيع أو العبيد ، كما كان يعرف الأتراك لقب النصارى .

وفي أول فصل الربيع من سنة ١٨٦٠ هب مشايخ الدروز إلى أوطانهم ، وبدأوا بإعداد معداتهم ، وحشدوا عصائبهم ، وبدأت وفود الدروز من وادي التيم وحوران وغيرها تفد على المختارة ، مركز آل جنبلاط مشايخ الطبقة الأولى من الدروز .

وفي شهر نيسان من تلك السنة، ورد أمر إلى خورشيد باشا من السلطان بإعدام المسيحيين ويأمره باطلاق أيدي الأوباش ، وذبح النصارى عن آخرهم، وللحال اشتهر الأمر في بيروت، وعلم القوم واشتد خوفهم وأيقنوا بدنو الأجل.

وللحال أرسل خورشيد باشا بالأمر إلى سعيد بك جنبلاط ، وأعلمه بفرمان السلطان المرسل للدروز والمسلمين ، يأمرهم بالفتك بالمسيحيين ، وقطع دابرهم ، وألح عليه أن يصدع بالأمر ويباشر المذابح .

وما بلغ جنبلاط بك الأمر حتى بث رجاله لإيصاله لمشايخ الدروز الآخرين ، وأمرهم بالهجوم على النصارى فتقدمت شرذمة من الدروز ، وقتلت بضعة عشر شخصاً من النصارى في الطرقات ، ثم [قصد بعض الدروز] لدير

عميق [على مقربة من دير القمر][1] ، وقتلوا رئيسه ، وهو على فراشه ، وبضعة من خدام الدير ونهبوه ثم حدث لهم مناوشة بقلب دير القمر ، فقتل منهم جماعة وعادوا مخذولين .

أما سعيد بك جنبلاط لما كان عالماً بالأمر السلطاني العالي بإعدام المسيحيين عن آخرهم ، قدم إلى بيت الدين ، وطلب مقابلة مطران الكاثوليك وجبرائيل مشاقة وأخيه روفائيل ، وبضعة غيرهم من أصدقائه ، وأخذهم معه إلى المختارة .

انما روفائيل مشاقة آب راجعاً إلى دير القمر ، على نية أن يرحل عنها إلى بيروت ، لعند ولده خليل ، الذي كان ترجماناً مقيماً لقنصل الانكليز بها ، ولكن طاهر باشا الذي كان مقيماً في الدير ، ومعه فرقة من الجند الشاهاني للمحافظة (كما تدعي الدولة) صدّه عن الخروج من المدينة ، كما منع سواه من الذين طلبوا المهاجرة من تلك البلدة التعيسة ، التي أصبحت نقطة لمذبحة هائلة .

وكانت مشايخ الدروز تجتمع بطاهر باشا ، وتتلقى الأوامر الشاهانية منه ، فكتب روفائيل مشاقة لشقيقه ابراهيم في بيروت بما وقع له مع طاهر باشا ، وهذا أطلع القنصل على الخبر .

وفي الحال أرسل القنصل إلى بشير بك أبي نكد ، وطلب منه مساعدة روفائيل على الخروج من دير القمر ، ووصوله إلى بيروت ، وبعد مماطلة وتكرير طلب ، تمكن روفائيل من البلوغ إلى بيروت بعياله .

وكتب القنصل يوصي سعيد بك جنبلاط بجبرائيل مشاقة ، وكان يقال عن البيك المشار اليه أنه نزيه ، ولا حاجة إلى توصيته ، ولو أمكنه منع القلاقل على الاطلاق لكان ضحى كل ثمين على منعها ، ولكن إذا كانت الدولة تبغي احداث الفتنة والفتك برعاياها ، ماذا تفيد استقامة الفرد ، وكثيرون مثل سعيد بك يودون الوفق والوئام عن المشاكسة والخصام .

* * *

---

(١) الاضافات من حسر اللثام : ١٣٩ .

الفصل الخامس والاربعون

مجزرة دير القمر وجزين في أول حزيران الى ٢١ منه

كان من طاهر باشا أنه أرغم نصارى دير القمر على تسليم سلاحهم له ، وعبثاً حاولوا التخلص من أوامره ، لأن عساكر الدولة كانت منتشرة في المدينة، تنزع السلاح منهم ، وجماهير الدروز رابضة على الطرقات تمنع عليهم الخروج منها ، لذلك لم يقدر الديرانيون على رفض أوامر طاهر باشا ، فجمعوا سلاحهم وسلموه إياه غير أن المطران ، ومن كان معه من النصارى في بيت سعيد بك جنبلاط تمكنوا من القيام عن تلك البقعة إلى صيدا ، وبعد أن فرغ طاهر باشا من جمع السلاح ، سمح للدروز بالهجوم على المدينة ، فدخلوها وأعملوا سيوفهم في رقاب الأهالي ، وكانوا يذبحونهم ذبح النعاج ، وطلبت النصارى الالتجاء إلى السراي فصدهم الجند ، وساعدوا الدروز على التنكيل بهم بدون شفقة ولا رحمة ، ولو أنهم استجاروا بعدوهم الدرزي ، ربما وجدوا بقلبه نوعاً من الرحمة والحنان، ولكن الأتراك أبت نفوسهم أن يكون لها هذا الحنان.

فسالت دماء الأبرار أنهراً في شوارع المدينة ، ودامت الحال ثلاثة أيام متوالية لم ينج من النصارى إلا عدد قليل ، ومن كان له صديق من الدروز مخلص ، دافع عنه أو سعى بنجاته ، وفي نهاية المجزرة نهب الجزارون البيوت، ولم يتركوا فيها غير الذي شاءوا أن يكون مطعماً للنار ، فأحرقوا مساكن النصارى ، ولم يتركوا منها مسكناً ، وأصبحت تلك المحلة بما كان فيها قاعاً صفصفاً ، تنعق في فضاءها البوم والغربان ، ذلك حدث ووالي صيدا مقيم بعساكره في الحازمية لم يظهر اكتراثاً كأنه قدم من عالم آخر لا علاقة له بعالم الدير وحوادثه ، مع أنه علم بمجرياته الأولية ، وربما كان عالماً به من قبل ، وله ضلع بجمع السلاح إلى آخر ما هنالك من التحضير والتأهيب بأمره .

إلا أن قناصل الدول تقدموا إليه ، وشددوا عليه بالقدوم إلى الدير ، والذهاب عن النصارى ، وكان بإمكانه قطع المسافة ببضع ساعات لو شاء

المدافعة عن غنم المسيح ، لكنه جعل مسيره بكل بطء ، فلم يبلغ محل المجزرة إلا بثلاثة أيام ، كأنه أراد أن يفسح للدروز مجالاً للفتك ، وفي وصوله وجد بيت الجاويش لم يزل قائماً ، والدروز يقيمون على حصاره ، والقارىء ينتظر منه المدافعة عن البيت وسكانه وإرجاع الدروز عنه ، فهو لم يفعل من ذلك شيئاً ، بل ظل واقفاً يشاهد بطش الدروز بما كان في داخله من النفوس حتى إذا أبادوها ألقوا في جوانبه النار وعاد شعلة ، فرماداً .

ولم يصدر أمره بالأمان حتى أكد بمرأى عينه أن جميع الأهالي مفروشة على الحضيض جثثاً هامدة ، عند ذلك لعلع المنادي بصوته بالأمان ، ولم يبق حياً حتى يسمع مناداته ، سوى النساء المولولات على فقد رجالهن وأولادهن ، وأصبحن تائهات لا ثياب تجلل حرمتهن ، ولا قوت يسد جوعهن ، فهمن بالبراري ، وطفن على المدن والقرى المجاورة نادبات نائحات مما أصابهن من الويل والعسف والجور ، ودرن على البيوت متسولات بحالة تدمي الفؤاد .

ولم يكف الدروز عن الحرب حتى أكدوا أنهم غدروا بكل حي ، ونهبوا كل متاع ذات قيمة .

أما الجنود التركية فارتكبت المنكر كعادتها ، واستباحت المحرمات ، وهتك العرض ، ومن شب على خلق مات عليه ، وبلغ عدد قتلى مذبحة الدير ما يقارب ألفي نفس من رجال بالغين ونساء وأطفال رضع .

وقام الدروز من دير القمر ، ومن بوابة بيروت وما في طريقهم إلى الشام كانوا يفتكون بمن تصدى لهم من الأحياء ، أو عثروا عليه من المتاع .

والتقوا بالأمير بشير القاسم في طريقه إلى منزله وقتلوه ، ولدى وصولهم إلى جزين أعملوا سيوفهم بالأهالي ، ونهبوا ما وصلت إليه يدهم وزاحوهم عن وطنهم ، وحدث أنه قدر لواحد من النصارى النجاة والفرار إلى قرية جباع ، في بلاد الشقيف ، ونزل على الشيخ عبد الله ضغمة ، فأغاثه وكان لهذا

الشيخ منزلة رفيعة عند الشيعيين : لتضلعه بالعلوم ولحسن سيرته وسريرته ، إلا أن درزياً تتبع أثر المستغيث حتى وصل إلى باب الشيخ، وعند ذلك قامت قيامة المتاولة عليه ، وعلى رفاقه ؛ ونهضوا نهضة واحدة لمقاومة الدروز ، إذ لم يراعوا حرمة شيخهم الجليل ؛ وكان من الوزير لما علم بما وصلت إليه حالة المتاولة والدروز ، أنه أسرع إليهم ، ووصل إلى الشقيف في ثاني الأيام ، مع أن المسافة عن بيروت أضعاف المسافة من بيروت إلى دير القمر ، ولو سار على معدل سيره ذاك لما كان وصل إلى بلاد الشقيف بأقل من اسبوع ، فتأمل كيف أن الانسان آفــة غايته ، وفي وصوله منع المتاولة من الهجوم على الدروز وأصلح بينهم .

* * *

الفصل السادس والاربعون والمائة

في مذبحة حاصبيا

من يوم الجمعة ٢٤ آيار إلى أول حزيران سنة ١٨٦٠ ، في خلال هذه الحوادث استعفى الأمير سعد الدين من حكومة حاصبيا ، وعين والي الشام ولده الأمير أحمد خلفاً له ؛ وكان أحمد باشا والي الشام يظهر للأمير سعد الدين كل تودد واعتبار ، ويخاطبه كما كان يخاطب والده .

فأرسل إليه أمراً يستحثه للحضور إلى حاصبيا ، وجمع بواقي الخراج من الدروز ، وأرسل فرقة من العساكر لشد أزره ، ولما علم الدكتور مشاقة بعزم الأمير على القيام إجابة لطلب الوالي منه ، أشار عليه بعدم الذهاب ، وإعفاء نفسه من هذه الورطة ، لأنه رأى من طالع الحال الخطر عليه من ثورة الدروز ، ولا يبعد أن يفتكوا به ، فاعتذر الأمير أولاً وثانياً عن عدم إمكانه للذهاب ، ولكن الوالي أصر على كلامه وكرر طلبه ، فقام الأمير بالجنود من الشام إلى حاصبيا ، ونزل في مركزه .

وبعد وصوله طلب من الدروز البواقي للحكومة ، وكان هذا الطلب كافياً لإثارتهم عليــه ، فتألب دروز راشيا وإقليم البلان مــع دروز حاصبيا ومجدل شمس من شعراء الحولة المشهورين بالشدة والإقدام ، ونزلوا بالقرب من حاصبيا بقريتي شويا وعنيقة ، ولما اكتمل عددهم هجموا على البلدة ، ولم يلاقوا مقاومة عنيفة من النصارى لقــلة عددهم ؛ غير أن عدد قتلى الطرفين كانت متساوية مع وجود هــذا التفاوت ، وبعد ساعات تراجــع النصارى وتحصنوا في بيوتهم ، ولحقهم الدروز وفتكوا بهم وأحرقوا مساكنهم ، فأمر الأمير قائد الجنود بالهجوم على العصاة بعساكرهم ، وردهم عن بيوت الأهالي فتردد بالمجاوبة على طلب الأمير ، وأخيراً تظاهر بالهجوم ، ولكنه لم يطلق ولا أمر الجنود بإصابة الرماية ، وكان معه مدفع ادعى تعطيله بعد طلق واحد في الفضاء ، والأنكى من ذلك أنه لما رأى الدروز لا يتجاسرون على الدنو من السراي خوفاً من حاميتها المعززة بالسلاح ، عمل على إزاحة هــذا الحاجز ، فطلب من الحامية سلاحها ، وتعهد بارجاع الدروز عن المدينة . فلم يسع اولئك الابطال إلا الامتثال خوفاً من أنهم إذا رفضوا طلبه يتحد بعساكره مع الدروز عليهم ، وبعد أن جمع سلاحهم تظاهر بارساله إلى الشام ، والحقيقة أنه صار تسليمه إلى الدروز ، ولما لم يبق ريب عند النصارى في اتحاد الجنود مع الدروز ، طلبوا الفرار لمرج عيون وهي على مسافة أربعة أميال عنهم ، ولكن حال دون خروجهم من السراي العساكر الشاهانية .

وكان قناصل الدول يلحون على الوالي كي يرسل الجنود ، ويفرج عن الأهالي من ضغط الأتراك وقساوة الدروز ، وقر رأي الوالي على إرسال فرقة كبيرة من الأكراد بقيادة أحمد بك صاحب الشهامة ، الــذي طلب من الوالي أن يسمح له بضرب الدروز ، إذا لقي منهم مقاومة في الامتثال لأوامره، فلم يسمح له بذلك ، ولما رأى عدم التساهل في اجبار الدروز على الكف عن النصارى ، استعفى من القيادة ، وعنــد ذلك استحضر الوالي الشيخ كنج

العماد، وأرسله مع ياوره إلى حاصبيا ، وفي اثناء الطريق استغاثه بضع عشرات من النصارى ، فأغاثهم وأحضرهم معه إلى المجزرة ، وفي وصوله إلى السراي ومفاوضته مع قائد الجنود التركية ، قر رأيهما على ترك الدروز أن تدخل على النصارى ، وتفتك بهم وفي ثاني الأيام تنحى الجنود عن باب السراي ، فدخل الدروز وقتلوا كل من كان بها ، بعضهم بالرصاص والبعض الآخر بالسيوف ، والذي كان يفر منهم كانت الجنود ترجعه وتقدمه للذبح ، وبعد أن أجهزوا على الرعية صعدوا إلى الطابق الأعلى حيث الأمير وصهره موجودان ، وقتلوهما وقتلوا الذين استغاثوا الشيخ كنج وأغاثهم وأحضرهم معه ،وقتلوا أربعة من أمراء الدروز ، ذهبوا ضحية الغلط والطياشة ظناً منهم أنهم من النصارى ونهبوا المدينة ، وأحدثوا النار في معظم بيوتها ، وتركوها خراباً ومن جملة قتلاهم الشيخ أبو صلاح الذي أصيب بجرح ، وقبل وفاته أحضروه إلى قرية شوية ، وعالجوه وكان قائد الجنود يزوره ويصف له علاجاً ، وعند وفاته أظهر كدره الشديد عليه ، وخلع على شقيق أبي صلاح فرواً ، وعزاه وشاطره الأسى على فقده ، ومثل هذه المعاملة وأمثالها كثير مما يثبت للملا اشتراك الدولة في هذه الحوادث التي نرويها لك ، وبلغ عدد القتلى ٧٢٤ من المسيحيين ، و ٤٠ من الدروز وجند الأتراك .

* * *

الفصل السابع والاربعون والمائة

في مجزرة راشيا الوادي من ٣ حزيران الى ١٢ منه سنة ١٨٦٠

في ذات النهار ، الذي جرت به مذبحة حاصبيا بعد أن نزع قائد الجنود من النصارى سلاحهم ، كما تقدم بغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي ، في بيوتهم وفي السراي ، وعلى مرأى الجنود التركية وبمساعدتها أجهزوا على جموعهم ، وقتلوهم مع أمراء شهاب ، ولم ينج منهم سوى أميرين ، ثم نهبوا بيوتهم وتركوها عارية خالية ، وقيل إن عدداً منهم استغاث بأهل الاستقامة من الدروز ، وأغاثوهم وردوا عنهم نكبات اخوانهم ، وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة .

الفصل الثامن والاربعون والمائة

في اجتماع الدروز على زحلة من أواخر حزيران الى ٤ تموز سنة ١٨٦٠

لا ريب أن القارىء يذكر حادثة زحلة سنة ١٨٤١ حين هجم الدروز عليها وشاهدوا من أهاليها الأهوال ، وكيف ارتدوا عنها بالفشل والخيبة ، وكيف أن الأهالي ابتنت المتاريس والحصون عقيب الحادثة ، وأمرت الدولة بهدم ما بنوه ، وغير ذلك مما رويناه في ذلك المقام ، والذي نرويه الآن حدث بعد أن فرغ الدروز من الفتك بأهالي راشيا وحاصبيا إذ تحولوا إلى شن الغارة على هذه المدينة ، التي أبقت في قلوبهم غصة فاجتمعوا من كل حدب وناد ، وتقدموا إليها وقلوبهم واجفة خائفة من شجعانها ، وعدم استسلامهم إلى مواعيد الدولة ، واعتمادهم على قوتهم الذاتية وكأن ما رأوه من غدر الجنود التركية بإخوانهم في دير القمر وسواها من المدن دعاهم إلى اليقظة والحذر، لذلك رفضوا مساعدة الدولة لهم ، ولم يسمحوا للجنود في الدنو منهم ، فنزلت العساكر الشاهانية خارج المدينة ، وكانت مختلطة بعداد الدروز ، كأنها واياهم على وفاق صريح في مهاجمة العدو ، ولم تكتف الجنود بهذه المسالمة والملاطفة لهم ، بل كررت طلبها من النصارى وهم داخل المدينة ، بجمع سلاحهم وإرساله لها ، وكانت أهالي زحلة أكبر من أن يؤخذوا بهذه الخديعة ، فسخروا واحتقروا صغارة الطالب .

وكان من اسماعيل الأطرش ، أنه وهو في طريقه إلى زحلة ، مرّ بقرية كناكر ، وقتل من عثر به من نصارى إقليم البلان الذين كانوا ملتجئين إلى الشيخ من سكانها المسلمين ، وفي وصوله إلى زحلة اجتمع بقائد الجنود بدعوة منه ، وأطلعه على قدوم بطل لبنان يوسف بك كرم الاهدني برجاله الأقوياء ، لنجدة اخوانهم الزحلاويين ، وحرضه على الاسراع بالهجوم على المدينة قبل

وصول الاهدني ورجال شمال لبنان البواسل ، وأطلعه على أن الوالي بذل جهده بصده عن التقدم ولم يفلح .

فاستصوب الأطرش رأي القائد ، وهجم برجاله على المدينة ، وخرج حماة المحلة أصحاب النفوس الكبيرة إلى ملاقاة حرابهم ورصاصهم ، وأرجعوهم عنها مراراً ، وطال القتال يومين في نهايتهما ، قفل الدروز راجعين إلى الوراء ، وأقلعوا عن زحلة مخذولين .



* * *

الفصل التاسع والاربعون والمائة

في قدوم يوسف بك كرم الى زحلة



يوسف بك كرم

ولما انتشرت أخبار الحوادث والمذابح ، وفتك الدروز بالنصارى على السواء ، ومساعدة الدولة لهم في المعمور ، وبلغت شمال لبنان ، نهض يوسف بك كرم ، الذي اسمه يغني عن بيان مقامه برجاله البواسل ، لنجدة أهالي الجنوب ، وفي طريقه مر بكسروان ، وهو على مقربة من مار الياس شويا ، كانت الدروز قادمة إلى ضرب بكفيا بقيادة الشيخ حسين تلحوق ، وعددهم خمسة عشر ألف مقاتل، وعندما علم الشيخ تلحوق، بقدوم بطل لبنان ووجوده في تلك النواحي ، حوّل عزمه عن بكفيا ، فتركها وشأنها كأنه أدرك خطارة الموقف ، وأكد أن وراء الأكمة رجالاً كواسر ، ولكنه أرسل أعلم الوزير بعدوله عن مقاتلة المدفوع لقتالهم ، والأسباب التي دعته إلى العدول ، وعندما

اتصل الخبر بالوزير أسقط بيده . وبالحال أرسل تهديداً إلى يوسف بك كرم إذا ظل في استطراده ، وبالوقت ذاته أعلم قناصل الدول وأوغر صدورهم عليه : بقوله لهم إنه يخشى أن يوسف بك كرم لا يعود يرى أمامه الدروز فقط بل يتحرش بالجنود الشاهانية ، فيوسع الخرق الذي هو ساع في رتقه . وكيف أنه باذل قصارى جهده في غل أيدي الدروز عن النصارى ، وعلى أمل بنجاح مسعاه بالوقت العاجل .

فانطلت الحيلة على عيون القناصل ، وأخذوا كلامه حجة لا ترد . وقر رأيهم على سؤال كرم بك العدول عن متابعة سيره إلى زحلة . فكتبوا له رسالة بذلك ، وطلبوا منه الرجوع إلى بلاده ، وإنه إذا تردد عن إجابة طلبهم يلاقي منهم مقاومة ، ليس من الدولة والدروز فقط بل من دولهم .

ولدى تلقي كرم هذه الأوامر أدرك ما دبره له الوزير . وكيف أنه بسعايته حمل القناصل إلى الاعتقاد بصحة دعواه : فأسف لحدوث هذا التلاعب وانطلائه على عقول من كان يقدرهم أكبر من أن تقوى عليهم برقشة الوزير ، فكتب على الأثر رسالة وأرسلها إلى بيروت عرض بها للقناصل أفكاره ، وما يعلمه من فساد نوايا خورشد باشا . واستشهد بحوادث دير القمر وحاصبيا وراشيا ، وبرهن لهم أن الوزير يترقب الفرص ويحث الدروز على الفتك بالنصارى عموماً وباهالي زحلة خصوصاً . وأرسل إلى الوزير خورشد باشا رسالة هذا نصها : « اني مطلع أيها الوزير على سهرك على راحة الرعية ، الأمر الذي لا ينكره عليك أحد ، وكيف ينكر لك الفضل . ومذابح دير القمر وغيرها من البلدان ، بعد أن جردت أهاليها إخواني النصارى من سلاحهم ، وزربتهم ، وساقتهم جنودك إلى الذبح . ألا تعلم أيها الوزير أني عالم بصدق خدماتك النبيلة هذه ؟

ألا تذكر رسالتك السابقة إليّ . التي بها تتهددني ، وتطلب مني العهدة أن لا أقوم إلى نجدة أهالي الجنوب . ولو قامت الأهوال . وما اكتفيت بذلك كله ، بل سولت لك نفسك الشريفة . والنفس أمارة بالسوء ، وأوغرت

عليَّ صدور مسلمي عكا وطرابلس والضنية وحمص ، وحرضتهم على العبث بناحية الشمال التي افتخر برجالها ، لتقيم أمامي عثرة وتشغلني عن مناصرة الجنوب ، ورد السوء عن أهاليه الأماجد .

واعلم أن الرجال الذين ردوا غارات أولئك القوم ، وبددوا جموعهم المجتمعة لم يزالوا أحياء ، وهم معي الآن فبهمتهم القعساء ، وعلـو نفوسهم الشمـاء أقتحم صفوف الرجال ، ولو كانت بعـدد الرمال ، واقتلع أركان المدافع ، ولو كانت بأعز مكان يقدر أن يتصوره الانسان ، نعم أن لا رابطة سياسية تعلقني بالجنوب ، ولكن رابطـة الوطن والمذهب وحب الفضيلة ، وقطع الفساد ، كـل هذه الروابط ، وواحدة منها تفوق الأولى تدفعني إلى تضحية نفسي ونفوس رجالي الاعزاء في الذود عن أهالي الجنوب فتدبّر وكن حكيماً » .

وبعد أن أرسل الرسالتين رجع بأفكاره إلى رسالة القناصل له ، فرأى أنه واقع بين شرين ، وكلاهما ذو خطارة ، إن رفض أوامر القناصل ، يحقدون عليه ، وإن عمل بموجبها يوخزه ضميره على تقاعده عن مساعدة إخوانه ، وقر رأيه على ألطف الشرين وأخف الويلين ، فانتخب من رجاله مائة وخمسين مقاتلاً ، وأرسلهم إلى زحلة بقيادة الأمير داود مراد ، وأنهى إليهم أن يطلعوه على مجريات الأحوال وإن رأوا تفاقم الأزمة واقتراب الخطر على الأهالي يقوموا بهم إلى بعلبك ومضوا .

ولقيت هذه الفرقة الصغيرة كـل حفاوة وترحاب من أهالي المدينة ، وأطلعوهم علـى الأسباب التي منعت بطلهم من الوصول إليهم ، وكيف أن الوزير خدع القناصل بأقواله المارقة ، وتغلب على دعم كلامه ببراهين قاطعة .

وآخر الكلام أشاروا عليهم بالقيام إلى بعلبك ، وهجر المدينة .

فقر رأي الجمهور عندئذ على العمل باشارة البك ، وبدأوا بالتأهب والاستعداد ، وبعد أيام سيروا النساء والأطفال مع حامية إلى بلاد بعلبك ، وبقي الجانب الأكبر منهم بالمدينة ينتظرون ما يأتي به الغد .

الفصل الخمسون والمائة

في مقاصد خورشد باشا

وصل إلى الوزير كتاب يوسف كرم ، فوقع عليه كالصاعقة ، على ما فيه من الخشونة والحماسة ، وخاف على نفسه من اطلاع كرم على دسيسته إلى القناصل ، وأن ما دبره للزحليين من الإحن يذهب ضياعاً ، إذا لم يسرع في طلق آخر سهم بجعبته ، وقام لساعته واجتمع بالقناصل ، واعترض على كلام كرم بك اعتراضاً شديداً مفحماً ، وكرر وعوده الأولى لهم بالمحافظة على راحة الرعية بالسواء ، وكان كتاب كرم وصل إلى القناصل ، فوقعوا بحيرة بين الاثنين ، هل يصدقون كلام الوزير ويعملون به ، أم بكلام يوسف بك كرم . وكأن المواجهة الشخصية أثرت بهم أكثر من الكتابة ، فركنوا إلى مواعيد الوزير ، وكتبوا إلى كرم ثانية ما كتبوه أولاً ، وقالوا له : إن علمت بهجوم الدروز على زحلة ، لك عندئذ أن تقدم إلى نجدة الأهالي .

وفي رجوع خورشيد باشا إلى مركزه ، أرسل إلى الدروز أعلمهم بعزم كرم ، وما يبغيه من المساعدة والذود عن النصارى ، وحثهم على الهجوم ، وضرب المدينة ثانية بالقريب العاجل ، قبل أن تتأكد القناصل فساد العمل ، ثم كتب إلى قائد الجنود أن يساعد الدروز ، ويمدهم بالرجال والذخيرة ، ويبطش بكرم ورجاله إن تقدموا إلى إحباط مسعاهم ، وبلغ الدروز أنه لم يبق لهم من الفرصة لضرب زحلة سوى يوم فإن أبطأوا إلى أكثر تدهمهم قوة الشمال المشهورة .



الفصل الحادي والخمسون والمائة
في نكبة زحلة

وصل لكرم بك جواب القناصل ، وفي الوقت ذاته وصل للدروز ، ولقائد الجنود كتاب الوزير ، واجتمعوا وقر رأيهم على إعمال الخديعة .

وفي ثاني الأيام أرسل الدروز فرقة منهم إلى أسفل زحلة لقتالها ، فهددهم الزحليون ، واحسنوا الدفاع ، وأرسلوا فرقة ثانيـة من الجانب الآخر ، ونشروا بينها أعلام وبيارق شمال لبنان وغير ذلك من الرموز ، فانخدع بهم أهالي المدينـة ، وظنوا رجال يوسف بك كـرم قادمين لنجدتهم ، فخرجوا للاقاتهم بالعراضات كما هي العادة، وعندما اقتربوا منهم على مرمى الرصاص، شعروا بالخديعة ، وانجلت لهم الدسيسة ، حيث أطلق عليهم الدروز رصاصهم وفتكوا بمعظمهم ، ولما كانت بنادقهم خالية من الرصاص رجعوا مدحورين إلى المدينة ، وتبعهم الدروز على الأثر ، ودخلوا وراءهم ، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فتأكد للاهالي صدق نبوءة كرم بك ، وقرروا أن يتركوا المدينة ، ويقوموا مع رجال الشمال إلى بعلبك لئلا يصيبهم ما أصاب أهالي دير القمر وراشيا ، وهكذا فعلوا .

وعند اخلائهم المدينة دخل الدروز والجنود العثمانية ، وأعملوا سيوفهم بمن وجدوه من المتخلفين ، ونهبوا ما عثروا عليه ، وارتكبوا المنكر ،وأحدثوا النار في معظم بيوتها ، وبعد أن أنجز الدروز مهمتهم ، برحوا المدينة ، وأخلفوا بها العساكر التركية ترتكب الفحشاء ، وتهتك حرمة العذارى ، وهجموا على ديـر الراهبات الذي لم يدن منـه الدروز ، واغتصبوا الراهبات ، ونهبوا ما عثروا عليه من المتاع فيه ، وفي بقية الكنائس ، وقاموا بما أمرهم به الوزير أحسن قيـام .

وقد بلغ الخبر مسامع يوسف بك كرم في منتصف الليل ، فنهض للحال برجاله وأسرع في المسير ، ولم يصل اليها الا صباحا بعد أن لعبت بهـا أيدي الدروز ، وتمتعت بمحصناتها وحوش الجند الشرهة ، وفي وصوله رجعت تلك النفوس الدنيئة إلى معاقلها ، وتظاهرت بتخفيف المصاب عن الأهالي ، غير أن هذه المظاهرات لم تنطل على رجال الشمال وبطلهـا المغوار ، فتحمسوا ممـا شاهدوه ، واختبروه وعولوا على البطش بالقائد وعساكره ، ولو لـم يردهم بطلهم وقد اعتادوا طاعته ، لما أبقوا منهم مخبراً .

فقام الجنود عن المدينة كأنهم رأوا حراجة مركزهم ، وتحولت رجال يوسف بك إلى اعانة الأهالي ، ووردت الأعلام من قناصل الدول إلى يوسف بك كرم ، على تعقب الدروز ، وأظهروا أسفهم لعدم اتخاذهم كلامه ثقة ، والدروز كانوا تفرقوا بعد انجاز مهمتهم شذر مذر ، بإيعاز من الوزير لاذوا بالسكينة ، بعد أن قتلوا ونهبوا كل ما وقعت يدهم عليه .

وحادثة زحلة كانت آخر الحوادث اللبنانية ، وتعد طفيفة بالنسبة لحادثة دير القمر وحاصبيا ، حيث رفض أهلها دخول الجنود إلى المدينة وأبوا أن يسلموا سلاحهم ، ولم يقتل منهم فوق المائة .

وهكذا كانت نكبات لبنان عن يد دولتهم الفخيمة ، التي أرادت أن تميت منهم عزة النفس والاقدام المشهورين بهما ، ورأت اخضاعهم وإذلالهم وإضعافهم عن مقاومة رجالها الذين كانت ترسلهم لابتزاز مالهم ، وكأنه ساءها ما شاهدته بهم من عزة النفس ، وحب المدافعة عـن حقوقهم ، فعزمت على قرضهم ، ولم يكن التركي رحوماً فيشفق ، ولا شهماً فيرد المعروف بمثله .



الفصل الثاني والخمسون والمائة

في مخابرة القناصل دولها

وفي انقضاء نكبة زحلة أيقن القناصل بفساد مقاصد الوزير ، وأكدوا أن له يداً بحوادث لبنان كلها ، وانجلت لهم عهوده الباطلة ، فأرسلوا قراراً لدولهم شرحوا فيه حوادث الجبل حادثة حادثة ، وأسبابها ، ومن هو العامل على اثارتها ، وطلبوا منها الاسراع ، وإعمال التدابير في حفظ حياة من بقي من النصارى في سورية واطلعوا دولهم على ما قررته الدولة العثمانية سراً ، وهي لم تزل ساعية إلى انجازه ، وقرارها قرض النصارى عموماً من سورية ولبنان ، لترفع عنها ثقالة مطالبتكم بهم ، وكيف كانت جنودها تعضد الدروز بكل فرصة سنحت لهم ، وطلبوا منها التشديد على الدولة وارغامها على ما قررته .

وعندما وصلت تقارير القناصل إلى مراكزهم وعلمت الدول مقاصد الأتراك وعملهم الفظيع ، طلبوا بلهجة واحدة من الدولة التركية التوقيع على المعاهدة لحماية النصارى ؛ وأحق هذه الدول في الطلب دولة فرنسة ، واجتماع الدول على المطالبة بذات الحق لا يراد به إلا التهويل ، ولما كانت الدولة مفطورة على المماطلة ، رجعت تماطل الدول كعادتها ، وخافت أن يجبروها على التوقيع قبل أن ينفذ سهمها في قلوب علة هذه المطالبة ، فأرسلت إلى مأموريها عموماً ، وإلى أحمد باشا والي الشام خصوصاً ، وطلبت منهم أن لا يتركوا واسطة إلا ويطرقونها لقرض النصارى ؛ من بين بقية رعاياها ، لأن وجودهم يقتضي مراقبة الدول على أعمالها الجزئية والكلية ، وذلك مما يحط بعظمتها، ويحول دون استطراد حكمها على رجالها المسلمين .



الفصل الثالث والخمسون والمائة

في التدابير التي اتخذها أحمد باشا لمذبحة الشام

قيل إن مذبحة الشام لا علاقة لها بحوادث لبنان ، ولا تعزي لها الأسباب التي عزيت لتلك، وأن من أسبابها الأولية عبث النصارى بالشريعة التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القرم ، مكرهة من دولة الروس على وضعها ، ومفاد الشريعة مساواة الرعايا بالحقوق المدنية ، وإعفاء النصارى من الخدمة العسكرية ، وهذه الشريعة على ما فيها من الغبن بحقوق المسلمين كانت الباعث على انشاء الضغائن والأحقاد لما فيها من الممايزة ، وكانت الدولة تتقاضى [من] النصراني بدلاً عن الخدمة العسكرية خمسين ليرة ، ومن المسلم مائة ، فهذا التمييز المحسوس حمل النصارى إلى المظاهرة ، ونفخ صدورهم تعنتاً ، وزاد عقولهم تصلباً ، وصاروا يتباهون به ، وظنوا أنهم قبضوا على مفاتيح السماء ، وكان يكفي للمسلمين التعصب الديني ، والعداء المذهبي لإغارة أحقادهم على النصارى ، فجاءت هذه الشريعة ضغثاً على إبالة .

وقيل : إن الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة ، التي يقال عنها المساواة ، وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبها على النصارى ، وتجعل لهم سبيلاً لبغضهم ومقتهم ، ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة ، لرفضوا اعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية ، وأبكمت لسانهم عن المطالبة بحقوق جنسيتهم ، وإعدادهم من الدخلاء تلك هفوة كبيرة، وأكبر منها اتخاذهم شريعة المساواة غير مأخذها فتجازفوا بها جزافاً ، وعبثوا بحقوقها المقدسة ، وضلوا عن الهداية وتناسوا ماضي أيامهم ، وكيف كانوا يسامون ويعاملون من الرعايا المسلمين أنواع العذاب وأشده من الحطة ، كأحط وأحقر معاملة نالها الرقيق بأيام رقه وعبوديته .

وكان مسلمو دمشق عموماً وسورية خصوصاً على الاطلاق ، لا ترى بهم أهلية للحرية ، وكانوا يسفهون على الدولة التركية عملها الذي قامت به

مضطرة ، عقب حرب القرم ، كما كان يسفه سكان جنوب أميركا دولتهم على تحريرها العبيد الأرقاء ببلادهم •

وكثر تذمر المسلمين من الدولة مع التقريع ، فأجابتهم أنها لم تفعل ذلك إلاّ مضطرة ، وبلغ من حقد المتعصبين أنهم تآمروا ، وألفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية، وإبدالها بدولة تعيد مجد الإسلام والاسترقاق للمسيحيين ، وبلغ الأتراك أمرهم ، فأوغروا صدورهم على النصارى ليلهوهم عنهم ويتخلصوا من شرهم والله أعلم •

ولما وصلت تعليمات الدولة للوغد أحمد باشا ، اتنبه إلى طريقة افراج الدولة من هذه المعضلة ، وكأنه لحظ أن الافكار تهيأت ، وعلى استعداد لبث شكواها إلى السيف •

فاستحضر وجوه النصارى ، وطلب منهم دفع ثمن بدل الخدمة العسكرية عن عموم اخوانهم ، وهددهم بالسجن إذا لم يسرعوا بتحضير طلبه ، ولما لم يكن لهم مقدرة على مجاوبته كما يريد ، اعتذروا له ، وعند ذلك أمر بسجنهم إلى أن يتعهدوا له بدفع كل ما يطلب للحكومة من نصارى المدينة •

وكان يلقي القبض على كل من علم بمقدرته ، فامتلأت السجون وتعطلت الأشغال ، وعلا صراخ العيال من الجوع والفاقة ، وأصبحوا بحالة يرثى لها فذهبوا إلى بطريرك الروم الارثوذكس ليستغيثوا به ، ولسوء الحظ كان متغيباً عن الكرسي ، ولم يكن في البطركخانة غير نائبه المطران يوسف أسقف ، ولما رأى حضرته قدوم الجمهور إليه على تلك الحالة ، داخله الرعب نظراً لجهله عوائد البلاد ولغتها ، وللحال كتب للوالي ، وعرض له أن النصارى تجمهروا كعصاة وأرادوا الايقاع به •

وقصد بذلك أن يبرهن للوالي عن حالتهم وفقرهم وعدم مقدرتهم ، حتى على تحصيل معاشهم ، فكيف دفع مطاليب الدولة منهم ، وغاب عنه أن

الحكومة تتشاءم من كلمة عصاة ، وتبني عليها القصور العالية لا سيما إذا عنت النصارى ، وأن لها وقعاً سيئاً بأذهان مسلمي المدينة الذين كانوا منتظرين سنوح الفرصة للايقاع بالنصارى ، لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظر الحاسد المنتقم المتعصب ، خصوصاً بعد ما بدا من النصارى على اثر شريعة المساواة [من] المباهاة،وعدم الاكتراث بمن حواليهم، فشق على المسلمين أن يروا رقيقهم بالأمس ، أصبح يقاسمهم الحقوق والنفوذ ، بعد أن كان بقبضة يدهم يتصرفون بماله وراحته ، ويتحرشون بعرضه متى وكيف شاءوا ، حتى أنهم كانوا يطلقون عليه أحقر الأسماء التي تدور بمخيلتهم، ويجلون مجالسهم عن ذكره ، حتى بقلب مركز الحكومة ، فضلاً عن الشوارع والأزقة، فجاءت كتابة المطران يوسف إلى الوالي عن ثورة النصارى سلاحاً ماضياً بيده على الفتك بهم ، فأثاروا الخواطر ، ونفخ بصدور رعاع المسلمين روح الفساد ، فأماط عن الضغائن الكامنة ، ولم يشأ ردع النصارى رأساً ، فأناط بتأديبهم رعاع المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم ، ولا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب ، وكانت الدولة غير راضية منهم لفتكهم ببعض وزرائها ، وامتناعهم عن إجابة مطاليبها ورغبة أحمد باشا باثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم أو من بعضهم، فيقل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح اخضاعهم لأوامر الحكومة مكفولاً ، فيرد عن دولته الخطر الذي كان يتهددها به مسلمو الشام الذين جاهروا بخلع دولة الأتراك عنهم ، وراسلوا دولة مصر لتأتي لنجدتهم ولم يفلحوا .



الفصل الرابع والخمسون والمائة

في بوادر ثورة الشام

ومما زاد الطين بلة ، هو ما كان يأتيه أحمد باشا من الأعمال ، والاستعدادات وذلك أنه :

أمر بنصب المدافع على أبواب الجامع الأموي ، وأعلن أن غرضه من ذلك الاحتراس من غدر النصارى بمن يكون داخله في أوقات الصلاة ، وغايته ليزيد المسلمين حقداً وكرهاً للنصارى ، ويزيح الرماد عن النيران الكامنة بصدورهم ، وهل يعقل أن المسلمين الذين هم أصحاب الحكومة ، ولهم ولاء الجنود ومعداتهم الحربية من مدافع وقلاع وذخيرة ، ويبلغون نحو ثلاثين ألف مقاتل بالمدينة ومائة ألف بجوارها يخشون بطش وغدر بضعة آلاف رجل أكثرهم لا يعرفون نقل السلاح ، ولا يصلحون للقتال ، ومعظمهم لا يقدم على ذبح ديك أو حمامة فيحملهما إلى الجزار هرباً من الوقوع تحت جرم القتل ، فهل يصدق العاقل ادعاء أحمد باشا بأن حياة مائة وثلاثين ألف بخطر من ثلاثة آلاف مسيحي ، تسعون بالمائة منهم لا يوجد عندهم قطعة سلاح تصلح للدفاع ، وإن وجد عند بعضهم لا يحسنون المدافعة ولا المقاتلة ؟!

فأحمد باشا كان يفعل ذلك كله ليثير أحقاد المسلمين على النصارى ، وخصوصاً الرعاع منهم ، وهذه المظاهرات لم تجعل تأثيراً على عقول الخاصة ، ولا انطلت عليهم إنما كان تأثيرها في أشده على عقول العامة ، فتمسكوا بها واستعدوا للفتك بالنصارى ، عند أول اشارة تصدر من الوالي الحكيم .

وبينما كان النصارى بالحصار منهمكين بأشغالهم ، ومنفردين لأعمالهم في جوار المدينة ، ثار عليهم الدروز والمسلمين معاً ، وسدوا عليهم الطرقات فوقع عليهم الخوف وتولاهم الرعب ، وكثير منهم جاء من أمكنة بعيدة ، فتعذر عليهم الرجوع إلى محلاتهم ، فاضطروا للبقاء تحت الخطر المحدق بهم ، ونصارى المدينة لو تمكنوا من الخروج وترك المدينة لما ترددوا لحظة ، إنما آثروا البقاء على القيام لعلمهم أن على الطرقات يلاقون حتفهم ، مع أن بقاءهم لم يكن أخف خطراً على حياتهم .

الفصل الخامس والخمسون والمائة

في احتفال الحكومة لنكبة زحلة رابع تموز سنة ١٨٦٠

ولما بلغت الحال في هذه الدرجة من التفاقم والحراجة ، اجتمع قناصل الدول بدمشق ، واعترضوا على الوالي لعدم اكتراثه لما يجري أمامه وعلى مسامعه من الحركــة والقلاقل ، واضطروا لتلافي الخرق الذي أحدثه قبــل اتساعه ، فيجلب أموراً وخيمة العاقبة .

فماطلهم بالجواب ، ولم يحتفل بكلامهم ، وعندما رأوا منه ذلك طلبوا مقابلته ، ولم يسمح إلاّ لواحد منهم ينوب عنهم ، فأرسلوا بورغاكي نائب قنصل دولة اليونان ، فقابله وعرض له ما ترتأتيه بقية القناصل من وجوب تسكين الخواطر ، وايجاد الأمنية ، وهدده بالمسؤولية ، ومطالبة الدول منه ما يقع على النصارى من الضرر ، ورجع عنه بالخيبة والقنوط ، وفي هذه الأثناء ورد خبر نكبة زحلة ، وتغلب الدروز مع معاضدة الجنود على فتحها ونهبها ، وكان لوصول الخبر وقع حسن في دوائر الحكومة ، وبقية المسلمين فأمر أحمد باشا بإقامة الأفراح وتنوير الشوارع احتفالاً بفتوح زحلة ، كأن الدولة استولت على عاصمة القياصرة أو قلعة سباستبول ، أو جبل طارق أو غيرهما من الممالك والقلاع الحصينة في العالم .

إلاّ أن محمود أفندي حمزة ، استاء من هذه المظاهرة ، وإقامة الزينة والاحتفال ، وأمر بأطفاء الأنوار التي كانت بالقرب من منزله ، أما النصارى فلم يعد عندهم ريب بحلول مصابهم وقرب أجلهم عن يد الحكومة ، وانقطعت آمالهم بها ، وتكاثرت النصارى عدداً عن ذي قبل لصعوبة الخروج من المدينة ، ومن جوارها ، فاضطر عدد عظيم من الفقراء إلى المجيء إليها ليحصل على سد رمقهم ، أو لتقديم أعناقهم للقطع والحصد ، وقائل يقول انهم جاؤوا لفقد

الأمنية في النواحي التي كانوا يقطنونها ، فقدموا إلى الشام ليستجيروا من الرمضاء [بالنار] •

وكان النصارى يأتونها من راشيا وحاصبيا وبقية القرى المجاورة لها ؛ وكثر حشدهم وضاقت المدينة على رحبها بهم ، ولما لم يكن محلات كافية يأوون إليها اضطر أكثرهم مع عيالهم وأطفالهم أن يتوسدوا الثرى في الشوارع ، وباحات الكنائس ، وجعلوا الأرض فراشهم والسماء غطاءهم •

وبالرغم عن الفاقة التي بها نصارى المدينة ، كانوا يشفقون على اخوانهم ويمدونهم بكل ما في وسعهم •

وقد خصصوا لهم فرناً من أفران المدينة ليقدم لهم ما يخبزه من العجين لسد جوعهم ، وأضرب المتوظفون بدوائر الحكومة من النصارى عن عملهم ؛ خوفاً على حياتهم وتفاقم الخطب وقرب يوم العصب ، ووقفت حركة الأعمال حتى في دواوين الحكومة ، حيث أكثر الكتبة منهم ، والقلاقل تزداد يوماً فيوماً ؛ وقدوم الدروز إلى المدينة على تكاثر من يوم إلى آخر •

كل ذلك وأحمد باشا لائذ إلى السكون ، لا يحرك صامتاً ، ولا يسكت صائحاً ؛ وقد تقرر من سكوته وسروره عندما بلغه نكبة زحلة أنه العامل القوي في حدوث الاضطراب والتشويش ، وكثيراً ما كان يقول : اللهم أهلك الكافرين ، متحدياً خورشد باشا والي صيدا النذل •

* * *

الفصل السادس والخمسون والمائة

في مأثرة الامير عبد القادر الجزائري

قنط النصارى من النجاة من مخالب الحكومة ، وشراسة الأتراك ، وحقد المسلمين وقساوة الدروز وابتلوا بالفاقة ، فقنطوا من الحياة جوعاً ، وتعددت عليهم المصائب ، وكثر ارتباكهم ، ولكن قدر لهم أن يكون بين المسلمين شهم يرق لحالهم ، ويرثي لمصابهم ، وهذا الشهم الذي نعنيه هو الأمير عبد القادر الجزائري الذي طبق ذكره الخافقين ، وعم فضله وكرمه نصارى الشام على السواء ، وكان لا يترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم ، واجتمع بالوالي مرات، وبأعيان المدينة ووجوه قراها ، وحضهم على السكينة والاخلاد إلى السلام والاقلاع عن الثورة ، وترك النصارى وشأنهم ، وقد بين لهم وخامة العواقب التي تسقط على رؤوسهم إذا عملوا على الفتك بهم ، وكيف تخرج البلاد من أيديهم ، وأظهر لهم عوم جواز قتل المسيحيين شرعاً وديناً ، وأفرغ قصارى جهده في ارجاعهم إلى الهدى والصواب ، ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعود بإجابة طلبه، وفي السابع والثامن من تموز سنة ١٨٦٠ راقت الأحوال، ورجع شيء من الطمأنينة إلى قلوب النصارى ، واصدرت الحكومة أمراً للكتاب بالعودة إلى أشغالهم ، وتهللت وجوه النصارى ، وتفاءلوا من هذه الهدنة خيراً ، وخرج أصحاب الأعمال إلى أشغالهم ، وعادت الحركة التجارية والصناعية إلى سابق عهدها .

* * *

الفصل السابع والخمسون والمائة

في مذبحة تاسع تموز سنة ١٨٦٠

خرجت أصحاب الأشغال إلى العمل وأفكارهم هادئة نوعاً . غير عالمين ما تولده الأيام من الإحن والكوارث . وأمر الحاكم أحمد باشا في عصاري النهار باخراج بعض الرعاع المسجونين من المسلمين، بقصد تطوافهم بالشوارع وهم مكبلون بالقيود ارهاباً للثوار من المسلمين والدروز معاً[1] : هذا ما أشاعه به . إنما غرضه من تجول المحابيس على تلك الصورة ليس الإرهاب كما كان يوهم البعض . بل ليحرك عواطف المسلمين . ويجعل لهم سبيلاً إلى الفتك والتحرش بالنصارى لأن عمله كان قد نضج .

وفي وصول المحابيس إلى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر . وبطشوا به وخلصوا رفاقهم من القيود . ونادوا بالجهاد لقتل الكفار . وكان ذلك النهار بدء المذبحة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، والنكبة التي ليس فوقها نكبة . عمت نصارى المدينة وكادت تكون القاضية عليهم .

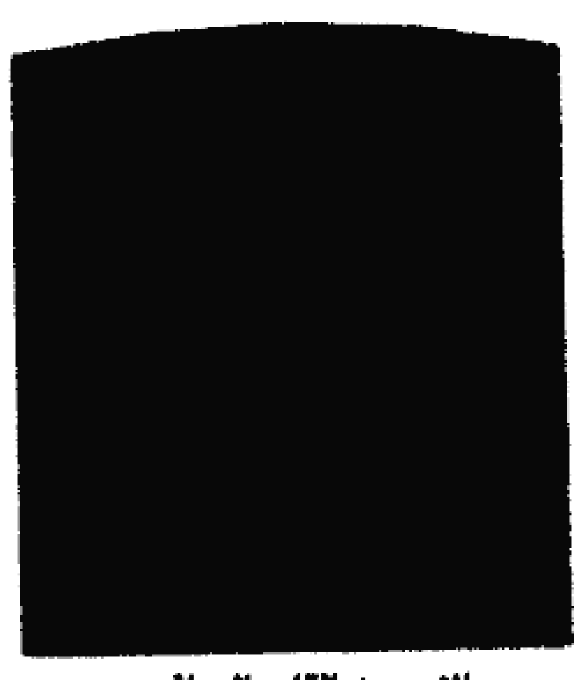
وكان النصارى متفرقين بالمدينة ، ذلك مما زاد ضعفهم ، فهجم أوباش المسلمين عليهم في بيوتهم ومحلاتهم ، وأين ما عثروا أعملوا بهم السيف .

وقد اخترقوا حرمة العرض ، فدخلوا البيوت ، وقتلوا الرجال وسبوا العيال ، ونهبوا وارتكبوا المنكر . ولم يتركوا أمراً قبيحاً إلا وفعلوه ، ومحرماً إلا واستحلوه . حتى أنهم نهبوا الكنائس وقتلوا الرهبان في مخادعهم ، والحقوا أضرارهم بالمرسلين أصحاب الرسالة من الانكليز وسواهم . ولم يبقوا ولم يذروا ، فقتلوا القوي والضعيف الصغير ، والشيخ الكبير المريض بفراشه . والكسيح في ساحته . والضرير على عكازه ، ورجال الدين وهم سجود أو نيام ، وكان فتكهم بالنصارى الذين جاؤوا المدينة ملتجئين إلى حكومتها ذريعاً . فقتلوا منهم عدداً كبيراً واستباحوا المحرمات ، وقصدوا مستشفى البرص والجذام ، وفتكوا بالمرضى . ونهبوا ما وجدوه من المال .

---

(١) قارن هذه الرواية برواية الحسيبي . في الملحق الاول .

وأحرقوا مكانهم ، ثم قصدوا دير الرهبان الاسباني ، وقتلوا ثمانية من رهبانه، ونهبوا ما عثروا عليه من المتاع ، وأطلقوا النار في المحل ، وقصدوا دير العازرية الفرنساوي ، وصدتهم حاميته القوية عن الدخول إليه بضع ساعات ، حتى قدم لنجدتهم الأمير عبد القادر الجزائري برجاله ، وأفرج عن الرهبان ، وحفظ حياتهم إنما لم يقو على حفظ الدير من النار ، والمال الموجود به من السلب ، فنهبوه وأحرقوه ، ولم يكن هم الأمير إلاّ المدافعة عن الحياة .



الامير عبد القادر الجزائري

وأرسل أحمد باشا قوة عسكرية إلى حي النصارى ، بقيادة صالح زكي بك ، ليوهم الشعب اخلاصه لهم ، وفي وصول هذه الفرقة وقائدها الشجاع أفرج عن النصارى ، وبـدد جموع المسلمين عنهم ، ولم يكن مأذوناً برماية الثوار محلاً قاتلاً ، فكان يطلق عليهم طائشاً ، ومع ذلك لكونه تغلب على طردهم من حي النصارى ، نال غضب أحمد باشا وكدره ، فاستقدمه وحاكمه وأرسله إلى الأستانة تحت جرم الخيانة ، ولم تكن جريمته سوى أنه غل أيدي الثوار عن النصارى ، كأنه كان جاهلاً مقاصد الدولة وأحمد باشا الوغد بهم.

وفي مساء ذلك النهـار اجتمع الأمير عبد القادر الجزائري بأحمد باشا

وأعضاء مجلس الشورى ، وسألهم مساعدتهم على إطفاء شرارة الثوار ، وبين لهم براهين أدعمها بآيات الشرع ، تقضي على الحاكم بمقاتلة الثوار ولو كانوا من أهل الشريعة ، وساعده على تثبيت دعواه مفتي الولاية طاهر أفندي ، فقرر رأيهم على معاقبة الثائرين ، ومقاتلتهم إذا ثابروا على ملاحقة الثورة والفتك بالنصارى ، وقفل راجعاً إلى بيته يعدّ رجاله إلى الغد ، ولم يمض على رجوعه عن أحمد باشا بضع دقائق حتى ألحقه برسول وعرض له عدوله عن ضرب الثائرين وإرجاعهم للطاعة ، عند ذلك حول اهتمامه لتخليص من يقدر على خلاصه من العيال والرجال بيض الله وجهه •

* * *

الفصل الثامن والخمسون والمائة

في مدافعة الجزائري عن النصارى

ولما قنط الأمير عبد القادر من مساعدة أحمد باشا بالمدافعة عن النصارى أمر رجاله بالذهاب إلى حيهم ، وعزم أن يضحيهم في الذود عن عيالهم وأطفالهم ونساءً وأطفالاً ، وكل من يقدرون على الوصول إلى تخليصه من مخالب
ونساءً وأطفالاً ، وكل من يقدرون على الوصول إلى تخليصه من مخالب
الثائرين •

واقتدى به أسعد أفندي حمزة ، وطاف برجاله شوارع المدينة ، وأغاث الملهوف وأحضره إلى بيته •

وعلى هذا النحو جرى : الشيخ سليم العطار ، وصالح آغا شوربجي ، وسعيد آغا النوري ، وعمر آغا العابد جاؤوا إلى حي الميدان ، ودافعوا عن سكانه دفاعاً مشكوراً ، مع أن رعاع المسلمين كثروا في ذلك الحي وزاد بطشهم •

وكان هؤلاء الأبطال يتباهون بكثرة ما تحضره رجالهم من النصارى ، وقد اجتمع عند صالح آغا بضع مئات ، وكان يقدم لهم كسوة وطعاماً ، وكان الحشد في بيت الجزائري عظيماً ، وفي ثاني الأيام لم يحدث في المدينة غير استحضار ما بقي إلى بيوت أولئك الأبطال المار ذكرهم ، الذين ثابروا على تخفيف الكروب ، واطفاء شرارة الثورة جهدهم ، وقد نجحوا في ذلك النهار . وفازوا بتسكين الخواطر ، وقمع العصاة نوعاً إنما أتى نهار الأربعاء وهو النهار الثالث من حدوث المذبحة بجيشه وجنده ، وهدم ما بنوه بالأمس : وذلك أنه خرج جمهور من رعاع المسلمين في ذلك الصباح ، ونشروا أوامرهم في أنحاء المدينة على كل مسلم أغاث النصارى في بيته ، ولم يزل مستحفظاً عليهم أن يسلمهم ليفتكوا بهم ، وإن خالف وأصر على رفض طلبهم يهجمون على بيته ، ويبطشون به وبعياله ، ومن كان داخل بيته وبعد أن يجهزوا على الأرواح ، وينهبوا موجودات البيت يحرقونه .

فخارت قوى بعضهم ، وخافوا على حياتهم من بطش الرعاع بهم ، ولم يروا بدأ من تسليم النصارى الذين أغاثوهم ، للثوار بعد أن تكبدوا المشاق لتحضيرهم ، فأدخلوا العصاة عليهم ، وهناك علا صراخ الأطفال ، وعويل النساء وأنين الرجال ، وكانوا يأخذون الأحداث والرضع عن صدور أمهاتهم، ويذيقونهم حتفهم على مرأى منهن بلا رحمة ولا حنان .

وقدم بعض الثوار إلى الصالحية ، وأطلقوا الصوت على سكانها من المسلمين،وحمسوهم على نجدة العالم الشيخ عبد الله الحلبي[1]، وطرد النصارى الذين هجموا على بيته ، يريدون الايقاع به ، وبكل من وجدوه في البيت ، فهب مسلمو الصالحية ، وهجموا على المدينة ، وقصدوا بيت الأمير عبد القادر الجزائري ، حيث بلغهم أنه محتفظ على عدد كبير من الكفرة ، فتجمهروا حول منزله ، وراموا الفتك به إذ أبى أن يسلمهم النصارى الموجودين عنده ، ولم يكن الجزائري ممن يهولهم التهديد والوعيد ، فخرج إليهم برجاله الأمناء وتهددهم بصرامة العقاب إن تحرشوا بحرمته ، وأظهر لهم

---

(1) يحسن معارضة هذا بما ذكره الحسيبي — الملحق الاول — عن اسباب تحرك أهل الصالحية ومراميه .

أنه مستعد تمام الاستعداد مقابلتهم بالقوة ، ويمطر عليهم ناراً تبيدهم على الاطلاق ، ولما شاهد العصاة أنه على أهبة أن يكيل لهم الكيل وأزود ، تركوه خوفاً من سطوته وشدة بأسه •

إلا أن الأكراد ونصراءهم قد أتوا أعمالاً بربرية في ذلك اليوم ، تخلد لهم الذكر ، في تاريخ المجازر التي عجز عن مجاراتهم بها الأمم الهمجية ، فقتلوا المئات من النصارى ، ونكلوا بالآخرين ممن وقع بأيديهم ، وكان قواد الجند من الأتراك والأكراد مثل اسماعيل آغا شمدين ، وفرحات آغا وسواهم من المتحمسين يحرضون الجنود على التوغل بالفتك ، وكانوا يمرون أحياناً أمام السراي ليشاهدهم أحمد باشا ، ويثني على بسالتهم وصدق إخلاصهم له ، كل ذلك وأحمد باشا قد طاب له السكوت ، ولذ له استبسال رجاله ، وقساوة المسلمين والدروز ، فلم يبد حراكاً كأنه سكر بخمرة الانتصار •

ولا نضن عليه بذكر مأثرة ، وهي محافظته على الكتّاب ، الذين سألهم الرجوع إلى أشغالهم ، فعندما شبت نار الثورة بالمدينة ، أبقاهم داخل السراي ليستفيد منهم ، وبذلك أبقى لهم حياتهم ، وقد يكون الذي حمله إلى ذلك حاجته لهم ، وأما النصارى سكان شرقي المدينة مع مطران السريان الكاثوليك، فتركوا المحلة قبل وصول الثوار إليهم ، وذهبوا إلى قرية صدنايا، وتحصنوا بديرها المنيع ، وكان بالقرية عدد كبير من النصارى ، وكلهم يشهد لهم بالقوة والبأس •

فوجه أحمد باشا لقتالهم دعاس آغا الجيرودي ، بفرقة من الجند بمن التف حولهم من المسلمين ، وعند وصوله إلى الدير خرج لقتاله ورده أهل الحمية ، وأحسنوا المدافعة ، ولم يتمكن دعاس آغا من الحاق أذيته بالمحاصرين ، الذين كانوا يخرجون إليه ويبطشون برجاله ، ويعودون إلى رفاقهم سالمين ، وظل الحال بينهم إلى أن أرغموا دعاس ورجاله على العودة فرجع مخذولا •

ومثل هذه التعديات من عسكر الدولة ورجالها الأمناء كانت تتوالى على النصارى من يوم إلى آخر ، وقد دلت دلالة واضحة على أن للدولة أصبعاً

بها ، وأكبر برهان على صحة هـذا الزعم تقاعد الوالي عن قمـع العصاة ، وإخضاعهم للشريعة ، ولو أنه طاف بشوارع المدينة أو أبدى أقـل اهتمام بتسكين خواطر الشعب الهائج ، كما تقتضي وظيفته لأمكنه مع ما لديه من القوة أن يمنع حدوث ما حدث ، أو لو أنه عهد لصالح زكي أو سواه من أهل الاستقامة في إخماد الثورة ، لكان أنقذ ألوفاً من النصارى من تجرع كأس الحمام على تلك الصور الفظيعة .

ومما يثبت اشتراك أحمد باشا بالحادثة إخلافه مع الأمير عبد القادر ، كما مر بنا وكيف أنه تعهد له بضرب العصاة ؛ وصادق المجلس على قوله ووعده ، ولما خرج الأمير من حضرته ليعد رجاله لمعاضدة الجنود ، عاد فأنهى له عدم مقدرته على اخضاع الثائرين ، وفضلاً عن ذلك إنه لم يرسل فرقة إلى حي النصارى للمدافعة عنهم ، والأنكى انـه بعد أن فتـك المسلمون بالأرواح واستولوا على المال والمتاع ، أمر باطلاق قنبلة على أحد البيوت فالتهب وامتد اللهيب ببقية بيوت النصارى في ذلك الحي ، والجنود تراقب انتقال النار من بيت إلى آخر ، ولم تبد حراكاً ، مع أنه اتفق ليهودي أنه تقدم إلى أحمد باشا، وطلب منه رجالاً لإطفاء النار من بيته ، وللحال أجاب طلبه وأرسل معـه رجالاً ، ولدى وصولهم شاهدوا اللهيب في غير بيته ، فرجعوا على أعقابهم بدون أن يمدوا يداً لذلك البيت ، فقد وصل تعصبهم حتى إلى الجماد ، فما هو ذنب البيوت والأملاك هل هي تعقل فأرادوا تأديبها .

وقد أظهرت الحكومة في أثناء الحادثة ولاءً وثقة بالشعب الاسرائيلي ، أكثر من ذي قبل ، وبالرغم عن العـداء الكامن بين الشعبين ، كنت تشاهد مسلوبات النصارى في بيوت اليهود ، وكنت ترى الاسرائيلي يحتفل بقدوم المسلمين والجنود بهـا ، ويقدم لهم مـاء قراحاً اخلاصاً وتودداً ، ولو كان المسلمون والجنود التركية غايتهم النهب فقط لرأوا مغنماً وافراً عند اليهود أضعاف ما حصلوا عليه من النصارى بآلاف من المرات .

* * *

الفصل التاسع والخمسون والمائة

في ماثـرة صالح آغـا

غصت دار الأمير الجزائري بالنصارى ، وكان عددهم يتضاعف وعلى ازدياد من وقت إلى آخر ، وفي النهار الرابع من المذبحة والخامس ، كان [عدد] الوفود عظيماً ، ومع ذلك لم تفتر همة رجال الأمير عن التفتيش بالآبار والكهوف عن التائهين وإحضارهم إلى منزله ، ولكن لما رأى أن عددهم يتزايد ، ورأى منزله أصبح ضيقاً على رحبه بهم ، قدم إلى أحمد باشا وسأله أن يسمح له بالقلعة ليجعلها مأوى لهم ، وهكذا كان كلما وصلت إليه شرذمة أرسلها إلى القلعة يخفرها برجاله ، ولا نعلم كيف استسلم لوعود الباشا بعد أن اختبره ، وقبل منه أن يقيم الجنود على باب القلعة ، ولكن إذا جهلنا السبب ، فما علينا أن نكذب الواقع .

في النهار الخامس أصدرت الحكومة أمـراً بفصل الرجال عن النساء والأطفال ، وكان وقوع الخبر على النصارى عموماً عظيماً ، لأنهم قدروا نصيبهم من هذا الانفصال بما اختبروه من حوادث دير القمر وراشيا وحاصبيا ، وباتوا بحذر وخوف على حياتهم من غدر الحكومة بهم ، كما غدرت بغيرهم ، وكان حذرهم بمحله لأن أحمد باشا أرسل فاستقدم دروز حوران للفتك بهم ، وهم داخل القلعة وبالذين في حماية صالح آغا في محلة الميدان .

ولولا استقامة صالح آغا لنفذ بهم المقدور ، ونالهم من الدروز ما أصاب اخوانهم سابقاً ، لكن وجود صالح آغا وشهامته القعساء ، دفع عنهم الضرر ، ورد جماهير الدروز بالخيبة بعد جدال وعراك دام ثلاثة أيام .



الفصل الستون والمائة

في تعيين معمر باشا بدلا من احمد باشا

وصل إلى الشام في صباح الثامن عشر من شهر تموز ، أي بعد أن مر على الحادثة ثمانية أيام معمر باشا والياً على ولاية الشام ، وفي وصوله أنزل أحمد باشا عن كرسي الولاية ، ونشر أعلام السلام في المدينة ، وبالحال أعاد الأمنية ، ورفع التعدي ، وأسكن القلاقل ، وربما يسأل القارىء كيف تأتي لمعمر باشا ارجاع الأمنية وإخماد الثورة في حال وصوله ، ولِمَ تعذر ذلك على أحمد باشا ؟ والجواب يحضر نفسه ، ويحكم على أن الدولة لها ضلع في حوادث لبنان وسورية على السواء ، وأنى للدروز أو الاسلام الإقدام على ملاحقة تعدياتهم وبطشهم بالنصارى ، من مكان إلى آخر دون أن يحسبوا للحكومة حساباً ، إذا لم يكونوا على ثقة من رضاها عليهم ، وإرتياحها إلى أعمالهم ، وفي اخلادهم إلى السكينة والطاعة حالما أشعرتهم بالكف عن سوابق أعمالهم عن يد معمر باشا ، برهان على عدم اقتدارهم على مقاومتها ، كما كانت تدعي ، وفي عدم معاقبة الدولة لهم بما أتوه من المنكر والفظائع والعبث براحة رعاياها، شاهد لا يدحض على مشاركتها لهم بكل ماجرى أولاً ولاحقاً.



الفصل الحادي والستون والمائة

في الاضرار التي لحقت عائلة مشاقه

رأينا من الواجب أن نضم هذا الفصل إلى حوادث الكتاب ، لما فيه من الحقائق الراهنة التي دونها الدكتور مشاقة على إثر حدوثها له ، والتي نسأل القارىء أن يتخذها قياساً محسوساً على ما أصاب بقية العائلات من المشاق والأخطار ، ونحن نتوخى أن نبقي نفس كاتبها بها على غاية ما يخولنا المقام ، قال :

« لما كنت متخذاً قيلولة ظهر نهار الاثنين الواقع في تاسع تموز من سنة ١٨٦٠ استيقظت مذعوراً على الصياح ، وإثر قرعة قوية على باب الدار ، فسألت من هو الطارق ، وسبب الصياح ، فقيل لي إن الاسلام نهضوا لذبح النصارى ، وبدأوا بذلك ، فخرجت خارج البيت إلى باب الدار لأتحقق الأمر بنفسي ، فنظرت القوم تتراكض من كل حدب ، فتأكد عندي حقيقة الخبر ، وقفلت راجعاً إلى البيت أنتظر قدوم قواص القنصل الانكليزي المستر برانت، الذي كان ولدي ناصيف موظفاً عنده ، وفيما على ذلك دخل علي رجلان من أتباع محافظ الحي ، وصحبتهما رجل مسيحي كان التجأ إلى بيت المحافظ فأرسله اليّ ، وبعد قليل حضر القواص المسلم ، وعند حضوره أرسلته إلى الأمير عبد القادر الجزائري ، وطلبت منه رجالاً ليوصلوني إليه ، فما لبث أن رجع ، وقال : ان الأمير كان غائباً عن البيت ، وحضر في ساعة وصولي ، ودفع إليّ ستة من رجاله ، إنما لم يمكنهم الوصول معي لأنهم أعزال ، والطرقات مزدحمة بالثائرين ، فلا يقدرون على المحافظة عليك بدون سلاح .

فلبثت أنتظر قدومهم بعد أن يتسلحون ، وفيما كنت منتظراً هجم علي شرذمة من العصاة ، وقصدوا الايقاع بي ، ولما لم يقدروا على اغتصاب الباب ، جعلوا يضربونه بالبلطات والفؤوس حتى كسروه ، ودخلوا الدار وتقدموا إلى البيت ، وصاروا يطلقون على النوافذ الرصاص ، وعالجوا الباب ليخلعوه .

وعندما ادركت الخطر ، ولم يحضر لنجدتي أحد ، خرجت من الباب

الخلفي بعد أن أخذت معي مبلغاً من المال ، ولم استصوب نقل السلاح لئلا يزيد هياج الثوار علي ، وتبعني القواص وولدي ابراهيم وابنتي واتخذت وجهتي دار الأمير وبينما أنا أعدو بمن معي ،قابلني جمهور من الثوار ، هجموا علي مشهرين السلاح ، فرشقتهم بقبضة من المال ، فرجعوا لجمعها ، وابتعدوا عني ، فنجوت منهم وواصلت سيري وقبل أن أبلغ المحل المقصود ، اعترضني جمهور آخر ، ففعلت معهم كما فعلت بالأولين ، وأشغلتهم بالتقاط المال الذي رميتهم به ، وتراجعوا عني قليلاً ، وأصبح الموت ورائي وأمامي ، فدخلت في زقاق ضيق يمكن الوصول منه إلى دار الأمير ، ورجوت عدم وجود أحد على الطريق ظاناً أن أهل جواره ذهبوا للجهاد إلى حي النصارى ، وخاب فألي حيث رجال الزقاق كانت قد عادت من أشغالها لأخذ سلاح من بيوتها ، وتذهب لذبح الكافرين .

فالتقيت بهم ولـم يعد لي منهم منج ، فحاطوني من كـل الجوانب ، وتقدموا إليّ يبغون سلبي أولاً ، وقتلي ثانياً ، وكانت ابنتي تصرخ اقتلوني قبل والدي وأبقوا عليه ، أو اقتلونا قبل أن توقعوا به شراً ، فتقدم أحدهم إلى ابنتي وانتهرها بالسكوت ، ولما لم تفعل ضربها فشج رأسها ، وأسال دمها ، ثم أطلقوا عليّ النار وأخطأوني ، مع أن المسافة بيني وبينهم ستة أقدام فقط .

ثم هجموا علي بالبلطات والنبابيت ، فجرحت بجبتهي وتهشم جانبي الأيمن ووجهي وذراعي من ضرب نبابيتهم ، وكثرة ازدحام أقدامهم حولي ، ولم يعودوا قادرين على اطلاق الرصاص لخوفهم من إصابة أحد منهم .

فخدعتهم بقولي إني كنت ذاهباً إلى البك محافظ المحلة بشغل له ، إنما اجتماع القوم ، وحشد الجماهير أوقفني عن اتمام مهمتي ، فخذوني إليـه وصدف أن جماعة منهم من أخصاء البك المذكور ، فقالوا نحن نأخذك إليه .

فساقوني إليه عقب أن سلبوا مني ما تبقى معي من المال ، حتى لم يتركوا على رأسي طربوشي ، وأخـذوا ساعتي وتبعني جمهور كبير ، وفيما نحـن سائرون بالطريق لحقنا درويش التعصب يزيد بتعصبه على كل أفراد الجمهور ،

وكان متعمماً بعمامة خضراء ، وشعوره مدلاة مكحل عيونه ، وبيده عصا طويلة وضع على رأسها منجلاً .

وكان يمد عصاه من فوق رؤوس الرجال المحدقة بي ليقطع رأسي بمنجله ، فما توفق للعمل ، ونجوت منه ومن معي ، ووصلت إلى دار المحافظة بمصلبة باب توما ، فلاقاني المحافظ المذكور وفرق عني الجموع واعتذر إلي آسفاً على ما لحق بي من الإهانة ، ثم وضعني في بيت أحد اتباعه ولا يوجد به سوى امرأة عجوز وهي صاحبة البيت ، واطلعني مع القواص إلى قصر يطل على الطريق ، وكان باقي من النهار ثلاث ساعات ، ولما خلوت بنفسي ضربت أفكاري لعائلتي وما ترى كان أمرها مع المتعصبين ، وماذا جرى لكل فرد منها ، وما إذا كانوا بجوع أم عري ، وفيما إذا أحرق الثوار داري أم أبقوها ، ثم إذا كانوا أحياء ، فعلى أي فراش ينامون ، وبأي غطاء يتغطون ، لأنني ابقيت الثوار يعالجون الباب ، وأنهم سوف لا يبقوا عليه ولا يذروا ، ثم لا علم لي بما وقع لهم أفراداً وإجمالاً ، وخصوصاً ابنتي التي ضربها ذلك الوغد بالبلطة وشج رأسها ، وفيما هل وجد بين أولئك الطغاة من بقلبه حنان كاف ليضمد لها جرحها ، ثم أطلقت تصوراتي نحو زوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها ، وخالتها اللواتي فارقتهن بالبيت عند خروجي منه ، فماذا حل بهم يا ترى ؟ ...

ثم افتكرت بأولادي الكبار ، وماذا حل بهم ، وهكذا كانت تنازعني الأفكار والهواجس وأنستني ألمي وأوجاعي .

ثم سمعت صوت دوي البنادق ، والنار ببيوت النصارى التي كانت تقصف بالرعد ، وكثر وفود الدروز وإسلام القرى المجاورة للمدينة ، واشتركوا بالجريمة والمذبحة كل ذلك كان من البواعث التي أنستني آلامي فطليت من إحدى نوافذ المقصورة فنظرت المحافظ آتياً لبيته بجملة عيال ورجال ، ففكرت كيف أنه لم يأخذني إلى بيته إذا كان يقصد الذب عني ، وترجح عندي أنه يضمر لي الشر ، ولولا ذلك لما أتى بي إلى هذا المكان

المجهول ، فهو ينتظر سدول الظلام ، ليرسل من يقوم بقتلي لأنه لا يتجرأ عليه جهـاراً •

ففكرت بعرض أفكاري هذه على القواص لئـلا يصيبه شراً بسببي • لأنهم قد يقتلونه معي لإخفاء الجريمة ، فقلت له ما أنا مفكر به ورجوته أن يخبي نفسه ، لأني عازم على النجاة بالهرب بعد سدول الظلام لبيت المحافظ الذي لا يبعد أكثر من ثلثمائة خطوة •

ولا يلزم لي أكثر من دقيقتين فاوصل إليه ، وهناك عنده ما ينيف عن ثلثمائة من الملتجئين ، وهناك أطلب رجالاً من الأمير الجزائري ، فيرسلهم إلى نصرتي •

فاستوصب القواص أفكاري ورأيي ، وقال لي إذا كان المحافظ يريد بك شراً فسوف ينتظر الظلام ليرسل من يفتك بك وإلا فلا ، أما أنا فلا أريد ان أفارقك البتة ، بل أريد أوصلك لبيت المحافظ ، ثم أذهب بخبرك للأمير وإذا خرجت الآن وتركتك أخشى من أن يعاقبوني على الفرار ، وتركك لوحدك فلا أفعل وأنا كذلك منتظر سدول الظلام ، ليقضي ربك أمراً كان مفعولاً •

وبت منتظراً الظلام وأنا على مثل الجمر والطريق مزدحم بالمارة بتواردهم من القرى، رغبة في القتل والسلب، وعند سدول الظلام، نظرت سبعة رجال شاكين السلاح جاؤوا وطرقوا باب الدار . ففتحت لهم العجوز ، فسألوها اين هو ميخائيل مشاقة ، فدلتهم على المقصورة التي تضمني داخل جدرانها ، حينئذٍ قنطت من الحياة ولبثت منتظراً تسليم الروح ، فأشرت على القواص بتسليق الجدران والذهاب بخبري لئلا أذهب ضياعاً ، وفيما أنا على ذلك سمعت صوتاً ندهني : يا ميخائيل مشاقة انزل لعندي أنا صديقك السيد محمود السوطري ، جئت برجال الأمير عبد القادر لكي تكون عندي آمناً فلا تخاف فما عليك من بأس •

فنزلت إليهم فألبسوني هدوم المغاربة ، ومشوا جماعة خلفي وأمامي ومعهم ابن شقيق المحافظ ، وكنا ندوس فوق جثث القتلى بالأزقة ، حتى وصلنا

لدار الأمير ، فوجدناها مزدحمة وقد ضاقت [على] رحبها بالعالم الملتجئين إليها دفع عنهم الأمير الأذى وأغاثهم ، وكان هذا الشهم الباسل متقلداً سلاحه ، ومعه رجاله البواسل ، ودام على هذا المنوال ثمانية أيام وثماني ليالي لم ينزع سلاحه ولا حذاءه ، ومثله رجاله ، وإن اعياه النعاس كان ينام قليلاً على حصير بباب داره •

فالتمس السيد محمد سوطري من الأمير أخذي إلى بيته لشدة الازدحام عنده ولكوني مثخناً بالجراح فيلزمني الراحة ، فأجاب الأمير ملتمسه ، وذهبت مع هذا الشهم لبيته وبعد أن استقر بنا القدم ، سألني عن عائلتي وما جرى عليها ، وأين هي ليستحضرها لعندي ،فأجبته بما جرى وأني لا أعلم من أمرها شيئاً سوى أن ولدي كان معي وابنتي ، وعندما ضربوني وضربوا الابنة فرقوني عنهما ولا أدري كيف آل أمرهما ، وزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها تركتهم بالبيت ، عندما هاجمه المتعصبون ، وأبنائي الكبار أحدهم بقنصلية الانكليز والآخر بمدرسة بطريركية الروم الارثوذكس ، ولا أدري ما اتصلت إليه حالهم ، فقال لي : ان قنصلية الانكليز دون باقي القنصليات لم ينتهك حرمتها الثائرون ، فكن مطمئن على ولدك بها ، أما باقي العائلة أمضي للبحث عنها في هذه الساعة ، وأحضرها إليك إنما أخشى من أنهم لا يعرفوني لعدم سابق معرفتي فيهم ، فأطلب اليك ارسال القواص معي ليطمنهم عنك ، ويخبرهم بأنني لا أريد بهم شراً •

فأجبت فليكون ما تريد أيها الشهم الهمام ، وأصحبت معه القواص ، فذهبا سوية وفتشا عن العائلة وبعد قليلاً رجعا بها إلي ، إلا ولدي سليماً فذهب للتفتيش عنه فعاد ولم يقف له على خبر ، فظننا أنه من بين المقتولين ، ثم سألت سوطري آغا عن كيفية معرفته بمحل إقامتي ، أجاب أننا عند بدء المذبحة كنا ظننا أن المسألة جزئية ، وأن الوالي لا يدع الخرق يتسع لهذا الحد •

وعندما خبرنا ما جرى بباب البريد ، وددنا منع أولاد النصارى من الاشتراك مع الثائرين ، فقلعنا باباً من القصب ووضعناه في الزقاق الموصل

لحي المسيحيين ، فجاء جمهور من أكراد الصالحية ، وكسروا الباب ، وتقدموا إلى جهة الحي حينئذٍ ترجح لدينا حصول الأذى عليك وعلى بيتك .

فحضرت وفحصت عنك ، فعلمت ما توقع لك ، فذهبت لمحافظ المحلة وطلبتك منه فأنكر وجودك أولاً فذهبت ، وأطلعت الأمير على حقيقة الأمر ، فأرسل معي رجاله للافراج عنك بالقوة ، وجئنا للمحافظ وأرغمناه على الإقرار بمكانك ، فأرسل ولد شقيقه معنا ليدلنا على مكانك ، وكان ما علمت .

وفي ليلة أول المذبحة حضر القنصل الانكليزي ليفتقدني ، فطمني عن ولدي ناصيف ،فبقي ولدي سليم لم أقف على خبره مدة ثلاثة أيام المذبحة الأولية ، ولم يعثر عليه بين القتلى التي ملأت الشوارع والأزقة والآبار والخرائب ، وبعد وقوع التنبيه والتهديد من المتعصبين على المسلمين الذين أغاثوا مسيحياً عندهم ، حضر مسلم تركي إلى قنصل الانكليز ، وأخبره بأنه متزوج بابنة علي آغا خزينة كاتبي في بيتها الذي يسكن به ، ضمن الدار الخارجية المستر رابصون المرسل الانكليزي ، وكان عندها سليم مشاقة مختبئاً ، ونخشى عليهم من فتك الرعاع .

فأرسل ولدي ناصيف فطمني عن شقيقه سليم ، وأن جنداً من المغاربة ذهب ليحضره إلى مركز القنصل ، فتطمنت قليلاً إلا أنني بت أوجس خيفة على دار الأمير عبد القادر ، من سطو رعاع الإسلام عليها ، لأن أوباش هذه الطبقة كانت حانقة على الأمير لإنقاذ النصارى من مخالبهم .

فأرسلت إبراهيم إلى عند اخوته لدار القنصلية المزدحم بها المسيحيون من وطنيين وأجانب ، الذين عندما نظروا احترامها ، هرعوا للاحتماء بها ، أما القنصل فلم يهمل أمر صيانة داره من الأوباش المتحمسين ، بل أحضر جنداً من رجال الأمير الجزائري ،للذب ونفراً من طرف الوالي .

أما أنا فبت ببيت سوطري آغا منشغلاً بتضميد جروحي ، ومداواة رضوضي التي أحدثها ضرب النبوت ، وزاد على مصابي هذا إفلاسي لأنه لم يبق لي ما اشتري به لوازم الحياة ، والطرقات مسدودة ، ولا وصول لي إلى

ما يلزمني ، فأحد العلماء المشهورين افتقدني بثوب من ملابسه ، لأن ثوبي كان مخضباً بالدم ، مع بعض ريالات ظننتها مزدوجة لشدة حاجتي إليها .

فاشتريت بها ما كان لازماً لي ، وهكذا ولدي ناصيف أرسل لي ما كان معه من الدراهم ، وبعد حضور معمر باشا ومناداته بالأمان سلكت الطرقات ، وحضر لي دراهم من الخارج اشتريت بها الكسوة التي تلزم لي ولعيالي .

وبقيت شهراً بدار سوطري آغا إلى أن شفيت من جروحي ، أما بيتي فلم يحرقه الثوار لقربه من بيوت المسلمين ، إنما أخذوا أخشابه وبلاطه ، وقطعوا أشجاره وخربوا منه ما أمكنهم تخريبه ، ولما لم يعد يصلح للسكنى ، فحضرة الشريف محمود أفندي حمزة ، الذي هو مفتي الشام في تلك الأيام أخلى داره الخارجية ، ودعاني للسكنى عنده ، فقبلت شاكراً وانتقلت لداره فأقمت بها إلى أن قدم فؤاد باشا لدمشق ، فعينوا لي بيتاً للسكنى ، بينما يفرغون من تعمير ما تهدم من بيتي ، ومما تعزيت به على مصيبتي هو أني لما كنت مقيماً بدار محمود حمزة ، حضر لعيادتي السيد محمد أمين مفتي بلاد بشارة ، فقال لي : يا صديقي ماذا جرى لكم ؟ أجبته ما تراه : فقال إن دماءكم سفكت ونساءكم سبيت ، وبيوتكم هدمت بيد بعض اسلام دمشق ، فهل جرى عليكم غير ذلك؟ أجبته أفلا يكفي ما حل بنا من النكبات، وما دهمنا من الكروب؟ قال : يجب على العاقل أن يتناسى [مصيبته] في مصيبة غيره ، ألا طالعت تواريخ الاسلام ، أليس الذين قتلوا حفداء النبي وسبوا حريمه ، وهدموا الكعبة المشرفة ، كانوا من اسلام دمشق ؟ قلت : بلى ، قال : إذاً تأسوا بما أصاب المسلمين منهم قبلكم ! .

وكان الاسلام يخيرون النصارى ، إما بالاسلام ، وإما بقتلهم ، وقد اقدموا على العجائب » .

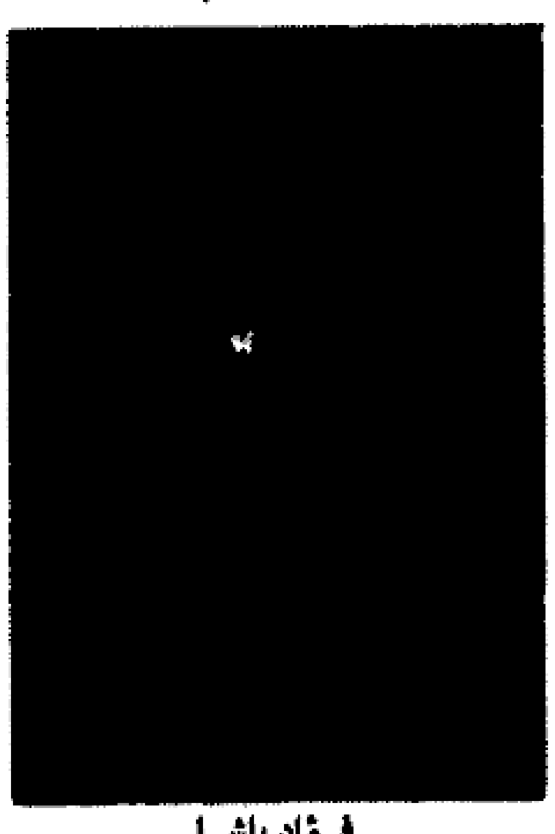
هذا الذي لحق الدكتور مشاقة ، مع الوسائط التي له ، وغيره محروم منها ، فقس على ما قصه لنا بما لحق بقية النصارى بذات النكبة ، التي ما بعدها نكبة ، وبلغ عدد قتلى دمشق أكثر من ستة آلاف نفس .

* * *

الفصل الثاني والستون والمائة

في قدوم الحملة الفرنساوية

ورغماً عن حالة لبنان ، وما جرى به من التعدي على النصارى ، كسلب أموالهم ومتاعهم ، وحرق بيوتهم ، وذبح من وقع بأيدي رجالها ، والدروز منهم ، كل ذلك ؛ والدولة لم تحرك ساكناً لقمع الثوار ، وارغام العصاة على الإخلاد إلى السكينة ، بل كان وزراؤها ومأموروها كصيادي الأرنب يبطشون بفريستهم ، وكانوا يرون تمزيق جوانب الرعيــة وإضعافها ، وهم صامتون ودامت الحال أكثر من ثلاثة أشهر حتى عم أخبار الحوادث في تلك الربوع



فــؤاد باشـا

الخافقين ، حتى أن رجال الآستانة لم يكترثوا بمــا كان يجري من الويلات والهوائل ، وعندما نظرت الدول تقاعد الدولة عن حماية النصارى ، قررت إرسال مراكب حربية لمياه سورية مع حمــلة من الجنود الافرنسية لإخمــاد الثورة الأهلية الموجهة لقطع النصارى ، ولا ذنب لهم سوى دينهم .

وعندما رأت الدولة الخطر يقترب منها بسرعة ، خافت من الدول أن تستولي على بلادها ، فأرسلت لملافاة هذا الخطر أعقل وأدهى رجالها ، وهو فؤاد باشا وزير الخارجية ، ولكنها تباطأت في إرسـاله ، ورجعت لسياستها الأولى من المماطلة ظناً منها أن الدول لن تتفق على إرسال حملة ، لما بينهن من التحاسد والضغينة ، ولم تحرك ساكناً حتى وصلت مراكب دولة فرنسة إلى قبرص ، وحينئذٍ تحقق لها اتفاق الدول على اخضاع العصاة ، وشن الغارة عليهـا .

فأسرعت بارسال فؤاد باشا إلى سورية ، وبوصوله إلى بيروت وصلت حملة كبيرة من الجنود الافرنسية ، وفي وصول هؤلاء الجنود أخلد الثوار إلى السكينة ، وهدأت الأحوال في سورية .

وحضر فؤاد باشا إلى دمشق ، وأمر بجمع المسلوبات من سكان دمشق والقرى المجاورة لها ، وكانت تسلم للمأمورين أقامهم فؤاد باشا لذلك الغرض : وكان المأمور لا يعطي وصولاً بما استلمه ولا اشعاراً بما وصل ليده ، فزادت أطماعه وغرته كثرة ما يرد إليه من المسلوب .

وكان من فؤاد باشا أنه ألقى القبض على المشتبه بهم ، ومن كان له ضلع بالثورة، وشدد عليهم بتحضير المسلوب، ومع ذلك أحجم كثيرون[1] عن تقديم ما كان عندهم .

وعقب صدور الأمر بتفتيش بيوت المسلمين ، وأن كل من وجد عنده من متـاع النصارى يكون عقـابه صارماً ، وقع الرعب في قلوب معظمهم ، وصاروا يطرحون ما عندهم على الطرقات والشوارع ، وكان اليهود يلتقطون ويشترون أشياء ثمينة بأسعار تافهة ، ولم تتجاسر النصارى على الخروج إلى الشوارع ليلتقطوا مثلهم ، مع أنهم أحق من اليهود بها ، لذلك كانت الخسارة فادحة عليهم ، وبالعكس على اليهود .

---

(١) في الأصل : ذلك ما أحجم كثيرون ، وهذا لا يفي بالمعنى فاقتضى التغيير .

وليس كل ذلك كان من فؤاد باشا ، فإنه كان يقتل وينفي ويغرم كل زعيم من المسلمين ، وكانت الغرامة جسيمة وفادحة ، إجابة للدول ، فاضطر المسلمون إلى استقراض المال من اليهود بربا فاحش بين ٣٠ و ٣٥ في المئة ، ذلك ما ضاعف أرباح هذه الفئة ، وزاد ثروتها عما كانت عليه ، وصح قول القائل : مصائب قوم عند قوم فوائد .

* * *

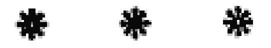
الفصل الثالث والستون والمائة

في قدوم فؤاد باشا إلى القلعة

ثم حضر فؤاد باشا إلى قلعة المدينة ، وشاهد الأهوال ، ورأى الرجال والنساء والأطفال حفايا عراة الأجسام ، يئنون جوعاً ويتوسدون الغبراء ، وعقب مشاهدته هذا المنظر المحزن أذرف الدمع .

وأمر بترميم منازل النصارى في المدينة ، وخيرهم بالذهاب إلى بيروت على نفقة الحكومة ، فهاجر من شاء المهاجرة ، والذي فضل البقاء أخلى لهم من مساكن المسلمين ، وأمر أن تعطى لهم معابدهم ليقوموا بفروض دينهم إذا رغبوا ، فرفض النصارى بالشكر هذا الكرم ، لعلمهم أن في ذلك يكدرون المسلمين عليهم ، ويولد بهم حب الانتقام في مستقبل الأيام .

وعند رفضهم سؤاله عين لهم بعض البيوت لذلك الغرض ، ثم رتب لهم قوتاً ، كان يأتيهم يومياً بحسب أفرادهم ، ثم دفع لهم الأقمشة وما يحتاجون إليه من الكسوة .



الفصل الرابع والستون والمائة
في نفـي بعض المسلمين

وبعد أن ازال فؤاد باشا عن المنكوبين بعض الضنك ، حول عنايته إلى أعيان المدينة من المسلمين الذين نفخوا ببوق التعصب ، كما أمرتهم الدولة ، على ذبح أخوانهم بالوطنية ، وقد فعلوا ، واتهمه بعضهم أنه رام أن ينفيهم عن المدينة ليطمس على هذه الحقائق الراهنة .

فنفى طاهر أفندي مفتي الأحناف ، وعمر أفندي مفتي الشافعية ، وأحمد أفندي عجلاني نقيب الأشراف ، والشيخ عبد الله الحلبي شيخ العلماء ، وأحمد أفندي الحلبي ، وعبد الله بك العظم ، وولده علي بك ، الذي منحته الدولة رتبـة باشا ، وعبد الله بك سبط ناصيف باشا ، وفردوس بك ، ومحمد بك العظمة ، ومحمد سعيد بك شمدين الكردي .

وأرسل بعضهم إلى جزيرة قبرص ، والبعض الآخر إلى جزيرة رودس ، وإلى بلاد الأروام ، وحدد لهم مدة بقائهم في تلك الأماكن خمس سنين .

وتوفي بعضهم ، وهم بمنفاهم ، وبعضهم رجع إلى الشام ، وعينت الدولة راتباً للشيخ عبـد الله الحلبي ، ثمانية عشر ألف غرش سنوياً جزاءً لصدعه لأوامرها ، وعينت طاهر أفندي قاضياً على حماة براتب جسيم ، وأنعمت على محمد سعيد بك وعلي بك العظم بلقب باشا ، مجازاة لهم على أعمالهم البربرية.



الفصل الخامس والستون والمائة

في إرسال أحمد باشا إلى الآستانة

وأرسل فؤاد باشا أحمد باشا إلى الآستانة يسلم أوراقه الخصوصية إلى مراكزها ، خوفاً من أن تقع بيد الدول ، وفي وصوله قدمها محفوفة بالتجلة والإكرام ، وأعادته الدولة على الأثر إلى الشام ، لتصير محاكمته فيها ، وحكم عليه المجلس العسكري بالإعدام ، وصار إعدامه رمياً بالرصاص ، فنال جزاء ما دبره على قتل الأبرياء .

وحكم المجلس بإعدام أميرالاي الجنود ، الذي كان حاضراً مذبحة حاصبيا ، والبكباشي الذي شاهد مذبحة راشيا .

بيد أن طاهر باشا الذي كان حاضراً ، وبأمره صار ذبح أهالي الدير . لم يحدث عليه مكروه ، بل أبقته الدولة بوظيفته .

ثم تشكلت محكمة دولية للتحقيق [مع] المجرمين ، وسمي هذا المجلس مجلس فوق العادة ، وكان رئيسه محمد أفندي رشدي ، الذي ارتقى بعدئذ إلى الوزارة .

وبعد هذا التشكيل طلب من النصارى أن يقدموا شكواهم على الذين سطوا عليهم ، فكان من النصارى أنهم لاذوا إلى السكوت ، ولم يقدموا شكوى على أحد ، وكان جوابهم أنهم لا يعرفون غير الذين أحسنوا إليهم .

وكلامهم الواقع ، لأن الذي يعرف أصحاب الجرائم قضي عليه ، وقدموا لائحة لفؤاد باشا إجابة لطلبه بالذي كان له ضلع بالثورة ، وشرع على موجب الأسماء المدونة باللوائح المتقدمة له صار يحضر أصحابها ، وكان من المقبوض عليهم البك محافظ محلة النصارى ، وأولاد أخته ، وأما ولده الوغد ففر من وجه العدالة .

وجرت التحقيقات ، فكان عدد المجرمين من الدرجة الأولى أربعة

وخمسين رجلاً ، منهم محافظ المحلة ، وأولاد أخته ، والذين هجموا على الدكتور مشاقة وشجوا رأس ابنته ، وذلك المتعصب الذي أركز على عصاته منجلا ، ورام قطع عنق مشاقة به ، صار إعدامهم شنقاً ، وفرّ واحد منهم من أيدي رجال التنفيذ ، ولما قبضت عليه الحكومة ثانية عفت عنه •

ومائة وأحد عشر رجلاً من الدرجة الثانية ، صار إعدامهم بالرصاص •

ومن الدرجة الثالثة عدد كبير ، كان جزاء أغلبهم الخدمة العسكرية •

وأما الدروز ومسلمو القرى من الذين قتلوا ونهبوا ، واستباحوا المحرمات واستحيوا النساء ، لم يعاقبوا ، وظلوا يعيثون في البلاد فساداً •

* * *

الفصل السادس والستون والمائة

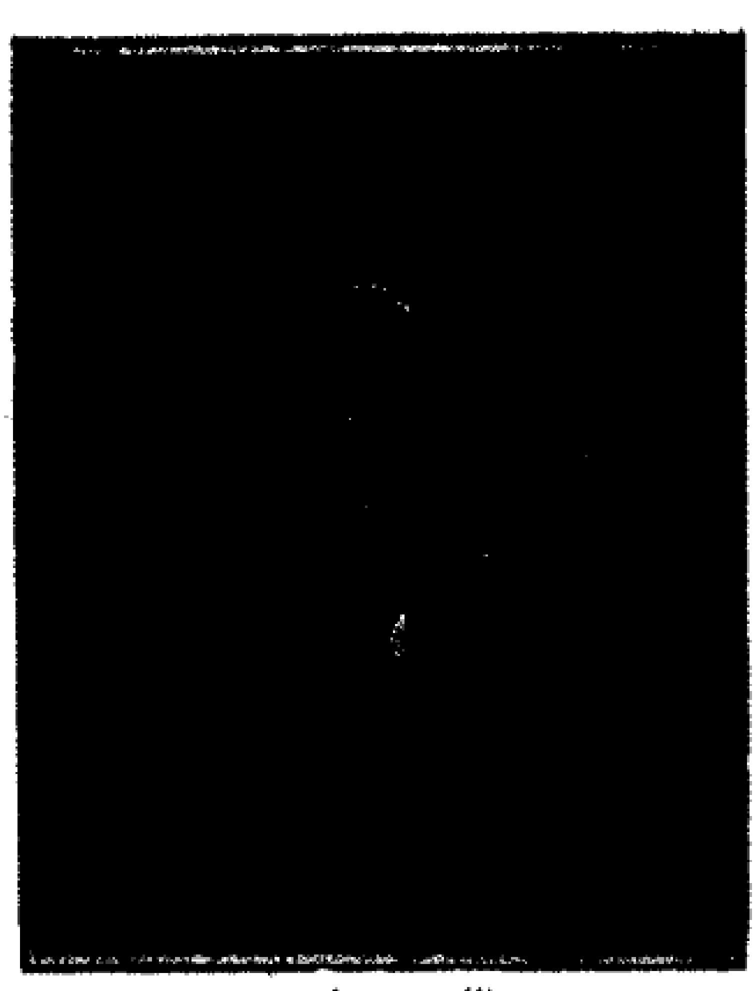
في قدوم نواب الدول إلى دمشق

وبعد أيام قلائل ، حضر نواب الدول إلى الشام ، وشاهدوا ما حل بالنصارى من النكبات ، ففرضوا على الدولة دفع غرامة جسيمة ، وترميم بيوت المنكوبين وتعويض ما فقد لهم من المتاع ، وأدى هذا الحكم إلى تشكيل مجلس كومبارس يرأسه محمد أفندي رشدي ، وأعضاء من جميع الطوائف ، وبعض من مأموري الحكومة ، وصار التحقيق عن خسائر النصارى ، وتعهدت الدولة بدفعها ما عدا المسلوب من المال ، وقد دفعت لهم سندات عليها ، وكان المحتاجون يبيعونها إلى اليهود بالخصم عشرين بالمائة ، وأكثر ، وعلى سائر الوجوه كانت خسارتهم عظيمة ، لأنهم كانوا يقبضون الليرة العثمانية على سعر مائة وسبعة وعشرين غرشاً ، حال كون سعرها مائة وأحد عشر ، والحاكم قبل بهذا السعر لأنه كان يدفعها للمنكوبين به ، لكن عندما كان يحصل الخراج منهم ، كان يحاسبهم على الليرة مائة غرش فقط ، وهذه المعاملة جعلت

النصارى لا يصيبهم من التعويضات التي حكم المجلس بها غير شطرها ، وبعد حضور قبولي باشا ، كان يأخذ سندات الدولة بنصف القيمة تماماً .

أما نصارى قرايا الشام ، فلم يعوض عليهم ما يساوي جزءاً مما فقد لهم بالثورة ، بل تعين لهم مبلغ اقتسموه بينهم بحسب مفقوداتهم .

حاسبتهم الدولة بخراج الأراضي عن سنــة النكبة . ثــم مال الجزية : وخراج قديم ، والفردية عن الأموات والهاربين ، وأرسلت اليهم جباة لتحصيلها منهم وأمرتهم بالقيام عندهم ، وإرغامهم على تقديم عليق الخيل ، حتى يدفعوا المطلوب منهم ، وهو ما يعبرون عنه بالحوالة .



اللـورد دوفرين

والذي كان يطلب منه بقدر ما له على الحكومة من مال التعويض، رفعوا عنه الحوالة وسلموه الوصل ، والذي زادت أموال خراجه على ماله ، ضمن

الحكومة ، كتبت عليه تعهد بدفع الباقي على تراخي الأيام ، فرفض معظمهم هذه المعاملة ، واعترضوا عليها ، واتخذوا حجة لهم عدم تحصيل الدولة من الدروز ٠

ولـم تقبل منهم الدولة المماطلة ، بـل أرغمتهم على المصادقة علـى الوصولات ، أو دفع مطلوبها منهم ، وظلت تعاملهم هذه المعاملة ثماني سنين بعد حدوث حادثة الستين ، ذلك ما حصل عليه نصارى القرى المجاورة لمدينة الشام من التعويض ٠

ثم وضع فؤاد باشا ضريبة على ولاية الشام ، مائة وخمسين ألف كيس ، ثمانية آلاف على دروز حوران ، وباقي الضريبة توزعت على البلدان ٠

وقـد عين مجلساً في بيروت للنظر بتعويض ما فقده الأجانب ، ونـال الدكتور مشاقة ثلاثة أرباع ما فقد له ٠

وبالاجمال نالت الدولة شيئاً من غايتها ، ولم تخسر من خزينتها مالاً ، بل كانت الخسارة على الرعية مسلمين ونصارى على السواء ٠

وربحت إذلال الشعب لها ، وخضوعه التام لكل ما تفرضه عليه من الضرائب ، حيث أضعفت الحوادث عصبيته ، واسترسل إلى الطاعة والسكون، وأماتت نفوذ رؤساء العشائر ، ونزعت منهم استقلالهم بحكومة بلادهم في الداخلية ٠



الفصل السابع والستون والمائة

في ما آل إليه لبنان

أمر فؤاد باشا ، فألقي القبض على عدد كبير من دروز حاصبيا وراشيا ، وكاد يأمر بإعدام خمسمائة من عددهم بدون محاكمة ، إلا أن النصارى طلبوا منه محاكمتهم ، وإعدام من توجب الشريعة قتله ، وهكذا صارت محاكمتهم وانجلت عن تبرير ساحتهم لعدم وجود شهود تثبت عليهم الجريمة ، ولم تكن الحكومة تقبل شهادة المسيحي ، لأنه خصمهم ، وكان من أصعب الأمور على الدرزي أن يشهد على أخيه في مثل تلك الظروف .

أما زعماؤهم من بكوات ومشايخ ، فأرسلوا إلى بيروت ، وحكم عليهم بالنفي مدة رجعوا في انقضائها إلى بلادهم ، وعينت لهم الدولة راتباً .

وتوفي منهم سعيد بك جنبلاط قبل أن يبرح بيروت ، وقيل إنه مات مسموماً . وخطار بك العماد توفي على اثر رصاصة أصابت عنقه ، في حادثة جرت بينه وبين الجنود المقبلة إلى حوران ، إنما بشير بك نكد رجع من منفاه، وكافأته الحكومة بوظيفة .

وبعد ذلك صرّح فؤاد باشا أن جنوب لبنان ، قد انتظمت أموره ، ولم يبق علينا غير اصلاح شماله ، وفي ذلك التصريح دلالة على أن الحوادث التي جرت في الجنوب ، كانت على رضى الدولة وبإرادتها ، وعلى اثر وصول فرمان له ، أرسل فرقة إلى شمال لبنان ليخضع بطلها ، ويذل رجاله ، ولم يفلح لأن الجنود كانت أقصر من أن تداني رجال الشمال بالقتال ، والقوة فرجعت بالخيبة .

وكانت نهاية القتال تسليم يوسف بك كرم على يد قنصل دولة فرنسا ، ونفيه إلى باريس كما جاء بتاريخه[1] .

* * *

الفصل الثامن والستون والمائة

في استقلال لبنان

وأنهى المؤتمر الدولي في بيروت قراره على منح لبنان استقلاله الذي يرتع به الآن ، وان تنصب عليه الدولة وزيراً مسيحياً من خارج سورية بموافقة الدول عليه ، وعينت مدة حكمه خمس سنوات ، تقبل التجديد إن ظهر منه الكفاءة ، وفرضوا على الجبل سبعة آلاف كيس إلى الدولة ، تقدم سنوياً ، وأن الجند اللازم لحفظ راحة أهاليه يكون من أبنائه ، وفرضت على الدولة دفع رواتب المأمورين ، ولو زاد راتبهم عن المفروض عليه ، وصار تقسيم الجبل إلى قائمقاميات ومديريات ، وغير ذلك مما هو معروف عند الجميع ولا حاجة إلى تدوينه .

وعينت الدولة داود باشا[2] متصرفاً عليه ، وهو أول حاكم جاء لبنان ،

(١) القي القبض على يوسف بك كرم سنة ١٨٦١ ، ونفي إلى الآستانة ، وعاد إلى لبنان سنة ١٨٦٤ ، حيث استمر بإعلان الثورة ، وثانية سلم نفسه إلى قنصل فرنسة ، فنفي أولاً إلى الجزائر ثم إلى باريس وبعدها إلى نابولي حيث توفي ١٨٨٨ وهو في الثالثة والستين من عمره . وأفضل المعلومات عنه نجدها في الجزء الثامن من كتاب تاريخ سورية تأليف المطران يوسف الدبس ، الذي كانت له علاقات شخصية بيوسف كرم ، ويوجد في كتاب اسطفان بشعلاني « لبنان ويوسف بك كرم » ط . بيروت ١٩٢٥ معلومات وافية عنه .

(٢) هو رجل أرمني الأصل ، كاثوليكي المذهب ، كان يشغل وظيفة مدير التلغراف في استانبول ، اختار قصر الأمير بشير مقراً ، وبنى في بعبدا قصراً ، وجعلها عاصمته الشتوية . انظر لبنان في التاريخ : ٥٣٧ ــ ٥٤٠ .

وحكمه عقب الثـورة وعلى اثر الاستقلال ، وخلفه فرنقو باشا[1] ، والد المتصرف الحالي .

* * *

الفصل التاسع والستون والمائة

في ترجمة استقلال لبنان الحالي

لما كنا نعتقد أن هذا الكتاب كبير الأهمية وجدنا من الضروري التعليق على نظام الجبل به لتتم الفائدة التي نرمي إليها .

ولما كان عزمنا إعلام اللبنانيين معرفة قوانين حكومة جبلهم المحبوب ، ليكون لهم تمام المعرفة في قوانين وسنن الأحكام الأساسية التي قررتها الدول الأوربية المتحابة ، بمصادقة جلالة السلطان ، والتي اشتركت في مؤتمر بيروت تنقل ذلك عن كتاب (حسر اللثام عن نكبات الشام[2]) وهاك ترجمة النظام المذكور :

ارادة سنية من جلالة السلطان

لما كان الأجل المضروب مدة ثلاث سنوات للنظام الذي وضع ، وللقرار الذي تقدم صدوره ، بخصوص ادارة الجبل تحصيلاً ، لأسباب رفاهه وأمن الرعايا التابعين لدولتي العلية ، القاطنين والمستوطنين جبل لبنان المذكور ، وكان من المقدر أنه عند انقضاء المدة المعينة ، يعاد التذاكر في مقتضى الحال ، وقد انقضت الآن ، أجري التعديل والتنقيح في بعض المواد الواردة في لائحة

---

(1) نصري فرنكو باشا (١٨٦٨ ـ ١٨٧٣) أوربي الاصل ، حلبي المولد ، شغل وظيفة في أركان جيش فؤاد باشا في بيروت وابنه هو يوسف فرنكو (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) . انظر لبنان في التاريخ : ٥٤١ ـ ٥٤٤ . هذا وإن كتاب « لبنان ـ منذ عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب » للدكتور احمد طربين . ط . القاهرة ١٩٦٨ أفضل دراسة تغطي هذه الفترة فلينظر .

(2) انظر حسر اللثام : ٢٦١ ـ ٢٦٩ .

هذا النظام ، وعند عرضها على جناب سلطنتي الأشرف ، والاستئذان فيها تعلق شرف صدور إرادتي السنية الشاهانية ، بإجراء مقتضاها على هذا الوجه ، وبموجبها لزم إعلان النظام المذكور على المنوال الآتي بيانه :

(المادة الأولى) يتولى ادارة الجبل اللبناني متصرف مسيحي ، تنصبه الدولة العلية ، ويكون مرجعه الباب العالي رأساً ، وهو محتمل العزل بمعنى أنه لا يستمر في منصبه ما دام حيّاً ، ويكون على عهدته القيام بجميع خطط الإدارة الاجرائية ، متوفراً على حفظ الراحة والنظام في أنحاء جبل لبنان كلها ، وأن يحصل منها التكاليف، وبحسب الرخصة التي من لدن الحضرة الشاهانية، ينصب تحت عهدته مأموري الادارة المحلية ، ويتلو أحكام القضاء ، ويعقد المجلس الكبير ، ويتولى رئاسته وينفذ الاعلامات القانونية الصادرة من المحاكم الخارجية عن القيود ، التي ستذكر في المادة الثامنة .

(المادة الثانية) ينبغي أن يكون للجبل كله مجلس إدارة كبير ، مؤلفاً من إثني عشر عضواً ، إثنان مارونيان ينوبان عن قائمقامية كسروان ، وثلاثة عن قائمقامية جزين أحدهم ماروني ، والثاني من الدروز ، والثالث مسلم ، وأربعة عن قائمقامية المتن ، الأول ماروني ، والثاني من الروم ، والثالث من الدروز ، والرابع من المتاولة ، وعضو واحد درزي ينوب عن قائمقامية الكورة من الروم ، وعضو آخر عن قائمقامية زحلة من الروم الكاثوليك ، ومجلس الإدارة هذا يكون مأموراً بتوزيع التكاليف ، والبحث في إدارة واردات ومصاريف حكومة الجبل ، وبيان آرائه من وجه المشورة فيما يعرضه عليه المتصرف من المسائل .

(المادة الثالثة) ينبغي أن ينقسم الجبل اللبناني إلى سبعة أقضية : الأول يشتمل على الكورة مع الجهة التحتية ، والأراضي المجاورة الآهلة بأقوام على مذهب الروم الارثوذكس ، باستثناء قصبة القلمون الآهلة بالمسلمين ، وموقعها على ساحل البحر ، والثاني يشتمل على شمالي لبنان ، ويضم جبة بشراي والزاوية وبلاد البترون ، والثالث يشمل من الشمال المذكور : بلاد جبيل ،

وجبة المنيطرة والفتوح ، وكسروان الأصلي حتى نهر الكلب ، والرابع يشمل زحلة ونواحيها ، والخامس يضم المتن مع ساحل النصارى ، وأرض القاطع وصليما ، والسادس يبتدىء من جنوبي طريق الشام حتى جزين ، والسابع يضم جزين واقليم التفاح، وفي كل من هذه الأقضية السبعة المار ذكرها ، ينبغي للمتصرف أن ينصب مأمور دارة منتخباً من أبناء المذهب الغالبين هناك عدداً في النفوس ، أو أهمية في الأملاك والأراضي الجارية بتصرفهم •

(المادة الرابعة) يجب أن تنقسم الأقضية إلى نواح على نمط قريب الشكل من أقسام الأقضية ، فيلي كل ناحية مأمور ينصبه المتصرف بناءً على إنهاء القضاء ، وأن يكون في كل قرية شيخ صلح ، ينصبه المتصرف بعد انتخاب أهلها له •

(المادة الخامسة) قد تقرر أمر المساواة بين الجميع ، في شمول أحكام القانون، ونسخ والغاء كل الامتيازات العائلية لأعيان لبنان ، خصوصاً أصحاب المقاطعات •

(المادة السادسة) ينبغي أن يكون في جبل لبنان ثلاث محاكم ذات درجة أولى ، يقوم كلٌ منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ، ومعهما ستة وكلاء دعاوى رسميين ، تنتخبهم الطوائف ، ويكون في مركز إدارة الحكومة مجلس محاكمة كبير ، يتألف من ستة حكام ، ينتخبهم المتصرف، ويعينهم من الطوائف الست القاطنة الجبل ، وهي : المسلمون السنيون ، والمتاولة ، والموارنة ، والدروز ، والروم الارثوذكس ، والروم الكاثوليك ، ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوى الرسميين لكل طائفة وكيل معين ، وإذا وقعت دعوى لأحد المتمذهبين بالمذاهب الأخرى ، كالبروتستانت واليهود فيضاف إلى المجلس حاكم ، ووكيل دعاوي رسمي من أهل كلا المذهبين ، علاوة على الاثنى عشر عضواً المار ذكرهم •••

أما رئاسة هذه المحكمة فتناط بمأمور مخصوص ينصبه المتصرف ، وإن اقتضت حاجات البلاد زيادة ، فللمتصرفين أن يضاعفوا عدد المحاكم ذات

الدرجة الأولى ، واجراء للحكومة مجراها المتسق ، ينبغي لهم أن يعينوا منذ الآن ، الأماكن الصالحة بأن تكون فيها هذه المحاكم .

(المادة السابعة) إن لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ، أن يحكموا في الدعاوي التي لا يتجاوز قدرها مئتي غرش حكماً غير مستأنف، وأما الدعاوي المتجاوز قدرها مائتي غرش ، فترى في مجالس المحاكم ذات الدرجة الأولى ، على أنه لو عرض أمور مختلطة كالدعاوي التي تقع بين اثنين مختلفي المذهب الديني ، وأبي أيهما كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونه على مذهب المدعى عليه ، فتحال وإن قل قدرها إلى محاكم الدرجة الأولى ، ثم إن جميع الدعاوي ، ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بغالبية آراء الأعضاء ، إلا أن للمدعي والمدعى عليه المتحدي المذهب أن يردوا الحاكم لاختلاف مذهبهم ، غير أن الحكام المردودين من هذا الوجه لا بد من حضورهم للمحاكمة .

(المادة الثامنة) تقتضي المحاكمة في الدعاوي الجزائية أن تكون على ثلاثة وجوه وهي أن يرى في دعوى القباحة شيوخ القرى المتقلدون خطة حاكم ، وأن الجنحة والجرائم تنظر بها المحاكم ذات الدرجة الأولى ، وإن الجنايات تجـري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير ، وإعلامات الحـكم الواجب صدورها من هـذا المجلس لا يمكن وضعها موضـع التنفيذ ، مالم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة الشاهانية .

(المادة التاسعة) ينبغي أن يرى في مجلس تجارة بيروت كل الدعاوي العادية الواقعة بين واحد من ذوي التابعية الأجنبية ، أو أحد الداخلين في حماية دولة أجنبية ، وبين أمرىء آخر من أهل الجبل ترى في المجلس المذكور ، على أن المنازعات البادية بين اللبنانيين والأجانب متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن تراض من المتنازعين ، فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخيمة أن ينفذوا إعلام المحكمين ، وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعاوى وأحيلت إلى محكمة بيروت فيجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعريفة ، التي وضعها متم :

لبنان ، وقناصل الدول جملة واتفاقاً ، وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي ؛ ومن المقرر أنه يجب في الصك الحاوي تراضي المتنازعين على اتخاذ محكمين ، أن ينظماه ويمضياه وفقاً لأصوله ؛ وأن يسجلاه في بيروت ، وفي مجلس المحاكمة الكبير بلبنان .

(المادة العاشرة) للمتصرفين حق نصب الحكام إلا أعضاء مجلس الإدارة فهؤلاء ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى ، كما أنه يكون انتخاب المشايخ المذكورين بمعرفة سكان القرى ، ثم إن أعضاء مجلس الادارة يجدد انتخاب ثلثهم كل سنتين ، ويجوز تكرير انتخاب من انقضت مدتهم .

(المادة الحادية عشرة) يجب أن يكون الحكام بأجمعهم موظفين ، وإن أقدم أحدهم على ارتكاب « الرشوة » ، أو تبين بالتحقيق أنه آتٍ مالا يليق بصفة مأموريته فهو مستحق للعزل ، بل مستوجب أيضاً للتأديب على قدر قباحته .

(المادة الثانية عشرة) يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ، أن تكون المدافعة علنية ، وأن يعهد بضبط الدعوى إلى كاتب مخصوص ، وما عدا ذلك فحيث أن هذا الكاتب يكون مأموراً باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال « بيع » الأموال الثابتة « العقار » ، فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ، مالم تقيد بحسب أصولها في السجل المذكور .

(المادة الثالثة عشرة) إن المتهمين من أهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير ألوية ، فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم ، وكذا مرتكبو الجرم من أهالي سائر الألوية داخل حدود جبل لبنان ، وبناءً على ذلك فإن المجترمين في جبل لبنان سواء كانوا من أهاليه الوطنيين ، أو من نزلائه المعدودين من أهل ديار أخرى ، إذا فروا إلى لواءٍ آخر ، فكما أن على ضابطه أن يقبضهم بمقتضى الاعلام الوارد من قبل ادارة الجبل، ويسلمهم إلى حكومة لبنان ، كذلك يلزم إدارة الجبل القبض على الفارين إليه من المجرمين ، في أحد الألوية لبنانيين كانوا أو غير لبنانيين ، وتدفعهم إلى اللواء المذكور .

بموجب اشعار ضابطه ، ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الأوامر الصادرة باسترجاع أمثـال هؤلاء المتهمين إلى المحاكم المنوطة بهـا دعاويهم ، أو الذين يجيزون تأخيرات لا يمكن اثبات بنائها على أسباب شرعية ، فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء ، كسائر الذين يوارون ، ويخفون أمثال هؤلاء المتهمين عـن الحكومة ، والحاصل أن العلاقات اللازم اجـراؤها بين حكومة لبنان ، وحكومة الألويـة المجاورة كالمواصلات الجـارية والمتخذة دستوراً للعمل بين باقي الايالات في ممالك الدولة العلية .

(المادة الرابعة عشرة) إن سبيل المتصرف إلى إقرار حفظ الراحة ، وانفاذ القوانين في الأزمنة العادية ، إنمـا يكون بمعرفة فرقـة ضبطية مجموعة من الأهلين ، بحسبان سبعة أنفار تقدر على كل ألف من النفوس من سكانه ؛ ويجب نسخ الحوالية وفرض سككها وابطال نزول الضبطية على البيوت ، والاعتياض عن ذلك بأسباب اكراهية كاستياق المحكوم عليه إلى السجن ، فبناء على ذلك يمنع مأمورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة أن يصادروا أهل البلاد بشيء من الأجرة نقداً أو عيناً . ثم يجعل للضبطية ملبس رسمي أو أزياء مميزة لهم في خدمتهم ، وأن تبقـى طرقات بيروت والشام وصيداء وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية إلى أن يصدق المتصرف على أن جند لبنان صاروا أكفاء ، لإتمام جميع الوظائف المنوطة بهم في الأزمنة العادية، وهـذا الجند يكون لدى المتصرف ، وبارادته ، وللمتصرف أن يطلب من الحكومة العسكرية بسورية الإمداد بالجنود المنظمة في الأحوال الغير العادية إن دعت الضرورة بعد أن يستشير مجلس الادارة الكبير ، ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ، أن ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها وهو (أي الرئيس الموما إليه) ، وإن كان مختاراً ومستقلاً بأمور الجند المحضة كاجراء الحركات ، والنظامات الجندية إلا أن عليه مدة وجوده في الجبل أن يلزم معية المتصرف ، ويجري العمل تحت عهدته ، وفي حال إعلان المتصرف لقائد الجند وإفادته رسمياً إن قد زال السبب الذي من أجله ورد العسكر إلى الجبل ، يجب عليه إخراجه منه .

(المادة الخامسة عشرة) إن الدولة العلية تحافظ على حقها المعلوم ، بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس ، وذلك على يد المتصرف على أنه يجوز ابلاغ هذا القدر إلى سبعة آلاف كيس عند الإمكان ، بحيث أن المال المتحصل يخصص باديء بدء لإدارة الجبل ونفقات منافعه العمومية ، فإن فضل منه شيء رد الفاضل إلى الخزينة ، وإن اقتضت شدة الضرورة إلى تحسين مجرى الادارة مزيداً على التكاليف المعينة ، فيرجع في تسوية المزيد إلى مصاريف الخزينة الجليلة ، أما واردات البكاليك ، أي حاصلات الاملاك الهمايونية ، فحيث أنها ليست بداخلة ضمن الويركو ، فينبغي اذخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة ، على أن السلطنة السنية لا تقوم بأداء مصاريف المنشآت العمومية ، وسائر النفقات الغير العادية ، مالم يتقدم قبولها لها وتصديقها عليها .

(المادة السادسة عشرة) يجب تعجيل الشروع في إحصاء نفوس أهل الجبل ، محلاً محلاً ، وملة ملة ، ومسح جميع الأراضي المزروعة ، ونظم خريطة مساحتها .

(المادة السابعة عشرة) كل الدعاوي الكائنة بين أفراد رهبان الأديرة وخوارنة الكنائس ، يكون فيها المظنون به ، أو المتهم تابعين للحكومة الرهبانية ، إلا أن تطلب الأسقفيات إحالة ذلك إلى مجلس الدعاوي العادية .

(المادة الثامنة عشرة) يمتنع في عموم أماكن الرهبان مطلقاً إجارة اللاجئين إليها ، ممن تطلبهم الحكومة رهباناً كانوا أو من عوام الناس . (اهـ)

ان الثماني عشر مادة المسرودة آنفاً هي النظامات الأساسية لجبل لبنان ، يجب اتخاذها دستوراً للعمل إلى ما شاء الله تعالى، ومن مقتضى إرادتي القاطعة السلطانية أن يتوفر على الجميع كمال الاعتناء ، والدقة في اجرائها ، وتنفيذها حرفاً حرفاً ، والحذر كل الحذر من مخالفتها ، وايذاناً بذلك صدر فراماني هذا العالي الشأن ، وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية / الموافقة لسنة ١٨٦٣ مسيحية . (اهـ)

❋ ❋ ❋

الفصل السبعون والمائة
في خاتمة الكتاب

ختم جامع حوادث كتابنا مجموعه في سنة ١٨٧٣ بقوله : إن ما دونه على صفحات كتابه من حوادث سورية عموماً ، ولبنان خصوصاً لا يقصد به الحط من مقام الدولة العثمانية ، ولا لإشهار ملامتها بما أوقعته على رعاياها من مسلمين ودروز ونصارى من الإحن والمصائب ، لأن كل ما فعلته كانت تعتقد به واجباً لبقاء سلطتها ، وحفظ البلاد لها بدون منازع، بل لاشهار سوء تصرفها معهم على تلك الطريقة ، طريقة الخداع والنفاق ، ولملامة ذلك الشعب الذي ساعدها على تنفيذ غايتها .

وإن قصده الأول وهو الوحيد ، يظهر للملأ حقيقة ما اختبره ، وتوصل إلى معرفته ، ولكي يشهر استبداد الأمراء ، وتصرف المشايخ مع الشعب الخامل ، وأن الذي كتبه تحقق حدوثه بنفسه ، والبعض من الحوادث أخذها عن ثقات القوم ، وهو يرجو القاريء المعذرة عن الهفوات اللغوية ، والغض عن سقم العبارة ، وكان الفراغ من جمع كتابه مساء السبت الواقع في ٢٢ ت ٢ سنة ١٨٧٣ .[1]

« تـم بعونـه تعـالى »

(١) حبذا لو بقي نص الكتاب على حاله ، ذلك ان فائدته الوثائقية تكمن هناك .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المُلْحَقُ الأَوَّل

منتخبات من مذكرات

مُحَمَّد أَبُو السُّعُود الحَسِيبِي الدِّمَشْقِي



بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فيقول العبد الفقير راجي عفو ربه الكريم، محمد أبو السعود، الحسيبي الحسيني : وبعده لما كان عام ١٢٧٦ ـ في ذي الحجة ٢٢ (١١ تموز ١٨٦٠ م) يوم الاثنين بعد الظهر الساعة السابعة والنصف ، صارت الحادثة المدهشة في الشام ، التي شاع ذكرها ، وضربت بها الأمثال ، مع نصارى دمشق الشام ٠

والذي حدث أنه اجتمع من كل فج عميق أناس من : دروز ، ونصيرية، ويهود ومتاولة ، وأرفاض ونور وعبادين الشمس والقمر ويزيدية ، وبدو ، ومن كافة الملل المشهورة في بلاد سورية ، من الذين ألفوا الفعل القبيح مع الموجودين في الشام من المدلسين الذين ليس لهم ذكر من قبل هذه الحادثة، من الأشقياء الذين ليس لهم خصلة ممدوحة ، غير اقتراف المناقص ، حتى ضربت بهم الأمثال ، لأنهم ليس لديهم شعور ولا خوف من الله تعالى ٠ مع أهمال المرحوم أحمد باشا والي ومشير الشام ٠

كما لا يخفى أنه لما وقعت حادثة زحلة ، التي سوف نقدم وصفاً لها ، صار أحمد باشا يعمر القلعة الذي لزم والذي ليس له لزوم ، وقبل صلاة عيد الكبير [١٠ ذو الحجة / ٢٩ حزيران ١٨٦٠] وضع بعض المحارس على أبواب الجامع ، ولم يعلم أحد خوفه من النصارى أن تعمل هجوم على المسلمين أو من الدروز ، وصار عند الناس توجس وشك من ذلك عظيم ٠

ثم شرع بعد هذا في تحصين القلعة وجنّد عسكراً من أهالي الشام ، وكان المعينين في ذلك الحين : سليم آغا المهايني ، ومصطفى بك الحواصلي بن عبد الرزاق آغا (أو عبد اللطيف) وكان غير ذلك عسكر يسمى « عوني » وكان قائده هو محمد سعيد بك بن شندين آغا بن الشيخ موسى الكردي

نزيل عكا (نزل ابنه شندين آغا فيما بعد في صالحية دمشق) ، وكان عسكر المذكور أكراد لأنه هو كردي ، وكان يوجد أيضاً عسكراً اسمه « جندرما » قائدهم مصطفى بك الحواصلي ، وصار هذا المنصب إلى الحواصلي بعدما تقلب عليه عدد من الضباط ، وأسند إليه بعد ما كان ميرالي الشام ـ أعني البلدية ـ وكانت عساكر « الجندرما » شبه نظامية حلت محل « الدالاتيه » وعرفت الآن باسم « السيارة » وكان فيها عدد من الضباط ، وكان الجميع يتقاضون « جعالات » لهم ولخيولهم ، وكان عليهم مراعاة الأنظمة والتدريب.

وفي سنة ٠٠٠٠ صار أحمد آغا بوظو من ضباط السيارة ، وكان من قبل من « الدالاتيه » وقد أحسن معاملة الفلاحين وأبنـاء الناس ، أكثر من أي ضابط آخر ذلك أن مصطفى بك كان أحمقاً جداً ، تبغضه أهالي الشام ، يحب الأغنياء وأبناء الأسر الكبيرة ، ويوافق الأشقياء في أهوائهم ، كما كان صاحب نظر في الهندسة ، ويتناول الرشاوي بشكل فاق الحدود ، حتى أنه لو عرض عليه خمسة غروش أخذها ، وكان مثله في ذلك مثل جميع الضباط والجند يأخذون الرشاوي كل على قدر حاله جهاراً دون خفية أو خوف .

البند الأول في ذكر أسباب حادثة الشام

أقول : إنه كان من قديم يقع بين النصارى والدروز شرور كثيرة في جبل لبنان ، من أعمال صيدا ، وبيروت ، وعكا ، ثم يتصالحوا بعدها ، وظل الحال هكذا حتى طالب نصارى الشام برفع الجزية والخراج ، وما زالوا بالدولة العلية حتى استجابت ، وصار الفرنج يتدخلون في شؤون سورية ، ويقولون للنصارى بأنه بموجب التنظيمات الخيرة [اصلاحات ما بين ١٨٣٩ — ١٨٧٦ م الادارية والتشريعية] : المسلم والنصراني واحد ، كلهم مخاليق الله وليس هناك ما يمنع النصارى أن يلبسوا مثل ما يلبس المسلمون ، وأدى هذا إلى شطط كبير من النصارى ، ومن ثم صار إذا تشاجر نصراني مع مسلم مثلما يقول له المسلم يقول النصراني وازود ، وإذا تشاكوا إلى الحكومة تأخذ بيد النصراني ، حيث كل واحد من طائفة النصارى له أقارب داخل أحدهم تحت حماية أحد الأجانب ويعد من رعيته ، وكان أكثرهم تحت الحماية الفرنسية ، حتى أن كل من له شكوى على واحد من المسلمين يحولها إلى واحد من الرعايا الأجانب ، وإذا ما حدثت مشاجرة مع أحد النصارى ، كائناً من كان المتشاجر من المسلمين يقول النصراني : أنا من رعايا الدولة الفلانية ،مع أن الحال ليس ذلك بل يكون أحد أقاربه أو أحبائه هو حاميه ، واعتاد كل قنصل أن يرسل مندوبه « القواص » إلى السجن لاخراج من ثبتت عليه جناية من النصارى بحجة أنه سيسجنه في بيته ، مع أن ذلك كذب .

وإذا كان الحق على المسلم يطلب النصراني « شرفية » ويحبس المسلم أكثر مما أثبتت عليه جنايته ، فلو قضى القانون أن يحبس عشرة أيام يحبس عشرين ، وكل هذا من عدم محبتنا إلى بعضنا بعضاً .

واستمر هذا الحال نحواً من سبع سنين أو أكثر ، ثم إن سكان زحلة

الذين تجمعوا من كل بلد ، حيث لم يكن هناك زحلة من قبل[1] ، وازداد شغب نصارى زحلة ، وظهر منهم البغي على كافة الملل من المسلمين وغيرهم ، حتى أنه لو وجد مسلم داخل إلى زحلة راكب يحولوه عن الدابة غصباً ، وإذا لم يتحول يرمونه عن ظهر الدابة إلى الأرض ، ويسبوا نبيه ، وكان من جملة بغيهم تسميتهم لكلابهم على أسماء الأنبياء والصحابة ، وكثيراً ما حدث أن أحد المسلمين مار بزحلة ، وقد علم أهلها باسمه : عمر أو علي أو غيره ، فينادونه وعندما يلتفت الرجل يقولون له : لسنا نناديك بل نصرخ إلى الكلب ، قاتلهم الله على أفعالهم السيئة . وبعد هذا صاروا هم والفرنج يد واحدة ، حتى صار الفرنج يعطونهم مبالغ من الدراهم لخزن الحنطة والشعير ، وسائر أنواع الحبوب والسمن والصوف والقطن ، وسائر ما يلزم الفرنج يأخذوه ويرسلوه إلى بلاد الفرنج ، وكان غالب شغلهم من الفرنساوي .

وكان حالهم دائماً هكذا ، يفعلون كل ما يضر الناس ، وكان هؤلاء المذكورين رجال بيع وشراء حتى أنهم كانوا يصلون في طلب الغنم إلى بغداد وسائر البلاد المنتجة للأغنام ، ولذلك من حين تعاطي المذكورين تجارة الغنم ، صارت الأغنام قليلة في بلد الشامية ، وغالية الأثمان .

ثم إن من جملة بغيهم أنهم كانوا كلما انفردوا بأحد الدروز يقتلوه خفية مع معرفة وموافقة الفرنسيين ، وحسب قول من قال أن الفرنسيين أمدوهم وأطمعوهم . وظل الحال هكذا إلى سنة ست وسبعين ومائتين وألف في شهر ذي القعدة [أيار ــ حزيران ١٨٦٠] قتل نصرانيين في البقاع ، وأخذ الأمير علي الشهابي متسلم راشيا على عاتقه البحث عن الفاعلين ، فصار يدقق على الدروز بالشدة التامة مع الضرب والحبس وأكثر الشماتة بهم ، وحدث بعد ذلك أن قتل درزيان ، وثارت المفاسد والفتنة بين الدروز والنصارى ، وبينما كان الشيخ كنج [العماد من شيوخ منطقة العرقوب] الدرزي يسير مسافراً على الطريق طلع عليه النصارى ، وصارت بينهم موقعة ، وقتل من الطرفين ،

---

(١) من المرجح أن زحلة نشأت بعد سنة ١٦٨٤ إثر هجرة الروم الكاثوليك إليها بعد انشقاق في كنيستهم في سورية ، حيث لم يرد ذكر زحلة في المصادر المبكرة .

وعند ذلك بدأ نصارى زحلة يجمعون جموعهم ضد الدروز ، وفي المقابل قام الدروز وأرسلوا أخباراً إلى بعضهم البعض ، واشتعلت الفتنة بين الفريقين .

وبادر أحمد باشا الذي كان والياً ومشيراً بإرسال محمود أفندي حمزة ، ورسول آغا من أغوات الأكراد وغيره إلى زحلة لأجل الصلح بين الفريقين ، قبل أن تتطور الأحداث ، فما قبل أهالي زحلة بالصلح والدروز قبلوا ، والنصارى لم يقبلوا أبداً ، وصار بينهم موافقة بالحرب ، فعند ذلك رجع المذكور محمود أفندي، وتحشدت الجموع من الطرفين لأمر يريده الله تعالى .

واتفق مرور اسماعيل الأطرش[1] وجملة الدروز الذين معه وشيخ الدير علي[2] وجماعة من عربان عرب اللجا وشيخهم بختيان ، وهو الذي جلب رسول آغا الكردي المتقدم ذكره ، وذلك في سنة ٧٨ [١٨٦١ — ١٨٦٢] وهو ما سيتم شرحه فيما بعد .

ثم توجه اسماعيل الأطرش ومن معه في مطابقة دروز حاصبيا والاقليم كافة على قتل أمراء حاصبيا وراشيا [الشهابيون] وقاموا بهجوم على حاصبيا، وعند ذلك تحصن الأمراء مع النصارى والعسكر الذي مقيم عندهم وحاصر الدروز وضربوهم فقتلوا مقدار أربعين نفر من الدروز ، وعند ذلك كسرت الدروز وتراجعوا عن المذكورين إلى حين حضر الشيخ كنج العماد وطلب من الأمراء باسم أحمد باشا حضورهم إلى دمشق وقال لهم : ارموا أسلحتكم لا تصير مشاجرة ثانية ، وعند ذلك أخذ العسكر سلاح الأمراء والنصارى ، وفتح العسكر باب القلعة .

وعند ذلك هجم الدروز على القلعة وقتلوا الأمير سعد الدين [شهاب كبير أمراء حاصبيا] وصهره المرحوم الأمير جهجاه وأربعة أمراء سواهما ، ونهبوا أموال نحو من ألف وخمسمائة من النصارى وحرقوا بيوتهم وحوائجهم المحمولة وسواها .

---

(١) من زعماء جبل الدروز في سورية .

(٢) من قرى حوران كان اسم شيخها خليل آغا .

وشاع الخبر ، وتخبأ بقية الأمراء عند أخت سعيد بك جنبلاط ، وبعضهم عند غيرها ، إلى أن حضروا إلى دمشق ، وذهبت جماعة منهم إلى بيروت ، وكان حصار راشيا مستمراً ، وبلغ الخبر بأن الدروز مكسورين ، وهنا قام العسكر بمثل ما قام به في حاصبيا ولم يسلم من أمراء راشيا غير الأمير علي والأمير محمد وقتل ١٣ أميراً ، ومن النصارى نحو ألف نفر ، وعند ذلك نزلت حريم أمراء راشيا إلى دمشق لم يبق لهم وطن ولا رجال ولا حوائج بل السترة لا غير فعند ذلك أنزلهم سيدي وولي نعمتي الوالد السيد أحمد أفندي حسيبي ذاده الحسيني بالدار ، وأخذ لهم ما قدره الله تعالى وبقيوا عشرة أيام إلى أن حضر حريم الحصابنة إلى دمشق ، كذلك إلى دار أحمد أفندي وبقيوا جملة ثلاثة وعشرين يوماً ، وبعده أخذ لهم دار في القنوات هي دار شريف باشا بالاجرة ، وكان من خواص والدي عبد آغا التيناوي ، ومحمد آغا تمر والشيخ محمد قطنة ، والسيد حسن البهنسي ، أرسل كل منهم لهم عشاء وغداء وفطور ، إلى أن رتبت لهم الدولة العلية معاش لكل نفر خمسة غروش .

وأرسل لهم في هذ االوقت السيد عبد القادر المغربي دراهم مقدار أربعة آلاف غرش لأجل الخرج وشراء حوائج ، وصار كل من له عرف مع المذكورين يرسل لهم الذي يقدره الله تعالى عليه ، إلى أن توجه الدروز مع اسماعيل الأطرش إلى عند سعيد بك جنبلاط ، كبير كافة دروز بلد سورية : مال وجاه وأصل ، على حسب اعتقاد الدروز ، وكان المذكور صاحب رتبة من الدولة العلية ، وله اعتبار عند كافة الناس ، وله سلوك مع الكل ، وصاحب معارف ، ولكن عندما يوجد من طائفة بيت شهاب المتقدم ذكرهم ، يقدم على المذكور في أي محل كان ، وإلى انتهاء الدوران .

وأقام اسماعيل الأطرش عند سعيد بك المذكور فترة وبعده توجه إلى زحلة مع من معه من الجموع ، وعلى ذمة من قال أنه كان جمع الدروز أقل من جموع النصارى في زحلة ، حتى نـزل خطار بيك [العماد الدرزي شيخ العرقوب] من جهة غربي زحلة ، وبقي باقي الجموع من جهة غربي زحلة ، وبقي باقي الجموع من جهة قبلي زحلة عما يحاربوا مع المذكورين ، وفوجيء

أهالي زحلة بالنار تقتل بزحلة؛ فما وسعهم إلاّ هاربين حفايا عرايا ،وصار القتل والحرق والنهب في زحلة ، وسبي العرض وكل شيء لا يطاق إلى أن توجه أهالي زحلة إلى جبل يقال له جبل الكلب ، وكذلك صار لهم من أهالي هذا الجبل المذكور كل كسران خاطر ، وهم أرباب دياناتهم نصارى .

وبعد هذا توجه الدروز إلى دير القمر بعد قتل ثلاثة آلاف نفر من زحلة ومن الغرباء الموجودين معينين إلى المذكورين ، والذي قتل في دير القمر أربعة آلاف نفر وأكثر ، مع النهب والحرق ، وأحرقت قرى النصارى بالجبل كافة ولم يسلم منها إلاّ القليل ، وقبل هذا كان النصارى قد أحرقوا جملة من قرى الدروز ، وكان مع الدروز من كافة الملل من أهالي دمشق . وبدو وأكراد وفلاحين من قرى المسلمين وأعداد أخرى كبيرة لا تحصى ، وكذلك كان مع أهالي زحلة أكثر من عشرين ألف من النصارى الغرباء معونة لهم ، ولكن يعطي النصر لمن يشاء ، وهذا على قدر بغيهم ما هو كثير عليهم ، ليس الخبر كالعيــان .

وكان ابتداء محاربة أهالي زحلة يوم أخذت مع خليل آغا شيخ الدير علي وعرب السلط ، ما كان مقداره ثلاث ساعات ، إلى أن كثر عدد الدروز وأخذت زحلة ، وصار الذي تقدم ذكره في غرة ذي الحجة سنة ٧٦ [٢٠ حزيران ١٨٦٠ م] ، وقبل ذلك حين قتل ابن خطار بك [العماد في ضهر البيدر] كان يوم حرب كلي ، وذلك في ذي القعدة [أيار ـ حزيران ١٨٦٠ م] وصعب ذلك على الدروز كثير قتل المذكور ، وبعده توجهت الدروز إلى كل بلد يعلموا به نصارى يقتلونهم إلى أن توجهوا إلى كناكر ، وقتلوا مقدار سبعين نفر من نفس كناكر ، وقتلوا مقدار سبعين نفر غير الذين قتلوا في السهل والطريق .

وقيل كان حدث شجار بين نصارى عين الشعرة والدروز ، وصارت محاكمة لدى الحكومة ، وسجنوا الدروز في سجن دمشق مدة طويلة ، فكانت أسباب قتل نصارى الاقليم [عين الشعرة في أقليم البلان] هذه المسألة؛ والله أعلم .

وبعد ذلك أغار الدروز على الجديدة وأخذوا من غنم سيدي الوالد السيد أحمد أفندي حسيبي ذاده مقدار ثلاثمائة رأس ؛ ومن عرب أبو عاصي كمية ؛ ومن واحد من العرب المذكورين واسمه عبيد العاصي مقدار أربعمائة رأس ، والدروز المذكورون هم بيت عزام من حوران ؛ مشهورين قبل وبعد إلى هذا اليوم بالشقاوة .

وفي أثناء ذلك صار الناس في دمشق في قلق عظيم من الدروز ، وتساءلوا كيف أن الحكومة لا تلاحق هذه القضايا ؛ حتى طلع ابن شندين آغا عبد الله آغا ، ومعه قوة من العساكر الفرسان ، وقتلوا عدداً من الدروز في جديدة عرطوز من وادي العجم قرب دمشق ، وبعد ذلك نزل أقارب الذين قتلوا إلى بيت شندين آغا وتصالحوا ، وطلع محمد سعيد باث ابن شندين آغا ألبس المذكورين [لباس الجندية] وكان في هذا التاريخ قائد « قوات العونية » .

وصار الدروز بعد هذا يأتون إلى دمشق من غرة ذي الحجة ، ويسيرون في الأسواق والمدينة ، ويكلمهم الجهال والأشقياء وبعض أصحاب الحوانيت ويقولون : متى تأتوا إلى عندنا وتكمل على الباقي ، فيجيبهم الدروز : نحن قضينا ما علينا اقضوا ما عليكم ، ويكون أحد النصارى ماراً فيسمع هذا الحديث ، هذا ما حدث بالاختصار .

وقبل سقوط زحلة بدأ الناس يتساءلون : أخذو زحلة ؛ لم يأخذوها بعد ، كأنه أخذ المورة[1] ؛ لأن كانوا قد قاسوا من أهل زحلة ، ويعرفون أعمالهم الخبيثة ؛ حتى اتفق دخل خوري من قرية منين راكب ، ووقف على حانوت رجل اسمه حسن أبو الهوى ، فقام وضربه وأنزله عن الفرس . وظل الحال هكذا حتى جاء الخبر بسقوط زحلة ، فقامت الناس فرحاً ، مثلما يفعلون في آخر رمضان ، واثبات موعد العيد ، وركض الأطفال وضجوا حتى أن بعض

---

(١) في هذا إشارة إلى ثورة شبه جزيرة المورة اليونانية على الدولة العثمانية في سنة ١٨٢٠ م وقادت إلى استقلال اليونان سنة ١٨٣٠ م .

الناس « زينوا » الحارات ، ففي القنوات « زينوا » فأرسل والدي واطفأ القناديل ، وشتم شيخ الحارة وضربه .

وبعد هذا بدأ الشغب من الدروز مع الأشقياء الموجودين في دمشق المختلفين الملل ، من الدروز المستوطنين في دمشق ، والنصيرية ، والتيامنة ، والارفاض ، واليزيدية ، وكل يوم يزداد الحال إلى يوم الأحد ١٧ ذي الحجة [٦ تموز ١٨٦٠م] توقف الشغب وخرجت النصارى من بيوتها إلى الأسواق كما جرت العادة ، إنما بقي الصبيان يرسمون « الصلبان » على الأرض وعلى الجدران إلى يوم الاثنين ١٨ ذي الحجة [٧ ــ تموز] حيث كثرت رسوم الصلبان على الأرض ، وظل الحال إلى الساعة السابعة ، حيث ألقي القبض على عدد من الصبية من منطقة باب البريد ، وأخذوهم إلى السراي ، على أساس أنهم وجدوهم يرسمون صلبان ، وكان النصارى هم الذين فعلوا ذلك حيث دخل منهم حنا فريج وأنطون الشام إلى عند أحمد باشا الوالي يومئذ والمشير بالشام ، وشكوا له ذلك ، وبكوا لديه ، فعند ذلك أمر بربط الأولاد بالسلاسل ، وأن يؤخذوا لكنس المدينة ، ونفذ الأمر وعندما وصلوا إلى باب البريد إلى عند حانوت عبد الكريم السمان ، وكان المحرض على الفتنة ، وعند ذلك صرخ الأولاد لأقربائهم وقالوا : لم يبق اسلام ، فنحن أخذنا إلى حارة النصارى نكنس عند الدير .

وعند ذلك قام المذكورون ، وضربوا العساكر « الظبطية » الذين كانوا يحرسون الأولاد ، وخلصوهم منهم ، وكان ابن مصطفى آغاجيب أحمد آغا ملازم على هؤلاء العساكر ، وعندما حدث هذا كان سليم آغا المهايني مكلفاً من قبل الحكومة للمحافظة على الأمن ، وكان آنذاك في جامع بني أمية ومعه ثلاثون من أشقياء الميدان ، وحين سمعوا أصوات المشاجرة خرجوا يركضون ، وأحدث هذا فوضى وبلبلة ، ذلك أن الناس عندما رأوهم أغلقوا حوانيتهم ، ظانين أن الميادنـة هجموا ، وتجمهر الناس قليلهم بسلاح وأكثرهم بلا سلاح وتوجهوا نحو حارة النصارى ، وكان بدمشق في ذلك اليوم أكثر من ألف درزي من غير المستوطنين ، وعمت الفوضى في البلد والعياذ بالله تعالى .

وأما أنا فقد كنت في سوق الأروام ، فتوجهت بعد ذلك إلى حارتي ـ القنوات ـ وجلست أمام مقهى البيلك [في مدخل حي القنوات] وقعد معي شيخ الحارة واسمه رشيد ، وصار كلما حضر أحد ومعه سلاح « نعيط عليه » ونأخذ سلاحه ونضعه بالمقهى إلى أن جاء أحد التجار ، وقال : يا ويلكم يا أهالي القنوات ما زلتم جالسين لم تتحركوا ، لقد قتل أكثر من أربعين نفر من المسلمين ، فعند ذلك قام الناس وتفرقوا ، وقمت أنا إلى الدار ، وكان عندنا كاتب يقال له أبو باسيل ، أنطون الباشا ، فحين رآني بدأ في البكاء وقبل اليدين والرجلين لأجل أن أجلب أولاده وأسرته ، فعند ذلك أخذت سلاحاً وخرجت من الدار ، وكان السيد حسن البهنسي ومعه أهالي الحي ، فتوجهنا إلى أن وصلنا إلى عند بيت القادري [قرب باب شرقي] وجدنا عالم مثل التراب واقفين في أول الزقاق النافذ ، والعسكر واقف قبالهم بالبارود ، والناس محجوبين عن الدخول خوفاً من العسكر : فسألنا : هل العسكر معارض ، فقال أناس شاهدوا هذه القضية : لقد أطلق رشق واحد وقتل عدة من المسلمين ، ولم يعد أحد يتجرأ على الدخول ، إنما دخل عدد من الأفراد إلى البيوت المتطرفة ، ونهبوا بعض الأشياء ، وبعد محاولات للمرور من بعض الأماكن الخربة وكان معي أكثر من عشرين رجلاً وصلت عند الأربع مفارق [باب شرقي] وجدت علي بك ميرالي يردع الناس، ولم يحدث شيء ، فتوجهت عائداً إلى الحارة ، ووجدت هناك حسن [البهنسي] قاعداً بالحارة ، وقعدنا ، والله مطلع وشهيد أنني لم أزل بعد ذلك ولم أدخل بيت للنصارى ، ولا حارة النصارى ، ولا آذيت نصراني ولا مسلم ، والله تعالى يحاسبني على أي شيء ، والذي روحي بيده قبل هذه الحادثة كنت حين يمر شاكر بك قريب نجيب باشا ، وكلشي بك الذي تزوج ابنة علي باشا البغدادي، كنت أبادرهم بالسلام ، ولكن عندما وقعت هذه الحادثة ، وصار هؤلاء خائفين من أهالي دمشق كثيراً صرت أعمل لهم اعتبار زائد عن الحد خوفاً على خاطرهم ، ولهم حديث سوف يأتي .

البنـد الثـاني

ونرجع إلى الذي حدث لنصارى دمشق : صارت الأشقياء ترد من فج عميق إلى حارة النصارى في النهب والقتل والحرق والسبي والعياذ بالله •

أما ما كـان من أهالي العرض ، فعنـد ذلك صاروا يبادروا في جلب النصارى وحمايتهم في بيوتهم مع عيالهم ، وكذلك السيد عبد القادر المغربي صار يجلب النصارى إلى داره وبعده يرسلهم إلى القلعة الشاهانية ، وكان كافة النصارى الذين سلموا يجلبون أولاً إلى دار شيخنا عبد الله الحلبي ذاده وكان يوجد عند المذكور كل يوم نحواً من ألف نفر ، وبعد ذلك يأخذون بعضهم إلى القلعة وبعضهم الآخر إلى بيوت المسلمين ، وكان عبد الله بك نصوح باشا مبادراً في تخليص النصارى وتوصيلهم إلى القلعة ، وكـان في بيته دائماً أكثر من خمسمائة نفر من رجال ونساء ، وكان كـل يوم يركب المذكور ومعه جملة أنفار يحافظون عليه ، ويعمل على تخليص النصارى ، ولكن على ما بلغنا أن أقارب المذكور : حسن بك وابراهيم بك والذين يلوذون بهم صار منهم أذى زائد على النصارى ، سوف يأتي ذكره وذكرهم •

وأما ما كان من مصطفى بك الحواصلي ، كان قـد أخذ من طرف الحكومة نحواً من مائة عسكري لمعالجة المسائل والمحافظة على الأمن ، وظل حتى الساعة الخامسة في الليل وهو يعاني ، حتى كاد الأشقياء أن يقتلوه ، وبعده تمرد عليه جنده وصاروا مثل باقي الأشقياء يفعلون أفعالهم ، إنما دخل إلى داره نصارى كثر أرسلهم إلـى القلعة ، ولكن على ما أشيع أن بعض النصارى الذين أرسلهم إلى القلعة مع أتباعه قتلوا أتباعه وقتلوا أحد الخوارنة معهـم •

وأما ما كان من محمد سعيد بك قائد « العوني » فقد بدأ عسكره جميعاً بالنهب والقتل والسبي هم وجميع الأكراد ، والذي ظهر من الأكراد

مشهود حتى أن نساء المذكورين كانوا ينهبون أكثر من رجال أهالي دمشق الأشقياء والمدلسين ، والحاصل أكثر الفعل صار إلى طائفة الأكراد وأهالي القرى الدروز ، ولكن الضرر والأذى ثلاثة وعشرين قيراطاً من الأكراد ، وقيراط واحد من باقي الناس ، والله أعلم •

وأما سليم آغا المهايني المتقدم ذكره ، فهو كان المحافظ ، فلم يمكن أحداً من الموظفين من المشاركة والذهاب إلى حارة النصارى •

وأما أهالي الميدان ، فهم الذين دخلوا حارة النصارى أول الناس ، وفعلوا أكثر من بقية أهالي دمشق ، أكلوا الهبر وتركوا العظم ، أي أن نصاراهم لم يقترب منهم أحد بأذى ، ولم يوجد عندهم شيء يطمع به ، حيث أن الطمع كان بالمال •

وصدرت من الدروز أفعال حتى صار فعلهم في حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر في مقابل ما حدث بدمشق يعد لا قيمة له لأمر يريده الله تعالى •

وفي يوم الأربعاء ٢٠ ذي الحجة [٩ تموز] اشتد الحريق ، حتى قارب أن يأخذ كافة بيوت دمشق ، والعياذ بالله تعالى ، حتى أرسل شخينا الشيخ عبد الله ذاده واحداً ممن يلوذ به مع ابنه الشيخ خليل إلى صالحية دمشق طالباً أن يرسلوا بعض الرجال بالاجرة من عندهم لإطفاء الحريق ، فبادر شيخ الصالحية مع الوجهاء إلى ارسال رجل تسلق المأذنة وصرخ : يا مسلمين إن الحريق قد وصل إلى الجامع الأموي ، فبادر الناس من كل فج عميق إلى اطفاء الحريق ، ونزلوا إلى دمشق وبدأوا باطفاء الحريق ، إلى أن خرج أحد النصارى وقتل واحداً من الصوالحة ، فعند ذلك غضب الصوالحة وتوجهوا بالكلام غير اللائق إلى الشيخ المذكور وطلعوا تقلوا الصالحاني ثم نزلوا ، وفي هذا اليوم اشتد الأمر بالنصارى ، وقتل منهم قدر ما قتل من قبل ، إلى أن استقام الشر والبغي فينا سبعة أيام ، يا لها من سبعة سوداء قتام ، أذهب فيها أهالي البغي من دمشق وسائر الأمصار أهالي العرض والشرف ، حتى صدق من قال : الرحمة مخصصة والبلاء يعمم •

إلى أن كان يوم ٢٣ ـ ذي الحجة ، فحضر أحد أشقياء الميدان واسمه أنيس ، لا بل هو المسيء ، حضر إلى محلة القنوات ، وكان جزاراً بالقنوات وقعد مع الأشقياء الموجودين بالقنوات ، وقال لهم : ويحكم أنتم وأهالي الميدان مثل الأهل ، وفي هذه الليلة سيقدم الدروز لكبس الميدان وقتل النصارى الموجودين بالميدان ، اجتمعوا وأرسلوا بعضكم معونة لأهل الميدان ، حيث الدين واحد والمال واحد .

وبعد هذا توجه إلى باب السريجة ، وأعاد هذه العبارة ، ثم ذهب إلى محلة قبر عاتكة ، وإلى الشويكة ، والسويقة ، وردد هذا الكلام ، حتى صار الوقت الساعة الثانية من الليل ، فتجمع الأهالي المذكورين وأرادوا الذهاب إلى الميدان .

فعند ذلك بلغ الخبر إلى سيدي الوالد السيد أحمد أفندي حسيبي زاده ، فقام وبادر في ابقاء أهالي القنوات ، وأرسل فجلب محمود آغا ابن أبو أحمد تلو ، والسيد حسن البهنسي ، وشيخ حارة القنوات رشيد وعدة أفراد من الشيوخ ، وقال : أولاً نبهوا على أهالي باب السريجة وقبر عاتكة والشيويكة أنه ما من أحد يذهب إلى الميدان حتى نحضر ونرى هذه القضية كيف هي .

وعند ذلك توجه المذكورون ، وتمت الأمور حسب هذا الترتيب إلى أن وصلوا إلى الميدان ، وحين وصولهم تصدى لهم أهالي الميدان الأشقياء منهم والأشراف دفعة واحدة ، وقالوا : لماذا أنتم قادمون في هذا الوقت ، نحن نعرف ما هو مرادكم ، وأثاروا هذه القضية ، وقال أهل الميدان : وصلتنا الأخبار خلاف ما تقولون من كلام ، مفاده أنكم تجمعون رجالكم ومرادكم قتل النصارى الموجودين عندنا ، ونحن جالسون بانتظار قدومكم ، فعند ذلك ظهرت القضية ، وطلبوا اللحام المتقدم ذكره ، فهرب .

وأما ما كان من أحمد باشا فانه عقد في يوم الخميس ٢٢ ذي الحجة [١١/تموز] مجلساً قام علي بل الميرالي[1] ، وقال : لو هجم الدروز على القلعة

---

(١) هو نفس الضابط الذي سلف ذكره في ردع الناس عند الأربع مفارق .

ماذا نصنع بالنصارى الذين فيها ، ما عندنا قوة مدافعة ، وعند ذلك قام سيدي الوالد وقال : هذه القضية على لحانا ، والله أنا قائم أرحل من كل الشام ، والذي يرحل معي وإلا لجهنم ، وقام في وقتها عبد الله العظم ذاده وثنى مؤيداً هذا الكلام ، فحين ما قاما ، قام علي بك وباقي الضباط وأجلسوهما ، وقالوا كلاماً وضح منه مرادهم في قتل الذين بالقلعة ، حتى أنه لو جاء في ذلك الحين خمسون درزياً لسلموا لهم الذين داخل القلعة . ودام هذا الحال حتى قدم الوزير المعظم معمر باشا ، وكان دخول المذكور .... وبعده قرىء الفرمان في كل ضحك ولعب ، وحين تمت قراءة الفرمان حاولوا اطلاق المدافع كما جرت العادة ، فظهر أن الذخيرة فاسدة ، وقد سببت قلع عين أحـد رجال محمود حمزه ذاده .

وبعد هذا قدم إلى بيروت وزير يقال له فؤاد باشا لأجل حادثة الشام والجبل ، وأرسل المذكور رسائل إلى وجهـاء الشام جميعاً يشكرهم على ما صنعوه هم وبقية الشرفاء في حمايتهم للنصارى ، وقبل ذلك كان قد توجه أحمد باشا والي الشام ومشيره أثناء الحادثة إلى الآستانة ، ومعـه رئيس الديوان وأمين سره مع نسائه . وكان توجه المذكور إلى .... وبعد اليوم العاشر من شهر محرم سنة ٧٧ [٢٩ ، تموز ١٨٦٠ م] حضر إلى دمشق فؤاد باشا حتى يحقق بهذه الحادثة، وكان دخوله من محلة القنوات على باب الجابية إلى سراي العسكرية وذلك يوم الاثنين ، دونما ملابس رسمية ، بل بلباس السفر ، دخل وكان معـه باشا يقال له خالـد باشا قائداً للعسكر ، وكـان قد دخل دمشق قبل فؤاد باشا في يوم ٧ رجب [٢٦ ــ تموز] وصار يدور بالحارات ، متعرفاً إلى دمشق ، وحين دخل فؤاد باشا كان معه حوالي أربعة آلاف عسكري مسلحين بالبنادق الحديثة ، وجلس بالسرايا ، ودخل عليـه الأعيان وسلموا عليه ، ثم خرجوا من عنده ، وفي اليوم الثاني تم عقد مجلس ألقي فيه القبض على الأعيان وصاروا يسألون كل واحد منهم عما شاهدوه من الأشياء ، مثل الادلاء بالشهادة وسأذكر بعض الشهادات فيما بعد إن شاء الله ، واستمروا بالتحقيق إلى المساء ، وكذلك في اليـوم الثاني والثالث

والرابع والخامس ، وفي يوم الجمعة تفرقت العساكر في طلب المتهمين واسترداد المنهوبات من النصارى وذلك بمعرفة أهالي كل محلة وتحت اشراف أحد الضباط مع عدد من الجند ، وصاروا يجلبون الذين شاهدهم الأهالي ينقلون المنهوبات أو السلاح وكل من سمع عنه اقتراف القتل أو السبي أو غير من القبيح يرسلونه إلى التكية التي بالمرجة ، مرجة دمشق ، التي عمرها ....
وفي يوم الأحد الواقع في ١٧ محرم سنة ٧٧ [١٥ آب ١٨٦٠ م] طلبت إلى عند أفندينا المعظم فؤاد باشا ، وكان في سرايا العسكرية في الكشك ، فتوجهت إلى عنده ومعي ملازم من العسكرية ، وسبعة أنفار عسكر ، وطلعت إلى عند الباشا المذكور ، فوجدته واقف في باب الشرفة ــ الفرندا ــ الغربية ، فحييته، ووقفت قباله ، وهو واقف ، وقباله أحد الخدم يزرر له أزرار السترة ،ومكث يتأملني وينظر إلي متفحصاً مقدار نصف ساعة ، وبعد ذلك قال للملازم : خذه إلى عند خالد باشا ضيفاً ، فحييته ونزلت إلى السراي ، وصار فؤاد باشا ينظر إلي من الشباك ، ثم أرسل أحد العسكر وقال للملازم : قل لخالد باشا ضعه في محل مناسب ، وكانت الساعة الثامنة من النهار .

فتوجهنا إلى عنــد خالد باشا ، وهو بالشرفة التي فوق باب الهــواء [المدخل الرئيسي للسراي] فدخلنا إلى عند المذكور ، وعرض عليه الملازم المسألة ، فصرف الباشا الملازم المذكور ، وبقينا مع خالد باشا ، ثم نزل من فوق إلــى أرض السراي وأنا معــه مقدار نصف ساعة قضاها وهو يمشي بالسراي حتى توجه إلى غرفة اليوزباشي وأمره أن يخلي لي الغرفة ، وحالاً نفذ الأمر ، وقال لي : اجلس هنا فأنت ضيف فدخلنا وقعدنا إلى أن جلبوا لنا فراش مع ما يلزم لي ، وتوكلت على الله ، وأفوض أمري لله إن الله بصير بالعبــاد .

وفي اليوم المذكور حبسوا عندنا واحداً من عرب العكيدات مقــدار ساعتين ثم أخذوه ، ولم نعلم ما فعل الله به ، ونمنا هذه الليلة بالغرفة المذكورة، وثاني يوم كذلك وفي اليوم الثالث أرسلوا إلى عندي الأمير سلمان حرفوش المحبوس قبل هذه الفتنة ، وحضر بعده عبد الله بك نصوح باشا إلى عند

خالد باشا المتقدم ذكره وهو المصري ، وحضر بعده سيدي الوالد ، وفوراً سجنهم خالد باشا بالغرفة التي كان بهـا الأمير سلمان المذكور وذلك في ١٩ [٧ آب] من يوم الثلاثاء .

وفي وقتها اشتد بي الندم حين لا ينفع الندم ، حيث كنت مصراً على الخروج من دمشق مع جملة الخلان ، وبعد هذا إذا لم أصبر فما أصنع ، إن الله الصابرين إذا صبروا ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين .

واجتمعنا الآن في هذه الغرفة : أنا ، والأمير سلمان المتقدم ذكره ، وعبد الحميد بك بن مؤيد بك العظم ذاده ، ودعاس آغا بن فارس آغا الجيرودي ، واسماعيل آغا بن شندين آغا الكردي ، أخو سعيد بك قائد « العونى » ، وعلي آغا فرحات من محافظين دمشق وضباط الباب .

وفي يوم ٢٧ أرسلوا وراء المذكور من أجل أن يعرض عسكره «الظبطية» وحضر المذكور « والظبطية » إلى سراي العسكرية ، فحين ما صار في السراي نزل العسكر الشاهاني واحاط بالمذكورين ، وأغلقوا الأبواب ، وقال لهم خالد باشا : أنتم عسكر السلطان ،وتحت أمر السلطان ؟ فقالوا جميعاً : نعم ، قال : إذا كان صحيحاً انزعوا أسلحتكم ، فعند ذلك قام علي آغا المذكور مع كافة عساكره فنزع ونزعوا سلاحهم وألقوه على الأرض ، وعند ذلك قسمهم خالد باشا إلى ثلاثة فرق وأرسلهم دفعة بعد دفعة إلى بيت البلطجية ليسجنوا ، وكان من المذكورين كثير ليسوا من الجند ، بل حضروا محبة بعلي آغا حتى يكون العسكر تمام ، والبعض بالاجرة ، وهذه عادة كانت جارية عند كافة الضباط ، حتى أنه كان يوجد في كثير مـن الأحيان نصف العسكر بالاجرة يعرضون مع الضابط أو محبة وذلك في كل وقت ..

ونقل هؤلاء بعد ذلك إلى قشلة الخيالة التي عند الميلوية لأجل التحقيق معهم وأرسل علي آغا فرحات إلى عندنا ليسجن ، وقد أطلق سراح كثير منهم فيما بعـد وأرسلوا البعض الآخر إلى التكية التي بالمرجة حيث كان هناك مجلساً يسمى « مجلس فوق العادة » حاوي على باشاوات وأفندي وقضاة

وضباط عسكرية ونصارى من غير نصارى الشام وكان معتمد هذا المجلس خورشيد أفندي ومحمد رشدي أفندي هم الذين يحققون مع الناس ، وكان أول من سجن من الناس الذين نعرفهم: عبده آغا الخيا،والسيد عبد المالحمن أصحاب الحوانيت في باب البريد والتجار ، والسيد رشيد الخجا حانوتي في باب البريد ، ومصطفى بك بن نصوح باشا وأولاد عمه درويش بك وابراهيم بك وحسن بك ، وعبده آغا بن محمد آغا خير ، ومصطفى بك الحواصلي وأولاد أخو رشيد آغا المتقدم ذكرهم ، ورجال مصطفى بك المذكور الذين كانوا معينين معه عندما ابتدأت الحوادث ، وعبد اللطيف آغا بن عبد الرزاق آغا من أغوات الشاغور المتقدم ذكره ، والذي كان قد تعين في ابتداء الحادثة ، وبعد ذلك سجن من أعيان أهل القنوات فقط : الشيخ محمد قطنا ابن سيدنا الشيخ حسن الراعي قدس سره العزيز ، والسيد حسن البهنسي ، وابن آل الأيوبي صالح أفندي ، وأولاد الطباع : السيد محمد والسيد محيي الدين ، ومحمد آغا تمر ، وعبد اللطيف أفندي المارديني ، ومقدار ألف وثلاثمائة نفر من من عموم أهالي دمشق .

وفي يوم أول صفر ١٢٧٧ [٩١ + آب ١٨٦٠] سجنوا شيخنا الشيخ عبد الله الحلبي ذاده ، وعمر أفندي غزي ذاده ، وعبد الله بك بن أسعد باشا ، وعبد القادر بك بن حافظ بك ، وعلي بك بن عبد الله بك ، ومحمد بك العظمة، ونقيب الأشراف أحمد أفندي العجلاني ، والمفتي طاهر أفندي ، وصالح آغا المهايني ، ومحمود أفنـدي حمزة ذاده ، وكل المذكورين من وجوه البـلد ، وأعضاء المجلس الكبير . وغيرهم سعيد أفندي الكيلاني ، وسعيد بك ميرالي العونيه ابن شندين آغا ، ومن التجار غير المتقدم ذكرهم ابن أزيهـا ، وابن الكحال ، وأولاد الطباع ، ورشيد الخجا المقدم ذكرهم ، وابن المالح .

واعتقل التجار في التكية ، والأعيان بالقشلة التي عند الميلوية ، وجماعة في سراي العسكرية ، وجماعة في بيت البلطجية ، وجماعة في القشلة الفوقانية أما الذين سجنوا في السراي : حسيبي أفندي والدي ، وعبد الله بك نصوح

باشا ، وسجن في القشلة الوسطانية أحمد عزت باشا الذي كان في دمشق أثناء الحوادث[1] وسجن أيضاً : عبد الله بك ، وعلي بك بن عبد الله بك ، والمفتي محمد بك العظمة ، ومحمد سعيد بك بن شندين آغا ، والغزي والنقيب أحمد أفندي ، وصالح آغا المهايني ، ومحمود أفندي حمزة ، وعبد القادر بك بن حافظ بك . وفي بيت البلطجية : الشيخ عبد الله الحلبي .

وفي اليوم الخامس أطلقوا سراح : محمود أفندي حمزة ، وصالح آغا المهايني والنقيب أحمد أفندي ، وعبد الله بك بن أسعد باشا ، وظل البقية في السجن .

ونرجع إلى الذين أوقفوا بالتكية ، فقد حقق معهم ، ثم قسموا إلى ثلاثة فرق : أولى ، وثانية وثالثة ، أما الفرقتان الأولى والثانية فقد أودعوا في السلايحي إلى أن كان يوم ٣ صفر [٢١ — آب] ليلة الاثنين السادسة في الليل ، وأنا في باب السراي في الغرفة المتقدم ذكرها ومعي من الخلان: عبد الحميد بك ابن مؤيد بك ، ودعاس آغا الجيرودي ، وعلي آغا فرحات ، واسماعيل بن شندين آغا ، والأمير سلمان الحرفوش ، وعند ذلك والكل نيام ، وعين الله ناظرة إلي ، وإذا بباب السراي فتح من غير عادة أن يفتح في مثل هذا الوقت ، وكان لم يغلبني الكرى ولو في عز المنام ، وعند ذلك قمت إلى عند باب الغرفة التي نحن بها ، والخفير جالس على الباب ، وإذا هناك خمسة وستين نفراً قد أوثقوا بالسلاسل ومعهم العسكر الشاهاني ، وخالد باشا المصري وضباط الجيش ، وأخذوهم إلى أمام باب الكرار ، وأقعدوهم هناك ، ولا واحد منهم يتكلم أبداً ، ثم باشروا بكسر السلاسل والقلب حزين ، وكانوا كلما فكوا سلسلة واحد منهم كتفوه بكتاف حتى قام النحيب بينهم ، وقالوا لهم : كل من كان يريد الوضوء يبادر ، والذي يريد أن يوصي فليوص ، والذي عليه غسل فليغتسل .... إن الله مع الصابرين إذا صبروا .

---

(١) لعله أحمد عزت الفاروقي ، الذي كان من رجالات الادارة العثمانية ، وكان أديباً وشاعراً في نفس الوقت وقد توفي بعد عام ١٨٨٣ ، وقد ذكره البيطار في « حلية البشر » : ٢٥٥ ـ ٥٩ .

وكان من المذكورين : مصطفى بك الحواصلي،وأولاد أخو رشيد آغا ، ومحي الدين آغا وحسن بك بن نصوح باشا ، والسيد محمد الركابي ، وابنه راغب ، والسيد حسن النشاواتي ،وابن سعدي التوتنجي ، وفارس آغا الحلبونية ، والقرا ابن بنت الكبرلي ، وفارس الخيل الذي كان يرقص بالشام ما كان له نظير من قبل ولا بعد ، والحاصل كان عدد المذكورين واحد وستون نفر رحمهم الله تعالى ، حيث كثير منهم ليس له جناية راح بالجملة، والله أعلم .

إلى أن صارت الساعة الثامنة من الليل ، وأنا قاعد ، ولم يطاوعني عقلي أن أوقظ أحداً من الاخوان الموجودين ، لكن أثناء ذلك استيقظ علي آغا فرجات وجلس معي على الشباك الذي كنا نشاهد منه الذي حل بالمذكورين ، وصار علي آغا المذكور يضرب نفسه ويقول لي : دخيلك كيف الرأي ؟ فأقول له مازحاً : ويحك رايح يقتلوك ، وأنا أظل حياً ، كلنا رايحين ، فيحزن المذكور، كل هذا والاخوان نيام ، إلى أن قام المذكور ونام ، وأنا أقرأ الورد فأتوسل إلى الله تعالى في أوراد وأدعية كثيرة نذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى ، إن كان في العمر فسحة .

وفي حدود الساعة الثامنة حدثت جلبة عند باب الغرفة التي نحن بها ، وأصوات سلاسل ، فعند ذلك قلت لنفسي جاء الدور لنا ، ما في ثمرة،لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإذا هناك شخص واقف على باب الغرفة يقول : دخلكم دخيل الله ، من يوجد في هذا المكان ، ابن خالي هنا ، فعرفت المذكور مصطفى بك بن نصوح باشا ، فقمت عند ذلك وأخذته من يده ، وأشعلت الضوء ، وإذا شعر رأسه واقف مثل الأبر ، وأصابعه مثل « النيل » سود زرق والعياذ بالله تعالى . فصرت والله أقرأ له ما تيسر من القرآن ، وغيره من الأدعية ، وقلت له : لا تخف ، وهكذا إلى أن صار وقت الصلاة ، قمنا بادرنا في الوضوء مع المذكور ، وصلينا الصبح حاضر إلى أن طلعت الشمس ، وقام الذين في الغرفة ، وإلى أن بلغ أهالي المرحومين ، وصار عزاء ، والعياذ بالله تعالى ، لم يسبق له نظير في الشام ولا في غير الشام ، لا من قبل ولا من بعد ، والله أعلم .

وبعد ذلك كان عندنا بعضاً من طعام، أطعمت منه مصطفى بك المذكور، وكانت الساعة حوالي الرابعة ، وإذا برسالة تطلب مصطفى بك إلى التكية ، فقام وتوجه مع العسكر ، وحين غادرنا ظننا أنه لا بد أن هناك شيئاً .

وكان هناك ضابط يعمل لدى خالد باشا كنت أعرفه من قبل ، فما أن كان الظهر حتى بدأ العسكر في حركة كبيرة وكذلك الضباط ، وعندما مرّ الذي كنت أعرفه ويعمل عند خالد باشا من أمام الغرفة ، قلنا له : دخيل الله ، ماذا هناك ، لماذا هذه الحركة كلها ، فقال : الأمر ، أننا أخذنا البارحة عشرة أواق « مرس »من أجل « المشانيق » وقد طلبوا الآن خمس عشرة أوقية ، وبذا تعلم ما هم عازمون على صنيعه ، فصار عندنا عزاء ثاني ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وعند الساعة الثامنة جاء طلب إلى اسماعيل آغا بن شندين آغا الذي كان معنا مسجوناً ، وأخذ العسكر وتوجهوا ، فعندما أرسلنا خادم الأمير سلمان مع المذكور ، وقلنا له : انظر إلى أين أخذوه ، وبعد مضي نصف ساعة عاد إلينا مثل « الميتين » وقال : أخذوه إلى المرجة ، وكانوا قد أخرجوا كل من كان في التكية وصفوفهم ورموهم بالرصاص ، وكان بينهم : اسماعيل آغا المذكور ، والشيخ محمد قطنا ، والسيد حسن البهنسي ، وصالح أفندي الأيوبي ، ومصطفى بك بن نصوح باشا المتقدم الذكر ، وأخو ابراهيم بك ، وشيخ حارة القنوات الذي كان اسمه رشيد ، وابن جعفر آغا محمد المكنى بالصغير وأبو فياض المشهور بالنكت والخرافات ، وكان المذكور في حال حياته دائماً يقول لن أموت إلاّ في يوم كبير ، حيث كنا كثيراً ما نقول له : أنت ابن ثمانين سنة صرت على حفة قبرك غداً تموت ، فيقول هذا الجواب ، وقال وهم متوجهون به : من عرف تخمين أبو فياض أنه لن يموت إلاّ في يوم كبير مثل هذا اليوم الذي ليس له نظير ، وكان اليوم يوم الاثنين الثالث من صفر سنة ٧٧ [٢١ آب ١٨٦٠] ، وكانت كمية الذين حل بهم قضاء الله وقدره مائة وأحد عشر نفراً ، وقبل ذلك واحد وستون ، وقبلهم رجل جزار قيل أنه أدخل السم على حريم النصارى ، وأثبت عليه ذلك فشنقوه في الدرويشية على الحوره ـ أو السروة ـ التي هي أمام مدفن درويش باشا ، وذلك في يوم

الاثنين ١٩ محرم سنة ٧٧ [٧ – آب ١٨٦٠] وبقي ثلاثة أيام معلقاً ، ثم شنقوا من بعده أربعة حوارنة من قرية الصنمين أثبتوا عليهم أنهم قتلوا حصادينهم ، شنقوهم يوم الاثنين في ٢٦ محرم سنة ٧٧ [١٤ – آب ١٨٦٠] .

وبعد ما تمت الاعدامات المذكورة صار الناس في كرب عظيم ولم يعد احد يفتح حانوتاً أو يتجول بالطريق ، وتوقفت أعمال البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وصارت النصارى تقيم دعاوى على المسلمين ، كل ما مرّ واحد أمسكوه وأقاموا عليه دعوى ، حتى اتفق أن واحداً كان بالحجاز ، فاعترضه أحد النصارى وتوجه معه إلى مجلس فوق العادة ، وأثبت الرجل أنه كان بالحج ، وعلى ذلك فقس .

وحين استشهد الذين شنقوا رحمهم الله تعالى كان من بينهم اثنان من محلة الصالحية ، واحد يقال لـه النقار والثاني .... وكانوا متوجهين إلى الصالحية لشنقهم هناك ، وكان صحبتهم رجل يقال له القرا ابن بنت الكبرلي ، وكان المذكور جميل الصورة ، طويل القامة ، جسيم من الرجال ، وله شهرة بالمزاح والحركات، وعنده من الهوس زيادة،وكان يعتبر عند الذين لهم سمعة بالشجاعة أنه ليس له قلب للمحاربة والقتال ، وكان مولعاً بأعمال الشجاعة والفروسية ، يحب آلة الحرب من سلاح وسواه .

وعندما وصلوا بالمذكور إلى الجسر الأبيض الذي هو بالصالحية ومعه الصالحيين المتقدم ذكرهما ، فحين وصل المذكور ضرب الجند الذين تولوا حراستهم وهو مكتف اليدين ، وحدثت مشاجرة بينه وبين العسكر ، وقد روي بأنه قتل منهم اثنان ، وأثناء ذلك رمى الصالحيان بنفسيهما بنهر توره ، واستمرت المشاجرة ، وأكثر العسكر من ضرب الرجل حتى يقال بأنهم اقتلعوا عينه بالحربة ، وقد استشهد قبل أن يصلب ، والله أعلم . واللذان سلما من الاعدام رمياً بالرصاص واحد من باب البغا اسمه ابن الفلاحة ، وواحد من الشاغور ، مكث ثلاثة أيام ثم مات ، والذي من باب البغا ، ابن الفلاحة فقد مكث مختبئاً مدة خمسة عشر يوماً في زقاق المغاني ، وجاء بعد ذلك واحد من

الضباط وكبس المحل المذكور بحثاً على عدد من المطلوبين فخاف المذكور ، ورمى بنفسه من فوق سطح عالي ، وتوفي رحمه الله .

ثم نأتي على حديث أخذ البيوت لإعطائها للنصارى ، ففي يوم الاثنين فوجيء الناس بالقنوات وإذا بالضباط يطلبون أخلاء بيوت أهل القنوات ، ولم يكن من أحد يعرف المقصود من ذلك ، فالبعض قال لأن الفرنسيين يريدون السكنى بالقنوات ، وبعض آخر يقول لإسكان العسكر، وفريق ثالث لإسكان النصارى ، وشهدت القنوات يوماً مثل الذي صار في حارة النصارى، فكل من ليس لديه غير دار واحدة أو ليس لديه دار أقارب صار يضع أمتعته بالأزقة أو بالمساجد ، وتكسر لهذا كميات كبيرة من الصيني أكثر من خمسين ألف قطعة ، وأتلفت أمتعة كثيرة وسرقت كميات غيرها ، والعياذ بالله تعالى ، حيث كان بالقنوات أسر لم تغادر بيوتها منذ أكثر من مائتي سنة ، ولذلك لم يكونوا محيطين معرفة بموجودات بيوتهم .

وكان في ذلك الوقت محمد آغا المفدق أضباشي (يوزباشي) وكان عمر آغا العابد تفكجي باشي[1] ، وقد عامل محمد المذكور الناس بقسوة وسوء ، حيث أنه لم يعط مهلة لأحد ، وصحيح أنه كان ينفذ أوامر صارمة من من قبل الحكومة ، لكن ليس إلى المقدار الذي أظهره .

وبعض الذين تجلدوا وتماسكوا لم يفرغوا دورهم ، فقد سلم حوالي عشرة دور ، وغالب الدور السالمة لجماعة كان لهم أكثر من دارين ، أخذوا واحدة وتركوا له الأخرى .

وعندما وجدوا أن دور القنوات لا تكفي أخذوا بعض بيوت القيمرية وكذلك من مادنة الشحم ، ومن الشاغور ، وبعد هذا نقلوا النصارى ، الذين كانوا بالقشلة وغير القشلة وفرقوهم على هذه البيوت حيث وضعوا عدة أسر في كل دار من هذه الدور .

---

(١) رئيس شرطة ملحق بالوالي .

ونرجع إلى الوجهاء وإليّ ففي الساعة العاشرة من يوم الأحد ١٦ صفر سنة ٧٧ [٣ إيلول ١٨٦٠] مرّ خالد باشا بالغرفة التي كنا مقيمين بها ، ثم عاد إلى باحة السراي ونادى لنا ،وعندما وصلنا إليه شرع يسأل كل واحد من الجماعة : من أنت ؟ سأل الأمير سلمان ، ودعاس آغا الجيرودي ، وسأل عبد الحميد بن مؤيد بك العظم ، وسأل علي آغا فرحات ، ثم أرسل الأمير سلمان ودعاس آغا إلى قشلة العسكرية ، وأرسل عبد الحميد بك وعلي آغا فرحات إلى تكية المرجة ، والتفت إلي وقال : تذهب أنت إلى بيت البلطجية ، فهناك مكان جيد ، فحييته ، والقلب حزين ، وغادرته وكان حارس واحد فأرسل ثلاثة أخر ألحقهم بي خوفاً أن أهرب ، والحال والله لو أردت أن أهرب لهربت منذ زمان بعيد ، ولكن ليس لي رغبة بالهرب ، والله تعالى قد ألهمني الصبر وثبتني بقوله الثابت ، فالحمد لله .

وتوجهنا إلى بيت البلطجية في الساعة ١١٫٥ من يوم الأحد السادس من صفر سنة ٧٧ [٣ ــ ايلول ١٨٦٠] وأخذت الغرفة التي وراء الباب في البيت الكبير الذي فيه الايوان والقاعة ، وكان في البيت الصغير شيخنا الشيخ عبد الله الحلبي ذاده شيخ الشام ، وكان بالقاعة والغرفة كافة ضباط الشام السابقين مسجونين ومعهم الضباط الذين كانوا في حاصبيا وراشيا ، والميراليات عثمان[1] بك وحسني بك[2] ، وسوف يأتي ذكر هؤلاء فيما بعد ، المهم أننا نمنا تلك الليلة ، وفي صباح يوم الاثنين في الساعة السابعة نهاراً حضر خالد باشا ونادى إلى اليوزباشي وقال : لا ينبغي بقاء أحد هنا أبداً ، وأخبرني بهذا ابن كاتبنا ذلك أنه سمع ذلك الكلام ، فناديت اليوزباشي ، وقلت له : قل لخالد باشا : أنتم أرسلتم البارحة ابن فلان حسيبي ، فسأله خالد باشا سبع مرات : ابن من ؟ ثم دخل المذكور إلى عندي إلى الغرفة وقال : هنا مكان جيد ، ابق هنا ، فبقيت جالساً ، ولم يبق أحد من الضباط أبداً إلى أن حانت الساعة الحادية عشرة ، وإذ بوالدي يدخل إلى عندي ، فحين رأيتــه داخلاً

(١) كان قائد حامية حاصبيا وقد أعدم فيما بعد .

(٢) لعله كان قائد حامية راشيا ، وقد أعدم أيضاً فيما بعد .

سررت غاية السرور ، وحين رآني والدي غرغرت الدموع في عينيه ، ولم يرض الجلوس بالغرفة التي كنت جالساً بها ، وأخذ الغرفة الملاصقة لباب القاعة في البيت المذكور .

ومكثنا في المكان المذكور حتى يوم ١٢ حيث حضر كافة الوجهاء إليه وصار الموجودون فيه : الشيخ عبد الله حلبي ذاده في البيت البراني الصغير ، والمفتي طاهر أفندي ، وعلي بك بن عبد الله بك بن أسعد باشا وعبد الله بك بن نصوح باشا العظم أيضاً ، وفي الدار الداخلية : عمر أفندي الغزي ، وأحمد أفندي حسيبي ، وسعيد أفندي كيلاني ، وعبد القادر بك بن حافظ بك عظم ذاده ، ومحمد بك العظمة ، وحسن أفندي الحريري ذاده ، وابن القوادري السيد عبد الرزاق ، وذلك الجمع بالقاعة ، وفي الغرفة سعيد بك بن شندين آغا ، كردياً كان ميرالي « العوني » وهو نوع من العساكر ألغي الآن ، وفي الغرفة الثانية شرقي باب القاعة : الأمير سلمان الحرفوش ، وهو مسجون بسبب غير هذه الحادثة ، ومن قبل ، وسيأتي ذكره من بعد ، ودعاس الجيرودي ، الذي ذهب الباشا المشير بنفسه وأحرق داره في جيرود بما فيها من أمتعة وغيره ، وعبده آغا الخياط ، وأولاد الطباع : السيد محمد والسيد محي الدين ، وابن ظلمتني أحد تجار دمشق ، وابراهيم آغا شيخ الأرض ، وابن البحصيلي ، وعلي آغا كاكابين باشي العساكر الشاهانية ، وأولاد نصوح باشا : محمود بن فردوس بك ، ودرويش بك ابن عم المذكور ، وكيخية المرحوم الشهيد أحمد باشا شهيد هذه الحادثة ، وعثمان أفندي ترجمان الكيخيا جواد أفندي ، كان المذكور مسجوناً في المحل المذكور . وسجن أحمد أفندي بن عبد القادر أفندي باش كاتب مدة معتبرة ، هو وحسن أفندي الحريري ، وقد أفرج عنهم بعد يوم ٨ . وقد سجنوا بسبب دعوى أقامها عليهم أحد نصارى دمشق كان يقال له الصوله ، وكان يعد من الشعراء بين أقرانه النصارى ، ولكن عقله خفيف .

وظل هؤلاء الأعيان في بيت البلطجية إلى حين صدور الأمر بنفيهم وتسريح التجار ، ففي الساعة الحادية عشر من يوم الأحد جاء الأمر إلى

الميرالي رضا بك بأسماء المنفيين وهم : الشيخ عبد الله الحلبي ، وعمر أفندي الغزي ، والمفتي طاهر أفندي وأحمد أفندي حسيبي ، وعلي بك العظم ، وعبد الله بك نصوح باشا ، ومن الذين كانوا في بيوتهم : عبد الله بك العظم ونقيب الأشراف أحمد أفندي عجلاني ، وعبد الهادي أفندي عمري ، وعبد القادر بك العظم ، ومحمد بك العظمة ، وهذا الأخير كان له ولد اسمه سليم بك جميع مصالح والده معلقة به ، وقد قضي عليه في ذلك التاريخ ، وبعد رجاء سمح له أن يحضر أعمال الدفن وقد أرسلوا برفقته ثلاثة خفراء أعادوه مباشرة بعد الانتهاء من الدفن ، فعاد دون أن تنزل من عينه نقطة بكاء ، هكذا وجدنا صبر المذكور وشهدناه .

وشاهدنا من عمر أفندي الغزي يوم ٣ ربيع الأول [١٩ — ايلول] أنه قام في الفجر يوجه الشتم والسباب إلى السيد عبد الرزاق القوادري ، وخاطبه : أرسل وراء عبد القادر ابن الميداني ، وأعطيه كم غرش وهو يخرجك من السجن ، وأنت ستنسرح على يديه « يا صفتك يا نعتك » ، ولما سكت أرسلنا الكاتب الذي عندنا خلف ابن الميداني ، فجاء قبل الشمس مرتعشاً خائفاً ، وذهب إلى عند ابن القوادري ، وفعل مثلما أمره عمر أفندي المذكور ، وراح المذكور فسعى بالقضية ، بعدما توجه الجماعة في يوم ٣ ، في ذلك اليوم أطلق سراح ابن القوادري على يد الميداني ، وهذا ما شاهدته رأي العين ، والله أعلم .

سفر الأعيان

كان يوم الاثنين في السادس من شهر ربيع الثاني [٢٢ — تشرين الأول] توجهوا إلى بيروت ، وكان فؤاد باشا دخل بيروت معهم يوم دخولهم إياها ووضعوهم بالقشلة ، ورغب ابن الادلبي في انزالهم عنده في داره ، فلم يرض المأمورون خوفاً من فؤاد باشا ، وهكذا كان الحال ، فقد أقاموا يومهم في بيروت ثم أرسلوا : الشيخ عبد الله الحلبي ، وعمر أفندي الغزي ، والمفتي طاهر أفندي ، ومحمد بك العظمة ، وعبد الله بك نصوح باشا ، وابن الشيخ عبد الله المذكور ، الشيخ محمد صالح ، وأحمد أفندي حسيبي إلى بلد يقال

لها الماعوصة [فامغوستا Famagusta] في ساحل قبرص وكانت هذه البلد لا يعرفها أحد إلا بالمثل المتواتر في الشام ، كل ما كان هناك عويصة يقول الواحد للآخر : « رمينا في « هالماعوصه » ورحت » وكانت هذه المنطقة من المدن المشهورة قبل فتحها ، ولقد عانى منها الصحابة كثيراً حتى أخذوها من يد النصارى ، وظلت خراباً منذ الفتح حتى هذا التاريخ ، وعدد سكان هـذه « الماعوصه » ٣٠٠ نفر ٢٠٠ اسلام ، ١٠٠ نصارى ، وهواءها رديء جداً ، وماءها رديء أيضاً ، توفي بها عمر أفندي الغزي ، ومحمد بك العظم ، وظل البقية فيها حتى شهر صفر سنة ٧٨ [٨ آب ـ ٥ ايلول ١٨٦١] ثم أخذوا إلى أزمير وأقاموا في أزمير مدة ثلاثين يوماً ثم توجهوا إلى بلد صاقص [جزيرة كيوس في بحر ايجه أمام أزمير] التي يجلب منها « المسكة » فأقاموا بها بضعة أيام ثم صدر الأمر بالاقامة في أزمير ، فعادوا إليها .

هذا ما حدث للذين ذهبوا إلى قبرص ، أما بقية الجماعة فقد أرسلوهم إلى رودس وهم : علي بك العظم ، وأبو عبد الله بك العظم ، وأحمد أفندي العجلاني وعبد القادر بك العظم ، وعبد الهادي أفندي العمري ، ثم توجه فيما بعد عبد القادر بك إلى صاقص ورجع مع الجماعة إلى أزمير ، وأقام مدة عندهم وتوجه بعدها إلى الآستانة حيث أقام مدة .

وفي يوم الاثنين ١٤ ربيع الثاني [١٩ تشرين أول ١٨٦٠] حضر علي رضا بك المرالي المتقدم ذكره إلى عندنا في بيت البلطجية حيث بقيت أنا ، وسعيد أفندي كيلاني ، وسعيد بك بن شندين آغا ، وعثمان أفندي ترجمان الكيخيا وخزندار المرحوم أحمد باشا ... ودعاس الجيرودي، والأمير سلمان، وابن ظلمتني وابن البجصلي ، وأخرج علي بك المذكور ورقة فيهـا أسماء : الخزندار ، وسعيد أفندي ، وسعيد بك ، وعثمان أفنـدي ، وأمر بتوجـه المذكورين إلى بيروت ، فتوجهوا إليها حيث أقاموا بضعة أيام ، ثم توجهوا إلى الآستانة ، وأقاموا هناك ، وفيما بعد توجه سعيد بك بن شندين آغا إلى بغداد

رفقة نامق باشا[1] وعمل بخدمته وظل في بغداد إلى سنة ٨١ [١٨٦٤ــ١٨٦٥] وقد استفاد من خدمته أكثر من ألف كيس ، أما ما كان من رفقاء المذكور فكل منهم استخدم في مصلحة ، فسعيد أفندي كيلاني لاقى غاية الاكرام من حسيب باشا مدير أوقاف استانبول ، وعاد غيره إلى الشام في ٠٠٠٠ وقبل ذلك حضر عثمان أفندي الترجمان ٠

وبقينا نحن في بيت البلطجية ، ومعنا جـواد أفندي الكيخيا والأمير سلمان الحرفوش ، ودعـاس الجيرودي ، وابن ظلمتني ، وابن البحصلي ، وعلي كاكايين باشي شاهاني ، وقد أطلق فيما بعد سراح المذكور ، وأما نحن فأقمنا إلى السابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٧٧ [تشرين ثاني ١٨٦٠] ثم أرسلونا إلى بيت عربي كاتبي دفعة واحدة ؛ ودخلنا الدار المذكورة ، وكان بها عدد المسجونين حوالي ثلاثمائة من جميع الأجناس والملل والبلدان ، وبهم جماعة لهم أسماء لم نسمع بها طيلة عمرنا مثل : أبو عكل ، وابن عكال ، وأبو كشكول ومغربية وعوامي ، وتمريه ، والفارة والجاجي ، وعلى ذلك فقس ، ومن الملل كان هناك : نصارى ، ويهـود ، ومتاولة ، ودروز ، ونصيرية ، وأرفاض ، ونور ويزيدية ، وتيامنة ، ومن البلدان : من بغداد ، ومن جهات الشام الأربع : من بيروت ، ومن حلب ، ومن حماة ، ومن يافا ، ومن عكا ، ومن غزة ، ومن القدس ، ومن نابلس ، والخليل ، ومن صيدا ، ومن صفد ، ومن نفس مصر ، ومن بلدان مصر ، ومن ديار بكر ، ومن الأكراد ، ومن عجلون ، ومن بلاد الغرب ، ومن أزمير ومن الآستانة ، ومن بلاد الأناضول ، ومن عرب الشامية ، ومن بلد ياظ ومن الموصل ومن بلد الهند ، ومن الأغوان [أفغان] ومن أنطاكية ، ومن حيفا ومن حوران ومن ماردين ، ومن العجم ٠

هذه هي بلدان المسجونين في بيت عربي كاتبي المؤلف من ايوان وقاعة على كتف الايوان ، ومربع على كتف الايوان ، وغرفتان في الجهـة الغربية معلقتين تحتهما قبو ، وغرفة وايوان صغير ، وايوان شرقي صغير ، وفي جهة

---

(١) محمد نامق باشا والي بغداد [١٨٦١ ـ ١٨٦٧] ٠

الشرق غرفتين ، ومرتفقتين [غرفتان صغيرتان] وديوان خـانه في قصرين [غرفة استقبال لها شرفة مغلقة] وفي جهة الشمال غرفة عند الباب وهي التي أقمت بها ، وملاصقها قاعة ، وكان كل محل توجد عنده قاعة يوجد داخله ماء ومطبخ وفسحة ديار أربعين عرض وستين طول وبركة ماء كبيرة وأشجار متنوعة ، ودار برانية بها ايوان ومربعين على كتف الايوان ، وفوق قصرين على الطريق ، وياخور كبير ، وغرفة في منتصف الدرج ، وأخرى فوق المرحاض ، وساحة داخلية وبركة ماء ، ودهليز له مصاطب ، وباب كبير له مصراعين في مصراع باب صغير (باب خوخة) وباب صغير منفرد ، وقطن هذه الدار الجند الذين تولوا خفارة المساجين ٠

وكان إذا ما جاء أحد لزيارة واحد من المساجين من حريم أو سوى ذلك يخرج السجين إلى الدار البرانية هذه إلى الياخور ويقابل زواره ثم يرجع ٠

وكان الأولاد يأتون بكل ما يحتاجه المساجين من طعام وسوى ذلك ، وكان اثنين من الضباط مع الخفراء ٠ وكنت أنا ومعي دعاس والأمير سلمان المتقدم ذكرهم ، وكان من الأعيان داخل الدار الكتخدا جواد أفندي ، وحسن آغا ياظ من الدالي باشي القديم ، وكان حسن الطباع كريم جداً ، ومن جملة كرمه أنه كان مسجون معه السيد عبد القادر بن الشطي فدفع له خمس ليرات ، وعلى ذلك فقس ، وقد توفي المذكور بالحجاز وهو في خدمة الدولة وذلك في سنة ٨٠ [١٨٦٣ — ١٨٦٤] ٠

وكان من المساجين علي آغا فرحات « يزباشي الظبطية » ، وكنا دائماً نجتمع معاً ومعنا رجل يعمل بالغناء (نوباتي) اسمه قدور ، وكان من الدرجة الأولى في الغناء ، وكان يأتي إلينا رجل كردي اسمه علي حبش لـه صوت ليس له نظير في الشام ، وكان ينام عندنا ، وكنا كل ليلة نعمل حفلة غنـاء « نوبية صفا » مع الحلويات كما جرت العادة في البلد في « الأدوار » ، وظل الحال هكذا حتى توجه جواد أفندي إلى استانبول ، وأطلق سراح حسن آغا ،

وبقيت ومعي علي آغا هواري « دالي باشي » كذلك دعاس والأمير سلمان ، وكنا دائماً غير ملزمين بالبقاء في غرفنا يزورنا من أراد كل وقت وبدون اذن ، حتى دخل عندنا أخو دعاس وكان من العصاة ومعه سلاح ، وقد نام ليلتين عندنا ثم ذهب بعدما اتفق مع أخيه على أن يهربه مع الأمير سلمان ويأخذني معهم .

وأثناء هذا جاءتني رسالة من قرا علي باشا المقيم بالشام منذ أمد طويل يخبرني فيها بأن سراحي سيطلق وأنني سأكون بعد ثلاثة أيام في البيت ، وكان الوقت نصف شعبان ٧٧ | ٢٦ شباط ١٨٦١ | فمي صباح ذلك اليوم أخذ الأمير سلمان أذناً ومعه دعاس وواحد من أتباع دعاس اسمه كسرى كان مسجوناً معنا ، بأن يذهبوا إلى الحمام ، وتوجه الأمير سلمان إلى التربة وذبح رأساً من الماشية ، ووزع كمية من الدراهم وأعطى العسكر والظبطية كمية وافرة ، ثم ذهب الجميع إلى تربة باب الصغير لأجل الذبح والتصدق بالمال ، وعندما وصلوا إلى مقام سيدنا بلال الحبشي ، فوجئوا بوقوف كمية من الخيول ، فركض المساجين نحوها ، وركب كل منهم فرس ، وكان هناك خمسة عشر خيال ، ومعهم واحد من المساجين اسمه رشيد مغربية ، وكان دمشقياً ، وهرب الجميع ، وفيما بعد رجع مغربية هذا إلى سجن بيت عربي كاتبي ، بينما ظل البقية هاربين .

وبعد عملية الفرار هذه شدد علينا في السجن غاية التشديد ، حتى أنهم منعوا الأولاد من الدخول علينا وجلب ما نحتاجه . إنما بالنسبة لي أذن لي بالذهاب إلى الحمام وحتى إلى الدار « البرانية » فلم أقبل .

وبعد هرب المذكورين جاء إلى غرفتي عبد القادر الشطي ، وعلي آغا الموحيش ، وأقمت معهما بكل طاعة لله ، فعبد القادر الشطي المذكور رجل تقي وخلوق جداً ، وعلى العموم فكل طائفة آل الشطي أتقياء متدينين جداً فالمذكور كان يختم كل يوم دلائل الخيرات ويقرأ مجموعة من الأدعية والتسابيح وأنا كنت أشاركه وتتوسل إلى الله في الليل والنهار ونسأله الاجابة وغفران الذنوب المعلومة وغير المعلومة .

وظل الحال هكذا حتى شهر ذي الحجة [١٠ ـ حزيران ـ ٨ تموز ١٨٦١] حيث اختاروا منا حوالي المائة سجين ونقلوهم إلى السجن الكبير ، وبقينا ، وبعد ذلك حضر رشيد أفندي القدسي وقال لي : كنت في بيروت ، ودفعت عشرة ليرات حتى خلصتك ، ادفع لي هـذا المبلغ حتى أطلق سراحك يوم السبت ، فلم أقبل منه ، وكان للمذكور دراهم على أبي سلفة ، فقدرت أنه عمل ذلك حيلة لأخذ دين الوالد ، وذهب المذكور بعـد هذا الى عنـد الحريم ، وأدخل شيئاً إلى عقولهم ، وقال لهم : إذا لم تدفعوا هذا المبلغ أعطل القضية وأوقفها ، والحريم لا يخفى حالهـم على العالي والداني ، دفعوا لـه إحدى عشرة ليرة فرنساوية ، فقال لهم : يوم الثلاثاء يخرج من السجن هـو وعمي حسين أفندي ، أو يوم الخميس ، وكان ثاني يوم لما حدث يوم الأحد ١٣ محرم سنة ٧٨ [٢١ تموز ١٨٦١] حضرت ورقة اطلاق سراحي ، فخرجت من السجن وبقي عم المذكور خمسة عشر يوماً بعدي ، فتبين أن المذكور قام بلعبته هذه حتى أخذ الدراهم عن ذمة الوالد .

وأما ما حدث لبقية المساجين ، فالبعض أطلق سراحه والبعض الآخر نقل تحت الحراسة جماعة منهم إلى عكا ، وجماعة إلى قبرص كـان مـن جملتهم السيد عبد القادر الشطي ، حيث مكث سنة في قبرص ثم عاد الى دمشق، ولم يبق أحد بقبرص ، والشطي المذكور لاقى غاية الاكرام من باشا قبرص وأعيان الجزيرة وكان من جملة العائدين من قبرص الشيخ يحيى القوادري مـع من كانت مدة نفيه ستة أشهر ، أما الذين أخذوا إلى عكا فأطلق سراحهم في سنة ٨١ [١٨٦٤ ـ ٦٥] وكذلك الذين كانوا في التراس[1] خانه أطلق سراحهم سنة ٨١ دفعة تلو أخرى حتى شهر شعبان [كانون الثاني ١٨٦٥] ففي هذا التاريخ لم يبق أحـد في السجن حتى الذين أخذوا إلـى الخدمة في الجيش النظامي جرى تسريحهم في شهر رمضان [شباط ـ ١٨٦٥] ومع شوال [آذار] لم يبق أحـد في الآستانة ، وأطلق سراح الذين في عربستان في ذي القعـدة

---

(١) احدى ثكنات دمشق آنذاك .

[نيسان] وكذلك باقي الناس الذين كانوا في رودس وطرابلس الغرب من طائفة الدروز وأعيانهم .

وبعد خروجي من السجن طولبت بكمية كبيرة من المال ، فقبل خروجي صار انتخاب بين أعيان دمشق لعمل مجلس [جباية] حيث قسمت المدينة إلى ثمانية أجزاء وأن ينتخب من كل ثمن من الأثمان رئيس وأعضاء . وفرض على دمشق خمسة وعشرين ألف كيس منها ضرائب عمومية وضرائب خاصة ، فمن الضرائب العامة شيء على أجرة الدار والدكان وغير ذلك مثل « الترابية » وكان الدفع هنا عن سنة واحدة ، أما الخاصة فكانت غرامات تقدر بمعرفة الأعضاء كل رجل حسب جناية جناها من نهب وغير ذلك ، ووضعت قوات نظامية تحت إمرة المجلس المعين لتحصيل الأموال وقد تم استثناء بعض الأعيان كما استثني السيد عبد القادر المغربي ، حتى أنه صار كلما ذهب إليه انسان أعطاه ورقة بأنه مغربي حتى صار عدد الذين ادعوا أنهم مغاربة خمسة عشر ألفاً أتباع للسيد المذكور ، وقد أغضب هذا الحكومة ، وصدر أمر من فؤاد باشا بعدم إعفاء إلا من يثبت أنه حقاً من المغاربة ، وجبيت من البقية بالكامل ومن جميع أنحاء الشام ، وفرض على الناس دفع مال الأعشار عن ثلاث سنوات ، فالذي كان يدفع مئة غرش كل سنة لخزينة الشام دفع ثلاثمائة ، حتى المزارع والحوانيت ، رغم أن المزارع ليس لها سكان .

والذي شاهدناه من المسلمين الذين تكلفوا بتحصيل هذا المال أنهم كلفوا البلد مقدار هذا المال وأكثر ، حتى أن كثيراً من المناطق لحقها الخراب من الوقت الذي طالبوا فيه بهذا المال .

وظل الأمر هكذا حتى صار والي الشام محمد رشدي باشا [الشرواني] الذي كان مفتياً برفقة فؤاد باشا حيث رفع هذا عن المسلمين في سنة ٨٠ [١٨٦٣ — ١٨٦٤] جزاه الله خيراً بقيمة ما رفعه حيث خربت البلد ، في السابق وكثر التزوير والفساد .

وأما المال الذي صار من الأثمان ومن النواحي فكان يدفع إلى مجلس فوق العادة الذي عين خورشيد أفندي ناظراً على الواردات مع جملة من الكتاب وصار السيد أحمد القنواتي متولي انفاق هذا المال ، فكان يتعاطى أعمال البيع والشراء .

وجمعت مسلوبات النصارى ووضعت في جامع يلبغا الذي في سوق الخيل ، وقد وضع الشيخ عبد الله الحلبي ناظراً على هذه المسلوبات ، وبعد ذلك اتهم في القضية ، فتم تعيين أمين صندوق مع خمسة عشر كاتباً ، وكان دفع المال يتم بالعملة الرسمية ، وكانت الليرة المجيدية يتم حسابها رسمياً بسعر /١٢٣/ غرش في حين كان سعرها في البلد /١٢٥/ وسعر البشلك ٥ر٥غرش .

وكان تحت تصرف خورشيد أفندي عساكر شاهانيه وضباط حتى إذا ما قصر رؤساء الأثمان في التسديد تم سجنهم في التكية التي صار بها مجلس فوق العادة المتقدم ذكره ، ومراراً سجن جماعة من المذكورين من أجل دفع المال المعين .

وشكل بعد هذا مجلس لمسلوبات النصارى ولإعادة التعمير ، وصار كل واحد من النصارى يثبت المال المفقود له وقت الحوادث مع المحروقات ، وتذهب لجنة للكشف وذلك بمعرفة أعيان النصارى مثل : أنطون الشام ، ومتري شلهوب ، وابراهيم طنوس ، وابراهيم مسديه ، وجبران البحري ، وابن العنحوري ، ومن أعيان المسلمين مثل : سعيد أفندي الاسطواني ، ودرويش أفندي منجك وغيره ....

وقام مجلس الواردات يدفع للنصارى ، وبدأت أعمال العمارة في حارة النصارى ، وكذلك تم التعويض على المسلمين الذين تضرروا أيضاً ، وكل من أخذ بعض تعويضاته كتب له بالمتبقي سندات بالفائدة بالمائة ستة كل سنة .

وبالنسبة لرؤساء الأثمان والأعضاء فقد أكثروا من أخذ الرشوة ، حتى

صار ذلك مرضاً ، ولما توقفت أعمال التحصيل صـار أهالي الأثمان يطلبون محاسبة الرؤساء ، وحدثت اهانات كبيرة وظهر بعض الذي ظهر والمخفي أعظم والله أعلم .

وفي سنة تسع وسبعين [١٨٦٢ ــ ١٨٦٣] توظف في المجلس الكبـير سعيد أفندي الاسطواني ودرويش أفندي منجك ، وذلك في أيام محمد باشا التفتاف ، وتوجه بعد ذلك محمد رشدي أفندي الشرواني إلى بيروت ليسافر إلى الآستانة وكان فؤاد باشا هو الصدر الأعظم ، فطلب فؤاد باشا لـه من شيخ الاسلام أن يعينـه قاضياً في مكان ما ، فرفض ، حيث أن ذلك مخالف للنظام ، وذهب ثانية حين توجه السلطان عبد العزيز [١٨٦٢ ــ ٦٣] لزيارة مصر ، وأثناء ذلـك استأذن فؤاد باشا السلطان أن يوافق على تعيين رشدي باشا والياً على الشام ، فأصدر الأمر في القبول ، وحين رجـع السلطان الى الآستانة أرسل إليه فرمان ولاية الشام ، وكان المذكور في بيروت، حيث توجه الى دمشق بكل اقبال ، وكان ذلك ...

وبعد ما حضر صار هناك شيء من اللين في الحكم منه ، وبعد ذلك برز إلى الأشقياء . وأمـا أحوال الفلاحـين ففي سنة ٧٩ صدر أمـر بمحاسبة ــ الشوابصة ــ وكلاء المزارع مـن قبل خمس عشرة سنة ، ووضعت عليهم الفوائد على كل مائة غرش غرش واحـد شهرياً ، وهـذا شيء سبب خراب الشوابصة حتى لو كان لأحـد مقدار مائـة ألف غرش على بلد فإنـه بهذه المحاسبة يزيد على الفلاحين . وبعد ذلك في سنة ٨٠ [١٨٦٣ ــ ١٨٦٤] صدر أمر من الدولة العلية أن تتم محاسبة الفلاحين وتحديـد الفائدة غرشان لكل مائة غرش كل شهر ، وبهذا الحال صار الفلاح يستدين بفائدة غرشين ونصف غرش شهرياً لكل مائة غرش إنما يكتب الذي يدينـه أن يقدم له قرضة الله حسنة ، ويضم المال مع المرابي أو تحسب الفائدة وتسجل في أصل المال .

هذا ما كان من الشوابصة ، أما ما كان من المعافيه [أصحاب الأملاك المعفاة من الضرائب] فلقد ألغيت الاعفاءات ، وصار كل من لديه حانوت أو أرض معفاة اعفاء كلي أو جزئي بموجب أحد الغرامات أو أوامر الوزراء عليه أن يدفع مثل الفلاحين وسواهم ...... كما أصلحت قضايا موارد الأوقاف وادارتها [(1)] .



(1) تابع الحسيبي فيما بعد في أوراق عدة ذكر بعض الحوادث العادية في دمشق ثم ختم مذكراته ببعض التراجم لشخصيات من عصره .

المُلْحَقُ الثَّانِي

منتخبات من رواية درزية عن حوادث ١٨٦٠

رواها

حسين غضبان أبو شقرا

وكتبها

يوسف خطار أبو شقرا


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حركة الستين

مرت على دروز لبنان تلك السنوات الثماني عشرة كأنها يوم واحد، لفرط ما حصل لهم بخلالها من السعادة والاقبال، وما اضحوا عليه من جانب السؤدد والعزة القعساء، فساورت مهابتهم العباد، وتجاوزت سطوتهم البلاد فقذيت عيون عداتهم لدن مرآهم على تلك الصورة، يسكنون القصور العلية، ويركبون الخيول المطهمة، وهم شاكو الأسلحة الفاخرة، عيشهم في الرخاء وخيرات الأرض وبركات السماء تسح على ربوعهم وابلاً ورذاذاً.

وكانت المملكة الفرنسية في ذلك الحين، قد بلغت من القوة مبلغاً عظيماً، وحلت من المجد على عهد امبراطورها نابليون الثالث أوجاً رفيعاً، وقد كان هذا الامبراطور يحدق في جبل لبنان تحديق طامح إلى افتراع هضبة، طامع في ضمه إلى ملكه ويؤنسه فيه وجود الطائفة المارونية الشديدة الاخلاص والتعلق بالدولة الافرنسية، فكان الفرنسيس لا يفتأون عن بث روح الشقاق والنزاع بين سكان الجبل، لعل لهم في نشوب حرب ضروس بين الدروز والنصارى سبيلاً إلى احتلال لبنان، ووضع سيطرتهم عليه، فانبثت هذه الروح الشريرة بين جميع النصارى ونما لها في قلوبهم جذور متباينة الأصول والفروع، فعقدوا الخناصر ووطنوا الأنفس والعزائم على إضرام حرب يستطير شررها إلى جميع الأنحاء، ويعم ضررها الأصدقاء والأعداء فشرعوا يزيغون عن خطة النصف والعدل غير مراعين حقوق الجوار، وجعل بعضهم يقتفي آثار بعض في الافتراء وتحريك عوامل العداء كيف استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

واحست الدولة العلية بما غدا يدور عليه محور السياسة الافرنسية في جبل لبنان، فجعلت تحاسن الدروز وتختصهم بالنعم، حتى غدت على ثقة

تامة من فرط اخلاصهم لها وشدة تعلقهم بالعرش العثماني الأنور ، وبناء على ذلك غدت المنافسة بين الطائفتين المذكورتين تتعاظم ، وأسباب المباينة تتفاقم ، حتى برزت المشاحنات من حيز القول إلى حيز الفعل ، وابتدأ اللبنانيون في تشخيص دور هو أتعس الأدوار وأشأمها من رواياتهم التاريخية ، اما المبتدئون بالتمثيل فهم اخواننا الموارنة قدحوها شرارة ، فكانت شرارات تطايرن في سائر الأنحاء فأبلين معظم الجبل بنيران الحروب الاهلية الآكلة .



الشــرارة الأولى

وأول مسائل الفتك والغدر التي حدثت ، كانت في سنة ١٢٧٦ هجرية الموافقة سنة ١٨٥٩ مسيحية « أولاها مسألة بيت مري » واليك تفصيلها : بينما كان أحد المكارين من دروز بيت مري يستورد من تلك القرية ماء ينقله على ظهر حماره ، اذ دفع الحمار غلاماً نصرانياً في الطريق ، ، فأوقعه فصرخ الغلام ، فهب إليه نفر من أهله فأوسعوا ذلك المكاري إهانة وضرباً ، وطرحوه جريحاً مهشماً ومضوا ، فعلا الصياح وتقاطر الأهلون إلى حيث الضوضاء ، فجرت بين الدروز والنصارى منهم مشاجرة عنيفة أفضت بهم إلى مناولة السلاح ، وتطالق الرصاص ، فكانت معركة في تلك القرية هائلة انجلت عن مقتل ثمانية عشر درزياً وأحد عشر نصرانياً ،اذ عدد نصارى بيت مري ضعف عدد دروزها ، فضلاً عمن أنجدهم من نصارى عين سعادة وبرمانا ، وغداة استفحل أمر النصارى القوا النيران في منازل الدروز فأحرقوها ، وتصاعد دخانها في الفضاء ، فاتصل نبأ هذه الحادثة المحزنــة بيوسف بك عبد الملك مقاطعهجي الجرد ، فجمع نفراً من رجاله وأغار بهم جهة المتن فأوقع ببعض المتنيين ، وجعل يقتل أي نصراني اعترض له في طريقه ، وهو مع ذلك يحرق بيوت النصارى مقابلة للشيء بمثله، وما انفك يهاجم الأعداء حتى دخل حمانا ، وقد انصرمت حبال ابنة ذكاء ، وهجمت جيوش الظلماء فكف عن الهيجاء وقفل إلى بتاتر ثائراً ظافراً .

وجيهي باشا يلافي الشر

فبلغ نبأ ذلك مسامع وجيهي باشا القومندان العثماني ببيروت ، فسار بعسكر جرار لملافاة الشر والحفاظ على السكينة، فضرب قبابه في محلة المديرج من حيث أمر باطلاق المدافع على جورة المتن ارهاباً للمشاغبين ، وحقناً لدماء المتناضلين ، ثم بث الجنود في الأنحاء تأييداً للسلم ومنعاً للحرب ، فلما سكنت الأحوال ، وحقنت مجاري الثورة والقتال ، باشر وجيهي باشا باستدعاء قائمقامي البلاد وجميع مقاطعجيتها فحضروا جميعاً ، ما عدا يوسف بك عبد الملك ، فإنه لم يحضر خشية طائلة المجازاة عليه ، وممن حضر من مقاطعجية الدروز الأمير محمد الأمين الارسلاني الذي خلف أباه قائمقاماً على جبل الشوف سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) ، وخطار بك عماد ، وقاسم بك أبو نكد ، والشيخ حسين تلحوق ، وغيرهم ؛ وتأخر حضور سعيد بك جنبلاط ، وأيسوا من مجيئه ،فعقد الباشا المخابرة والمداولة مع القائمقامين الأمير محمد ارسلان ، والأمير بشير بللمع [أبي اللمع] ، ومن حضر من المقاطعجية بشأن مسألتي أهالي بيت مري ويوسف بك عبد الملك، فقر قرار قائمقامي الدروز والنصارى على إلزام الدروز دفع ثلاثة وثلاثين الف غرش للنصارى ، مثل قيمة ما تاف من عدد القتلى ومن المحروق والمسلوب ، فبينما هم إذا بطلائع خيل سعيد بك جنبلاط قد أقبلت ، فقطعت جهينة قول كل خطيب ، وساد السكوت حتى يحل صاحب الشوف ويؤخذ رأيه في القضية ، فلما ضربت قبابه ، وأجرى ما أجراه مما مر عليه الكلام عرض لديه القائمقامان ما قر عليه القرار بالاتفاق ، فاستحسن ذلك ، وكان عليه مصادقاً ، ولما أبرم عقد الصلح قال لمعشر السادة الحضور : إن شئتم قيامي بدفع نصف هذه الغرامة فعليّ النصف ، وإن سألتموني دفع كلها فلا بأس عندي بذلك ، فقالوا له : أنت وشأنك يا بن عمود السماء ، فقام بدفع الثلاثة والثلاثين الفاً من ماله الخاص ، وأعطى بها حوالة على أحد الصيارف في بيروت ، وبعد ذلك أخذ المتنيون يفدون على منتدى سعيد بك تأدية لواجب الاحترام ، ووقوفاً على منصرف إرادته ومشتهاه

في الأمر ، فجعل يوصي الفئتين بالمحبة الوطنية والحرص على الراحة العمومية ، مبيناً لهم نتائج الخير الحسنة ، وعواقب الشر الوبيلة ، فما منهم إلا من هتف له بالدعاء منصاعاً لأمره ، وأشار عليهم بالصلح ، فتصالح الفريقان ، وارفضا بظواهر الوداد .

اعتداءات أهالي جزين

رُتق هذا الفتق وبقيت افتاق يعوزها الراتقون ، كيف لا والحقد لم تزل تغلي له في قلوب المسيحيين مراجل ، ولم يبرحوا مثابرين على تشديد بعضهم بعضاً مواصين في كـل مكان اجترام ما استطاعوا إلى اجترامه من الدروز سبيلاً بأي صورة كانت ، فجعل أهل جزين مثلاً يشتمون ويهينون أي درزي رأوه ماراً بقريتهم اعتداء ، حتى ألجأ الأمر الأفراد من المكارين القادمين من النبطية والحولة أو سوق الخان أن ينكبوا عن طريق جزين ، ويمروا بطريق توأمات نيحا الوعرة المستطيلة خشية أرذال جزين وافترآتهم ، وجعل أهل دير القمر يتفننون في سـوء معاملة من رأوه من الدروز منفرداً يستام من سوقهم سلعاً ، وكثيراً ما كانوا يوارون فرس الخيال وهي مرتبطة في أحد خاناتهم ، فينكرونها عليه ، ولا يقرون له بها حتى ينقدهم حلواناً ، وقس على ذلك ، ولما كان الدرزي يشكو لوجوههم سوء معاملة أبنائهم ، كانوا ينسبون تلك القباحات للأولاد أو للأوباش منكرين علمهم بها واطلاعهم عليها .

مقتل رئيس ديـر عميق

وقد كان حدث في تلك الآونة خلاف عظيم ما بين رهبان دير المخلص اللبنانيين والشاميين على منصب الرئاسة في الدير المشار إليه وكانت من ذي قبل مناوبة يلقى بمقاليدها تارة لأحد هؤلاء وأخرى لأحد أولئك ، فاتفق أن رئيساً لبنانياً انقضت مدة رياسته أي ثلاث سنين فانتخب الرهبان الرئيس خلفه لبنانياً أيضاً ، فأكبر الشاميون هذ الأمر وهاجوا له هياجاً عظيماً ، فقلق الدير من المقالات والبلابل ، فألجأت الحال إلى ابتناء دير عميق في المناصف ونقل الرهبان الشاميين إليه ، ليكونوا فيه رئاسة شامية مستقلة ، أما العضو العامل

في تمثيل هذه الرواية النافخ في ضرم هذه الثورة الرهبانية ، فهو راهب شامي اسمه يني ، كانت نفسه تشرئب إلى منصة الرياسة ، فقام بما قام به سعياً وراء أمنيته ، وجداً للحصول على بغيته ، فلما حصل الرهبان الشاميون في دير عميق ، وقاموا بانتخاب رئيس جديد لهم أحرز أكثرية الأصوات راهب غيره ، فاخفقت آمال يني وذهبت مساعيه أدراج الرياح ، فشق عليه الأمر جداً ، فأضمر لذلك الرئيس الجديد الشر ، وجعل يعمل على قتله ويتدبر له مكيدة تغتاله لعل أمر الرياسة يفضي اليه من بعده ، فأجال رائد الفكرة فيمن يجب أن يوكل إليه الأمر الخطير الفظيع وأخيراً وقع على أخوة ثلاثة من بريج كانوا شديدي البأس ذوي سابقات بالفتك ، فخابرهم بالأمر وأغراهم بأن عند الرئيس صندوقة ملؤها ذهب وفضة ، ولم يزل بهم حتى وطنوا العزايم على قتل الرئيس وتآمروا أخيراً على أنهم يوافونه في ليلة معينة ، يكون بها قضاء هذا المهم ففعلوا ففتح لهم باب الدير ودخلوا غرفة الرئيس فذبحوه وخرجوا ، فسكّر هو الباب وراءهم ، وقد تمّت هـذه المكيدة دون أن يدري بهـا أحـد ، فأكبرت الرهبنة ذلك الرزء الفادح والخطب الجسيم ، وأوقعت الظن باديء ذي بدء على بشير بك نكد مدعية أن صندوقة الرئيس كانت تحوي مايتي كيس من الدراهم ، فصادروه بهذ المبلغ فأورثت هذه الدعوى اضطراباً وسجساً وهجساً في البلاد ، وكانت الرهبنة قـد همت بتوجيه التهمة على بشير بك رسمياً لولا أن تأكد لها أخيراً براءة ساحته منها اما هذه القصة فقد حدثني بها الخوري أيوب من قتالي خادم كنيسة المحاربية حينئذ ، وأنه كان لم يزل راهباً في دير المخلص إبان تلك المقالات التي أفضت إلى انقسام الدير إلى ديرين .

مقتل محمد أبي مطر

وبنـاء على تلك السواجس [الهواجس] والاضطرابات جعـل الناس يهجسون بحدوث حركة ثالثة في جبل لبنان ، فأهملوا أعمالهم وتركوا أشغالهم وغدوا يستنشقون نسمات الأخبار والأراجيف من الثغور ويشومون بروق الحوادث أين يبدو وميضها ، فجعلت الأنباء تتوارد على طالبيها بما كان يجريه النصارى من الاعتداء على أفراد الدروز في أكثر الأنحاء نفخاً في ضرم الفتنة ، وقدحاً في زناد الحرب .

فمن ذلك أن رجلاً من الشويفات يدعى نصيف كاملة ، ورفيقاً له من المتن يدعى أبا غوش ، وكانا شجاعين فاتصل بهما أن مكاريين درزيين نائمان في خان الورواز ذات ليلة ، وهما محمد ابو مطر وابن أخت لـه من بعقلين فقصداهما وطعناهما بالخناجر ، فأبقياهما منطرحين على يالقي بغليهما ، ولما كان هذان القتيلان ينتميان إلى بني حمادة ، رفع هؤلاء واقعة حالهم لسعيد بك جنبلاط ، وعرضوا لديه أن في نيتهم ثأر ولديهما من القاتلين نفسيهما ، أو من رجل من وجوه الشويفات بدل ناصيف كاملة ، فلم يأذن سعيد بك لهم بشيء من ذلك ، بل أبى كل الاباء وغدا ينتهرهم ويتهددهم بحرق بيوتهم وإنزال الويل بهم إذا هم فعلوا فعلاً مغايراً ، فقالوا له نرضى بقتل نصرانيين من خارج لبنان من الأماكن المجاورة لتخومه ، فرفض كلامهم ولم يسلّم بشيء من ذلك كله ، فانصرف الحماديون من عنده مغضبين ، غير أنهم وجدوا الثأر عبئاً على كواهل الرجال ثقيلاً ، فلم يخمد لهم متوقد ، ولا سكن لهم متحرك حتى ألقوا ذلك العبء المستثقل على عواتقهم ، إذ أرسلوا ثلاثة رجال منهم ، بطريقة سرية ، وهم : حسن نصيف أبو عجرم ، وشبلي شويشوي ، ويوسف راجح إلى ما وراء لبنان ، فالتقوا بثلاثة رجال من قيتولي في محلة خان محمد علي شبيب على مقربة من النبطية ، فذبحوا منهم اثنين ، وصلموا إذني الثالث دون أن يعدموه الحياة ، ورجعوا إلى قومهم خفيـة دون [أن] يطّلع أحد على أمرهم .

شيـوخ الشبـاب

فلما اتصل النبأ بأهالي قضاء جزين كثر بينهم اللغب والشغب ، وامتدت هذه العدوى إلى النصارى في الجهات الباقيــة فأورثتهم القلق والبلبال ، فابتدأوا ينظمون أخويات في كل قرية أخوية يلقبون رئيسها بشيخ الشباب ، ويقيمون شيخاً على هؤلاء الشيوخ في قصبة المقاطعة التــي ينتمون إليهـا ويسمونه شيخ مشايخ الشباب ، وكان كل شيخ يدرج أسماء شبان قريته في قائمة ، ويرفعها إلى شيخ المشايخ ليحصي عدد شبان مقاطعته جميعاً ، أما في إقليم جزين ، فكان يوسف آغا نصيف الجزيني شيخ مشايخ الشباب ، وأما في المتن فكان الشنتيري ، وفي غيرها غيره ، وهلم جراً ، وقد تسمى أولئك الشبان المنخرطون في أسلاك الأخويات جهالى ، واتخذ هؤلاء الجهالى زياً من الملبوس خاصاً بهم ، إذ كان الواحد منهم يلبس سراويل أبيض راخياً فوقه قميصاً أبيض واسعاً أشبه بتنورات الأرناؤوط ، إلا أنه أصغر ، ويكسو ساقيه بطماق من الجلد الأحمر ، وعلى رأسه لبادة ملفوف عليها منديل يزما تقليداً لعقال البدوي ، وقــد كان أولئك الجهالى لا يفتأون متجولين من قريــة إلى أخرى شاكي السلاح ، وهم ينشطون بقية القوم من كهول وأغرار ، ويشددون عزائمهم متعهدين لهم بكسر الدروز في الحرب العتيدة التي سيؤججون نيرانها ، ومن المضحك المبكي في هذا الباب ما يروى عن رجل بكاسيبي يدعى مارون لبّس ، كان يهزأ من أولئك الجهالى وما يتوخون اجراءه ، ويقول لهم دائماً : بمن تحاربون الدروز وتغلبونهم ، أبجرمانوس ، وقرياقوس وأندريا ومتى الخ ؟ فهم يأتونكم بعلي ، وفتح الله ، وكساب وغلاب ، ودعاس ، وسيف الدين ، ونصر الدين ، وما أشبه ، فكانوا كلما سمعوا ذلك منه شتموه وأهانوه .

شيوخ الشباب يتصلون بالقنصل الفرنسي

ثم أن أهالي إقليم جزين جعلوا يتآمرون ويتشاورون على ثأر القتيلين ، وإلاّ صلم القيتوليين ، فقر رأيهم على إرسال بعثة إلى ساحل صيدا يقتلون من يعن لهم من الدروز ، وقد تألفت تلك البعثة من حنون قمر شيخ شباب جزين ، ومنصور مبارك شيخ شباب بكاسين ، وحبيب لطفي من بكاسين ، ورجل من قيتولي أجهل اسمه ، وقد ناموا أول ليلة بعثتهم عند خليل هاشم أحد شركاء بني شمس في مزرعة المراح ، وفي اليوم الثاني ذهبوا إلى صيدا فقابلوا المسيو دريكالو القنصل الفرنسوي ، وأطلعوه على جلية أمرهم ، فاستحسن رأيهم ، وشدد فيما وطنوا عليه النفوس ، ثم ضم إلى عددهم رجلاً استدعاه من سقي صيدا اسمه يوسف أبو نوفل الأعرج، فلما توارت[الشمس] بالحجاب وانسدل من الظلام الحجاب ، غادرت هـذه الزمرة دار القنصلية الصيداوية ، واتوا فكمنوا في البستان الجديد الجاري على ملك يوسف أبو نوفل المار ذكره ، وأبناء أعمامه الواقع بجانب الرملة الحمراء ، فمر من الدروز زرافات عديدة كخمسة رجال أو ستة رجال معاً ، ولم يتجاسر الكامنون على مهاجمتهم حتى مر أخـيراً ثلاثة مكارين ضعفاء فقراء من معاصر الفخـار ، يسوقون حميرهم ، فأطلقوا الرصاص على اثنين منهم فأوردوهما الردى ، وعمدوا إلى الثالث فصلموا أذنيه ، ومضوا مسرعين في ساقية أبي غياس ، وباتوا تلك الليلة في لبعة .

هياج دروز المعاصر

وفي اليوم الثاني بلغ دروز المعاصر نبأ مقتل ولديهم المذكورين ، فهاجوا وماجوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وحملوا بيرقهم[1] هاجمين جهة اقليم جزين ،

---

(١) رايتهم .

ولدى وصولهم لعين العريش (في عماطور) أوقفهم العماطوريون عن المسير ريثما أقبلت خيالة من قبل سعيد بك يأمرونهم بالرجوع إلى المختارة لمقابلة سعادته ، فأقنعهم سعيد بك بالسكون ، وعدم اثارة ثائرة حرب عمومية ، متعهداً لهم بإلقاء القبض على الجانين أنفسهم ليصير إعدامهم جزاء ما فعلت أيديهم .

حادثـة الكحلونيـة

فاتفق عند ذلك لأهل قرية الكحلونية المشرفة على عماطور والمختارة ، أنهم لما سمعوا الغوغاء ، ورأوا جموعاً يخفق فوقهم بيرق في عماطور ، ثم نظروا خيالة سعيد بك متوجهة نحو عماطور أيضاً تيقنوا أن سعيد بك الزاحف بخيله ورجله على اقليم جزين ، وأن الحرب لا شك قد اتقدت ، فبينما هم إذا بخوري وثلاثة رجال راجعين من بتدين إلى اقليم جزين بطريق الكحلونية ، وقد صاروا في أقصى القرية فتسارع إليهم الشبان فجدوا أمامهم في الهرب ، فأدركوا منهم رجلين فأعدموهما ، وتبع الخوري أمين الدين أبو حمدان فأعجزه إدراكه (فجعل يصرخ عليه ويقول: وقِف يا خوري، وقف يا خوري، ولك بس بتتعب حالك وبتتعبني) ، وهذا من المضحك المبكي ، وأخيراً أدركه فأرداه ، ونجا الرابع فاختبأ في الوادي بمطحنة أبي علي مطر أبي شقرا ، ثم توجه نحو الاقليم بطريق الزاروب من أملاك عماطور ، فالتقى به فهد كنعان أبو شقرا في محلة الزاروب فأمنه ، وسكن روعه ، ثم قاده إلى بيته وأحسن معاملته ، وقراه ، وفي اليوم التالي أصحبه العماطوريون برجلين رافقاه إلى تحت قلعة نيحا ، أي حيث يأمن غائلة الدروز ، وغادراه فمضى في سبيله ، وقد كان من سكان مزرعة تعيد ، فسار إلـى جزين ونزل إلى بكاسين ، ثم انقلب إلى تعيد وقد أخبر جميع من رآه من قومه بما جرى له ولرفاقه ، ففشا الأمر وشاع في جميع الأنحاء .

مبادلة حسنة

وكان حينئذ رجل من عماطور اسمه علي أحمد حسن عبد الصمد في قرية روم التابعة جزين ، لما سمع نبأ الحوادث المار ذكرها فزع إلى حنا طنوس الحداد ، وكيل أملاك أولاد الشيخ حمود جنبلاط ، فأقام ببيته مستجيراً ، فصعد إليه أهالي عازور وأتوا به نحو عماطور، ولم ينفصلوا عنه حتى أوصلوه إلى مرج بسري إلى حيث يأمن غائلة النصارى ، فكان صنيعهم هذا وفاء عاجلاً لدين أهالي عماطور لهم .

غير أن الهياج وقلق الخواطر لم يزل جارياً مجراه في كلتا الطائفتين ، فكنت ترى الجميع لا همّ لهم غير جلاء السيوف ، وشحذ الخناجر ، وتطهير البنادق ، ودق الفشك ، وما أشبه من إعداد معدات القتال ، وكانوا يقضون الليالي في هزج الأناشيد الحماسية ، وإطلاق البارود (عراضات) ، ولكن بعد حادثة الكحلونية المحكي عنها قلت العراضات في إقليم جزين ضناً بالبارود ، وإدخاراً له إلى يوم الحاجة .

عماطور تفاوض جزين بالصلح

ثم أن سعيد بك جنبلاط استدعى إليه وجوه العماطوريين ، واستكتبهم مكتوبين : الواحد إلى حبيب ناصيف الجزيني وأخوته ، والآخر إلى منصور المعوشي ، وأبناء أعمامه وجوه جزين ، ومآل المكتوبين إسداء النصائح بالكف عما عقدوا عليه العزيمة من إصلاء الحرب ، والاقلاع عما يباشرونه من تهييج الخواطر وإثارة السواكن ، مع الالماع والتبيان عما تجره الحرب الأهلية من الخراب العام والمضرات ، والنكبات بالمتحاربين ، وما يلم بكلا المنصور والمكسور من الويل والثبور ، إلى غير ذلك من النصائح الغرر ضناً بالسلم ، وما يتوفر فيها من الرخاء والأمن والنجاح والفلاح واحترازاً من الحرب التي يكون نتاجها الدمار العاجل ، والخراب الهائل ، ولم يسه الكاتبون عن إبداء رغبة سيدهم السعيد في السلم ، وميله إلى السكينة والائتلاف وعظيم ما ناله من الكدر والغم من وقوع الشقاق وانذار العدوان ، ما بين سكان مديريته ، خاتمين الكتابين بالاقتراح على المكتوب إليهم المذكورين ، وسؤالهم أن يوافوهم إلى محلة عين أبي نجم الواقعة بين الشوف والإقليم لأجل تأليف مجلس مختلط من أهالي القريتين ، أي عماطور وجزين يبحثون فيه عن مصدر النزاع وداعية السجس فينصفون كل مظلوم من ظالمه ، ويوصلون إلى كل ذي حق حقه ، ويضعون للقلق والاخلال حداً نهائياً بين أبناء طائفتيهما ، وأخيراً يعقدون المصالحة بين الفريقين على وجه مرض لكليهما ، فتتوطد أركان الأمن ، وتعود مياه الراحة إلى مجاريها ، وقد أصاب سعيد بك بإرسال المكتوبين مع رجلين نصرانيين من عماطور ، أحدهما صمدي الغرض ، وهو نصيف مخول يحمل كتاب بني عبد الصمد إلى بني الجزيني الصمديين في الغرض ، والآخر شقراوي الغرض ، وهو فارس أبو سمرا ، يحمل كتاب بني أبي شقرا إلى بني المعوشي الشقراويين في الغرض أيضاً .

فلما اطلع الجزينيون على الكتابين ، أخذوا يتهددون الرسولين ، ويشتمون ويجدفون ، وقد سأل منصور المعوشي فارس أبي سمرا المرسل إليه قائلاً : على فرض شبت الحرب بيننا وبين الدروز فأنتم نصارى الشوف مع من تكونون ؟ فأجابه إنا يا أبا ملحم جماعة ضعفاء فقراء نعيش في خير الدروز ، ونستظل بهم ، فلا يمكننا مناوأتهم أو الخروج من بينهم ، وأما انتم فليس من الرأي والصالح قيامكم على الدروز ، ومحاربتكم لهم ، لأنكم حاربتموهم مرتين ، فأحرزوا في المرتين عليكم النصر ، فغضب المعوشي لهذا الكلام ، فانتهر الرسول قائلاً له : « أنا إذا فتحت حلقي وضممته يصير الدروز من اسناني ولجوا : أي إلى داخل حلقه » وأخيراً طلب الرسولان جواب الكتابين ، فقال المعوشي لهما : لا جواب عندنا ، ثم قال لهما : قولا لنصارى الشوف أن يخرجوا من بين الدروز ويأتوا إلينا ، فقالا : هذا ليس بامكاننا اجراؤه ، فشتمهما ، وأغرى بهما جهلة الشبان فتعاووا عليهما ، وأوسعوهما ضرباً ، واثخنوهما جراحاً ، فهربا جادّين نحو الشوف، فلحقوهما وأوسعوهما رشقاً بالحجارة حتى محلة عزيبة ، اما نصيف مخول فما وصل تحت قلعة نيحا حتى برك من أوجاعه لا يستطيع حراكاً ، وأما فارس أبو سمرا فتقدم إلى باتر ، فأعلم الشيخ أمين حمدان بالأمر ، وما حل برفيقه ، فأرسل الشيخ إليه مكارياً احتمله على دابته إلى عماطور فاستاء العماطوريون غاية الاستياء مما لقيه رسولاهم من الإهانة ، وسوء المعاملة وأخزنهم تصميم الموارنة على الشر ، وإيقاد نار الحرب ، غير أنهم كظموا غيظهم سالكين سبيل الحلم والتؤدة لكيلا يكونوا أول قادحي شرر الفتنة ، وحتى لا يقال أنهم كانوا سبباً لحرب أهلية عمومية لم يعودوا مرتابين في شبوبها عاجلاً ، وأما سعيد بك جنبلاط ، فلما بلغه ما قد جرى بالرسولين المذكورين قال : إن جهل هؤلاء القوم سوف يخربهم ، ويخربنا ، ولكن الله على البغاة ، وإن على الباغي تدور الدوائر .

المطران بطرس يشرف على رجالـه

ثم ان المطران بطرس البستاني قادح زناد هذه الحركة ، فيما يقال ، نزل من مركز كرسيه الذي كان وقتئذ في مدرسة مشموشة الرهبانية ، إلـى قرية بسري لوقوع هذه القرية على جادة صيدا ، ولكونها أدنى من مشموشة إلـى تلك المدينـة وصولا فيمـا إذا اضطر للنجـاة من وجـه الغـزاة ، وأرسـل صعـب الخـوري إلـى جـزين ليناظـر العساكر النصرانيـة المتقاطرة إليها ويفيده عن مجمل أحوالها ، فذهب ورجع إلى سيده قائلاً له : اني رأيت العساكر بادية على وجوههم هيئة الانكسار وملامح الفشل ، قال : ممّ عرفت ذلك ؟ أجاب رأيتهم قليلي الكلام صفر الوجوه ، واني الحركة منطرحين تحت الجوز ، خاملين خامدين توقظ الواحد منهم فلا يستقيظ ، قال المطران وهو يهز رأسه : إنني لموقن بأنهـم سينكسرون وعليهم تدور دوائر الحرب ، فقال له صعب : إذن لماذا لا تأمرهم يا سيدنا بالكف عن حرب أنت موقن بانكسارهم فيها ، ولماذا لا تشدد النكير على منصور المعوشي ، وما يقوم به من الأعمال الآيلة للهلاك والخراب ، وتصدر إليه أمراً قطعياً ليجيب العماطوريين إلى ما سألوه وطلبوه إليه من أمر الصلح الذي هـو مرغوبهم ومرغوب سيد الدروز سعيد بك جنبلاط ؟ فهز المطران رأسه قائلاً له : ذلك لا يوافق ، فقال صعب : كيف لا وعساكرنا يهلك ثلثها في الحرب ؟ فقـال المطران : أنا عالم بذلك ، ولكن إذا فني منا الثلث يصطلح الثلثان الباقيان . (والله أعلم) .

هذا ما كان يقوله المطران البستاني لذوي الأفهام فقط من رعيته ، قال راوي هذا الخبر : وأما ما عدا ذلك ، فإني قد اطلعت على مكتوب من خط يده إلى جماعة النصارى في راشيا الوادي ، وهو أحد الكتب التي أرسلت منه إلى أبناء رعيته في لبنان وسورية في صورة واحدة ؛ وإليك نصه بحروفه :

جناب وحضرة أولادنا الأجلاء الأماجـد الأكرمين مشايخ وخواجات واختيارية الابركسيس[1] في راشيا الوادي المحتشمين دام بقاهم •

غب اهدائكم غزاير البركات السماوية والادعية الخيرية تحفظ حياتكم ونجاحكم ، ومزيد الهيام للحظوة بمشاهدتكم السارة بكل خير وعافية ، وبعد قد اطلعتم ما حصل من طائفة الدروز المفسدين بالأرض ، مع تراكم تعدياتهم الشهيرة وأفعالهم المغايرة التي اتخذوها ديانة ، ومع اجراء أعمالهم هذه قد اتبهوا طائفتنا المسيحيين المحبين بالرب ، أنهم أصحاب الهمم العلية المنصانين بعناية السيدة البتولية ليردعوهم عن الطغيان الذي لهاهم بـه الشيطان ، وحينئذ قد صار مجلس عام في لبنان مع أوجه بندر زحلة ، ومعمورة دير القمر ، وجزين وكسروان ، وما يليهم بأن يكونوا يداً واحدة على هذه الطائفة القليلة العدد ، العادمة المدد على إعدامهم ، وسفك دماهم ، وسلب أموالهم وخروجهم من هذه البلاد التي هي عتيقة أجدادهم الأرثوذكسيين ، ولذلك ينبغي بأن تستعدون بالأسلحة الكاملة والجبخانات الوافرة ، وتقوون بعضكم بعضاً في بلادكم المسيحيين سراً ، وإن شاء الله بيوم الاثنين يصير عندنا مضاربة بواسطة جناب الأمراء المشهورين ، الذين ليس غايتكم الغيرة وتشديد البأس منهم لكامل شغبنا ، فإذاً كونوا قدّ حالكم ، وببركة السيدة تصبح الديار من أعدائكم خالية ، وعدوان الدين لا يلزمكم تفطين ، وبركتنا تشملكم للدوام •

---

(1) ابركسيس : كلمة يونانية معناها اعمال •

الحركـة تبدأ في المتن

لما كثرت السواجس ، وتفاقمت الكوارث والحوادث ، أخذت نيران المناوشات والمحاربات تتقد اتقاداً خفيفاً ، غير أن القوم لما كانوا على استعداد لحرب جسيمة ، فما عتمت الحرب أن اضطرمت اضطراماً شديداً ولفحتها رياح الشحناء ، وما كانت تكنه الصدور والضمائر من الاحقاد ، فزادت استعاراً وتأججت تأججاً هائلاً حتى كان ما كان مما سيأتي عليه الكلام . وقد شبت بادىء بدء في المتن حيث تجمع عسكر نصراني من نواحي بعبدات والشوير ، وبيت شباب ، وبكفيا ، وخلافها يربو على ستة آلاف مقاتل ، فشنوا الغارة على دروز المتن وكفر سلوان وصليما فتقهقروا أمام الغزاة إلى قرنايل ، حيث تألبت إليهم قوات جديدة من القرى المجاورة ، وأنجدهم نصر الدين بك عبد الملك بثلاثماية مقاتل من الجرد والشيخ محمود حسين تلحوق بمايتي مقاتل من الغرب ، مبقياً من تبقى من رجاله في عاليه لمهاجمة أو دفاع الجيوش المستجاشة في بعبدا ، فتألف من الدروز في قرنايل عسكر يناهز الألفين والخمسماية مقاتل، فحملوا على العربانية حيث اتحدت قوات النصارى بعد أن أكملوا حرق وسلب منـازل الدروز في القرى التـي اكتسحوها ، فصدموهم صدمة ارتجت لها أضالع معسكرهم ، فانفشلوا منهزمين ، فرمى الدروز القرية بالنار وجعلوا يتتبعونهم من مكان إلى آخر واولئك مجدون في الهرب لا يثبتون في وجـه الدروز الذين فتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، وأحرقوا جميع منازلهم في القرى المختلطة من دروز ونصارى كصليما والمنين وبرمانا ، وبيت مري ، والرأس وخلافها . وقد فقد الدروز في هذه المناوشات (أي في اليوم الأول) خمسين قتيلاً ، وأهلكوا من النصارى مايتي مقاتل ، أما من نجا منهم فما زالوا جادين حتى بلغ بعضهم زحلة ، والبعض الآخر كسروان مستغيثين بأبناء مذهبهم ، فأغاثهم الزحليون بكتيبـة جسيمة ، وأمدهم الكسروانيون بخميس كثيف يقوده المشايخ الخازنيين، والتقى الجيشان المذكوران في حمى كفر سلوان حيث

اتحـدا منضمين ، ووطنا العزائم علـى مهاجمة الدروز والانصباب علـى كفر سلوان ، فبلغ الدروز نبأ تلك الفيالق الجرارة القادمة عليهم ، فابتدروها بالهجوم إلى ذلك الحمى ، فالتقى الفريقان ، ودارت بينهما رحى القتال ، وحمي وطيس الوغى ، فكانت واقعة من أفدح الوقائع أبدت فيها تلك الجماعة الدرزية من الشجاعة والثبات ما يذكر ويؤثر •

خطار بك يشهد القتال

ووصل أخيراً خطار بك عماد وولده علي ، فشهدا سوق المبايعة بالأقس، فشريا بالسيوف ، وباعا ، فظهر الدروز ظهوراً على العدى مبيناً ، ودارت على النصارى دائرة الفشل والانكسار ، تاركين مايتين وثلاثين قتيلاً في ساحة القتال ، وبعد هذه الواقعة لم يعد النصارى يجسرون على مهاجمة المتن من جهة حمى كفرسلوان أبداً ، بل حولوا غاراتهم من جهة المديرج ، وخان مراد ، وكان النصارى المغيرون من هذه الجهة عراقبة ، وبقاعية وزحالنة ، فقصدهم ذات يوم خطار بك عماد وابنـه علي بعسكر لا يتجاوز خمسمئة مقاتل من العرقوب ، والمناصف ، لأن معظم دروز تينك المقاطعتين أقاموا على سلاحهم تجاه دير القمر ، فالتقيا بهم في ظهر البيدر ، فالتظت بين العسكرين نار حرب عوان لم يخمد لها لهب مدى ثلاثة أيام وكانت هذه الأيام الثلاثة للدروز ، اذ كان النصارى يبيتون على كسرة وخسران ، ويتقهقرون أمام خطار بك إلى شتورة فيتبعهم مسافة خمس ساعات ضرباً بالسيف ، حتى إذا انسدلت حجب الظلام يعود إلى أراضي عيندارة حيث كان مخيماً بجنوده ، غير أنهم كانوا يلمون شعثهم ويتشددون معاودين عليـه المهاجمة ، والكر في صبيحة اليوم التالي ، وأما في اليوم الثالث فقد صادفوا وبالاً عظيماً إذ دارت عليهم رحى الحرب ، فطحنتهم طحناً ، وجـد الدروز على آثارهم فمزقوا شملهم في كل

واد ، وفرقوا جموعهم بين الهضاب والوهاد ، فانحل معسكرهم انحلالا لم يتم لهم بعده انعقاد ، وودعت ربوعهم المجال وداعاً لم يشتهوا له بعده لقاء ، إذ هلك أربعماية رجل من عيونهم ، لقاء سبعين قتيلا درزياً ، منهم : علي[1] بن خطار بك عماد ، وقد جرح في هذه الواقعة نصر الدين بك عبد الملك ، وقد لحظ من شهد هذه الوقائع سبب كثرة القتلى من النصارى ، وقلتها من الدروز ، لأن النصارى كانوا أضعاف الدروز عدداً وأكثرهم لا يحسن اطلاق الرصاص ، لا سيما بعد ما ذاقوا الكسرات المتعددة ، واستولى على قلوبهم الرعب والروع ، فأصبحوا لا يضبطون الرمي ، ولا يجيدون الاصابة بالكلية، بخلاف الدروز مع قلة عديدهم ، كانوا يهاجمون الفيالق النصرانية من كل صوب ، فيصدقون الحملة ، ويظهرون من شدة البأس وثبات الروع والجأش وإجادة المرمى والإصابة عجائب وغرائب ، فعندما يشاهد النصارى فرسانهم تكبو ، ودماءهم تجري ، يلوذون بالهزيمة ، ويقنعون من الغنيمة بالاياب .

وأما خطار بك بعد احرازه النصرة على مناوئيه في ظهر البيدر ، نزل من هناك بمن معه إلى قب الياس ، ولندعه في هذا المقام ، حتى إذا أتينا على ذكر معظم الحوادث التي جرت في بقية الأنحاء ، عدنا إليه وإلى ما قام به من الأعمال الجهنمية الجسام .

(١) قيل : أقبل خطار بك على ابنه وهو جريح وفي حالة النزع فقال له : إن كنت قد أصبت في ظهرك فلا ردك الله . وإن في صدرك فرحمة الله عليك وسأقتص من قاتليك بعدد شعر راسك .

القتال في الغرب والساحل

وأما في الغرب والساحل فقد جيش الأمراء الشهابيون جيوشاً غفيرة العدد ، ووافاهم الشيخ طانيوس البيطار يقود عسكراً مجراً من أنحاء كسروان، وزحفوا على الشويفات ووصلوا في هجومهم قرب كنائس الحارة العمروسية ، فركب إليهم الأمير محمد الأمين ، والأمير حمود الحسن الأرسلانيان ، وثار دروز الشويفات أمام أميريهم مشاة ، فأجملوا الدفاع والذود عن الحياض . ثم صدقوا العزائم وأججوا النخوات فصدموا المهاجمين صدمات عنيفة أردت بكثير من فرسانهم ، وأكرهت عساكرهم على التقهقر إلى نهر الغدير ، وكان الشويفاتيون قد أرسلوا الصارخين إلى القرى المجاورة ، فأسرعوا إليهم ، فمر أهالي عين عنوب إلى عيناب ، ومن في جوارهم بطريق دير القرقفة ، ومر أهالي عرمون وغيرهم بطريق الشويفات ، فلما تبدت النجدتان لمقاتلة النصارى طرح كل سلاحه وما اثقله من مؤنته وثيابه وجد جميعهم في الهرب لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى الوراء ، فجد المشاة من الدروز في اتباعهم على الأثر ، وأطلق الخيالة منهم لخيولهم الأعنــة ، فنثروا تلك السهول الفيحاء بالجثث ، وما انفك الدروز في تتبعهم واستطراق آثارهم حتى الضبيّة ، وكانت طــلائع المنهزمين قــد جاوزت عندئذ جونيــه ، وإنه على كثافــة عسكر النصارى وضخامته بازاء عسكر الدروز في هذه المحاربة ، لم يكن عدد قتلاهم وفيراً لعدم ثباتهم في مواقف النزال ولإركانهم إلى الهرب لدى صدمات دروز الشويفات فقط ، أما الدروز فلــم يقتل منهم أحد البتة ، وهــذا ما يقضي بالعجب ، أما الأمير حمود فقد أبدى من الشجاعة والبسالة في هذه الغارة ما لا يفي بوصفه القلم .

القتـال في الشحـار

وأما في الشحار فقد قدم الأميران قاسم وسلمان الشهابيان ، واستجاشا الف وخمسماية رجل من نصارى تلك الناحية ، وجمهرا بهم حوالي كنيسة كفر متى ، فتألف من دروز عبيه وعين كسور ، وبعورتـه ، ودقون ، نحو ثلاثماية رجل ، فهجموا عليهم من الجهة الشمالية ، واجتمع ثلاثماية درزي من البنيه وكفر متى ، وحملوا عليهم من جهتي الجنوب والشرق ، مخلين لهم من الجهة الغربية باباً للهرب وانقضوا عليهم انقضاض الليوث الكواسر ، فثبت النصارى ساعة من الزمن هلك فيها خيرة شجعانهم ، وتوالت هجمات الدروز ، وتعالت صعقاتهم ، فخارت لها قلوب النصارى ، ووهنت عزائمهم ، فولوا الأدبار وأركنوا إلى الفرار ، فلحق بهـم الدروز على طريق مزرعـة البوم ، وأوقعوا بهم المقاتل الذريعة ، فتفرق شمل الهاربين في كل غور ونجد ، وأوى جانب منهم إلى الكهوف ، وتوارى الكثيرون منهـم في الأحراش والغابات المظلمة ، وهلك منهم في ذلك النهار مائتا قتيل ، ولما توارت الشمس بالحجاب قفل الدروز غانمين تهزهم أريحية الفوز والظفر ، وهم لـم يفقدوا إلا ثلاثة عشر قتيلاً ، وفي اليوم التالي تجمع جهلة الشبان من الشحار ، فأغاروا على منازل النصارى فأحرقوها وسلبوا ما وصلت إليه أيديهم مـن الغنائم ، فلما شاهد أهالي المعلقة الحريق الذي سيلم بمساكنهم ، هرعوا إلى قاسم بك حمود ابي نكد يسألونه العفو عمـا فرط منهم من الاعتداء على الدروز والإساءة إليهم ، ويستجيرون به ليقيهم من الهلاك ، ويقي بلدتهم مـن الدمار العاجل ، فمنحهم العفو وتحرك إلى المعلقة في جماعة من قومه ، فمنع الحريق عن تلك القرية ، ووقى أهليها من الهلاك ، وبعد بضعة أيام عن للداموريين الانزعاج عن المعلقة لفرط ما استولى عليهم مـن الخوف والرعب ، فظعنوا ذات يوم جمعة بمالهم وعيالهـم وقضهم وقضيضهم ، ووجهتهم بيروت احتماء في تلك المدينة ، وتأميناً لأرواحهم داخل أسوارها . فلما بلغوا محلة خلدة ، التقت

بهم شرذمة من دروز الشويفات يرابطون طريق البحر ، فوثبوا عليهم ، وأوقعوا بهم ممزقين شملهم كل ممزق ، وتاركين منهم مئة جثة تتقاذفها الأمواج على شاطىء البحر .

وفي يوم واحد ، أي عصارى نهار الجمعة الواقع في ٣ خلت من شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٦ (١٨٦٠م) ، حدثت حوادث جزين ، وبكاسين ، ودير القمر ، والبرامية ، وإليك شرحها بالتفصيل .

حادثة البرامية

أما حادثة البرامية فان سعيد بك جنبلاط كان قد أرسل قاسم بك اليوسف حماده في عشرين خيالاً من أقاربه،ومن خولية البيك أيضاً للمحافظة على أملاك آل جنبلاط في الرميلة ، وعلمان والبرغوثية وما جاورها ، فانضم إليها خمسون راجلاً من مسلمي قرية مزبود الموصوفين بشدة البأس ، ثم بينما كان قاسم بك المذكور يتمشى على سطح خان الجسر الأولي ، إذ بدت له رايات تخفق فوق عسكر يناهز الألفين محارباً قد جمعه يوسف المبيض من إقليم التفاح،ومن بعض قرى بلاد بشارة كالحجة وعقتانيت والمعمارية وغيرها، ومن جهة الكفور والحمراء وخلافها ، وتحرك به يومئذ من دير بسّين نحو الرميلة وعلمان وما جاورهما من أملاك الجنبلاطيين بغية اتلافها بالحرق والقطع ، ثم التقدم نحو الشوف جرياً على الاتفاق الذي عقد بينه وبين بقية القادة المسيحيين ، فللحال ركب قاسم بك جواده وأخذ المشاة جميعهم ، وأربعة من الخيالة وقادهم من الجهة الشمالية إلى البرامية رأساً وأمر أخاه أسعد فركب هو والخيالة الباقون ، وتقدموا نحو الجهة الجنوبية في الطريق المارة فوق البساتين فمروا بعين الدلافة ، وصعدوا من هناك إلى سهل يارد فأصبحوا خلف عسكر المبيض ، فابتدروا تلك العساكر باطلاق الرصاص في ظهورها أي من جهة العسكر الشمالية ، ويصدقون عليهم الكر والهجوم حتى حاذوا كنيسة البرامية ، حيث سمعوا طلقات أسعد بك وخيالته في سهل بيت بيت يارد ، فلما أصبحت عساكر المبيض بين نارين حل فيهم الفشل والانذهال،

وساورهم الرعب العظيم فتمزقوا إرباً إرباً ، وأعملوا في الهزيمة في كل غور وواد ، فتتبع الدروز آثارهم فتحول معظم الهاربين نحو صيدا فلما شاهد الصيداويون تكاثر الفارين إلى مدينتهم جعل الخيالة من مسلميها يفدون زرافات ووحداناً ويقطعون سبيل النجاة على اللائذين بأسوار مدينتهم فيقتلونهم ، ويبتزون خيلهم وسلاحهم .

فكانت هذه الواقعة صغيرة كبيرة ، حقيرة عظيمة ، إذ كانت غنية بالقتلى المتجاوز عددهم الأربعماية والخمسين قتيلاً ، أما الدروز والمسلمون فلم يقتل منهم أحد قط فتأمل ، وإن شاكر مارون القهوجي ، وأسعد نصيف القهوجي قد كانا في طليعة عسكر النصارى ، فلما حل بهم ما حل من الفشل أسرعا إلى أسعد بك اليوسف ، فانضما إلى خيالته معتذرين أنهما كانا قادمين من طريق أخرى ، وجعلا يفتكان بأبناء جنسهما ، ولذا عفي عنهما ، وبينما كان الدروز والمسلمون يهاجمون عساكر يوسف المبيض ويقتصون آثارهم ، إذا بعساكر النصارى المنهزمة في إقليم جزين من وجه الدروز الشوفيين قد ملأت الفجاج ، فأصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، واختلط العسكران المهزومان فكان لاختلاطهما وقع في قلوبهم زادها على خفقانها خفقاناً ، فوقعوا في حيص بيص ، واشتد عليهم الضيق ، وأعمهت بصائرهم الحيرة ، وبعكس ذلك الدروز والمسلمون ، فإنهم ازدادوا تنشطاً وعزماً وحزماً ، فجعلوا يبالغون في مضايقتهم ، وسد سبل النجاة عليهم ، وهم مع ذلك يوالون الضربات والطعنات حتى اشتد الويل والبلاء، وقد كان رهبان ديري مشموشة وبحنين من جملة الهاربين من إقليم جزين ، فقتل منهم في ذلك المعترك نيف وخمسون راهباً .

حادثتا جزين وبكاسين

وأما حادثتا جزين وبكاسين فإنه في ذلك اليوم كان قد تجمع في جزين من أهلها ، ومن أهالي كفر حونة وجبل الريحان ومرجعيون ومشغرة ، عسكر يناهز ألفين وخمسماية محارب ، وتقدموا إلى مزرعتي عزّيبة العليا والسفلى

الجاريتين بملك المشايخ بني العساف من نيحا ، فأحرقوهما ، فأسرع النواطير إلى نيحا وأعلموا بني العساف بالأمر ، فاستنفر هؤلاء أهالي قريتهم ، وأرسلوا صارخاً إلى جباع وبعذران ، وأغاروا في أربعمايـة مقاتل على عزيبة العليا ، فاصطدم هناك الجحفلان ، وتأججت سعير القتال نحو ساعة ونصف الساعة ، فحل الفشل في جموع الجزينيين ، فولوا على أعقابهم هاربين تاركين خمسـة عشر قتيلاً ، ودخلوا جزين لائذين بالدير والكنايس المشيدة في تلك القرية لتقيهم رصاص المنتصرين الذين فقدوا قتيلين مشهورين بالشجاعة والبسالة ، هما جبر سيف ، وابنه محمد ، وقد ثبتوا هنيهة في معاقلهم المذكورة ، وهم يطلقون رصاصهم من خلال جدرانها ، وما زالوا يدافعون عن قصبتهم التي أضحت محاطة بجحافل العداة ، حتى بدا لهم الدخان متصاعداً في الجو من قرية بكاسين وألسنة النار تلتهم بيوتهـا وما حوته مـن القز والفيالج يومئذ ورأوا حاميتها وهي قد نفرت وحل بها الويل والثبور ، فاستولى عليهم الخوف عندئذ وتضعضعت قواهم وعزائمهم ، فاقتفوا أثـر جيرانهـم البكاسينيين ، وأخلوا منازلهم ممعنين في الهرب رجالاً ونساءً وأولاداً ، فكانت ساعة عليهم مشؤومة ، ويوماً كثرت فيـه المصائب واشتدت الخطوب والكرب ، إذ هلك منهم في الطريق خلق كثير منهم ظاهر المعوشي ، ولم يهلكوا من ضرب أو طعن بل من شدة الرعب ، وتفاقم اللغب واصطكاك الركب وانتهاك القوى ، وبقي الدروز في اتباعهم ومطاردتهم إلى جبل طورا ثم إلى جبل الشوك فالحمصية حيث انسدلت دونهم أستار الظلام ، فكفوا عن تتبعهم وآبوا مظفرين غانمين، وأما الجزينيون ورفاقهم فمـا برحوا هاربين حتى اجتازوا جباع الحلاوة ، وبلغوا صيداً ، ولم يعد أمامهم غير مياه البحر .

هذا ما جرى في جزين ، وأما ما جرى في بكاسين ، فإن أهل هذه القرية كانوا قد ألفوا إليهم مـن أهالي عازور ، وروم ، وقيتولي ، وبرته ، وبتدين اللقش ، والميدان ، ومشموشة ، وبسري ، وما يتبع ذلك من المزارع والدساكر عسكراً يفوق الألفي مقاتل ، وغداة هجوم الجزينيين على عزيبة هجموا هـم على مزرعة خفيشة ، فألقوا في بيوتها النيران المحرقـة ، فلما رأى أهالي باتر

الدخان المتصاعد من تلك المزرعة ، أرسلوا إلى عماطور وحارة جندل ، وعين قنية ، والمختارة ، والخريبة ، وبطمة من يستصرخون أهاليها ، فهاج شبان هذه القرى واستعدوا لإغاثة المستصرخين ، فمنعهم سعيد بك عن الذهاب ، وشدد النكير على أي شوفي يتحرك لهجوم أو دفاع مفرقاً أوامره المشددة على سائر القرى المذكورة ، ولذا تقاعد الشوفيون عـن نجدة الباثريين ، ما عدا أهالي عماطور وحارة جندل فإنهم غدوا يتفلتون نحو باثر زرافات ووحدانا ،فوصلوا إلى باثر أربع فرق ، الفرقة تلو الأخرى ، وكان أهل باثر عندئذ يصلون أهالي بحنين وعريه ، وبعض المزارع المجاورة لهما من الدفاع ناراً حامية تحت قيادة سليم بك شمس ، الذي كان في باثر يومئذ ، فاشتد أزرهم لدى وصول طلائع النجدات ، فانضموا معاً وحملوا على العداة فأجبروهم على التقهقر إلى نهر جزين ، فلما رأى البكاسينيون وأتباعهم انكسار مقدمة جيشهم ، حملوا على الدروز بعسكر جرار ، فلما تقابلت القوتان عند النهر المذكور كانت النجدات العماطورية الأربع قد وصلت جميعها ، فأخذوا ناحية ، وانقضوا على العساكر البكاسينية انقضاض البزاة ، فمزقوهم كل ممزق ، فانقلب النصارى متقهقرين إلى قرية بكاسين ، لعل لهم وراء جدرانها متمنع ، وهم مـع ذلك على بعض الأمل من دفاع يذودون به عن حياضهم ، ويذبون عن ذمارهم ، ولكن جدران بكاسين لم تكن لتدفع دروز الشوف ، وعزماتهم الشديدة ، ورصاص المدافعين لم يكن ليصد هجمات يستعذب الهاجمون عندها الموت ، فلم تكن ساعة حتى أخرجوهم من حماهم قسراً ، ودخلوا البلدة عنـوة فأطعموها للنار فالتهبت التهاباً هائلاً ، إذ كل أخشابها كانت من الصنوبر .

واستأنف الدروز مطاردة المنهزمين إلى خرايب صباح وروم ، وعنـد ذلك صعدت شرذمة من العماطوريين إلى جزين حين كانوا معتصمين في ديرهم وكنايسهم يناضلون العسكر النيحوي ، ويحاولون دفعه عن قصبتهم المنيعة ، ولدى وصول هذه الشرذمة وهجومها على معاقل جزين ، انكسر الجزينيون ومن معهم ، وكان فيهم ما كـان كما سبق لنا ذكره ، وما انفـك الشوفيون يطاردون البكاسينيين وأصحابهم حتى قيتولي ، وعازور ، فأفنوا منهم خلقاً

كثيراً ، وأما الذين نجوا فقد طاروا في القفار وأعيى المطاردين اللحوق بهم ، وكان النهار قد زال فانقلبوا وباتوا ليلتئذ في خرايب صباح ؛ بغية استئناف المقاتلة في الغد ، وضربهم الخصوم ضربة لا يقوون بعدها على القيام والعودة إلى القتال ولما كان اليوم الثاني تألب العسكران الدرزيان : أي النيحوي والعماطوري واتباعهما ، واغاروا نحو عسكر النصارى ، فلم يجدوا لهم أثراً في تلك الأرض كلها ، بل كان جميع الاقليم الجزيني خلواً خاوياً ، فعند ذلك عمدوا إلى خبايا النصارى ، ودفائنهم المطمورة في الكهوف والدور، فاكتشفوا من الخبايا شيئاً ليس بقليل ، واستنبطوا من المطمورات ما دلتهم عليه فطنة الحاذقين ، وبعد أن أحرزوا من الغنائم ما أحرزوه ، ولم يعد فيما سوى ذلك مطمع ، ألقوا النيران في جميع قرى الاقليم ومزارعه ، فغادروها حمماً باليــة تذري الرياح رمادها في الفضاء ، هكذا أصبح ذلك الاقليم الرحيب مهمهاً يباباً لا ينعق في خمائله غير الغراب ، ولا يصرخ في دوره إلا البوم .

ثم إن الدروز آبوا وخمرة الظفر ترنح معاطفهم جذلا وطرباً ، وقد كان لحدائهم يومئذ رنة ودوي تردد الوهاد صداهما ، وقــد كان ذلك في يوم السبت الواقــع في ٤ ذي الحجــة سنة ١٢٧٤[1] الموافق سنة ١٨٦٠ . كان بالأمس مأنوساً بذويه آهلاً بساكنيه ، فواعجباً لزمان يصيّر العامر غامراً ، ويحوّل الحاضر إلى بائد في أقل من يوم واحد .

هجوم الديريين على الخلوات

وفي اليوم نفسه هجم أهالي دير القمر على الخلوات ، وكانوا مع من انضم إليهم من الأنحاء زهاء ستة آلاف مقاتل ، فأحرقوها ،فلما تأججت النار ، وتلبد الدخان تنوّر جيرانهم اللهيب ، فركب بشير بك نكد من المناصف ، وركب الشيخ حمود نكد بنحو خمسمائة مقاتل من الشحار ، ووافاهم جمهور من أهالي بعقلين الذين عندما تنوروا تأجج الحريقة في خلوات الدير ، وما كان من افتراء المسيحيين على الدروز فيها أسرعوا بإرسال الصارخين إلى

(١) الصواب : ١٢٧٦ .

الشوفين فواهم[1] جمهور غفير من عينبال وغريفة والمزرعة والسمقانية ، أي من الشوف السويجاني وأما أهالي الشوف الحيتي فقد شدد سعيد بك جنبلاط عليهم النكير ، وأخطر عن إجابة المستصرخين ، فلم يشهد تلك الواقعة من الشوف الحيتي إلا عشرون فارساً وراجلاً من عماطور فقط ، وقد تفلتوا من المختارة خفية عن سعيد بك ، وأما من تبقى من العماطوريين فقد زحفوا إلى باتر كما مر إذ المستصرخ إلى الدير أتى إلى الشوف ، قبل الصارخ الباتري بنحو نصف ساعة من الزمن ، فلم[2] بلغت الجموع دير القمر ، أحاطوا بها من كل جهة ما عدا الجهة الشرقية ، وغدوا يطلقون الطلقات العنيفة ، فقابلهم الديريون بوابل من الرصاص ، وأفتم الفضاء ورددت الأودية صدى قصف البارود الذي أشبه بهزيم الرعود ، فوقع من الدروز ٤٧ صريعاً ما عدا الجرحى قبل أن يقتل رجل ديري ، وذلك لأن الدروز كانت في العراء ، وكانت النصارى داخل البيوت المشرفة على حيارة الدير وجوانبها ، وفوق ذلك فإن جبران مشاقة كان قد أعد في الدير معدات حربية ذات بال ، ودبر تدابير جهنمية عظيمة ، فقد اقام حيطاناً على سطوح البيوت والمنازل الواسعة ، وبنى مثل ذلك في جميع القمندلونات المطلة على الحيارة ، وشيد متاريس منيعة في أبواب كل الأزقة النافذة إلى وسط الدير من جهتها الغربية ، بصورة تقي المحاصرين قذائف [المهاجمين] ، وتؤمنهم غائلة بارودهم ، والخلاصة إن حصانة الدير واستعدادها يومئذ كانا بالغين منتهى الحد ، أما المهاجمون فإن أهالي الشوف السويجاني منهم قد ناطحوا حارة الخندق من جسر بدران حتى الدباغة ، وامتد أهل بعقلين من الدباغة إلى الخشاخيش ، وأما أهالي المناصف والشحارة ، فقد وقفوا قبالة الميدان العتيق ، وإنه لما أقبل قاسم بك نكد بدروز الشحار ، هرع إلى لقائه نحو ألفي مقاتل من الدير فصدموه في الميدان العتيق صدمة عنيفة ، فصرخ في رجاله وكر عليهم كرة نكدية ، فانقضت رجاله على العداة انقضاض العقبان ، فردوهم على أعقابهم خاسرين ، وما كفوا

---

(١) لعلها فوافاهم ·
(٢) لعلها : فلما ·

عنهم المهاجمة والكر والفر حتى أدخلوهم البيوت ، وألجأوهم إلى المتاريس حيث ربضوا ، وجعلوا يطلقون النيران الحامية ، فأبى المهاجمون الرجوع ، وتعذر عليهم الوقوف تجاه النيران المهلكة ، فاتخذوا ما كان هنالك من أشجار الزيتون والتين متاريس يطلقون من ورائها رصاصهم ، ويتقون بها رصاص الأعداء ، فبقي أهل الدير ومن أحاط بهم من الدروز على مثل هذه الحال من هجوم ودفاع كل ذلك النهار دون أن تنال إحدى الفئتين من الأخرى طائلا ، حتى إذا كان العصر أقبل ملحم بك عماد في خمسمائة مقاتل من أهالي العرقوب الجنوبي ، فهجم على قبة الشربينة المرتفعة ، فدافعته حاميتها دفاعاً شديداً ، فلما رأى الموقف خطيراً ومأخذ الدير أمراً ــ على رجاله ــ عسيراً ، ترجل عن جواده ورمى بنفسه من حالق إلى الحارة المسماة الخندق فلم يصب بشيء من الضرر ، بل وصل مستوياً على حيله كأنه أحد مردة الجان وما استقرت قدماه في أرضها حتى ألقت يداه النار في سقفها ، أما رجاله فلما رأوه قد رمى بنفسه إلى ما بين جماهير العداة ترامو بأنفسهم على إثره دراكاً ، فلما رأت الحامية فعالهم هذه أكبروها وعدوها من خوارق الطبيعية ، فأخلوا أماكنهم وتغلغلوا في الأزقة هرباً ، وهم ينادون بالويل والحرب ، فلما رأت بقية الحاميات ما قد حل بحامية حارة الخندق ، وشاهدوا الدخان صاعداً من بيوتها ، وأنهم أصبحوا محاطين بالمهاجمين من الجهات الأربع خامرهم الخوف والرعب ، غير أن كبراءهم شجعوهم وأرسلوا إلى حامية الخندق قوة من حامية حارة البيادر ، فقد نتج من تقوية حاميتها ضعف لقوة حامية حارة البيادر التي أخذت منها النجدة ، لأنها كانت ساعتئذ أهم حاميات الدير وأعظمها منعة ، فآنس العقيدان النكديان منها ذلك الضعف ، فبادراها بهجمة شديدة سحقت قواها سحقاً ، فدخلا الدير عنوة ، وثارت في إثرهما الرجال تطلق وتحرق ، وتطعن ، وتضرب حتى بلغوا الشالوط ، وكان قد نالهم من الظمأ أشده فشربوا وسقوا خيلهم ، وكانت حينئذ قد مضت ساعة ونصف على غروب الشمس، فكف المتقاتلون ، ورجع الدروز من الدير بنصف فرحة ، لأنهم كانوا

قد دخلوها ووصلوا إلى الشالوط ضرباً بأسيفهم ، فانهم لم يتمكنوا من الايقاع بأخصامهم الذين كانوا يتجنبون مقاتلة الدروز مقابلة ، فلا يحاربونهم إلاّ من وراء الجدران ، فإذا سقط الجدار سلموا حالاً ، ولذلك لم يفقد من الدير في ذلك اليوم إلاّ خمسة قتلى فقط .

سعيد بك جنبلاط في دير القمر

وبعد أربعة أيام من هذه الحادثة ركب سعيد بك جنبلاط ، وكان يوم الأربعاء ، في مائة وخمسين من خيله لملاقاة أحد وزراء الدولة العلية المدعو طاهر باشا ، وكان قادماً إلى الدير على إثر تلك الواقعة ، فمر بخيله بطريق الحيارة الواقعة غربي الدير ، فلحظ بعض خيالته أن أهالي الدير لم يزالوا في متاريسهم وعلى أسلحتهم كما كانوا عليه غداة يوم الجمعة ، فوصل إلى عين المزاريب فوجد بشير بك وسليم الكنديين في إنتظار الوزير المشار إليه هناك ، فلما قدم الوزير استفسر من صالح أفندي متسلم الدير عن مجريات تلك الواقعة ، فأجابه صالح أفندي قائلاً : إن التحصينات التي اقامها أهالي دير القمر كتشييد الجدران في مداخل الأزقة والشوارع ، وفي القناطر والقمنداونات والأبواب ، وعلى السطوح من المداميات المخرقة بالنوافذ الصالحة والمعدة للرمي من الداخل ، وغير ذلك ، وما بأيديهم من آلة المحاربة النارية ، والمؤن والذخائر ، فضلاً عن وجدان ماء الشالوط في منتصف القصبة مما يعجز آلاياً من الجنود المنظمة معه أربعة مدافع عن أخذها وإخضاعها في أقل من ثلاثة أيام ، غير أن الدروز فتحوها وأخذوها في ست ساعات فقط .

ثم إن طاهر باشا وسعيد بك بعد أن تخابرا ملياً ركبا إلى الدير ، ودخلا السراي ، أما خيالة البك ، فلم يترجلوا بل بقوا على ظهور خيلهم حتى خرج سيدهم ، واتفق أنهم بينما هم في انتظار خروجه إذا بعشرين رجلاً من دروز الشوف منحدرين بجانب قصر جرجس باز ، فسألهم خيالة البك عن أمرهم ، فقالوا لهم : ان حسن عيد البستاني قد أرسل إلى سعيد بك منذ يومين يسأله

بعثة نفر من الدروز يحمونه ويحافظون عليه ، وإنهم قد بعثوا من قبل البك لهذه الغـاية .

أما بنو نكد فلما شاهدوا هؤلاء الرجال المبعوثين إلى الدير من قبل سعيد بك جنبلاط ، ظنوا أنه يسعى مع الديارنة في مسألة سلخ دير القمر عن المناصف ، وضمها الشوف ورفع حكم النكديين عنها وإدخالها في اقطاع آل جنبلاط ، فقاموا لهذا الأمر وقعدوا ، وجعلوا يحرقون على أهالي الدير الأرّم لإتيانهم ذلك الأمر الفظيع ، (هـذا إذا كانوا صادقين فيما توهموه) ، غير أنهم لم يشعروا أحـداً بما صمموا عليه ، بل تآمروا سراً وعقدوا النيـة على الايقاع بالديريين مهما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، كما سيأتي على ذلك الكلام ، وعصاري ذلك النهار ركب سعيد بك من الدير وآب إلى المختارة .

في البقـاع

وفي اليوم التالي ، وكان يوم الخميس ركب علي بك أحمد جنبلاط ، وسليم بك حسين جنبلاط ، ويمما البقاع بثلاثمائة من رجال بعذران ومرستي والخريبة وغيرها ، وكان البقاعيون متألبين في صغبين ، فالتقوهم إلى خارج القرية عند عين اللغلغ ، وأبدوا دفاعاً ضعيفاً ، إذ لم يكونوا من الشجاعة على ما يذكر ، وقد كان عند ذلك من حامل بيرق بعذران ، واسمه يوسف يقظان أن انتخى وهجم على معسكر النصارى ، ففجه ، وظل مقتحماً وهو يدق بكعب عكاز بيرقه أي من اعترض له ممن أمامه وحواليه فأصبح ، وكأنه دائرة من جيش البقاعيين ، غير أنه لم يبد هذه الشجاعة الخارقة العـادة ويتغلغل في معسكر الأعداء حتى انثالت في إثره رجال بيرقه وغيرهم ، وانطبقوا على عسكر البقاع ، فتمزق حزائق ، وتفرق طرائق ، ولـم يثبت البقاعيون تلقـاء تلك الشرذمة الشوفية أبداً ، ولذلك لم يقتل منهم غير ستة رجال فقط ، وطارت حامية تلك القرى ، فاعتصموا بأعالي جبل الشيخ ، وغيره ، فحلت في منازلهم بعدهم نيران تشب ، ومواقد تهب ذلك بعد أن أعمل المتغلبون أيدي الكسب والاغتنام ، ولم يَعفِ علي بك بيتاً من السلب والحريق ، ما عدا بضعة عشر

منزلاً في صبغين كان أصحابها قد سلموا له بعد أن اتشب القتال فسلموا وسلمت بيوتهم ، وأموالهم ، وتنقـل الشوفيون بعـد ذلك من صغبين إلى عيتنيث إلى غيرها ، من قرى ذلك [الواسع] ، فوجدوها خلواً من الحامية والرجال ، وليس فيها غير النساء والأطفال ، فسلبوا ما سلبوه ، وأحرقوا ما أحرقوه ، ولما أتموا أعمالهم آبوا إلى مواطنهم غانمين .

تركنا خطار بك عماد مقيماً بمن معه في قب الياس ، من حيث جعل يستنفر إليه المقاتلة من الدروز للإغارة على زحلة ، وفتحها عنوة ؛ فقد كتب إلى سائر المقاطعات الدرزية من جبل الشوف ، وكتب أيضاً إلى زعماء الدروز في جبل حوران ، وغوطة الشام وبلادي حاصبيا وراشيا ، وإقليم البـلان ، فجعلت الجموع تتحرك نحوه من كل جهة وناحية .

حادثـة حاصبيا

وفي خلال ذلك حدثت منازعة ما بين بعض الدروز والنصارى من سكان حاصبيا ، أفضت بجميع أبناء الطائفتين المذكورتين إلـى اشهار السلاح ، وخوض مجال القتال ، فكانت الغلبة حليفة للدروز ، فتقهقر النصارى من وجههم مستجيرين بالأمراء آل شهاب ، ففتـح الأمراء لهم بوابتي السراي الضخمة المشهورة التـي هي أشـبه بحصن حصين ، فدخلوها وتفرقوا في جوانبها ، وغدوا هم والأمراء يداً واحدة يطلقون من معتصمهم على الدروز نيراناً حامية، فناصبتهم الدروز برهة ، ولكن على غير طائل ، واتصل نبأ القتال بأهالي مجدل شمس ، ومن جاورهم من فلاحي الدروز ، فخف منهم جانب عظيم إلى ساحة القتال ، كما تألبت نصارى تلك الأنحاء إلى حاصبيا أيضاً ، فأقام النصارى والشهابيون على المحاصرة أياماً قتل فيها من الدروز الشيخ كنج أبو صالح زعيم المجادلـة ، وعشرة فرسان أخر ، ولم يقتـل أحد من اللائذين ، فلما بلغ سعيد بك جنبلاط نبأ هذه المحاربة ، أركب من قبله الشيخ كنجاً العمادي يقود شرذمة من رجالة ، وعلي بك حمادي يتبعه دروز عين قنية الشوف الذين لم يشهدوا حرباً في بلاد الشوف قط انصياعاً لأمر سعيد بك

جنبلاط ، إذ كانوا جيران المختارة الأقربين ، ووصلت النجدة الشوفية إلى حاصبيا ، والحال باقية على ما كانت عليه ، فشد الشوفيون وشد معهم فارس الطويل الفارس المشهور ، وجماعة المجادلة عامدين إلى بوابة السراي الكبرى فشرعوا في تكسيرها بالفؤوس غير مبالين بما ينقض عليهم من رصاص المدافعين وبارودهم ، ولـم يزالوا بهـا حتى حطموها ، وفتحوها عنـوة فأعملوا في المحاصرين السيوف ، والخناجر ذابحين ثلاثة وعشرين من الأمراء : أولهم الأمير سعد الدين شهاب سبب هذه الثورة ، ونافخ ضرم هذه الفتنة ، وذبحوا من النصارى ستمائة رجل ، ثـم أعملوا في السراي والبلدة أيـدي السلب والابتزاز ، وانقلبوا ظافرين غانمين غنائم جزيلة .

قدوم اسماعيل الاطرش ورفاقه

وعلى اثر ذلك اتفق مرور الشيخ اسماعيل الاطرش براشيا نحو زحلة ، ملبياً دعوة خطار بك عمـاد إلى زحلة ، فاعترضه أمراء راشيا الشهابيون ، وناضلوه القتال ، وهم يقودون نصارى تلك الناحية ، ويرأس هو ستمائة فارس حوراني فيهم الزعماء المشهورون ، كمحمد أبي العساف المكنى بالقميزة والشيخ محمد الأطرش ابن الشيخ اسماعيل ، والشيخ كنج السردي ، ومعه عشرون خيالاً صردياً ، والشيخ بخيتان السلطي ، ومعه عشرة خيالة من عرب السلوط ، ويصحبه فوق من ذكر خليل آغا الدير علي أحد زعماء الغوطة ، وخزاعي العريان من زعماء التيامنة ، وعدد الجميع ستمائة خيال ، فلما اتقدت نار الوغى فلم تكن إلاّ غارة أغارها الدروز فشتتوا شمل أولئك الأمراء ومن معهم من العساكر ، فطاروا في جميع الأنحاء ، واستمر الحوارنة نحو زحلة سائرين ، ولما دنوا من غايتهم المقصودة أقبلوا على خطار بك وهم يهزجون :

يا عن احـمِ ساحتك	جاءتك فرسان الطراد
حنـا نبيـع رواحنا	لعيون خطار العماد

فخف خطار بك ، ومن معه ، إلى ملاقاتهم ، وبالغوا في إكرامهم والحفاوة

بهم ، ثم إن الحوارنة تفرقوا في ضواحي زحلة من سهـل البقاع ، وأقاموا كضيوف بين أهالي تلك القرى المسلمين الذين بالغوا في إكرامهم ، وحسن معاملتهم ، والقيام بما يلزم لهم من الأمور ، وذلك لمـا كانوا يقاسونه من تحيف ذوي الأمـلاك الزحليين ، ومظالم ذوي الأمر منهم ، وما مرّ علـى مكثهم يومان تسرّت فيهما عنهم وعكة السفر ، حتى جعلت الفرق منهم تشن الغارات غازية مواشي المعلقة والحواش ، فيغنمون الغنائم الطائلة ، ويبلون قلوب الأهلـين بالروع والإخافة ، فاستصرخ اهالي المعلقة يومـاً بجيرانهم الزحالنة ، فخف لنجدتهم سرية عظيمة من الخيالة فيها الوطنيون والغرباء ، وبعد أن انضمت إليهم خيالة المعقلة ، ومن جـاورها أضحى عددهم مناهزاً الألف والثلاثماية فارس ، وقد يمموا أولاً مقامة العرب ، فأغاروا عليهم غارة شـعواء في السهل الغربي ، فكسروهم ، وانهزمت العـرب أمامهم فخاضوا الليطاني إلى شاطئه الشرقي ، فعبر الغزاة وراءهم وما حصل الفريقان في السهل الشرقي حتى أخذت سريات الحوارنة تفد من مقاماتها في القرى المتفرقة ، وقد كان إطلاق البارود وإرتفاع الغوغاء داعية قدومهم ، وحثهم الخيل الجياد ، ولما تقابلت الصفوف وتقارعت الأقران ، ودوت الوهاد من جلبة الحوارنة وصراخهم الحماسي ، ونخواتهم المعروفة لدى الكر والفر ، وصدق أبطالهم المهاجمة والدفاع، ومهارتهم في فراسة الافراس وملاعبة الأسنة ، خامر الزحالنة الجزع فغدت قواهم تهي ، وعزائمهم تنحط ، حتى ظهر الحوارنة عليهم ظهوراً مبيناً ، فجدلوا عيون فرسانهم ، ونخبة قادتهم فانهزموا شر هزيمة وأدبروا مطلقين لخيولهم الأعنـة ، فثار الحوارنة في اتباعهم يدقون أقفيتهم بالرماح الطوال .

وقد اشتهر في هذه الواقعة الشيخ دعيبس عامر ، وكانت النصرة على يده ، إلاّ كان قدومه قد تأخر ، فاشتبك الفريقان في قتال قبل أن يشهد حومة الوغى، وحين حمي الوطيس وتلبد العجاج إذا به قادم في ثلاثة وعشرين فارساً، فاستل الحسام ، وأطلق لجواده العنان صارخاً بخيله : (وين راحوا ، اليوم ولا كل يوم) فصدم الزحالنة صدمة تهي لشدتها الجلامد ، ففرق الكتائب ،

ورمى الهول والرعب في أفئدة الشجعان ، وحذا حذوه بقية الزعماء من الدروز والعرب ، فكانت ساعة تشيب لهولها الأطفال ، قتل فيها من الزحالنة فوق ثلاثمائة خيال ، وفر الباقون لا يلوون على شيء ، غير أن الحوارنة سدوا في وجههم أبواب النجاة فعمد الزحالنة عند ذلك إلى عادة للحوارنة حربية لا يخفرون بها عهدا ، وهي أنهم كانوا يترجلون عن أفراسهم وينتزعون أسلحتهم ويربضون في أمكنتهم ، ، فيقدم الواحد منهم فرسه وسلاحه للمغير الحوراني قائلاً له : بوجهك أيها الفارس ، فيأخذ الفرس والسلاح ، ويعفو عن الدم ، ولولا ذلك لبلغ عدد القتلى ضعف ما قد بلغه ، أما الخيل فلم ينج منها فرس قط ، بل وقعت كلها غنيمة في أيدي الظافرين ، « ولم تزل الزحلاويات سلالة خيل محمودة عند الدروز والعرب إلى يومنا هذا » ، والزحالنة يقولون لهذا اليوم شر السهل ، وقد كان من أشأم الأيام عليهم إذ خسروا به معظم خيلهم وفقدوا نخبة فرسانهم ، وقد كان له مغبة رعب وخوف في قلوب سائر من بزحلة من المقاتلة ركباناً ومشاة ، حتى أنهم في يوم الشر الكبير ، أي يوم أخذ زحلة نفسها قد هال حامية زحلة مرأى الحوارنة وسماع أناشيدهم الحربية ، وكان لذلك على قلوبهم تأثير عظيم حالة كون الحوارنة ، لم يأتوا في زحلة ما يذكر من البسالة والشجاعة والفتك بجانب ما أتاه الشوفيون ، وذلك أمر متعارف ، والعرب أضحوا يعيرون الحوارنة بعدم إقدامهم إقدام الشوافنة في الكر وثباتهم في تلك المواقف الخطيرة .

الدروز يتوافدون على خطار بك

ثم أخذت جماهير الدروز تفد على خطار بك في قب الياس تباعاً ،وأخيراً أقبل وفد الشوف لأنها أبعد المقاطعات عن زحلة والعماطوريون أكبره جمهوراً ، وقد كان مسيرهم صباح يوم الجمعة الواقع في ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٧٦ هـ / الموافقة سنة ١٨٦٠ م ، فبلغوا قب الياس عصر اليوم المذكور وعددهم مايتا خيال ، وتسعماية راجل ، وبلغ عدد وفد العرقوب الجنوبي (أي عرقوب العماديين) سبعماية مقاتل ، وناهز وفد العرقوب الأعلى مايتي

محارب تحت قيادة الشيخ محمود العيد ، وكـان الجرديون نحو ثلاثماية ، وعقيب ذلك أقبل خليل آغا الدير علي ، وخزاعي العزيان مـن راشيا ومعهما ثلاثماية راجل ، وكوكبة من الفرسان ، فكان عدد الجميع ألفين وستماية مقاتل، ما بين فارس وراجل ، وإذا أضيف إليهم عدد فرسان الحوارنة والعرب كانت غاية مجموعهم ثلاثة آلاف ومايتي محارب .

أما عدم نيافة عددهم على هذا فحذر اخلاء البلاد من الحامية اللازمة ، إذ لم تزل دير القمر يومئذ مشحونـة بستة آلاف محارب ، وبناء على ذلك اقتضى الأمر ابقاء المناصفيين وأهالي بعقلين وكفر نبرخ في مواقعهم ، خشية أمر يأتي إذا هم فارقوا حماهم ، أما دروز الشحار وعدم ذهاب أحد منهم إلى زحلة فلأن نصارى تلك المقاطعة يفوقونهم عدداً ، فضلاً عما لهم عندهم من الثأر ، فلا يسعهم والحالة هذه تخلية حماهم وشأنه ، ومغادرة بيوتهم ،وعيالهم وهكذا قل عن المتن ، وهلم جرا ، وزد على ذلك فإن سعيد بك جنبلاط قد كان أعظم مخالف في مسألة فتح زحلة والزحف إليها،فقد فرق أوامره المؤكدة وشدد النكير على كل من يحمل سلاحاً ملبياً دعوة خطار بك عماد إلى انفاذ غايته الوبيلة ، وإتمام مشروعه الجهنمي الذي ربما آل إلى الدمار العمومي ، وأورث لبنان وأهله خراباً عاجلاً ، أما الذين جاءوا زحلة من أهالي الشوفين غزاة فقد تفلتوا خفية عن عيون سعيد بك وأرصاده ، أو قسراً عن إرادته ، ولذا كان معظمهم شباناً جهلة لا شيخ بينهم ولا كهل ، لا سيما الذين كانوا قد شهدوا واقعة سنة ١٨٤٢ أي الحركة الوسطى في زحلة ، فقد نكبوا جميعهم عن القدوم والغزو .

عقلاء الدروز يقلقهم مصير الغزاة

ثم إنه بعد أن غادرت تلك الجماهير أوطانها ، بغية أمر دونه خطوب ، وأهوال جعل [عقلاؤهم] يضربون أخماساً لاسداس فيما عيسى أن تؤول إليه تلك الغزوة الخطيرة ، زاعمين أن القوة الدرزية الزاحفة إلى زحلة ليست بكفء لذلك ، وأنه مما لا يدور في الخلد ولا يقدره العقل أن ثلاثة آلاف

محارب ، في بلدنا ، يستطيعون القيام بفتح مدينة يفوق عدد حاميتها الثلاثة والأربعين ألفاً من المقاتلين ، ومعظمهم بين ذائد عن حياضه ، وذاب عن حوزته ومدافع عن وطنه ، أمام فتاة تنخيه ، أو بجانب صبية يخاف عليهم النوى إذا استباحتهم العدى ، فمع أنهم يعاكسون رأي من يقول بالزحف والمحاربة أصبحوا وهم يستجيشون العدد ، ويكتبون الكتائب مدداً يبعثون به إلى زحلة .

ثم كتب الأمير محمد أرسلان وسعيد بك جنبلاط كتاباً إلى خطار بك عماد يشيران عليه به أن يتأنى بالأمر ، ويؤخر المهاجمة حتى تصل إليه نجدة مؤلفة من ألفين وخمسماية مقاتل تحت قيادة الأمير حمود أرسلان وسليم بك جنبلاط ، وسعيد بك تلحوق ، والشيخ سليم عبد الله مع كل منهم خمسماية مقاتل ، فوصله الكتاب يوم الأحد حيث كانت جميع الوفود قد حصلت في قب الياس ، ويقولان فيه إن النجدة المذكورة ستكون عنده يوم الخميس القادم .

الحوارنة يستعجلون الغزوة

واتفق أنه قبل وصول هذا التحرير إلى خطار بك بساعة من الزمن ، كان قد قدم عليه الشيخ الأطرش ومن معه من المشايخ الحورانيين شاكين إليه عدم استطاعتهم المكوث بعد ، لنفاد زادهم وعليقهم إذ القمح كان لم يزل وقتئذ فريكاً لم يستحصد ، فقر بينهم القرار ، وعقدت الخناصر على ان المهاجمة ستكون صباح الاثنين أي غد ذلك النهار (الأحد) ، فتحمل الجموع من كل جهة ، ويكون الملتقى حوالي زحلة من الجهات الثلاث مغادرين الجهة الشمالية خلواً من المرابطين ، لتكون طريقاً لفرار من يروم الفرار من الزحليين .

اتفق القادة على هذا الأمر مساء الأحد ، وارفضوا كل إلى مقامه ، فلما كان المغرب أقبل ابراهيم أبو عز الدين رسول الأمير والبيك وبيده الكتاب المحكي عنه ، ولما لم يتمكن خطار بك من مقابلة الرؤساء المشار إليهم ليلتئذ ، أمهل ذلك إلى النهار ، وقبل طلوع فجر الاثنين أمتطى جواده ،

واتتحى مضارب الشيـــخ اسماعيل الأطرش ومعه مئـة خيال منهم عشرون عماطرة ، وذهب معه الشيخ محمود العيد أيضاً ، فلما بلغوا المحلة ، وجدوا القوم في غوغاء وحـداء وصلصلة سلاح ، وهـز رماح ، وهم متحركون إلى الحرب والقتال .

خلاف الشيخ اسماعيل الاطرش والشيخ محمود العيد

قصّ خطار بك على مشايخ الحوارنة خبر الكتاب المرسل ، فاستشاط الشيخ اسماعيل غضباً ، وقال له : اننا لقد (حوّرنا) من أكل الفريك في هذه العشرة الأيام ، وخيلنا حسكت من أكل السنابل ، فوالله لا أصبرنّ ، ولا بدّ من الركوب في هذا اليوم نفسه إما إلى زحلة واما إياباً إلى حوران ، فابتدره الشيخ محمود العيد قائلاً : اننا منذ زمن مديد نحارب هؤلاء القوم ولم نكن في احتياج إليكم بل النصر كان في أكثر الوقائع حليفاً لنا على غير أيديكم، فإن كان مرادك الإياب فأب مصحوباً بالسلامة ، ونحن في غنى عنك وعن خيلك .

خطار بك يسترضي الشيخ اسماعيل

غير أن خطار بك ، وكان رحيب الصدر ، طويل الجأش واسع الخلق كريمه ، فضلاً عن دهائه فيما يتوخاه من الأعمال ولين جانبه ورقة حديثه ، فقد أخذ يطفيء سورة صاحبه الأطرش بكلام رقيق ، وخاطبه بيا أخي أبا محمد إن الدروز أشبه بعشيرتين إحداهما في لبنان ، والأخرى في حوران ، وأنت كبير العشيرتين ، وأبٌ للفئتين ولقـد مكثت عشرة أيام فامكث أيضاً هذين اليومين إكراماً لخاطري إلى غير ذلك مما أشبه هذا الكلام ، ولم يزل به حتى أخمد غيظه ، وأسكن جأشه ، وأجابه الأطرش بكلام هو أرق وألطف ممـا خوطب بـه ، فقال : إني اكراماً لخاطرك وما فطرت عليه من كـرم الأخلاق لأمكثنّ عوض اليوم عشرة أيام ، فشكر له خطار ثم انصرف بعد أن اتفقا على تأجيل المهاجمة إلى يوم الخميس القادم ، أما الحوارنة فتوجه كل فريق منهم

إلـى مقره ، وأما خطار بك ورفاقه فانقلبوا راجعين نحو قب الياس ، وحـين بلغوا جسر المرج ترجلوا لمناولة طعام الغداء ، فبينما هم يأكلون إذا بصائح يصيح : الشر الشر علق الشر بين الزحالنة وخزاعي العريان ، والعرب ، وخليل آغا الدير علي ، وكان هذا الصائح خيالاً من قبيع المتن يدعى حموداً .

ملحم بك يكلف بوقف القتال

فقال خطار بك لملحم بك : اذهب يا ملحم وأوقف هذه الشرذمة عن القتال ، وإيقاد الحرب في هذا اليوم جرياً على الموافقـة المضروبة بيننا وبين الحوارنة ، فقال له ملحم : ترسلني لاسكان حركة الشر وإيقاف الدروز عن الحرب ، وأنا مجنون متى سمعت قصف البارود ، وشممت شذاه ازددت على جنوني جنوناً ، قال: لا ، كن في هذه المرة عاقلاً حكيماً وأوقف حركة الحرب.

فمضى ملحم مغذاً إلى حيث اصطلت المقاتلة ، فلما أقبل من بعيد على العداة انتزع طربوشه عن رأسه وشهر الحسام بيده وصاح صيحة دوت لها الوديان معملاً في جانبي جواده المهماز ، هاجماً على رعيل من الخيل لا يقل عن ألف خيال ، فزادت الحرب اضطراماً ، واشتدت بحضوره احتداماً ، ولم يخف ذلك على خطار بك ، وخاف على ابن عمه غائلة الردى ، فصاح بمن معه من الفرسان فثاروا إلى خيولهم ، فامتطوها مطلقين الأعنة إلى حيث شبت نار الحرب ، فوجدوها مناوشة ليست بذات بال ما بين جماعة العرب وألف من خيالة زحلة قد شنوا عليهم الغارة في محلتهم حوش كسارة ، ولقلة عدد العرب لم يمكنهم البروز إليهم بل كان كل أربعة أو خمسة منهم واقفين وراء بيت من البيوت ، وكان يبرز الواحد منهم ويحاجي للزحالنة فيطلقون عليه مئات من الطلقات فيعود إلى موقفه ثم يبرز رفيقه ، فيحاجي ويعود وهلم جرا ، ولم يكن ثمة لا عريان ولا دير علي كما قال الصائح ، بل إنهما كانا لم يزالا مقيمين في تعلبايا ، وعندئذ فرق خطار بك خيله أربعة أربعة ، وسار هو في القلب متقدماً بهم تجاه خيالة زحلة ، فلما تقابلت الفرسان أخذوا يتطالقون البنادق ويتناضلون برهة من الزمن ، وأضحى خيالة الدروز في انتظار قدوم الحوارنة إليهم لدنو محلتهم من ذلك المجال ، فمضت ساعة ولم يقبل عليهم أحد .

الحوارنـة يرتبكون

على أن الحوارنة مذ سمعوا اطلاق البارود غدوا في ارتباك للمفارقة العتيدة مع خطار بك ومن معه ، فغدوا يتشاورون في الأمر وما عسى أن يكون توقع ، مما لم يكن في الحسبان، وجعل اسماعيل الأطرش يمد ناظوره الطويل، فتبدو له مناوشة الخيل وطرادها ، فيقول : ما هذا (بكون) أي بحرب إن هذا إلاّ شرذمة من الخيل طماعة ، وإني لا أركبن حتى اشاهد الجموع زاحفة من قب الياس ، وأنظر البيارق بعيني ، وقد كان وراء خيالة زحلة نحو خمسة آلاف محارب من الغرباء مشاة رابضين في كروم العنب لجهة الجنوب من زحلة، فلما وصل خطار بك بمن معه جعلوا يطلقون الرصاص اطلاقاً متواصلاً، فحرج الموقف على خطار بك فعهد إلى فارسين من ثقـاته يستصرخا جميع الدروز في قب الياس ويجيئا بهم بما أمكن من السرعة ، وهما علي سعيد ، وفارس حاطوم ، وكانا ملظّين[1] بخطار بك لا يفارقانه أبداً ، فحنقا من هذا الأمر الذي عهد به إليهما لما كانا عليه من شـدة البأس ، وكبر النفس ، إذ المستصرخ لا يكون إلاّ من الرعاع عـادة ، ومن لا يهمهم تلبية المستغيثين والمبادرة إلى إغاثة الملهوفين ، فلم ينفذا أمر سيدهما بل أخذا جهة في السهل ثم انقلبا من جهة أخرى واختلطا بخيل الدروز يكافحان ويناضلان ، أما خطار بك فبقي على انتظار قدوم الجموع الجرارة ليكون قائدها العام ، وينظم لها خطة السير الحربية ، فمضت ساعات طويلة ولم تقبل الجموع ، ولذا بقيت تلك الشرذمة الدرزية اليسيرة تناضل الألوف وتكافح ثلاث ساعات طويلات ، وأخيراً بدت ثلاثة بيارق من فوق رابية هناك ، ولم يبد مع ذلك حاملوها ، ولا من حولها من المقاتلة ، فظنت خيالة خطار بك أنها طلائع الجيش الدرزي زاحفاً من قب الياس ، فاشتد أزرهم وجعلوا يهتفون (اجا بو علي اجا بو علي) ، فراع هذا الهتاف عسكر النصارى ، فوقفت رجالتهم جميعهم شاخصين إلى حيث أقبلت البيارق ، وفر الجبناء المجازيع من الخيالة ، وأما من بقي منهم فقد

---

(١) اي ملازمين لـه .

أخذوا في التقهقر والانحلال شيئاً فشيئاً ، وغدا خيالة الدروز يظهرون عليهم ويتقدمون نحوهم بجرأة عظيمة ، وبعد هنيهة انكشف حاملو البيارق ومن حولهم من العساكر فاذا هم خزاعي العريان وخليل آغا وجماعتهما الثلاثماية ، فانحدروا إلى ساحة القتال ، واتنخوا ، وهجموا الهجمات الشديدة ، واتنخى الشوفيون أيضاً وصدقوا الحملة على خيالة الزحالنة ، فهزموهم شر هزيمة فالظ ملحم بك العماد والصردية في تتبعهم وغنموا منهم الغنائم الطائلة ، وأما الشوفيون فاختلطوا ساعتئذ بالتيامنة والغواطنة ، فانصبوا على جماعة المشاة المتحصنين في كروم العنب ، فانهزموا صاعدين في نجد أمامهم فتصاعدوا خلفهم حتى ظهر تلك الرابية والاطلاق غير منقطع أبداً ، فلما افترعوا قمتها انكشفوا على جماعة الدروز الباقية في قب الياس وجماعة الحوارنة المتفرقة في السهل عبر النهر ، فتأكد لفريقي الدروز عندئذ وقوع الحرب ، فللحال ركب الشيخ كنج ، وزحف بالدروز من قب الياس نحو زحلة نفسها ، وهكذا فعل الحوارنة عابرين النهر ، ومطلقين الأعنة نحو زحلة أيضاً ، وقد قتل من خيالة الدروز في هذه الحادثة وجرح نحو خمسة وأربعين ، منهم اسماعيل سيف ، ورجل من أقاربه من نيحا ، ومحمد علي شرف من جباع ، ومحمد ذيبان ، من مزرعة الشوف ، وحمد شمس الحسنية من عين وزيه ، ويوسف خطار ، وحسن اسماعيل هاني من بعذران ، وحمود من قبيع ، وممن جرحوا حسن محفوظ أبو شقرا ، ومحمد اسماعيل عاد عبد الصمد ، وحسين غضبان أبو شقرا[1] وغيرهم من عماطور ، وهلكت عدة أفراس من جرّى تلك المطاردة العنيفة ، وقتل من النصارى ما ينوف على أربعماية أكثرهم غرباء ...

---

(١) هو راوي هذه الاخبار .

حصانة زحلة

أما زحلة فقد كانت من التحصن والمنعة على جانب عظيم ، وقد حفر أهلها خندقاً عظيماً من جهتها الجنوبية ، وشيدوا على حافته الجنوبية حائطاً من اللبن ذا نوافذ وكوى صالحة للرمي من خلالها ، ذلك ما خلا التحصينات والاستعدادات المقامة في الأزقة والشوارع ، أما عن القناطير المقنطرة من المؤن والذخائر التي كانت بين أيديهم فحدث ولا حرج ، وقد كانت اسلحتهم جيدة صقيلة وخيلهم جياداً أصيلة .

خطار بك ينظم الصفوف

وحين أغارت الدروز من قب الياس لم تمض ساعة حتى كانوا قدام حيطان البيوت في زحلة حتى أن البارود كانت شهبه تهب في أوجههم ، فتحول ألوانها سواداً ، فلا يوهي ذلك لهم عزائم ولا يحمل احداً منهم على الوقوف والتأخر ، أما خطار بك عماد فلما التأمت شعاب جيشه ترأس ذلك الجيش ، وسار في مقدمته ، فجعلت الدروز تقتفي خطاه أنى مال وانتحى ، فلم يزل متقدماً بهم حتى الرأس الغربي من زحلة ، وهناك أركز البيرق الأول وانقلب الى البيرق الثاني وأركزه على مسافة من البيرق الأول معيناً لحماته أيضاً الزقاق الذي يجب عليهم المرور به داخلين إلى زحلة ، وهكذا فعل بالبيرق الثالث فالرابع وهلم جرا ، حتى أضحى الدروز محيطين بزحلة من الجهات الثلاث ، ولما أتم ترتيب العساكر وتنظيم الصفوف غدا يروح ويجيء بين الجيشين وقذائفهم غير المنقطعة مفرقاً على القادة والرؤساء الأوامر اللازمة ، وهو مع ذلك دائب في تشجيع رجاله وتثبيت عزائمهم واستثارة نخواتهم وتحريك هممهم دون أن يهمل أمراً مهماً كان أو غير مهم ، أو أن يسهو عن مسألة جليلة كانت أم حقيرة ، فلم تقعد له عزيمة ولا فترت له همة قط ، وقد كان يمرح رائحاً جائياً بين القذائف ونيران البارود كمن يمرح في خميلة ينتشق العرف الذكي من نسماتها .

أما الزحليون فلم يذمم دفاعهم ، بل أبدوا من الشجاعة ما لا ينكر عليهم، غير أن الدروز وما كان يجيش في صدورهم من نيران التشوق إلى فتح زحلة واحراز ذلك الفخر العظيم ، فقد أبدوا من الشجاعة والاقدام ما يعجز عن وصفه القلم ويكل عن تبيانه اللسان ، لأنه من كان يرى أهالي الشوف متساقطين على زحلة من حيث كانوا واقفين ، ويرى ما كان ينصب عليهم من قذائف الرصاص التي يشبه انصبابها انصباب البرد في أعالي الجبال ، يندهش لذلك المرأى العجيب ، ولا سبق إلى ظنه أن تلك الجماعة منقضة على زحلة لتفتحها عنوة ، بل يقول إن هؤلاء الرجال قد قربت مناياهم فهم إلى مصارعهم مسرعون ، وهم غير مبالين ، أما الجمهور الذي نال الفخر بدخوله زحلة أولاً فكان جمهور الشوفيين ، دخلوا الحارة الشمالية ، وألقوا فيها النار فاستعرت في منازل عديدة ، وعلا دخانها نحو السماء ، ثم توالت بعدهم الجماهير دخولا حتى أصبح الدروز وسائرهم داخل أسوار زحلة .

هجوم الأطرش ورفاقه

فلما شاهد اسماعيل الأطرش ـ وكان لم يزل بخيله خارج المدينة ـ الدخان الذي تصاعد أولاً من حريق أهالي الشوفين ، صرخ بخيله قائلاً (ويلكم يا حورانة) تقدموا تقدموا ، فلقد وليها الشوافنة قبلكم ، ثم إن دخان الحريق غدا يتصاعد من الأحياء المفرقة ، وأماكن عديدة في زحلة ، فارتاعت لذلك حاميتها وخامرهم الفشل والخوف العظيم ، ولما لم يعد لهم طاقة على الثبات أخذوا في التقهقر والانسحاب مخلين الحمى والذمار ، مغادرين الموطن العزيز عرضة للبلى والدمار تتحكم به أيدي الجبابرة الغزاة،وتسوده طوارىء الحدثان ، ونوائب المشاعل والنيران ، لتفاقم الويل الطارىء والخطب الملم لم يعد للزحليين عند ذلك أعمال فكرة إلا في مسألة النجاة من البلى ، والفرار من الردى .

الزحليون يخلون المدينة

ولما كانت الجهة الشمالية من زحلة متروكة خلواً من المرابطين اندفع الزحليون نحوها خارجين بسرعة عظيمة ، وازدحام شديد بعضهم مروقاً من الأزقة وبعضهم قفزاً من أعالي السطوح ، ومن شبابيك العلالي ، وأول حي أخلى زحلة هم أهل الحارة الشمالية حملوا ما غلا قيمة وخف محملاً من حليهم ومتاعهم ، وأخلوا حوزتهم قبل أن يدنو منها الخطر والويل ، وأغذّوا في الهرب ممعنين نحو البلاد الكسروانية ، ثم جعل بقية أهالي الحارات يقتفون آثارهم ، السرب تلو السرب ، والزرافة تلو الزرافة ، وكان الدروز كلما تخلى الزحالنة عن مواقفهم ازدادوا هم تمكناً ورسوخاً في قلب البلدة وجوانبها ، ولم تمض ساعة من الزمن حتى أصبحت زحلة خاوية خالية ، ما عدا حارةالعين منها فإن حاميتها ثبتوا ، وأجملوا الدفاع .

أما الدروز ساعتئذٍ فتخلوا عنهم ليتمموا اجلاء بقية الحاميات ، ويصلوا إلى الغاية المقصودة من أخذ زحلة وكسبها ، فلما عادوا إليهم صبيحة اليوم التالي وجدوهم قد اقتفوا خطى اخوانهم فسروا على آثارهم هاربين .

دخول زحلة

ولقد كان لخروج الزحليين من زحلة ودخول الدروز إليها ساعة مهولة عظيمة أشبه بساعة ينفخ في الصور فتأتي الناس أفواجاً إذ كان للرجال صراخ وصياح ، وللنساء عويل ونواح وللأطفال زعيق وبكاء ، وللبهائم ثغاء ورغاء ونباح ونهيق إلى غير ذلك مما جعل الضوضاء تصم المسامع ، وتملأ الفضاء ، وقد تأججت النيران ، وتلبدت غيوم الدخان فكان للسعير زفير ولسقوط الأنقاض قرقعة وطقطقة ، كل ذلك وأصوات البارود تقصف ورعود البنادق تهدر وجماهير المنتصرين ينشدون الأغاني الحماسية المهيجة ، وهم يوالون الكر والاقدام ، ويتابعون الحمل والهجوم ، فيبلون أحسن البلاء ، اطلاقاً ، وضرباً ، وطعناً ، إلى غير ذلك مما جسم الهول ، ورفع الجلبة حتى دوى الجو ،

وقد أقتم النهار ، وانحجبت الشمس من الغبار ، وتفاقمت الأهوال ، فكانت ساعة تشيب لها الأطفال ، وتقشعر لها الأبدان ، وإن الرجال ، رجال زحلة بينما كانوا أمام الدروز هاربين كان مسيرهم قدام نسائهم والنساء يتلونهم وعلى أيديهن الأطفال أي أن الرجال قد اتخذوا النساء والأطفال دريئة يتقون بها رصاص الدروز وبارودهم ، وذلك لعلمهم أن الدروز لا يمسّون في الحرب امرأة ، ولا يتصدون لمن لم يبلغ أشده من الغلمان ، ولذلك كانت تلك المسكينات الجازعات عثرة في سبيل فرسان الدروز المتبعين خطوات رجالهن المنهزمين ، وكان النهار عند ذلك قد زال ، فكف الدروز عن القتال ، ثم أخذوا في الخروج من زحلة عائدين إلى قب الياس ، وكان خطار بك عماد ، والشيخ اسماعيل الأطرش واقفين على مخرجهم وممرهم ، حتى إذا تيقنوا أنه لم يبق داخل المدينة درزي قط ، بل أمسى الجميع وهم خارجها، حولا فرسيهما خلف تلك الجموع ، ونامت الدروز ليلتئذ في قب الياس ، وصباح اليوم الثاني باكروا زحلة فالفوا النار خامدة ، والمدينة خالية فأكملوا حريقها ، فملأ دخانها البقاع ، وغادروها قاعاً صفصفاً تذري الرياح رمادها ، وعادوا منها منتشين بخمرة ذلك الانتصار العظيم .

المتاولة يساهمون

وفي ذلك اليوم هجم الامير سلمان الحرفوش ، ونسيبه الأمير محمد بمتاولة بلاد بعلبك على قرى النصارى في تلك الأنحاء ، كشمسطار وأبلح وغيرهما ، فأحرقوها وقتلوا خلقاً كثيراً .

عدد القتلى

أما قتلى الدروز في محاربة زحلة وفتحها فبلغوا المائتين والسبعين ، وأما النصارى فلم يتجاوزوا التسعماية[1] وقد شفع بالزحالنة زوال النهار ، واقبال

(١) كان بين المحاربين الدروز في زحلة نفر من النصارى قتل بعضهم وهم في صفوف الدروز عرف منهم شكر الله أبو عيسى من بعذران .

جيوش ابن حـام ، إذ أن الحرب لم تصل إلا عنـد الظهر كما سبق القول والاشارة إلى السبب ، ولم تؤخذ زحلة ويتم جلاء أهليها عنها إلاّ قبل الغياب بنحو ساعة ، أما قبل الاستيلاء على زحلة فكان رصاص الدروز لا يدق غير الجدران ورصاص الزحالنة يمزق الصدور والأبدان ، أما بعد أن استولوا على زحلة وفتحوها عنوة وأعملوا أيدي الفتك بمن لقوهم فيها ، فلم يتسن لهم في تلك البرهة اليسيرة الايقاع بأكثر ممن أوقعوا بهم .

الغنائـــم

أما من جهة الغنائم والمكاسب من زحلة فإن دروز لبنان لم يعبأوا بشيء من ذلك إذ تواصوا على هـذا الأمر الذي يفقـد من سلكه شجاعته ويلتهي بالكسب عن الذود والذب والطعن والضرب ، أما الحوارنة والعرب فلا تسل عما احرزوه وغنموه من الخيل المطهمة والحلى والمجوهرات والنقود ، وقد ذهبت سائحاً في هاتيك البلاد وجئت العرب الصرديين في بلاد حوران فسألتهم فدلوني على الخيل الزحلاوية الباقية عندهم ، من سلالة ما غنموه في زحلة من الخيل ويسمونها الزحلاويات للآن .

حادثة ديـر القمر

رجعت كتائب الدروز من زحلة وحصل كل في بيته يوم الأربعاء ، « ما عدا خطار بك فإنه لم يؤب إلى العرقوب ، بقي جهة البقاع » ، ويوم الخميس التالي زحفوا على دير القمر وأجروا ما أجروه مما يسمى ذبحة الدير ، وقـد كانت حادثة مشؤومة لم يسبق لها نظير في تاريخ لبنان الحديث ، وإن قلمي ليأنف عن تسطير ماجريات معمعة مثلها ، لولا ما يضطره إلى ذلك استقصاء الحقائق التاريخية ، أما تلك الفادحة الوطنية الهائلة فرجلان من وجوه عامة الدروز كانا نافذي الكلمة في قومهما مشهورين بالبطش والفتك في الوقائع والغارات ، وهما مصطفى الدويك ، وسليمان أحمد عبد الصمد اللذان أخذا يزينان ذلك للدروز الراجعين من زحلة ، ساعدهما عليه فصاحة لسانيهما ،

وعظيم دهائهما واقتدارهما ، وما لهما من المنزلة الرفيعة في أعين القوم ، لا سيما وهما من الشيوخ الروحيين المعترف لهما بطول الباع في العلوم الدينية ، « ولعمرك أن معظم الشرور هي نتيجة أعمال ممن يتظاهرون بظواهر الخير ، ومدعي الديانة تحتذي العامة حذوه ويقتدون بفعله » قلنا ومن جهة أخرى كانت في قلوب الدروز حزازات تغلي مراجلها انتقاماً من أهالي الدير الذين أصبحوا قاتلين عدداً ليس بقليل من الدروز ، حتى قلما خلت عائلة أو قرية لم يكن لها ثأر عند الديريين،وذلك لأنهم في المحاربة الأخيرة سلموا حالاً فسلموا دون أن يقتل منهم أحد فبقيت عوامل الحقد والضغينة تتحرك في قلوب أصحاب الثأر ، فكان ذلك أعظم مساعد للشيخين على مشروعهما ، وتنفيذ مأربهما حتى أن أولئك الدروز لم تنطرح في مجال البحث لديهم مسألة الايقاع بأهل الدير ، حتى قر رأيهم جميعاً مصادقين ، وللدعوة ملبين ، فعقدوا على ذلك الخناصر ، وقرروا العزائم ، وتفارقوا أنهم في صباح اليوم التالي يكونون طراً على جوانب دير القمر ، وأما ما قد حمل مصطفى الدويك وسليمان أحمد على اضرام تلك الفتنة والاقدام على ذلك الأمر الخطير فانما هو مجرد النكاية بسعيد بك جنبلاط ، نقضاً لما كان يبرمه ، ودحضاً لما كان ينويه ، كما سبقت إلى ذلك الاشارة من قبل .

وخلاصة القول أن يوم الخميس المذكور ، كان ميعاداً للزحف إلى دير القمر ، وفيه تألبت الدروز المناصفيون والشحاريون كلهم ودروز العرقوب الجنوبي ، وبعض الأفراد من دروز عماطور وعين قنية والمختارة وبطمة والجديدة ، وكانت الدير لم تزل على الحصانة التي مر وصفها ، ولم تزل اسلحتهم معهم ، وبين أيديهم المؤن والذخائر الجزيلة غير أن عددهم قد تناقص منه ألفان ممن كانوا آوين إلى الدير من القرى المجاورة لها ، فبقي فيها غداة الشر أربعة آلاف محارب أكثرهم ديارنة ، ولكن هؤلاء الأربعة آلاف لما بلغهم نبأ انكسار زحلة وحريقها ، وما حل بالزحالنة من الويل والثبور قذف الرعب في قلوبهم، فاندكت قواهم، وانحلت عزائمهم فدخلت الدروز بلدتهم،واقتحمت حصونها المنيعة دون مكابرة أو شديد دفاع ، كان يتلقاهم به الديارنة غداة

شبوب الحريق من قبل ، وعند ذلك أصبحوا وكأن دماءهم جمدت في الموارد ، وركدت في الشرايين ، فلم ينبض لهم نابض ، ولم يختلج منهم عرق حتى أن الدرزي كان يدخل البيت الديري وفيه الرجلان والثلاثة وعيلته قعوداً على السجاد جاذباً بها اليه بعنف ، فيقول الديري له خذها أنا وأنت سواء ، ثم يقول له : هات بارودتك أيضاً فيعتزل من سلاحه ملقياً به بين يدي خصمه ...

أما الذين سلموا ولم يردوا مورد الحتف من أهالي الدير فقد حماهم بعض الرؤساء أو العيال من الدروز : حمى قاسم بك الحمود خمسين رجلاً ، ومثل هذا العدد حماهم بشير بك النصيف ، وإن رجلاً من كفرقطرة ، وكان ورعاً تقياً ، واسمه ابو يوسف محمود قد حمى سبعين رجلاً ، واجتهد في أمر مواراتهم وتوفيرهم من الهلاك،وحمى بنو حماده (بعقلين) بني افرام، ومن رأى من دروز الدير كان له صديق حماه ، ووفره من القتل ؛ ولولا ذلك ، والحمد لله لدمرت الدير ، وقضي على جميع أهلها فبقيت قاعاً صفصفاً .

أما النساء الديريات فقد تألبن يومئذ باولادهن في الفسحة الرحيبة الواقعة شرقي السراي ، غير أنهن لم يمسسن بضرر ، ولم تسمع ديرية من رجل درزي كلمة يرفضها الأدب أو تمجها اذن الانسانية ؛ بل رب درزي من قرية نائية عن الدير رأى ديريـة مكشوفة الرأس فنزع عمامته ملقياً بهـا على رأسها ليسترها ، متوهماً كون ذلك غير مباح للنصرانيات كالدرزيات .

أما ما نهب من الدير من الحلى الفضية ، والذهبية ، ونفيس المتاع ، والخيل ، فشيء كثير .

سعيد بك جنبلاط في اقليم جزين

وبعد ذلك توجه سعيد بك جنبلاط إلى اقليم جزين ، ووضع حامية من الدروز في غالب جبهاته تأميناً للنصارى وإسكاناً لروعهم ؛ فأقـام في جزين فريقاً من بني القطايري ، وعين مصطفى سيف لحماية جبل الريحان ، ثم أخذ يكتب إليهم ويوزع الرسل عليهم في كل جهة آمراً إياهم بالرجوع إلى مواطنهم،

وآذناً لهم بقطع الجذوع والاخشاب من أملاكه الخاصة لأجل قيـام سقوف بيوتهم المحترقة ، وإنه لقد انجى مئة رجل من دير القمر ، وأركبهم على بغاله مصحباً إياهم بجماعة من رجاله أوصلوهم إلى صيدا آمنين .

الشكاوى للدولة الفرنسية

وغب هذه الأمور رفعت للدولة الافرنسية من الأسر الكريمة النصرانية ، كتب بألسنتها وبلسان الموارنة ، عموماً يشكون لها فيها ويتظلمون ، ويبنون فوق القصور علالي مسترحمين الآثار لهم من اخصامهم ، وهاك ترجمة بعض كتب عثرت عليها في بعض الدواوين[1] .

فرنسا تبعث جيشا واسطولا

فسنحت عندئذ للدولة الافرنسية الفرصة التي طالما ترقبتها وشد ما قامت به من المساعي السياسية ، لأجـل انتهازها ، وكان الامبراطور عليها يومئذ نابليون الثالث ، وهو ملك فيه ما فيه من روح عمه نابليون الأول ، وميله إلى الفتوح ورغبته في توسيع نطاق الامبراطورية الفرنسوية ، فحشد اثني عشر الفاً من المنظمة ، وأرسل بهم بعثة فرنسوية حربية لاحتلال لبنان تحت قيادة الجنرال بوفور ، وكانوا من نخبة الجيش الفرنسوي ، وفيهـم مغاربة مـن الجزائر أيضاً .

الدولة العثمانية تبعث جيشا واسطولا

أما الدولة العلية العثمانية ، فأرسلت أيضاً اثني عشر ألف جندي ، بينهم قادة عديدون ، كخورشيد باشا ، وخالد باشا ، واسماعيل باشا ، وعمر باشا ، وغيرهم ، ولكن القيادة العامة كانت لمحمد فؤاد باشا المأمور الخاص ، المعهود اليه من لدن ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خـان النظر في تلك القضية

---

(١) هنا أربع صفحات في المخطوطة تركت بيضاء خاليـة لترجمة الكتب المذكورة آنفا ولم أعثر على الكتب ولا على ترجمتها .

وملافاتها ، وحلها بالوجه المرضي مفوضاً النقض والابرام فيها لقوله ورأيه وفعله ، فاتفق عند القـاء الاسطول العثماني مراسيه في ميناء بيروت ، أن استعرت نـار الهيجاء في الشام ، واتقدت بـين مسلميها ومسيحييها حرب شديدة ، دارت فيها الدائرة على النصارى ، فذبح المسلمون منهم ستة آلاف رجل في يوم واحد ، ثم أقبل الاسطول الفرنسوي على إثر الاسطول العثماني، ورمى مراسيه تجاه الضبية من الثغور اللبنانية ، حيث حفروا على صخرة هناك تاريخاً ليوم حلولهم في ذلك الثغر .

ثلاثة آلاف من الدروز يذهبون الى جبل حوران

وقد لبث العسكران في اسطوليهما نحو عشرين يوماً دون أن ينزل إلى البر ، بل كان كل أسطول منهما يعمل في كـل يوم مناورة حربيـة ويطلق الاسطول العثماني ألوفاً من الطلقات من مدافعه الضخمة ، ففشا نبـأ اقبال الاسطولين المذكورين في الجبـل ، فهال الدروز أمرهما وجعـلوا يضربون أخماساً لاسداس ، ثـم عمدوا إلى امتعتهم ومنقولاتهم خاصـة كانت أو مكسوبة ، فطمروها في الأرض وخبأوها في الكهوف والمغر ، ثم ذهب منهم نحو ثلاثة آلاف رجل إلى حوران حاملين معهم ما غلا قيمة وخف محملاً ، فمروا بمجدل شمس ، وتحركوا منهـا خائضين السهل الحوراني ، حتـى اجتازوا اللجاة ، وبلغوا جبل الدروز ، فألقوا عصا ترحالهم في نجران ضيوفاً عند شيخها ابراهيم ابي فخر .

شيخ نجران يدعو الجبل بايقاد نار الحرب

وبناء على العادة الجارية في جبل حوران في مثـل أحوال كهذه ، أمر الشيخ المشار اليه بنار عظيمة أوقدت ليلتئذ في رأس ماذنة تلك القرية ، فلما تنورت القرى المشرفة على نجران نار الحرب الموقدة في علوة ، أوقدوا هم أيضاً نيراناً حربية في الأعالي ، فلم تمض ساعة حتى رأيت كل جبل حوران نيراناً حربية ، ولما كان الغد غدا الحوارنة يتساءلون عن النار الأولى متقدمين

من قرية إلى قرية ، حتى التقوا جميعاً في نجران ذات النار الأولى ، فباتت الجموع تلك الليلة في نجران؛ وفي اليوم التالي تقاسموا ضيوف بلادهم الثلاثة الآلاف ، وراحت كل فئة بضيوفها ، وهكذا أصبح الثلاثة آلاف لبناني أضيافاً منتشرة في جميع الأصقاع الحورانية . وقد أقاموا على الضيافة عشرين يوماً فقط ، وبعد ذلك اعتزل كل فريق منهم وجعلوا ينفقون من أموالهم الخاصة ، وقد علم أمراء العرب بقدوم الشوافنة إلى حوران ، وفيهم المشايخ والبكوات والاعيان كالشيخ كنج العماد وملحم باك العماد ، وخطار بك عماد ، وبشير بك نكد ، وعلي بك حمادي ، فجعلوا يفدون عليهم للسلام عليهم ، والتعرف بهم ، وقد دعوهم مراراً إلى منازلهم ، وأولموا لهم في البرية الولائم الكريمة ، وممن وفد منهم محمد الصمير أمير عرب عنزه ، وابن شعلان أمير عرب الرولا ، وعودي أبو سليمان كبير السلوط ، وعبد الله الفحيلي أمير الفحيلية ، وكنج الصردي زعيسم الصردية ، وغيرهم من شسيوخ أعارب الحسن ، وزبيسد ، والسرحان ، ممن يدعونهم عرب الشمال .

محمد فؤاد باشا يدعو كبار الدروز والنصارى

وبعد أن لبث الأسطول العثماني عشرين يوماً يجري فيهـا المناورات الحربية ، ويؤم الثغور اللبنانية مطلقاً الطلقات القوية إرهاباً وتهديداً ، نزلت أخيراً بحارته إلى بيروت ، فاستدعى محمد فؤاد باشا باديء ذي بـدء كبار الدروز والنصارى إلى تلك المدينة ، فحضر من الدروز سعيد بك جنبلاط وشقيقته نايفة زوجة الشيخ أمين شمس ، كبير البلاد الحاصبانية ، وسليم بك جنبلاط ، والأمير محمد الأمين ، والأمير محمد القاسم الارسلانيان ، والشيخ أسعد عماد ، وقاسم بك مرعي نكد ، وقاسم بك حمود نكد ، والشيخ حسين تلحوق ، والشيخ نصيف تلحوق ، ويوسف بك عبد الملك ، والشيخ قاسم حصن الدين ، وحضر كبراء النصارى أيضاً ، وبعد المرافعة وأخذ التقريرات من الفريقين ، أصدر أمره بتوقيف مشايخ الدروز في القشلة البيروتية ، ولم يوقف أحداً من النصارى ، وبعـد ذلك أمر بفرقـة من الجنود فأقامت في محـلة

الحازمية ، وبفرقة أخرى فاقامت في حرش بيروت ، وإنما ذلك لأجل المحافظة ، وأما ما تبقى من الجنود فصدر الأمر بذهابهم إلى دمشق حالاً ففعلوا ، وأما حضرته فتوجه إلى صيدا ، فطلب إليه رؤساء عشائر المتاولة ، فلبوا دعوته ، حضر منهم : علي بك الأسعد ، وحسين بك الأمين ، وتامر بك السلمان ، فوجههم نحو المختارة فأتوها فرقتين ، وذلك قصد الاستعانة بهم على من يكابر من الدروز فيما لو مست إلى ذلك الحاجة .

فؤاد باشا ينتقل الى دمشق

وصعد حضرته من صيدا إلى الشام ، ماراً بقرية روم من اقليم جزين حيث أطلق مدفعاً عند الظهر ، وجاء جزين فهرع أهلها إلى تلقيه ، فأخذ في إيناسهم وتهدئة خواطرهم مظهراً لهم كدر الدولة العلية واستياءها ، مما جرى لهم ، وحل بهم ، وواعداً إياهم بأنه سوف يعين مأمورين لبناء بيوتهم ومساكنهم المحروقة أو المتداعية وغير ذلك ، ثم تحركت ركابه من هناك فحلت في مشغرة حيث بات تلك الليلة ، وأضحى النهار التالي في زحلة ، فاجتمع لديه أهلوها بهيئة المشتكي الكئيب فتلا على مسامعهم ما تلاه على مسامع أهالي جزين ، ووعدهم خيراً ، ثم توجه إلى دمشق للبحث ، وإجراء الفحص عن الحادثة الشامية ، التي وإن كانت أعظم وأفدح من الحادثة الديرية، غير أنها كانت أسهل حالاً وأيسر أمراً ، إذ بعد تأكده أن القوة الحاكمة لم تحاول ردع المقاتلين وإخماد نار القتال ، بل مدت هي إلى العمل يداً ، أصدر أمره أخيراً بشنق الوالي الذي كان حائزاً على رتبة المشيرية أيضاً ، وباعدام نفر من القادة والضباط ، ونفر من أعيان دمشق أيضاً بحيث أنصف بين عدد المقتولين من الطائفتين وفقاً للشريعة الغراء[1] والنظام العالي ، وبعد أن أتم محمد فؤاد باشا اجراءاته المهمة التي انتدب إليها في الشام فاستتبت فيها

(١) ذلك لان المشير يحسب كالف رجل تجاه النظام ، واليوزباشي كمئة وهلم جرا وهكذا استوى عدد المعدمين من المسلمين ومن قتلهم الاسلام من المسيحيين أي ستة آلاف بستة آلاف .

الراحة ، وأخلد الدمشقيون إلى السكينة انقلب إلى بيروت للمباشرة بالمسألة اللبنانية .

أعمال الجيش الفرنسي

أما العسكر الفرنسوي فلما نزل إلى البر توجه جانب منه نحو بتدين ودير القمر ، فتبعه جميع من كان ببيروت من النصارى اللبنانيين ، وكانوا جماً غفيراً فأباح لهم القائد قتل من عن لهم من الدروز غير مسؤولين في ذلك يومئذ ، فقتلوا في طريقهم في ذلك النهار تسعة عشر درزياً فقط أكثرهم عجزة طاعنون في السن ، وقد أتى العسكر في طريقه مسألة فظيعة جداً وهي أن امرأة من البنّيه ، وعلى يديها طفلان كأنهما الملاكان مر بها العسكر في محلة قبر شمون ، فتناول بعض الجنود ذينك الولدين عن يديها فمسخوهما وقطعوهما ، فطار عقل تلك الوالدة المسكينة لهذه الفعلة البربرية ، والخطب المهول ، وانقلبت مجنونة لا تعي ، وعاشت بعد ذلك وهي في حالة الجنون المطبق ، وأفظع من ذلك مقتل الشيخ أبو يوسف محمود من كفر قطرة ، الذي شهد حادثة الدير لا ليقتل بل ليقي الأنفس من القتل مهما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فتمكن من وقاية سبعين رجلاً ديرياً نافياً عنهم القتل ، ماناً عليهم بالسلامة والحياة لأنه كان رحمه الله تقياً ورعاً فاضلاً جواداً ، فاتفق عند بلوغ العسكر الفرنسوي أرض المناصف أن عرجت فئة من أهل الدير على دير كوشه وكفر قطرة فأطلقوا أيدي السلب والنهب ، وبينما هم ينهبون إذ وقعوا على ذلك الشيخ الفاضل فقتلوه شر قتلة ، ولم يكن قد مر على الحركة أكثر من ستين يوماً بعد .

لا تسل في تلك الآونة عن ارتباك عظيم وحيرة وقع فيها الدروز خوفاً على نفوسهم من الاعدام أو النفي ، وأشبه وضناً بما في أيديهم من الكنوز والنفائس التي ساورتهم الحيرة في مسألة مواراتها واخفائها عن العيان ، ولما وصلت العساكر إلى بتدين خيمت هناك فلم تبرح ......



المُلحَقُ الثَّالِثُ

منتخبات من رواية مارونية

عن حوادث ١٨٦٠

بِقَلَمِ مُعاصِرِها

أَنطُون ضَاهِر العَقِيقِي الكسروَانِي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولم يزل البغض يتزايد بين المشايخ والاهالي إلى أن وقعت الخلفة بين النصارى والدروز في ناحية بلاد الشوف وكان ذلك في ابتداء سنة ٦٠ ، وسبب وقوعها هو أن البعض من أهل تلك الناحية راموا رفع المقاطعجية مثل الأمراء بيت أبي اللمع وخلاف مشايخ من دروز ونصارى ، وأخذوا في ابتداء الحركة المفسدة ، فمشايخ الدروز علموا بهذا الخبر فأخذوا يضطهدوا الأهالي بنوع الحيل ويوقعوا الفتن بين الطائفتين ثم وقع الاختلاف بينهما وسبب وقوعه الظاهر كان لأجل مصادمة دواب في بعضها لأن أحد المكارية صدمت دابته في دابة الآخر من الدروز ، فتقاتلوا وضربوا بعضهم في الاسلحة الجارحة ، وصار مجاريح من الطرفين وانطرح الصوت من الطرفين ، وصارت معركة في ناحية الشوف القبلي ثم بعده وقعت المخابرة بين كل من الطائفتين وصارت المخابرة كل طايفة لوحدها ، وحضر كهنة لعند غبطة البطريرك بولس الجالس يومئذ بطريرك الموارنة ، فنها عن وقوع هذا الأمر المبرم ، لكن بوقته سيادة المطران طوبيا عون مطران بيروت شدد النصارى وأعرض على القناصل ، وأخذت الحركة تتزايد في بلاد الشوف ، واقليم جزين ، ودير القمر ، وفي تلك النواحي ، وخاطبوا أهالي كسروان عن يد طانيوس شاهين إذا كانوا ينجدوهم أم لا ؟ فجاوب طانيوس شاهين بأنه ينجدهم على الدروز ، وأنه عنده نحو خمسين ألف رجل تحت الأسلحة عند اللزوم يحضر بها ، فعند ذلك تشددت النصارى القاطنة في تلك النواحي ، وأخذوا يطلبون الشر ، وأما الدروز فكانوا دايماً بالاجتماعات والمخابرات مع بعضهم البعض ، في كل المحلات وخاطبوا دروز حوران وحاصبيا وبلاد الشام ، وعملوا روابط فيما بينهم سراً ، حتى يفنوا النصارى ، والدولة العلية كانت تشددهم ، وتعطيهم القوة سراً ، حتى يفنوا النصارى ، مع معرفة دولة الانكليز ، وصار كل من الفريقين يشدد ذاته ويستعد إلى وقوع الشرور ، فما مضى مدة شهرين زمان ، وإلا وقع الشر في ناحية العرقوب في بلاد الشوف ، وصار شر هناك وراح من النصارى أربعة أنفار ، ومن الدروز ثلاثة أنفار ، وهذا بعد أن الدروز قتلوا

كاهن كان ماراً على الطريق ، وكان ساعي بالحركة بالقرب من ناحية جزين ، فعند ذلك حصلت اشتهارات الشرور ، وكل فريق اجتمع مع حزبه ، وكان مقدم الدروز في الحرب الشيخ خطار بك العماد ، وابن الشيخ حسين تلحوق ، واثنين من مشايخ بيت أبي نكد ، والشيخ سعيد بك جمبلاط ، وكان دائماً يقيم في محـلة المختارة ، ويرسل من قبله أناس معتمدات ، وكانت كامـل الدروز معتمدين لقوله ، والدولة كانت تشدد الدروز بأكثر مما يلزمهم ، وكان هذا في عهد صاحب السطوة الملوكانية عبد المجيد خان العثماني سلطان زمانه وفريد أوانه ، وهذ االدسيس ما كان منه بل كان من أخيه عبد العزيز ، حتى أنه كتب كتابات إلى كامل مداين العثمانية ، بأن يقوموا على النصارى ويقتلوهم ، فمنهم من سمع وأطاع ، ومنهم من حسب إلى عواقب الزمـان فرفض ، وقصده كان بذلك لكي يرفع أخيه عن كرسي الملك ويجلس مكانه ، وأما النصارى في بلاد الشوف كانوا يشددوا ذواتهم لكن بدون فايدة لعدم وجود من هو مترأس عليهم وعدم التفاتهم إلى العواقب ، وكانوا مهتمين في أموال العالم لا إلى شرف أنفسهم .

وفي هذا الغضون اجتمعت الدروز ، وعملوا شر مع النصارى في الشوف، فانكسروا النصـارى من أمامهم ، فأحرقوا بيـوت النصارى وطردوهم من محلاتهم ، وصار القتل من الطرفين ، لكن الأكثر راح من النصارى ، وكان أمامهم أبو سمرة من جزين .

ثم بعده صار الشر في ناحية المتن ، وحرقوا بعض أماكن إلى النصارى .

ثم صار الشر في دير القمر ، وباتت الكسرة على الدروز ، ولم يقدروا على أولاد الدير ، فعند ذلك تركوا الدروز دير القمر ، وتوجهوا إلى المتن حتى يأخذوا المتن ، وحمانا ، وخلافه ، وبعده يرجعوا إلى دير القمر ، وأبقوا كام نفر ناحية دير القمر حتى يكونوا دائماً محافظين وجاعلين مشغله إلى أولاد الدير ، حتى لا يخرجوا ، ولما حضروا الدروز ، وصار جملة شرور بين الفريقين، وأخذوا قسم من المتن وحمانا ، فعند ذلك تشددت أهالي زحلة ، وخرجوا إلى

مصادمة الدروز ، فكانت الدروز توجهت إلى ناحية السواحل وأخذوا بعبدا وأحرقوها بالنار هي وباقي الضيع التي كانت حولها ، وكانت أهالي كسروان توجهت إلى ناحية بعبدا ، وعندما ابتدأ الحرب كونهم أغراب في تلك النواحي ، وما عاد وجدوا أحد ليكون أمامهم حالا ولوا الأدبار إذ هم مشتتين ، فمنهم بقي في بيت مري ، ومنهم في انطلياس ، ومنهم في رومية كرسي مطران بيروت لأجل محافظتها ، ومع ذلك الدروز لـم ترجع ، وعسكر العثماني طلع من بيروت ، وركز في الحازمية لا غير يشدد الدروز ، وهم لم يزالوا في حريق البلاد ، وقتـل الاناس ، ونهب الأموال وحرقوا بيت مرى وبرمانا ، إلا دار الأمير بير أحمد لا غير وابن عمه الأمير أمين ، وحرقوا كرسي مطران بيروت ، وكامل السواحل البحرية ، وأهلها الذي كان يخلص من القتل كان ينزل إلى بيروت مع الحريم والأولاد ، وكنت تسمع البكاء والعويل من كل جهة ودخان الحريق امتد إلى حد نهر ابراهيم ، ووقع الخوف على كامل النصارى في كل الجهات .

وأما أهالي دير القمر بقوا ضمن الدير في الحصار ، وكان حضر لعندهم من النصارى الموجودين في نواحيهم الذين احترقت محلاتهم ، وبقوا الجميع في دير القمر ، وعسكر العثماني موجود هناك ، والمتسلم أيضاً ، وهم لا يعرفون ما هو صاير لكونهم انقطع الخبر عنهم من الشارد والوارد ، ثم بعد حريق البلاد صارت رابطة ثانية بأنه يتوجه عسكر من كسروان إلى محل الدروز في العبيدية حيث كامـل عزير الدروز هناك ، وأنهم يتوجهوا اليهم مـن أسفل ناحية الغرب ، وأن يوسف آغـا الشنتيري يتوجـه إليهم أيضاً مـن فوق لناحية الشرق ، فتوجهوا أهالي كسروان ، ومعهم كام نفر من ناحية دير القمر ، كانوا خارجين من دير القمر قبل الحصار ، وكـان جملتهم بالعدد نحو ماية وخمسين راجل فتوجهوا إلـى العبيدية وابتدأ الشر ، وحيث كـان طلوع النصارى من محل مستصعب جداً ، فمـا أمكنهم أن ينالوا أربهم ، لكن قد ظهرت شجاعتهم بزيادة ، وحرقوا بيتين ثلاثة من العبيدية ، وتشاجعوا بناء على ما وعدهم يوسف آغا الشنتيري بأنه يوافيهم مع رجاله أهالي بكفيا ، والقاطع

من الجهة الثانية ، فلهذا تشجعوا ، فلما خان بوعده ، ولم يوافيهم تغلبوا الدروز عليهم وكسروهم ، بعــد أن كانوا قريبين الانتصار ، كونهم محلهم مستصعب جداً وقتل منهم ستة عشر قتيلاً ، الذي كل واحد منهم بمقام عشرين مقاتل اه واسفاه على هؤلاء المقتولين ، وقتل من الدروز نحو سبعة أنفــار ما عدا المجاريح، ثم بعد ذلك رجعوا أهالي كسروان مخجولين ومتحرقين من خيانة العهد مع يوسف آغا المرقوم أعلاه ، وقيل أن عسكر الدولة في الحازمية ضرب مــع الدروز وهو الأرجح لأنهم وجد ضرب الكلل ، وبعض انفار عسكرية متبدلين حتى لا ينعرفوا ، والقناصل الافرنجية وقعت في حيرة عظيمة وبالاخص قونصل دولة فرنسا ، كون جبل لبنان بحمايته ، والوالي منحرف بهذا العمل فعند ذلك خرجت أهالي زحــلة نحو ستماية بارودة لمصادمة الدروز في عين داره ، ناحية جرد المتن ، وهناك صار شر بينهم وبين الدروز أول مرة فانكسروا الدروز من أمامهم مسافة ساعة ، وفي ثالث يوم صار شر ثاني ، وكانوا أهالي حمــانا وهاتيك الناحية معهم فتغلبوا الدروز على النصارى ، فامتــد طرح الصوت على زحلة وهاتيك النواحي فما أحد نجدهم ، فانكسروا أهالي زحلة وولوا الأدبار ورجعوا إلى زحــلة ، وأما الدروز فاجتمعوا جميعاً ووضعوا شرذمة منهم محافظة إلى دير القمر، والباقي توجهوا إلى ناحية جزين والعرقوب وبكاسين ، فتغلبوا على النصارى وطردوهم من محلاتهم ، ثم امتدوا إلى بلاد البقاع ، وأخذوا محلات النصارى وكانوا كل بلد يأخذونها يحرقونها بالنار ، ويقتلوا كــل من وجدوا ، وكانت النصارى تفر من أمامهم من كــل مكان ويجتمعوا إلى المحلات العامرة ، فناحية السواحل توجهوا إلى بيروت مــع حريمهم ، ونواحي دير القمر يحضروا إلى الدير ، ونواحي البقاع والشوف وحمانا توجهوا إلى زحلة وكانت ضيقة عظيمة على كامل النصارى من القتل وسفك الدماء ونهب الأموال والحريق ، حتى ما عاد وجد نصراني في تلك النواحي ، ثم توجهوا الدروز لمحاصرة زحلة وجعلوا مركزهم في قب الياس ، وكان على رأسهم الشيخ سعيد بك جمبلاط وخطار بك العماد وبعض من الحمادية ، وترابطوا مع المتاولة والمسلمين ، بمعاونة بعض رجال الدولة العلية

وراسلوا أهالي زحلة بأن يسلموا لهم ، فأهالي زحلة لم يأمنوا أن يسلموا واتكلوا على كثرة الرجال عندهم من كـل مكان ، وكان واقـع الاختلاف والبغض فيما بينهم فعند ذلك صارت الدروز تجتمع من كل مكان من حوران والشوف والمتن وغيره ، واستعانوا في العرب والمتاولة على أخذ زحلة ، لانهم كانوا بحالة الخوف من زحلة ، كونهم كانوا انكسروا منها سابقاً سنة ١٨٤٣ وسنة ١٨٤٢ ، ولهذا وضعوا كامل اعتناهم على أخذها بعد أن قطعوا المخابرة ما بين زحلة ودير القمر ، حتى لا يعود أحد يعرف شي من الآخر ، وكانوا أهل الدير في حيرة من سكوت الدروز عنهم ، مع أن الدروز كانت واضعة شرذمة فقط على الدير ، والباقي مهتمين في أمر زحلة ومجتهدين غاية جهدهم في اهدام زحلة ، وانهم متى أخذوها أخذوا كامل البلاد ، فعند ذلك كانت أهالي زحلة تخاطب كامل النصارى ، في كـل مكان في كسروان وبشرى والزاوية بقدر امكانهم ، وأما أهل الزاوية كان عندهم خوف من أهل الضنية بسبب كانت توجد عداوة ما بين الفريقين ، فبقي قسم من النصارى هناك لأجل المحافظة فقط ، وتشدد يوسف بك كرم ، وأحضر من أهل زغرتا وذاك النواحي نحو مايتين راجل ، وصار يجمع من بلاد البترون وجبيل وحضر بهم إلى كسروان وجمع عسكر نحو أربعة آلاف راجل وتوجه بهم إلى ناحية بكفيا ، وبحر صاف، قاصداً التوجه بهم إلى زحلة لأجل صيانتها ، وكان يقدم إلـى العسكر كلما يلزمهم من الذخـائر والجباخانات ، وكان يتقدم لـه ذلك من بعض أعيان النصارى ، من بيروت والجبل ، وكان يصرف على العساكر بقدر الامكان ، ولما عزم على الحضور إلى زحلة حضرت له المكاتبة من والي بيروت ومن بعض القناصل بعدم توجهه إلى زحلة ، وأنه إذا توجه يكون هو المسئول وأن الوالي هو ينهي الحرب بخلاف واسطة ، وكذلك كانت الأمراء تنهيه من التوجه لكي لا يكون له التقدم ، فتأخر عن التوجه وبقي مستكناً في بكفيا وأهل زحـلة كانت دائماً تطلبه ، والدروز كانت مجدة في اتمام مآربها وهجموا على زحلة واشتعلت نار الحرب مابين قب الياس وزحلة ، فانكسروا أهالي زحلة ورجعوا إلى زحلة ، وفي النهار الخامس هجمت الدروز على زحلة من كل جانب هم

والعرب والمتاولة ، واخلوا سبيل إلى أهل زحلة لجهة الشمال ، واصطدمت نار الحرب ونشرت البيارق ، واصطدمت الفرسان من كل جهة ولمت السيوف والبنادق وحصل الطعن والضرب بين الفريقين ، وكانوا أهل زحلة يظنوا بأن يوسف بك كرم هو الآتي لنجدتهم من الجهة الواحدة ، حيث كانت البيارق متصالبة وكانت بالغش من الدروز ، مع أن يوسف بك كرم كان في ذلك النهار قام بالعسكر من بكفيا قاصداً معاونة زحلة ضد أمر والي بيروت لما بلغه من مضايقة أهل زحلة ، فعندما اشتدت الحرب هجمت الدروز على زحلة وأشعلوا بها النار فعند ذلك انكسروا أهالي زحلة ، وأخذوا بالخروج منها من الناحية الشرقية هم وحريمهم ، وكانوا يحملون ما هو ممكنهم حمله ، وكانت الساعة التاسعة من النهار ، وكلمن وجد أمام الدروز كانوا يقتلوه ما عدا النساء ويالها من موقعة عظيمة وكسرة مهولة ، وناهيك عن العوالم التي كانت في الحال محتمية في زحلة من كل مكان ، وكيف كان خروجها بساعة مرعبة ، وكيف كان أحوال النساء والأطفال واشتعال النار ، فهذا شي يكل عنه وصف اللسان والأقلام حتى المساء ما عاد بقي نصراني واحد في زحلة ، وعند ذلك صار النهيب من كل جهة تظير فريسة ، وفي الساعة الرابعة من الليل صار التنبيه على الدروز من عقداهم بأن يخرجوا من زحلة بعد أن جرقوا منها جانب ، وأن يحتفظوا من مقارشة الحريم ، فخرجت الدروز منها بعد أن أخذواما أمكنهم أخذه ، وعند ذلك ابتدأت الأعراب والمتاولة والمسلمين تنهب من زحلة لأنهم لا مانع عليهم ، وزادوا على ذلك أنهم احرقوا منها جانب أيضاً ، واستقاموا على هذا الحال نحو ثمانية أيام ، وأما أهل زحلة حضروا إلى كسروان ، وهم عراة والجوع ضانيهم ، ولا يوجد ما يكفيهم ، وما عاد أحد قدر أن يرحم أحد حتى أنه وجد أطفال مهمولين على الطرقات من والدتهم ، وتبددوا في كل مكان في قرايا كسروان ، حتى أنك تشوف كسروان ما عاد يسع من الخليقة ، لأنه عدا ما كان من زحلة والبقاع والشوف والمتن ، بل بلاد بعلبك أيضاً قامت المتاولة والمسلمين على النصارى وعملوا بهم كذلك .

ثم إن الدروز والمسلمين قاموا على النصارى في نواحي حاصبيا وراشيا واصطلى الشر فيما بينهم ، وطردوا النصارى من هناك والذي خلص من القتل توجه إلى الشام ، وبقيت هذه المحلات خراب وقتل من زحلة نحو عشرين قتيل مع المرضى والاختيارية ، وأما في حاصبيا راح من المائة أربعين تقريباً ، ثم عندما صار هذا العمل ويوسف بك كرم رجع خايباً ، كان صارت الكسرة من زحلة قبل حضوره ، عملوا جمعية بعض أمراء باللمع ويوسف بك كرم ، بمشاورة الرؤساء ، وكان الاجتماع في مزرعة كفر دبيان ، بأن كل واحد يجمع من الرجال ما أمكنه ويتوجهوا إلى الدروز لأجل المحاماة عن الأنفس ، وعلى هذا حضر يوسف بك كرم برجاله إلى المزرعة ، وبقي هناك نحو أربعة أيـام .

ثم إن الدروز بعـد أن صار منهم ما صار ، توجهوا لأخـذ دير القمر واشعلوا نار الفرح أمام الدير ليرعبوهم ، أما أولاد الدير تشجعوا عند ذلك ، وأخذوا يشجعوا بعضهم البعض من كل جهة ، ونقلوا الأسلحة ، وتقلدوا بالسيوف ، وفي ثاني يوم اصطلت نار الحرب بين الفريقين ، وفي كـل هذه المدة ما قدر أحد من النصارى يعرف ماذا حصل في الدير ، ولا من أولاد الدير قدر يعرف ماذا صار خارجاً لأنه لحد ذلك الحين لم تعرف أهل الدير ماذا صار في زحلة وباقي المحلات ، فمن جرى ذلك قد صار عليهم خوف شديد، غير أنهم تشجعوا نوعاً وراسلتهم الدروز في أنهم يسلموا ذواتهم ، فما قبلوا بل تشددوا بالأسلحة وهئوا (هيأوا) ذواتهم لاصطلام نار الحرب ، وتعددت الشجعان ، ونقلوا الاسلحة كبيرهم وصغيرهم واستعانوا بالرحمن ، فعند ذلك راسلهم المتسلم الموجود في سراية الدير من قبل الدولة العلية ، مأمراً إياهم بأن كامل النصارى الموجودة في ديـر القمر تحضر لعنده إلى السراي ، وتوضع عنده الأسلحة ، وهو يتكفل لهم بمنع كل أذية ، وكان ذلك منه خداعاً بواسطة الرشوى من الدروز ، حيث عرفوا أنه لا يوجد لهم طالع مع نصارى الدير إلاّ بالخداع ، فالنصارى لصغر عقلهم ، ولزيادة تغفلهم ، ولبساطة قلوبهم ، ومن وفور أتعابهم من الكفاح ، خصوصاً عدم مخابرتهم بما حدث في باقي المحلات،

قد سلموا ذلك إلى الحكومة ، ما عدا البعض ؛ وهم قلايل من الشبان لم يسلموا ذاتهم ، والذين قدموا سلاحهم ، ودخلوا السراي على سبيل أنهم صاروا بالأمان ، وأن عسكر الدولة يحميهم من العدو ، فبعد أن نزعوا عنهم الأسلحة ، وصاروا كالغنم ، حينئذ هجمت عليهم أعداؤهم الدروز ، والعسكر العثماني عوض أن يمنعهم ، صار مساعداً لهم وأخذوا يبطشوا بهم ويفتكوا كيفما يشاءوا من دون مانع ؛ وصاروا يذبحوا في النصارى مثل الغنم ، ويأخذوهم على أسطحة السراي ، ويذبحوا الرجل على ميزاب الماء ، وبعده يرموه إلى أسفل السراي من ناحية القبلة حتى صارو ا تلاً عظيماً ، ثم هجموا على الموجودين خارج السراي ، وصاروا يبطشوا بهم وينهبوا ما وجدوا ، وأشعلوا النار من كل الجهات ، وحرقوا الكنايس والأديرة ، وقتلوا كل ذكر وجدوه، إن كان في البيت أم في السوق بحيث يمكنهم قتله ، أما الذين بقوا من أولاد الدير النصارى جمعوا بعضهم بعضاً من الحريم والأولاد ، وهربوا خفيةً وشهرةً ،ونزلوا إلى صيدا حيث ما أمكنهم أن يحضروا إلى بيروت على الطريق المعتاد ، وبعضاً منهم قلايل جداً احتموا عند مشايخ الدروز ، وأما الذين نزلوا إلى صيدا لاقتهم الاسلام وأرادوا أن يسلبوهم ويبطشوا بهم كما فعلوا مع أهل جزين ، وقتلوا منهم نحو ثلاثين نسمة في بساتين صيدا ، فما قدروا عليهم كونهم تجندوا مع بعضهم ، وعلموا أنه ما عاد لهم معيشة كيفما توجهوا إلاّ بهذه الواسطة ، وبقوا تلك الليلة هناك ، ثم حضروا إلى بيروت وهم عراة من المال والأهلين بحالة يرثى لها هم وأهل جزين وتلك النواحي ، وأعرضوا كل ذلك إلى قناصل الدول ، فالقناصل والأديرة والتجار والأعيان الموجودة في بيروت وكلمن حركته الغيرة صار يقدم إلى كامل المنهوبين معاشاً ، كل بحسب امكانه باحسانات وافرة ويد سخية ، وقد توجهت الكتابات والتلغرافات إلى كامل جهات العالم فيما جرى من الفاحشة الذي ما سمع مثلها قط في سوريا .

ثم إن أهالي حاصبيا وراشيا والموجودين في تلك النواحي غب أن صابهم هذا المصاب من الاسلام والدروز وحرقوا أماكنهم بالنار ، توجهوا إلى

محروسة الشام وأقاموا بها مدة ، ثم في هذه المدة صارت حركة من الاسلام في الشام ، وقبل حدوثها صار الاستعداد من الفئتين : إسلام ونصارى ، فصارت النصارى تهرب خفية لما شاهدوا ما يحدث من الاسلام في حقهم ، واعرضوا إلى الحكومة ، ولم تستجب لهم بل كانت تطمنهم لهم وإلى القناصل ، وأما قونصل دولة فرنسا أخذ يشجع البعض ويستهم [يثير همة] الحكومة بالوقاية من وقوع هذا الحادث ، وكانت الحكومة قطعته ومنعت السفر لمن أرادوا من النصارى ومن كون زحلة كانت أخذت من الدروز وصار بها الحريق كما تقدم فصارت المسافرة على النصارى مستصعبة جداً لبعدهم عن أهل مذهبهم، ووجود الأعداء في الطرقات ، لكن قونصل دولة فرنسا قد استهم غيرة عبد القادر المغربي الذي كان قبلا مالكاً في المغرب ، وطرد من هناك ، وسكن الشام في أن يكون مستحضراً على المغاربة الموجودين هناك حتى إذا وقع هذا الحادث يوقوا النصارى من هذا البلاء ودفع له مالاً جزيلاً لكي يعيّن المغاربة ولو بالأجرة ؛ وأن يشتري لهم أسلحة بذلك ، وقد استلم القونصل المذكور مالاً من تجار النصارى على ذمة القونسلادية ، ودفعه إلى عبد القادر لاتمام هذه الغاية ، فالمغربي قد جمع اليه كامل المغاربة الموجودين في الشام ، وفرق عليهم الاسلحة والمال وأن يكونوا على حضرٍ متى وجدوا أدنى سبب يحضروا لديه، وكانوا بالعدد نحو مايتين وخمسين راجل، ومثله أهدى إلى بعض أوجه وأعيان البلدة .

وأما مشرب الحكومة في الوقت كان بخلاف ذلك وتريد ملاشاة النصارى، وصارت الحركة تزداد يوماً فيوماً والنصارى في خوفٍ عظيم ، وأما اليهود قد دفعوا مالاً عظيماً إلى أعيان الاسلام ، فأعطوهم الآمان على حالهم ومالهم ، ثم لم تفتر برهةً إلاّ وصارت الحركة العمومية وهجمت الاسلام على حارة النصارى ، وكان نهار الاثنين في غاية حزيران سنة ألف وثمانماية وستين مسيحية ، وأخذوا في النهب من البيوت ، وأحرقوا بيتين ثلاثة .

ثم إن الحكومة أرسلت عسكراً إلى حارة النصارى لأجل الوقاية ، ومعه مدافع ، وأقام في الوسط ، فارتجعت رجال الاسلام نوعاً ، ثم استرجع العسكر وهجمت الاسلام على حارة النصارى تلك النهار كله في النهب ، ثم ثاني يوم

الثلاثاء صار اضرام النار في حارة النصارى ، وقتل الذكور أيضاً ونهب الحريم وافتعال القبايح ، وبقي نهار الثلاثاء والاربعاء في القتل والنهب وفضح الحريم، وحرقوا حارة النصارى بأجمعها ، وأي من وجدوا قتلوه من دون شفقة ، ولا فرق سواء أعلم أم لا وحرقوا لأديرة الافرنج وغيره مع الكنايس والدور ويا لها من فاجعة لم ينظر مثلها قط ، والخبر ليس كالعيان ، لأنك كنت تشوف الرجال مطروحة على الأرض مثل الغنم ، والحريم عراة والأطفال تصرخ، والنار شاعلة والصريخ قايم من الجهات الأربع حتى أن الأم لم عادت تعرف بنيها ، وطلق البارود ، وضرب السيف وهدم البيوت شي لم يوصف ولم يخطر على قلب بشر ، إنما المخازن والدكاكين في المدينة لم يصبها مصيبة .

فعند ذلك أرسل عبد القادر رجاله المغاربة استحضر لعنده قونصل فرنسا ، وكلما يتبعه وأوقاهم عنده ، ومثله استحضر رهبان العازارية مع الراهبات وما عندهم من الصبيان والبنات ، وأرسل كامل المغاربة الموجودين افواجاً إلى حارة النصارى ، وأمرهم أن يستحضروا النصارى تحت الحفظ من دون أذية أو مضرة ما ، فكلمن حظي بيد المغاربة حفظ حياته ، والذي لا يقع يموت ، وكانت المغاربة باذلة جهدها باستخلاص النصارى ومثله بيت المهايني في حارة الميدان ، أوقوا النصارى في الميدان من دون مضرة ، وأوقوا بعضاً في البلد بقدر الامكان، وكانت النصارى بخوف عظيم ، منهم من وقع في الآبار ، فمنهم يخلصوه ومنهم يقتلوه ، وبقي الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام بالضرب والقتل والهدم والحريق وما ضاهى ، أخيراً اجتمعت النصارى مع حريمها وأطفالها الذين خلصوا من القتل حصروهم في القلعة ، ومنهم عند عبد القادر باشا المغاربة كونه حفظ وأوقى جمع غفير من النصارى ، بواسطة غيرته الوافرة ، وبعد أن صار ما صار في الشام واستحضروا النصارى إلى القلعة الذين بقيو ، صاروا يرسلوا لهم القوت حتى لا يموتوا ، وبقوا نحو خمسة عشر يوماً على هذا النوع ، وقيل انه قتل من الشام في هذه الحادثة نحو أربعة آلاف نسمة ، وسبوا جملة نساء وبنات ، وأما قونصل الانكليز أرسلت له الحكومة فرقة من العسكر لأجل وقايته ، وأما رهبان الفرنسيسكان قتلوا في

ديرهم مع من كان عندهم من النصارى ، وكان عدد الموجودين خمسة وثلاثين ذكر في ديرهم منهم عشرة قسوس ورهبان والباقي من أهل البلد .

ثم نرجع إلى جبل لبنان فانه بعد أن احترقت زحلة والبقاع وبلاد بعلبك ودير القمر وجزين وكـل تلك النواحي ، حيث صارت قومة عمومية ضـد النصارى والشام وحاصبيا وراشيا ؛ صارت معاهدات بأن الدول تحضر مع العسكر في البحر والدروز من نواحي المتن والمتاولة من ناحية الشرق في الجرد ويأتوا كسروان عندما عرفوا أن المتاولة والاسلام كانوا مع الدروز في زحلة ينهبوها وتغلبوا على النصارى الموجودة في بلاد بعلبك والبقاع وطردوهم من أماكنهم ، قاموا علـى المتاوله الموجودين في جبة المنيطرة ولاسـا وهاتيك النواحي ، وتغلبوا عليهم وطردوهم من أماكنهم ونهبوهم وقتلوا بعضاً منهم ، فحينئذ صارت هذه الرابطة بين الجميع حتى أن اسلام بيروت وطرابلوس هموا بأن يغيروا على النصارى كما صار في الشام ، ولكن حيث أن نصارى بيروت أكثر من اسلامها ، عدا ما هو موجود بها من الأغراب من دير القمر وجزين والشوف والمتن ، الذي يبلغ عدد وافر ، فما قدروا ان يصنعوا ما أرادوا ، وأما طرابلس والضنية حيث وجود شجعان زغرتا وبشري والزاوية ، كذلك لم يتجاسروا على اتمام مرغوبهم ، وبقوا مستنظرين ماذا يحدث ، ولهذا صارت القومة عمومية ، وأمـا أهالي كسروان صاروا خايفين ومتحفظين من هـذه الرابطة بقدر امكانهم ، وقبل اتمام هذا العمل على موجب المعاهدة المذكورة أعلاه ، كانت التلغرافات وصلت إلى أربابها وحضر في الابتداء فركاتا من قبل دولة روسيا ، إذ هم مهتمين على المسير ، حضرت إلى بيروت وكانت نحـو رابع ساعة من النهار مع أن المعاهدة كانت ان السـير يكون ثامن ساعـة ، والتأهب حاصل فعند وصول هذه الفركاتا الحربجية إلى بيروت حالاً أطلقت المدافع ، ونشرت علامات الغضب الشديد ، وأطلقت المدافع شبه نار الدايمة ، وراسلت الحكومة أنه اذا لم يصر الردع وإلا ترمى النار على بيروت وتهدمها ، فعند ذلك صار التوقف عن اتمام ما هو المقصود ، لينظر ماذا يكون ، ففـي الساعة العاشرة من النهار وصل أربع قطع فرنساوية مشحونة عساكر ، وما

يلزمهم من الزخاير والجباخانات واطلقوا المدافع شبه نار الدايمة في بيروت ، فعند ذلك هجعت الاعداء عن اتمام مآربهم ، ثم بعده وصل مراكب من كامل الدول الارباوية من كل مملكة قطعة واثنتان ، واطلقوا المدافع ، ثم حضر أيضاً قطع أيضاً من قبل الدولة الفرنساوية ، وبهم ستة آلاف عسكري متجهزة وخرجت إلى بيروت وأقامت في حرش السنوبر ، ومعها خيول في كلما يلزمها إلى مدة سنتين ، ثم وصل مراكب من قبل الدولة العثمانية ، وبهم كان صاحب الرأي الثاقب والفريد دولتلو فؤاد باشا ، المرسل من قبل الدولة لأجل تعويض وتخمين ما قد حصل ، الذي كان وزير الخارجية يومئذ ، وحالاً عند وصوله خمدت نار الاضطرام ، وأخذ يستعمل بموجب حكمته الفائقة حتى أنه أرضى وكلاء الدول الموجودة ، وقتل كـام واحد من الدروز وانفى نحـو خمسة وعشرين رجل من مناصب الدروز منهم جناب سعيد (الاصح : اسعد) بك تلحوق ، ومن بيت جمبلاط وأبي نكد ، وطلعت العساكر الفرنساوية إلى دير القمر ومعهم من رجال الانكليز ، وشاهدوا ما صار من هدم الاجسام والأموال وكان معهم جمهور من نصارى تلك الناحية ، وأما الدروز ففروا هاربين من أمامهم وكانوا يصطادوا البعض منهم ، وقتلوا منهم أناس .

وأخذ فؤاد باشا يلاطف الأمور بقدر الامكان من تعويض مال ومراضات خواطر ، حتى أنه أرضى الجميع ، وأخذ في عمار دير القمر من مال الدولة العلية ، وأعطى عوض المحروقات والمسلوبات أموالاً شتى ، وأخذ أموال من الدروز والاسلام مالاً جزيلاً ، ثم طلع عسكر الفرنساوي قسم إلى قب الياس وتوجه فؤاد باشا وبعض ضباط الفرنساوية إلى زحـلة والشام ، وشاهدوا ما صار وبحال وصول فؤاد باشا إلى الشام قتل الباشا الذي كان متولي البلد بوقت الحادثة ، حيث تأكد أنه هو كان السبب ، وقتل من أعيان البلد ما ينيف عن خمسين نفر ، وأخذ أموال كثيرة من الاسلام ، ودفع إلى النصارى قيمة

المسلوبات والمحروقات ، ورجع النصارى إلى أوطانهم ورضى العسكر الفرنساوي في كذا أعمال الذي كان حضر لأجل المدافعة عن النصارى بأي وجه كان ، ولو بافتتاح الحرب ، وكان حضوره برأي باقي الدول لأجل هذه الغاية ، فدولة فؤاد باشا أرضى الدول بهذا العمل ، وكذلك فرق الأموال على النصارى ، المنهوبين من جزين ودير القمر والشوف والمتن وزحلة والبقاع ، وبلاد بعلبك ، والشام ، وحاصبيا وراشيا ، وكامل الجهات .




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المُلْحَقُ الرَّابِعُ

منتخبات من رحلة

أَبِي ٱلْقَاسِمِ الزياني

وَلِقَائِهِ

لأحمد باشا الجزّار



رجوعنا :

لما كنا فيه من سفرنا من مدينة القلزم : ولما بلغنا جدة ، ونزلنا بساحل البحر في أبنيتنا ، وجهت واحداً من خدامي لوالي البلد بكتاب والي السويس الذي كتب له بسببنا ، فلما قرأه ، قال : وأين الشيخ ؟ قال : هوذا بالمرسى في خبائه ، فبعث خديمه أن ينزلنا بدار « القمرق » فأتاني خديمه فقلت : سلم لنا عليه ، وإني أردت السفر بكرة غد ولا يمكنني الاشتغال ، فقال يقول لك استاذنا : كم تحتاج من الابل ؟ فقلت : خمسة عشر وبغلة وفرساً ، فتوجه ولما غربت الشمس وجه لنا سفرة الطعام وفاكهة ودلاعا[1] وعنباً وشمعاً ، ولما فرغنا من الأكل توجه أصحابه بالأواني وبت في حفظ الله .

ولما أصبح قدم علينا للسلام وللوداع ومعه ابل للفلاحين وفرساً وحماراً مصرياً فقال : لم أجد بغلة كل ما في البلاد من البغال توجهوا للموسم وهذا فرسي وحمار القاضي فخـذ أيهما شئت ، فقلت : الحمار الذي هو للقاضي فضحك ، وكـان صاحب القاضي في الحاضرين ، فقلت لم ضحكت ، أعلـى الحمار أم على القاضي ، فزاد في الضحك وقال : والله على القاضي الذي ذهب حماره ، وقد وجه صاحبه ليرى ويسمع ، فقلت أين خديمه فقال : هو ذا ، فقلت له سلم منا على مولانا القاضي وقل له انما اخترت حمارك لاحج عليه واعتمر لعل الله أن يغفر له بسبب هذا الحمار وما يلحقه من تعب السفر ، فضحك الوالي أكثر مما كان ولم يقدر أن يملك نفسه وقال : يا سيدي انما أخذته منه لمكة فقط ويرجع اليه حماره، فقلت له : وكيف أصنع ومن لي بحمار قاض آخر بمكة ، واين أجد قاضياً عاصياً مثـل قاضيكم الذي تخلف عن الحج وأراد أن يمنع الحمار أيضاً ، وتوافقه أنت فغشي على الرجل من كثرة الضحك ، وكان هذا الوالي أديباً لطيفاً مشاركاً ، فقلت له ألم تسمع ما انشده الحمار بلسان الحال لما شهق وقال :

---

(١) اسم للبطيخ الاحمر « الجبس » في بلدان الشمال الافريقي .

أراد القاضـي حجـا وعمـرة ويقضي أركانا على القاضي واجبه ؟

فقال استرح واعلف ودعني فما أنا بمستطيع ولو سـار الناس قاطبة ؟

ولست مفـارقا لبيتـي وجدتـي واتـرك منصبي لمن أتى طالبـه ؟

فـلا آتـي مكـة وقدسـا وطيبة ولا ابتغي حجا ولا أنـا راغبـه ؟

فمن شـاء فليذهب فلست بذاهب ومن شاء فليغضب فلست أغاضبه ؟

فواعجبا من قاضي جـدة عاطـل من الحج ويقضي الحمار وحاربه ؟

فشاق الحمـار واستغاث وجاءنـا وقـال خذوني انني لست صاحبه ؟

فقال الوالي سألتك بالله يا سيدي « الا ما » أخذت فرسي معك إلى مكة ورد عليه الحمار ، وتركب من مكة على فرسي إلى أن ترجع من عرفات ويأتي به خديمة ، فقلت له انما اداعب القاضي واامازحه ولا أترك حماره يحج جبرا عليه ، ووقف معنا الوالي حتى حملنا وركبنا وودعنا وعين معنا من يأتي بالفرس والحمار اذا دخلنا مكة وبعد انفصالنا عنه لحقنا خديمه بعد ساعة بزاد لطيف وحلاوات من داره ، ورجع صاحب القاضي فأخبره بما دار من الكلام مع الوالي في شأن الحمار فقال : وددت أن الوالي وجه لي حتى أستمع لهذه النادرة وأشاهد هذا الشيخ اللطيف .

ولما دخلنا مكة شرفها الله ، نزلت أنا ورفيقي الذي ركب الفرس بباب المسجد ، ودفعت الفرس والحمار لصاحب الوالي وتوضأنا ودخلنا المسجد الحرام لطواف القدوم ، وخرجنا للسعي بين الصفا والمروة ، وكنت أوصيت الخدام أن يأتوا للصفاء ، فهناك انتظرهم ، ووجهت رفيقي أن يكتري لنا بيتاً وجلست انتظره فسلم على رجـل مغربي محرماً وسماني باسمي وكنيتي ، فقلت له : من أنت الذي عرفتني ولم أعرفك ؟

فقال : أنا ابن فلان الذي كنت ركبت من عندك من العرائش ، وانتسب لشريف بفاس ، فتذكرت أمره ، وكان اذ ذاك أمرد لا نبات بعارضه وصار شيبا ،فعرفني أنه مستوطن بمكة متزوج بها ، فقال : وما تنتظر ؟ فعرفته الخبر

فقال : عندي البيت ، قم بنا حتى تنظره ، فقمت معه وكان بيته قريباً منا ، ودخل بنا منزله فارغ الاسفل وفارغ الطبقة الوسطى وعياله بالعليـا ، فاستحسنت المحل ، ووجهته ينتظر الابل اذا قدمت للصفا يأتي بها ، ونزلنا بذلك البيت وآنسني بخبره واعتمدته فيما احتاج اليه ، وكلما حضر الغذاء والعشاء أناديه، وكان رجلاً زاهـداً متقشفاً يميـل إلـى طريق الصوفية وينتسب للصلاح ويعتقده الناس ، فلما أردت الشخوص لعرفة طلب مني أن يتوجه في صحبتي فانعمت له بذلك وأوصيته أن يكتري لنا ابلاً ومحمل خشب ، فقام لذلك وأتى بالابل للحمل وبمحمل الخشب لركوبي واياه ، وكان زميلي هو في ناحية وأنا في الأخرى ، وكان رجلاً طويلاً ضخماً كثير اللحم ، فرجح بي في الطريق ومال المحمل وحصلت لي منه مشقة لا أنساها ، وللجمل ولربه محنة كبيرة ، ولما بلغنا أرض عرفة ونزلنا ، غاب عني وما رأيته إلى أن رجعنا يوم الافاضة ، وكان يطوف على أمراء الحاج، المصري والشامي والعراقي والهندي والسندي واليمني « إذ » كان له وظيف منهم يقبضه في كل سنة ، وكانوا يعتقدونه ولما فرغ من عمله ، قدم علي بعد ثلاث فسألته عن حاله ، فذكر لي حاله ، وأن ما يحصل له من القوم هو رزق السنة .

ولما اجتمع مع أمير الحاج الشامي وهو أحمد باشا الجزار وسـأله عمن لقيه من طلبة المغرب ، ذكرني له ووصفني بما ليس في .

وكان هذا الجزار رجلاً أحمق ، يبحث عن أهل الحكمة وعلم الحدثان ، وكان يزعم أنه المهدي المنتظر ، ويصرح بذلك ، فقال له لا بد أن تجمعني بهذا الرجل ، فقال له لا يأتي معي وابلغه لناحيتك بحيلة ، فاذا رأيته قم اليه واعزمه لخيمتك ، فاتفقا على ذلك ، ولما قدم علي منى قال لي : (لم) جلوسك هنا ، قم لتتفرج في عجائب هذا الموسم وما اجتمع فيه من الخلق والمباني ، فشوقني لذلك وقمت معه فبلغنا مسجد منى ، ودخلته وصلينا به تحية المسجد ، وخرجنا من الباب الآخر فوجدنا قبباً ومضارباً عظيمة ، وفي وسطها « مشور »[1] كبير محمول على ثلاثة أعمدة ،يسع ألفاً من الخلق ، فمررنا مع الطريق إلى أن

---

(١) في لهجة المغرب الدارجة يطلق اسم المشور على الرحاب المحيط بالقصر الملكي وهو مأخوذ من تجمع الناس في انتظار المشاورة .

قابلنا المشور المذكور ، فسألته لمن هو ؟ فقال : أظنه لامير مصر ، فخرج منه رجل منفرد ، فقصدنا إلى أن أدركنا وسلم ، فوقفنا وسلمنا عليه فقال : حفظكم الله تشرفونا ببركتكم ودخولكم لمحلنا ، وقبض على يدي ومر بي وصاحبي على أثري إلى أن وقفنا بالباب ، فقام القوم الذين بـه تعظيماً لأميرهم ، وجلس وأجلسني بجنبه ، وقال للقوم : قوموا ليس وقته ، فأعاد علي السلام بالعربي وسألني عن اسمي وكنيتي وبلدي ، وعن سلطان المغرب وأخوته ، وعن والده الذي رحمه واثنى عليه وترحم ، وأول ما سألني عنه أن قال :

هل لك علم بالمهدي المنتظر ؟

• فقلت : لا ، وقد زعم كثير من الملوك الماضين ، وأدعى كل واحد منهم أنه المهدي ، ولم تصح دعواه وفي الحديث : ولا مهدي إلا عيسى بن مريم •

فقال : المهدي يظهر من غير شك ، وهذا زمنه فلا شك في ذلك يا شيخ ، فقلت : يمكن ذلك والعلم عند الله •

فقال لي : أرأيت ان عرفتك به وأقمت لك الحجة الظاهرة ، اتسلم ذلك ؟ قلت : نعم •

فقال : يا ولد ، فقال المماليك : « بيرن » يعني نعم وأسرعوا ، فتكلم مع أحدهم أن يأتيه بدفتر من الخزانة عينه له ، فأسرع وأتاه به ، فوجده غيره ، فرده وأتاه بآخر فلم يكن هو ، فقام بنفسه إلى الخزانة وأتـى بدفتر قديم تاريخه في تلك السنة ثلاثمائة سنة من يوم كتب ، فأراني تاريخه أولاً ، وبحث في وسطه إلى أن وقف على جدول موفق باسم الجلالة ، فقال لي أتعرف الحساب ؟

فقلت نعـم ؟

قال : والتوفيق ــ قلت نعم ؟

قال : فما عدد هذا الاسم ؟

قلت : كذا ، قال : حفظك الله ، فأمر المملوك أن يأتي بدواة وقرطاس فأتاه

بهما ، فمد لي القرطاس والقلم وقال : اقسم هذا الاسم سبعة سبعة ، وما فضل منه اثبته في القرطاس ، فقسمت وطرحت وما فضل أثبته ، فقال عد أبيات هذا الجدول سبعاً وكـل بيت سابع أثبت في القرطاس حرفه إلى أن كمل أبيات الجدول ، فقال بعده هذه الحروف الخارجة من الجدول كلمات ،فلما لفقتها كلمات خرج منها أحمد بن عبد الله الجزار المهدي المنتظر ، فقال : ما تقول يا شيخ في هذا ؟

فحينئذ علمت أنه الجزار أحمد باشا ، فقلت : يمكن ذلك ، فقال لي : أمكن وهذا هـو المهدي المنتظر الذي يملك المشرق والمغرب ويصل بلادك ويملكها ، فقلت له : ان شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز ، فالحمد لله الذي أسعدنا بالاجتماع معك وبمعرفتك ، وكنا نسمع أن المهدي يخرج بمكة ، وأصله عربي شريف ، فقال وأنا « كمان[1] » عربي شريف إلا أن سلفي نزلوا أرض بوشناق من بـلاد الترك واستوطنوها ، ولا بد لي من الظهور بمكـة ورجوعي للشام ، وأتوجه لمصر فأملكها ولافريقية كذلك ، وللجزائر كذلك ، فآخذ ما فيها من الأموال وأدخل بلاد المغرب وأبلغ وادي نول ، اتعرفه ؟ قلت أعرفه بالسماع لا بالمشاهدة ، وان عشت يا حبيبي فسترى هذا عياناً ، وكأنك شاك فيما طالعته في هذا الدفتر أسألك بالله إلاّ ما صادقتني واعربت لي عما في صدرك .

فقلت : يا مولانا سألت بعظيم ، وانك رجل تصدق الصحيح والسقيم . هذا الحساب الذي في الدفتر مستعمل ، فقال : كيف يكون مستعمل وهو أقدم من آبائي وأجدادي ، ومن لمستعمله بمعرفتي ومؤلفه في المائة الثامنة « وقدامته » تدل على صحته ، فأنى يكون لأحد القدرة على ذلك ؟

فقلت : الذي يستعمل في هذا التركيب ويستخرج هـذا العدد حتى يجتمع منها الاسم واللقب ، لا يعجز عن تدبير عمله في الأوراق القديمة والسفر القديم وعلاجها حتى تصير على ما رأيت .

---

(1) بلغة مصر وسورية الدارجة كمان : أيضاً .

فقال : هل في الوجود من يفعل مثل هذا ؟

فقلت : نعم وأكثر ، وإنما هذه حيل موضوعة مستعملة .

فقال : أريد من جلالك الوقوف على مثلها ، فقلت : إن شاء الله بعد الفراغ من مناسك الحج والعمرة والاجتماع بمكة ، فنهض مغتاظاً ، وأمر بفرس فأسرج ، وقال لخدامه : بلغوا الشيخ إلى محله ، فبلغت ورجعوا ومن الغد جاءني الخدام بالفرس ، وقالوا : إن استاذنا يدعوك ، فركبت إلى خيمته فوجدته في موضع نومه ، ومعه ثلاثة من وجوه الأتراك ، فلما رآني قام وقاموا وسلموا ، وأجلسني بحذائه وتكلم معهم بالتركي ظناً منه أني لا أفهمه ، وقال : هذا الشيخ من أهل المغرب ، وصاحب مولاي محمد صاحب المغرب ،سمعت منه كلاماً ما واجهني به أحد ، ضربني برأسه على أنفي ضربة تصدع لها جميع جوارحي ، وسرى ذلك الصداع إلى حواس اللمس والشم والذوق ، فحصل فيهم الفتور ، والتفت إليّ ، وقال : هل تدري ما قلت لهم ؟ قلت : لا ، فذكر لي مقالته وهو يضحك ، وقال : هؤلاء القوم من بلدي وبنو عم لي جاءوا للحج ولزيارتي ، ولم أرهم إلى الآن ، وأمر قيمه أن يأتي بطعام ، فجاء قيمه بسفرة فيها صحن واحد داخله طرف واحد من اللحم فوقه ثلاث ملوخيات(1) طوال مثل الأصابع ، ونصف رغيف من « الدرمك » الفائق وقال : يا أخي هذا حظك تركته لك لما جاء الغداء ولم تحضر ، قلت : إني أكلت ، فأقسم بالله أن آكل ، فأكلت طعاماً ما أكلت مثله أبداً ، وقال لي : هذا طبخ يدي ، والله ما آكل طعاماً مسته يد غيري ، لأني لا أثق بهؤلاء الخدام في حضر ولا سفر .

وحدثني بعجائب وقعت له من مماليكه ، وفي ذلك الموسم قتل سبعة من كتاب إيالته ظهرت فيهم خيانة في مال ، فصحبهم معه في الحج وتقرب بقتلهم وصلبهم ، وفي تلك السنة بعد رجوعه إلى المدينة المنورة قتل شيخ الحرم وصاحب الروضة المشرفة كبير عبيد الدار بعد أن أخذ منه مائة ألف محبوب ، والأخبار عنه في سفك الدماء متواترة ، وجوده وصدقاته ليست من أهل وقته

---

(1) يريد بذلك الباميا ، فهذا اسمها لدى المغاربة .

ولقد جلست معه في منى ثلاث مرات ، فشاهدت العجب ، لا يرد أحداً وقف أمامه غنياً أو فقيراً ، فإذا خرج ملأ جيبه ذهباً ويجلس للناس بمشوره المعد لجلوسه ، ويقف الناس أمامه ويدفع لكل واحد في يده الدينار والدينارين والثلاث ، إلى العشرة كل ورزقه ، هذا لمطلق الناس وعامتهم ، وأما خاصتهم فمن حضره منهم أحاله على الخزندار من العشرين إلى الخمسين إلى المائة ، والخزندار له اصطلاح معه كل مملوك أتاه برجل لا يذكرله العدد ولا يسمعه أحد منه، فكل مملوك من مماليكه له عدد كأنه اسمه، من العشرين إلى المائة ؟!

ولما رجع لمكة كنت أجتمع معه بالمسجد الحرام بعد العصر وخاطبني في المسير معه إلى الشام .

فقلت : لا يمكنني ذلك ، لأني تركت حوائجي وكتبي وذات يدي بمصر فقال : اذا استرحنا بالشام ، أوجهك في مركب لمصر .

فقلت في سفر البحر من الشام لمصر خطر من مراكب المالطية .

فقال أوجهك في البر مع جريدة من الخيل .

فقلت : لا يمكنني هذا ، فطلب مني الوعد في شأن الدفتر الذي زعمت أنه مستعمل وكنت سهرت الليالي حتى وضعت جدولاً فيه مائة بيت طولا ، ومائة عرضاً وفي كل بيت حرف من حروف المعجم ، فإذا قسم اسم الجلالة وطرحه سبعاً فما فضل من العدد يعده من أول بيوت الجدول ،فاذا وقف على البيت السابع يثبت في ورقة حرفه ، ويستمر مع الجدول يثبت كل حرف سابع إلى أن يأتي على آخر الجدول ويلفق الحروف كلمات .فخرج من هذا الجدول أحمد بن عبد الله الجزار هو المهدي المنتظر ، الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، بلده مكة ، ويخرج من مكة .

فجاء هذا الاستعمال أكثر مما عنده وأكمل في المحجة ، وأبلغ في البيان .

ثم إن الله تداركني بلطفه ، وألهمني رشدي ، وقلت هذا رجل أحمق ، كان يغوي الناس بجدول سباعي ينشأ عنـه كلمتين : أحمد الجزار المهدي

المنتظر ، فإذا مكنته من هذا الجدول العظيم الذي يخرج منه كلام كثير ، وبيان كبير ، كان اثم ذلك راجعاً إلي ، وخطاياه كلها منطبقة علي .

ثم اني اجتمعت يوماً بالشيخ البركة الحجة الذي يزعم أهل مكة أنـه القطب ، بقصد زيارته والتبرك به ، وهو الشيخ جعفر الهندي ، فلما جلست بين يديه كاشفني بما في ضميري ، وصرح لي بما أضمرت وقال لي : لا بد لك من الرجوع للمغرب ، وتخلف ما ضاع لك قبل وصولك إليه ، ولا بد لك من الخدمة مع السلطان سليمان ، فقلت له : يا سيدي إنما خرجت من المغرب بقصد المقام بالحرمين ، ولما نهب العرب ما كان معي رفعت أمري لله ولك ، فقال : لم يقسم لك في هذه البلاد ، لا بد لك من رجوعك إلى ما قدر لك ، فانك تقع في شدة نفسية ، وشدة مالية ، وتسلم فيهما ، وترجع إلى المغرب كما خرجت منـه غنياً ، وتخدم سلطانه هذا مدة ، ثم ينكبك ويخلـي سبيلك ، فأوصيك بالمسلمين ، وإياك ونهب أموالهم وسفك دمائهم ، فإن فعلت نجوت ، وأوصيك أن لا ترافق الجزار للشـام ولا تعنـه على معصيـة الله واسـع فيما فيه رضى الله يرضي عنك خلقه ، قم في حفظ الله محروساً بعناية الله ، فودعته وانصرفت لبيتي مزمعاً على عدم ملاقاة الجزار ، ولما عزم على السفر وجه لي رسوله يقول : إن استاذي يسلم عليك ويقول لـك اذا ورد عليك صاحبنا بالمدينة فادفع له بالدفتر، فقلت له : إن شاء الله، ودفع لي ورقة فيها اسم الرجل ولم أنل منه إلا ما يثيبني الله عليه على عدم تمكينه من ذلك الجدول ، فأقمنا بمكة بعد سفره إلى أن تهيأ الركب المصري فقدمنا معه للمدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ووقفنا على تربته المشرفة المطهرة المقدسة، وطفنا على آثاره وأماكنه ومواقفه وأماكن أهل بيته وأزواجه أمهات المؤمنين وقضيت وطر الزيارة ، فجاءني رجل شامي الأصل ، مستقر بالمدينة فقال : طلبتك منذ ثلاثة أيام ولم أجد من يخبرني عنك إلا الشيخ زكرياء المدني .

فسألته ما الخبر ؟

فقال : كتاب « وحق »[1] فيه ساعة تركه عندي له أحمد باشا الجزار ، وقال هذه ساعة الشيخ نسيها عندي في الخيمة ، وإياك ثم إياك أن تتراخى في البحث عنه والاجتماع به وتبعث لي خط يده واصلاً لمكة فهذه الرسالة ، وهذا الحق مغلفاً في أطلس مطبوع عليه ، فلم أشك أنها ساعة ، فلما توجهت للخباء فتحت الكتاب وقرأته فإذا هو يقول : لا بد أن تمكن حامله من الجواب ، فإن كمل تدفعه للحامل وان لم يكمل فمن مصر ، ولم يذكر الساعة ، فلما أزلت الغلاف وفتحت حق اللولب وجدت فيه ثلاثمائة بندقي « بولوزه »[1] فأكثرت من حمد الله على رزقه ، وعلمت أن ذلك بسبب زهدي في ذات يده وقلة طمعي فيما لديه ، وأن الله أثابني على تأخيري لذلك وعدم تمكيني إياه لمن يقوى به الخلق ، فالحمد لله على سلوك السبيل الأقوم ، ومن الغد كتبت للرجل جواب الكتاب ووصول الساعة فاشتريت من المدينة جاريتين حبشيتين ، واشترى صاحبنا واحدة خلصتها له إلى مصر ، وارتحلت من المدينة[2] ....

---

(١) حق ـ حك في لغة المغرب الدارجة وحتى لدى المشارقة : علبة أو وعاء .

(٢) نشر كتاب الترجمانه الكبرى في المحمدية ـ المغرب ـ عام ١٩٦٧ ، محققاً من قبل الاستاذ عبد الكريم الفيلالي ، ورغم ما بذله المحقق من جهود ، فان التشويه الم بالنص المطبوع وجاء على شكل أخطاء في القراءة وتصحيفات لا عد لها ، مع حواشي طويلة لا ضرورة لها ولا قيمة ، وقد اعتمدت على هذا النص المطبوع ومنه اقتبست ما جاء بين الصفحات ٢٥٥ ـ ٢٦٣ ، فحذفت بعض الاستطرادات وآثرت حذف جميع الحواشي التي لا فائدة منها .


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهارس




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهـــارس الأعـــلام العامـــة

حـرف الألف

حـرف البـاء

حـرف التـاء

حـرف الجيـم

حـرف الحــاء

حــرف الخـــاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حـرف الضــاد

حـرف الطــاء

حرف الظاء

حرف العين

حــرف الغـــين

حــرف الفـــاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حـرف النـــون

حــرف الهـــاء

حـرف الــواو

حـرف اليـاء


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الموضوعات


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



يقدم هذا الكتاب سرداً وثائقياً لحوادث سوريه ولبنان في عصر الجزار، وبشير الشهابي، وبشير جنبلاط، وشبلي العريان، ويوسف كرم، وخطار العماد، وإسماعيل الأطرش، وإبراهيم باشا وغيرهم من رجالات القرنين الماضيين، ونكتشف في ثنايا رواياته كيف تحولت الصراعات المحلية في لبنان وسوريه من الواقع الاجتماعي، والحزبية القبلية الإقطاعية إلى الطائفية الدينية.

يتناول هذ [illegible]
روايات تاريخي [illegible]
والطوائف عن مذابح [illegible]م.

الناشر